مصر المملوكية

(1517/ 923 – 1250/ 658)

قراءة جديدة

مصر المملوكية

(1517/923 - 1250/658)

قراءة جديدة

د. هاني حمزة

الطبعة الأولى/ ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م

دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥

www.elainpublishing.com

الغلاف للفنان: حلمي التوني

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٤٤٨/ ٢٠١١

I.S.B.N: 978 - 977 - 490 - 134 - 5

مصر المملوكية

(1250/658 - 1517/923)

قراءة جديدة

الكتاب الأول

د. هاني حمزة

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

حمزة، هاني

مصر المملوكية: (٦٥٨/ ١٢٥٠ - ٩٢٣/١٥١٧): قراءة جديدة/ هاني حمزة.

دار العين للنشر: الإسكندرية، ٢٠١٢

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١٣٤ ٥

١- مصر - تاريخ - عصر المماليك (٦٥٨/ ١٢٥٠ - ٩٢٣/١٥١٧)

أ- العنوان

٩٥٣,٠٨٢

رقم الإيداع/ ١٦٤٤٨ / ٢٠١١

المحتويات

الفصل الأول: الأصول التاريخية 13

1 – عن الرق في الإسلام 13
2 – الرق العسكري 15
3 – التجربه الأولى: سامرّاء المعتصم مدينة الأتراك 19
4 – التجربة الثانية: الصالح نجم الدين أيوب، والبحرية 22

الفصل الثاني: الحيّزْ المكاني – القاهرة حاضرة المماليك 25

1 – العمارة شواهد تاريخية 25
2 – المكنون التعبيري للتطور المعماري لمدينة القاهرة 29
3 – الفاطميون ومدينة القاهرة 32
4 – القاهرة الأيوبية 39

الفصل الثالث: المغول الإعصار القادم من الشرق 43

1 – جنكيز خان، والاجتياح الأوّل.................................... 43
2 – هوُلاكو خان، والاجتياح الثاني.................................... 46
3 – سقوط بغداد، والقضاء على الخلافة العباسية.................... 47
4 – المغول وغزو الشّام.................................... 48

الفصل الرابع: المماليك المصرية – التكوين والشتات 53
1 – من جزيرة الروضة إلى قلعة الجبل – سنوات التكوين 53
2 – المرحلة الانتقالية – شتات البحرية........................... 55

الفصل الخامس: المجتمع المصري المملوكي 61
1 – المجتمع المصري: مماليك، لكن مصريون.......................... 61
2 – من هو المملوك؟ 68

الفصل السادس: المؤسّسات المملوكية 73
أولًا : السلطنة: "المُلك عقيم" الحكم لا يُورَّث 73
ثانيًا : المؤسّسة العسكرية 83
ثالثًا : الإدارة المدنية 95
رابعًا : القضاء والوظائف الدينية 98

الفصل السابع: المؤسسات المملوكية الموازية 103
أولًا : الخلافة 103
ثانيًا : الإقطاع 107
ثالثًا : الأوقاف... 109

الفصل الثامن: نهاية الشتات – حماة الإسلام – قطز والبحرية 117
1 – نهاية شتات البحرية 117
2 – المواجهة الأولى : عين جالوت 119
3 – مصرع قطز 122

الفصل التاسع: الآباء المؤسّسون (1) ركن الدين بيبرس البندقداري 125
1 – الشرعية وبناء الدولة 126
2 – التحديات الخارجية، وسياسة بيبرس 131
3 – الفتوحات الركنية 134
4 – الدولة الركنية 143

5 – المنشآت المعمارية 145
6 – وفاة بيبرس 148

الفصل العاشر: الآباء المؤسّسون (2) المنصور سيف الدين قلاوون 153

1 – أبناء بيبرس: الملك السعيد بركة شاه، والصالح سلامش 153
2 – المنصور قلاوون 156
3 – عودة المغول إلى الشام – معركة حمص الكبرى 157
4 – الفتوحات السيفية 165
5 – السلف مثل الخلف – الامتداد 169
6 – منشآت المنصور المعمارية 172

الفصل الحادي عشر: السلالة القلاوونية (1) الأشرف خليل، ونهاية الحروب الصليبية 177

1 – الأشرف خليل 177
2 – سقوط عكّا آخر المعاقل الصليبية 179
3 – بداية اضطهاد الأقباط في الدولة المملوكية 183

الفصل الثاني عشر: السلالة القلاوونية (2) الناصر محمد– كتبغا– لاجين – بيبرس الجاشنكير 187

1 – سلطنة الناصر محمد الأولى 187
2 – العادل كتبغا 188
3 – المنصور لاجين 192
4 – سلطنة الناصر محمد الثانية، وعودة المغول وهزيمتهم 195
5 – المظفّر بيبرس الجاشنكير – المُلك عقيم 210

الفصل الثالث عشر: السلالة القلاوونية (3) سلطنة الناصر محمد الثالثة 215

1 – العودة –الانتقام– الاستقرار 215
2 – الغزو المغولي الأخير، ونهاية المواجهة 216
3 – الاسترخاء العسكري 218
4 – سياسة الناصر الخارجية 224

5 – الرخاء – السياسة الإقتصادية، والروك الناصري 227
6 – الأزمات الداخلية 235
7 – نهاية دولة الناصر الثالثة 238
8 – المنشآت المعمارية........ 239

الفصل الرابع عشر: السلالة القلاوونية (4) الناصر حسن وإخوته السبع 243

1 – أمراء الناصر محمد الكبار عند وفاته 243
2 – صراع الأمراء 247
3 – المنصور أبو بكر الاختيار الأخير 248
4 – الأشرف كجك – السلطان الطفل 250
5 – الناصر أحمد – السلطان غريب الأطوار 253
6 – الصالح إسماعيل – السلطان المريض 255
7 – الكامل شعبان– السلطان الماجن 258
8 – المظفرّ حاجي – السلطان السفاح 261
9 – الناصر حسن – الفناء العظيم، أو الموت الأسود 264
10 – الصالح صالح – محنة الأقباط الأخيرة 267
11 – الناصر حسن مرة أخرى – لعنة أولاد الناس 276
12 – الأعمال المعمارية خلال حقبة الناصر حسن، وإخوته 280

الفصل الخامس عشر: السلالة القلاوونية (5) الجيل الرابع والنهاية 285

1 – المنصور محمد بن المظفر حاجي – السلطان اللاهي 285
2 – الأشرف شعبان بن الأمجد حسين – محنة الإسكندرية 286
3 – المنصور علي بن الأشرف شعبان – بداية النهاية 295
4 – الصالح حاجي – آخر السلالة القلاوونية 299
الاختصارات 301
المراجع العربية 303
المراجع الأجنبية 306
سلاطين المماليك 309

المقدمة

لست كاتبًا ولكني باحث وقارئ في المقام الأول كتاباتي محدودة لا تخرج عن نطاق الأطروحات الأكاديمية أو الأبحاث المنشورة في الدوريات العالمية المتخصصة في الدراسات المملوكية أو الإسلامية الموجهة للقارئ المتخصص. هذا العمل هو قراءة نقدية جديدة لتاريخ مصر المملوكية منذ بدايتها الصاخبة في عام 658/ 1260 إلى نهايتها الدرامية في عام 923/ 1517 على يد الأتراك العثمانيين لتتحول مصر مرة أخرى إلى إقليم تابع بعد أن كانت دولة كبرى مستقلة. والكتاب موجه بشكل رئيسي إلى القارئ غير المتخصص والراغب في التعرف إلى تاريخ مصر في تلك المرحلة الحاسمة ولذلك تفاديت الحواشي والتعليقات المعتادة في العمل الأكاديمي وأكتفيت بالإشارة إلى مراجعي الرئيسية في داخل المتن لمن يرغب في التوسع في موضوع أو آخر.

بدأت بتعريف القارئ بالخلفيات التاريخية لنشأة النظام المصري المملوكى القائم على الرق العسكري والمقارنة بالأنظمة المماثلة خارج مصر كذلك تطور الحيز المكاني لحاضرة الدولة وهي مدينة القاهرة. ثم الظروف السياسية في الداخل والدولية في الخارج التي واكبت النشأة وسنوات التكوين. بعد هذا قمت بعرض المجتمع المصري المملوكي ثم المؤسسات المملوكية العسكرية والإدارية والقضائية والدينية وتنظيماتها المختلفة. ثم بدأت في السرد التاريخي للأحداث والتحديات الخارجية والصراعات الداخلية مع رصد للمواجهات العسكرية العديدة وتطور الدولة والمجتمع.

حاولت قدر طاقتي تجنب الخطاب القومي والالتزام بالموضوعية التاريخية في حدود رؤيتي. ولكني أول من يشعر بقصور هذا العمل من أوجه متعددة ليس أقلها التركيز على الصفوة الاجتماعية لأنها كانت قاطرة التطور وعدم تتبع القطاعات الشعبية. كذلك التركيز

على الجزء المصري والقاهرة لأنهما قلب الدولة ومسرح الأحداث الكبرى مع عدم إلقاء الضوء الكافي على القسم الآخر الحيوي من تاريخ المصر المملوكية في سوريا الكبرى.بمدنها الشام (دمشق) وحلب والقدس وحمص وحماه والكرك وغيرها.

دفعني إلى هذا الرغبة في إخراج مصنف عن مصر المملوكية في غلاف واحد شامل. وهو عمل لابد أن يكون قاصرًا حيث أن كلٍّ من موضوعاته تحتاج إلى سفر خاص. فالمكتبات العربية والعالمية غنية بالدراسات المملوكية المتخصصة لكنها تكاد تكون خالية من مصنف واحد غير موسوعي ولكنه جامع شامل للقارئ غير المتخصص.

في اعتقادي أن تاريخ مصر المملوكية حاليًا يعاني من تشويه وسوء فهم شديدين –سواء عن قصد أو دون قصد– حيث درج الكثيرون على اعتباره عصر تخلف واستبداد وسيطرة أجنبية على مقدرات الشعب المصري. وذلك بخلط الأوراق وتطبيق معايير هذا العصر على ما هو كان سائدًا منذ ثمانية قرون. في هذا تجاهل كبير للمفاهيم المتغيرة مثل مفهوم الوطن والمواطنة ومبادئ الديمقراطية والتوريث وتبادل السلطة والعداله الاجتماعية والمساواة في الحقوق مما تطرقنا إليه داخل هذا المتن كلّ في موضعه.

بمقاييس القوة العسكرية والمكانة الدولية والقوة الاقتصادية والدولة المؤسسية والحراك الاجتماعي ورعاية المواطنين والتميز الفني والحضاري– بالنسبة إلى معايير عصرهم – لكانت مصر في تلك الحقبة في أعلى درجات تطورها منذ الفتح الإسلامي حتى يومنا هذا. فمصر المملوكية كانت قوة عسكرية عالمية تمكنت من دحر المغول أكبر إمبراطورية توسعية عرفها التاريخ وهزيمة التحالف الأوروبي الصليبي وطردهم نهائيًا من الشرق الإسلامي. لهذا حازت مكانة دولية رفيعة وتهافتت دول العالم المعروفة في هذا الوقت إلى خطب ودّها وكسب صداقتها. وبالطبع هذا لايتأتى إلا في ظل قاعدة اقتصادية قوية سواء بالإنتاج الداخلي أو عن طريق التجارة الدولية. ولتنفيذ هذه السياسات أقيمت مؤسسات عسكرية وإدارية وقضائية شديدة التنظيم وتتميز بالاستمرارية. واتسم المجتمع المملوكي بالاستقرار والحراك الاجتماعي – في حدود مفاهيم عصرهم – فلم تحتكر الثروة والجاه عائلات إقطاعية كما هو الحال في الغرب الأوروبي. فالنظام المملوكي يرفض التوريث وهو مفتوح لكل من له قدرة وتميز بغض النظر عن نسبه أو حسبه أو أصوله العرقية. أما رعاية المواطن والاهتمام به تمثّل أثناء الأزمات الاقتصادية وفترة انتشار الأوبئة في الإجراءات التي تتخذها السلطات

لحماية الضعفاء والفقراء. كذلك تتمثل هذه الرعاية في المنشآت الاجتماعية والدينية والتعليمية والصحية العديدة التي أنشأتها الصفوة للطبقات الشعبية فلم تعرف مصر المملوكية أي ثورات شعبية.

أخيرًا فإن جواهر الفن والعمارة المملوكية التي وصلت إلينا والقاهرة الإسلامية لهي خير شاهد على هذا التفوق الفني والحضاري لتلك الحقبة. لهذا فقد آن الأوان لشباب وشيوخ مؤرخينا البدء في حركة مراجعة تاريخية لتلك الحقبة من تاريخ مصر الإسلامية.

البراجيل، أبريل 2011

الفصل الأول

الأصول التاريخية

1 - عن الرّق في الإسلام:

الرق كمؤسسة، ونظام مُباح في الإسلام كما في غيرها من الأديان السماوية. فاليهودية تبيح الاسترقاق لمدة سبع سنوات، ويمكن تجديدها بموافقة العبد كما أنّ المسيحية أباحت الرّق أيضًا، وإن كانت جميعها وضعت قيودًا للاسترقاق أهمّها حسن المعاملة.

كان الرق مُباحًا أيضًا في الجاهلية قبل الإسلام، وفى الغالب كان الأرقّاء من السود الأحباش مثل: عنترة بن شداد، وكان من أبٍ بدوي، وأم جارية حبشية. كذلك بلال مؤذّن الإسلام الأول. و لم يقتصر الرّق على الأحباش في الجاهليّة فقط، بل شمل أيضًا العرب الذين تمّ أسرهم في الحروب العديدة بين القبائل العربية مثل زيد بن حارثة مولى رسول الله، وكانت أمّه من طيء، وأسرت (سُبت) هي وابنها، وبيعا في سوق عكاظ إلى ابن أخت خديجة زوجة الرسول الذي أهداه إليها، فوهبته رسول الله الذي أعتقه، وأصبح ربيبًا آخر له مثل علي بن أبي طالب (أحمد أمين، فجر الإسلام، 121) والشريعة الإسلامية، وإن لم تُحرّم الرق فقد اعتبرته من الأعمال المكروهة وقيّدته، و لم تجز استرقاق المسلم، ولا غير المسلم في حالة دفع الجزية، وشدّدت على ضرورة حسن المعاملة، وجعلت العتق من أكثر أعمال الخير المحبّبة،

وجعلتها كفّارة لكثير من الخطايا مثل القتل الخطأ، والحنث باليمين، وغيره بهدف القضاء على هذه المؤسّسة البغيضة بصورة تدريجية. والإسلام لم ينظر إلى الرقيق نظرة استعلائية، بل حثّ على المساواة بين الحر والعبد في كثير من شئون الحياة المعيشية مثل المأكل والمعاملة، وإن كان لم يساوِ بين الحرّ والعبد من الناحية القانونية إلاّ بعد العتق.

الرقيق من الرّجال والنساء في الإسلام كانوا من أجناس شتىّ بيضًا وسودًا وصفرًا، أتراكًا، وصقالبة، ورومًا ومغولاً، وزنجًا وغيرها. بصرف النظر عن اللّون والجنس، فقد كانوا في الغالب من الرّق المنزلي وهم الذين يقومون بأعمال الخدمة المنزلية من الرجال، والذين كانوا يقومون بتدبير الأمور المنزلية والإشراف عليها، وبعضهم كانوا خصيًا، ويُعرفون بالطواشية، أو الأغوات لخدمة الحريم. وآخرون عليهم تدبير الأعمال الخارجية من تجارة، وإشراف على الأملاك. أما النّساء فكنَّ بالإضافة إلى قيامهنَّ بالأعمال المنزلية كالعناية بالأطفال، والطهي وأعمال النظافة، فقد كنَّ مصدرًا للمتعة الحسّية لمالكهنّ بالترفيه عنه بالغناء، والرقص، والعلاقة الجنسية بالنّسة للرجال، بل ولإنجاب الأطفال. والأطفال الناتجون عن هذه العلاقة لهم نفس حقوق أولاد الأمّهات الأحرار بما فيها حق الخلافة في المُلك، فالخليفة العباسى عبد الله المأمون بن هارون الرشيد (813/198 – 833/218) كانت أمّه جارية فارسية اسمها مراجل، وأخوه الخليفة أبو إسحاق المعتصم (833/218 – 842/227) أمّه أيضًا كانت جارية اسمها ماردة (الطبرى، تاريخ، 8: 360).

الطائفة الثانية هم الرّق العسكري، وكانوا بداية الحرس الخاص لأصحاب الدولة وذوي النفوذ، ثم تطور بعد هذا، ليصبحوا القوّة الضاربة الأساسية للدولة الإسلامية كما سيلي شرحه في هذا الفصل. ولا تتوافر لدينا أية معلومات عن استعمال الرق في الزراعة، أو الصناعة، أو الأعمال الشاقّة إلا في حالات قليلة. فمثلاً حاول الخلفاء العباسيون استعمال الرقيق المجلوب من شرق أفريقيا في النِّصف الثاني من القرن التاسع الميلادي في تجفيف المستنقعات، واستزراع بعض أراضي جنوب العراق بمحصول القصب، وفشلت التجربة، وأدّت إلى ما يُعرف بثورة الزنّج، واستمرت لمدة زهاء خمسة عشر عامًا من 868/254 إلى 269–883 والتي لم يتمكن العباسيون من إخمادها إلا بشقّ الأنفس (*The Cambridge History of Islam*, 1A: 129; Brunschvig, *EI*[2], 1: 33) وكانت من أسباب بداية انهيارها.

في أحيان أخرى قامت الدولة باستعمال الرقيق من أسرى الحرب في مشروعات التشييد الضخمة، مثل ما قام به بهاء الدين قراقوش الأيوبى (في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي) عند بناء قلعة القاهرة وأسوارها، واستعمل الكثير من الأسرى الصليبيين في الدولة الأيوبية بمصر القاهرة.

هناك اختلاف جوهري بين مؤسّسة الرق في الإسلام، أو سابقتها في الدولة الرومانية، أو لاحقتها في الدول الغربية المسيحية التي تميزت بالقسوة في المعاملة، والنظرة الاستعلائية، والتفرقة العنصرية والقانونية للرقيق، فبالإضافة إلى غياب النظرة الاستعلائية، والمساواة النسبية -كما ذكرنا- فإنّ الرقيق رجالاً ونساءًا في الإسلام يُعتبرون امتدادًا للعائلة، وكانوا في كثيرٍ من الأحيان أقرب للوالد من ولده وارتبط الرقيق بأسيادهم بصفة الولاء حتى بعد عتقهم. وأبناء الجواري والسراري من مالكيهنَّ أحرار لهم نفس حقوق الأولاد الشرعيين من ورث وخلافة، والسرية من الجواري لا يجوز بيعها، أو إهداؤها في حالة إنجابها طفلاً في فراش مالكها (تسمَّى أم ولد)، وتُعتق عند وفاته. لم يمنع لون البشرة أو النشأة في الرق من تحصيل الثروة والنفوذ، بل والوصول إلى منِصّة الحكم نفسها، ولعلّ أبرز هذه الأمثلة كافور الإخشيدي الذي حكم مصر كدولة مستقلة بحنكة ونجاح باهر زهاء خمس سنوات في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي.

لا شكّ أنّ النظرة الاستعلائية، أو سوء معاملة الرقيق كان موجودًا في الإسلام؛ ولكن في حالاتٍ نادرة مكروهة، ومُنكرة من المجتمع والشريعة. هيّأت تلك الظروف السّمحة والمناخ الدّيني والاجتماعي والقانوني والاقتصادي لاندماج الرّق في شتّى مظاهر الحياة، حتى تطورت إلى أنهّم أصبحوا الصّفوة في المجتمع المصري في مفارقةٍ غريبة، وكانت البداية هي الرّق العسكري.

2 – الرق العسكري:

عُرِف هذا النّوع من الرق في قطاع ضيق في الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية، وقد تطور بعد دخول الأتراك إلى الإسلامً. من المعروف أنّ في بداية ظهور الإسلام كان العرب والفرس يمثلان الجنسين الرئيسيين، وفي البداية شكّل العرب القوة العسكرية الرئيسية.

فالدافع الرئيسي للقبائل العربية في الجاهلية قبل الإسلام كان هو السّطو والغنائم، وأُضيف إليه وازعٌ دينّي إسلامي بعد هذا، والذي مكّنها من تلك الانتصارات الكبيرة والسريعة على الفرس والروم – القوتين العظمتين في بداية القرن السابع الميلادي.

مع اتساع الدّولة وغناها، واستقرار القبائل العربية في أنحائها أصبحوا هم طبقة الصّفوة ذات الثروة، وقلّت فيهم النزعة البدوية، وخمدت الرغبة في الغزو والمحاربة. والفرس هم مجتمع زراعي مستقر وغير محارب بطبعه، فكان لابد من وجود أجناس أخرى ذات طبيعة محاربة؛ للزود عن دار الإسلام، بل والعمل على اتساعها. قامت أولاً قبائل البربر في شمال أفريقيا بهذه المهمّة، وخصوصًا في الأندلس. وقام الأتراك بعد تحولهم إلى الإسلام بهذه المهمة في قلب العالم الإسلامي وهو مصر، وسوريا، والعراق، وإيران، وآسيا الصغرى. وقد قام ابن خلدون بتفسير هذه الظاهرة بأنّ الدول تَهْرُم كالإنسان، ففي البداية يشترك الجميع في السعي لتأسيس مجد الدولة وعزها على أن يستفيد الجميع من هذا الرخاء، ويبذلون حياتهم لأجله، ثم ينفرد البعض بالمجد والرخاء، ويستأثر بالمُلك فينشأ جيل جديد يأخذ أجرًا من السلطان الذي يستأثر بعوائد الدولة، فيبخلون بحياتهم مقابل هذا الأجر فتقلّ الحمية، ويذهب البأس من الدولة، وتتفشّى الرفاهية، والدعة، والترف، وتنضب الموارد المالية، ويبتعد المجتمع عن البداوة والخشونة ويدخل في طور الهرم، حتى يصبحوا في حاجة إلى حامية أخرى من الخارج وهذا – طبقًا لابن خلدون– سبب الاستعانة بالأتراك، فيقول:

"وربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارًا وشيعة من غير جلدتهم ممّن تعودوا الخشونة، فيتخذهم جندًا فيكونوا أصبر على الحرب، وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف، ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره. هذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق، فإنّ غالب جندها من الموالي من الترك. فتتّخذ ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين إليهم فرسانًا وجندًا، فيكونوا أجرأ على الحرب، وأصبر على الشّظف من أبناء الملوك الذين كانوا قبلهم، وربوا في ماء النعيم والسلطان وظلّه" (ابن خلدون، المقدمة، 2: 542 –545).

ولما كانت قبائل البربر في أطراف الدولة الإسلامية، كما أنّها كانت محدودة في العدد، كذلك الأجناس الأخرى مثل الزنج السودان أو البيض الصقالبة اللاتي شكلن جزءًا ضئيلاً من ظاهرة الرق العسكري، فسوف نقتصر على مناقشة الرق العسكري بين الأتراك، وهم

الجنس الغالب فيها والأساس العرقي لها. والمماليك المصرية تعتبر ذروة تطور ظاهرة الرق العسكري في الإسلام.

بداية فنحن نعني بالأتراك هؤلاء المنتمين إلى الجنس التركي بأعراقه المختلفة القاطنة في براري آسيا الوسطي شمال بلاد ما وراء النهر من بحر الخزر (الأرال) إلى غرب الصّين، وبراري المناطق الجنوبية الأسيو– أوروبية شمال بحر قزوين. لا يشمل هذا منطقة آسيا الصغرى الدولة التركية الوحيدة في العصر الحديث بعد انهيار الدولة العثمانية، وقبل انهيار الاتحاد السوفيتي. وذلك لأنّ استيطان آسيا الصغرى، والأناضول (ما يُعرف الآن بالجمهورية التركية) بالأجناس التركية والتركمانية بدأ في عصرٍ متأخّرٍ نسبيًا بعد معركة مانزكيرت الحاسمة في أقصى شرق تركيا عام 1071، والتي انتصرت فيها الجيوش السلجوقية الإسلامية بقيادة السلطان ألب أرسلان (455–1062/ 465–1072) انتصارًا حاسمًا على الجيوش البيزنطية، وفيها أُسِر الإمبراطور البيزنطي، وتحطّمت القوة الضاربة للإمبراطورية الرومانية البيزنطية، وأصبحت آسيا الصغرى مفتوحة تمامًا لهجرة القبائل التركية والتركمانية، واستيطانها حتى تم الاستيلاء عليها بالكامل خلال المائة عام التالية. الأدبيات الإسلامية في العصور الوسطى تُسمِّي سكان تلك المنطقة بالروم، تمييزًا لهم عن الأتراك في سائر البلاد الإسلامية.

تم فتح بلاد ما وراء النهر في القرن الأول الهجري، وهي الأراضي الواقعة شمالي نهر الأوكسوس (سيحون) وهي الآن الجمهوريات الإسلامية الخمس السوفيتية سابقًا. وبذلك أصبحت دار الإسلام ملاصقة لبراري آسيا الصغرى، وللقبائل التركية بجنوب سيبيريا، وكانت هذه القبائل ملاحدة أو شامانية، ويتميز أفرادها بالرعوية ومعظمهم رُحّل لا يستقرون في مكانٍ ما، ويتميزون بالقوة والقدرة على التحمّل، والمهارة في ركوب الخيل، والاستعداد الطبيعي لاكتساب المهارات القتالية المعروفة في ذلك العصر.

وبدأت العلاقة التفاعلية بين أفراد تلك القبائل ودار الإسلام جنوبًا، مما أدّى إلى دخول جنس جديد – إلى جانب العرب والفرس – حيث أصبحت دار الإسلام قوة جاذبة لتلك القبائل، فدخلت أفواجًا إلى الإسلام لتجديد دمائه، والحفاظ على أرضه وحضارته، وحمايته من الشيخوخة –كما أوضح ابن خلدون– سابقًا. هذا العلاقة التفاعلية تطورت في نمطين؛ النمط الأول – وهو ما يهمّنا هنا نظرًا لكونه أساس تكوين المماليك المصرية الذي كان على شكل جلب أعداد من تلك القبائل التركية غير المسلمة، وبعناصرها المختلفة بصفةٍ فردية

إلى دار الإسلام في إيران والعراق ومصر عن طريق تجار الرقيق - كرق للبيع في أسواقها، وعُرِف الذكور منهم بـالمماليك تفرقة لهم عن الرقيق من الأجناس الأخرى. وهذه الفئة هي التي شكّلت القاعدة الأساسية للرق العسكري، ولا ندري على وجه الدقة طبيعة هذه التجارة، ولكن كان في غالبها الأعمّ سِلمية، وبالتراضي نظرًا لطبيعة تلك البراري القاسية، وعدم توافر موارد طبيعية فدفع هذا الواقع الاقتصادي كثيرًا من الآباء إلى مفارقة أبنائهم بالبيع، والتراضي لعالم الرّق، نظرًا لما ينتظر هؤلاء الرقيق من مستقبل أفضل في دار الإسلام، وأوطانهم المكتسبة. كانت ولا تزال تلك الظاهرة مُحيرة، نظرًا لمخالفتها لطبيعة البشر، والارتباط الفطري بين الأهل والأبناء، ولا شكّ أيضًا أنّ هناك حالات من الإجبار والخطف في اقتناء الرق، ولكنها كانت محدودة للغاية ولا نعلم عنها الكثير. وعلى نفس المِنوال وفى نفس تلك الحدود الطبيعية، فقد هاجر الكثير من الأتراك الأحرار، بل ومن الصّفوة إلى دار الإسلام، ودخلوا في خدمة الجيوش الإسلامية بمحض إرادتهم.

النمط الثاني وهو الهجرة الجماعية، أو تدفّق قبائل بأكملها عبر بلاد ما وراء النهر إلى دار الإسلام، واعتناقها الدين الإسلامي بمحض إرادتها. تلك القبائل من شتّى عناصرها الأتراك والتركمان استوطنت أجزاءً من دار الإسلام في البداية في إيران، ولكن الطبع العشائري والقبائلي غير المنضبط، لهم والمخالف لطبائع السكان الأصليين خلق حالة من الفوضى، وعدم الاستقرار مما دفع السلطان السلجوقي إلى توجيه حركة الهجرة إلى خارج دار الإسلام في آسيا الصغرى. هذه القبائل لم تتحوّل إلى الإسلام عن طريق الغزو أو القهر، ولكن عن طريق الدعوة في نهاية القرن التاسع الميلادي. ويعود الفضل في ذلك إلى الدولة السامانية، ومؤسسها نصر الأول السّاماني (261–874 / 279–892). وهو من عائلة فارسية أصلها من بلدة سامان بالقرب من بلخ شرقيّ خراسان أصلهم من الكهنة المجوس، وتحولوا إلى الإسلام السنّي، واستغلوا فترة ضعف الخلافة العباسية في بغداد بعد أزمة الأمين والمأمون (انتهت بتولية المأمون الخلافة في 198 /813) للاستقلال بمناطق شرق فارس، وما وراء النهر، وكانت عاصمتهم في بخارى.

وقد قاموا بالدعوة إلى الإسلام السنّي في مناطق شمال بلاد ما وراء النهر، ممّا أدّى إلى تحوّل سلمي للإسلام لكثير من تلك القبائل. وقد سهّل تحولهم للإسلام أيضًا عدم اعتناقهم أيّ دينٍ سماوي، أو لبعض الأديان الشمانية البسيطة المرتبطة أساسًا بالظواهر الطبيعية.

.(*The Cambridge History of Islam*, 1A: 144 - 46)

3- التجربة الأولى: سامراء المعتصم- مدينة الجند الأتراك

وهي التجربة الأولى للوجود العسكري التركي في الشرق الإسلامي بشكلٍ جماعي، فقد بات جليًّا خلال أزمة الأمين والمأمون الحاجة إلى قوة عسكرية مخلصة، ومضمونة الولاء. فقام أبو إسحاق المتوكل بن هارون الرشيد، والأخ الأصغر للخليفة المأمون قبل تولّيه الخلافة بتكوين قوة عسكرية مكوّنة أساسًا من أربعة آلاف من الأجناد الأتراك. أخذت هذه القوة في الاتساع خلال تولية المتوكل الخلافة من 813/218 إلى 842/227 حتى وصل عددهم طبقًا لياقوت الحموي إلى سبعين ألف (ياقوت، معجم البلدان، 3: 174) كما تشير بعض الدراسات الحديثة مستندة إلى حفائر مدينة سامراء بالعراق إلى أنّ عددهم يصل إلى مائة وستين ألف (Johns, *Oxford Studies*, XIV, 183) وهذا رقم افتراضي مُبالغ فيه. والمصادر المعاصرة المتوافرة لا تذكر الكثير عن أصول هؤلاء الجند الأتراك، أو بلادهم الأصلية، أو كيفية وصولهم إلى العراق.

ويبدو لي أنّ الغالبية العظمي من أفراد هذه القوة كانت من العبيد المشتراة، حيث إنّ الطبري المتوفّى في 923/310 يشير إليهم بأنهم غِلمان المتوكل، والغلام مُسمَّىً آخر للعبد. (الطبري، تاريخ، 9: 15) وكما يشير إليهم ياقوت الحموي بأنّهم مماليك المعتصم الأتراك، ويشير إلى بعضهم بأنه مولاه أي عتيقة (ياقوت، معجم البلدان، 3: 174) ولما ضاقت شوارع بغداد بهم، و لم يتحمّلهم أهلها اضطر الخليفة المعتصم إلى نقلهم خارج بغداد إلى مدينةٍ جديدة قام بتأسيسها شمال بغداد على نهر دجلة، وأسماها سرّ من رأى أي سامراء عام 836/221.

ويذكر الطبري في تاريخه:

"إنّ سبب خروج المعتصم إلى القاطول (موضع سامراء) كان أنّ غِلمانه الأتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً قي أرباضها (أي بغداد)، وذلك أنهّم كانوا عُجمًا جفاة يركبون الدواب، فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها، فيصدمون الرجل والمرأة ويطؤون الصبي، فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم، ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم، فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم، وتأذتّ بهم العامة فذكر أنّه رأى المعتصم راكبًا منصرفًا من المصلّى في يوم عيد الأضحى، أو الفطر فلما صار في مربعة الحرشي، نظر إلى شيخ قد قام إليه، فقال له: يا أبا إسحاق، قال: فابتدره الجند ليضربوه،

فأشار إليهم المعتصم، فكفّهم عنه، فقال للشيخ: مالك: قال: لا جزاك الله عن الجوار خيرًا جاورتنا، وجئت بهؤلاء العُلوج (جمع عِلج وهو الهمجي، وقد أطَلق هذا الوصف الوزير العراقي الصحاف على الجنود الأمريكيين إبان غزو بغداد عام 2003) فأسكنتهم بين أظهرنا، فيتمت بهم صبياننا، ورمَّلت بهم نساءنا، وقتلت بهم رجالنا والمعتصم يسمع ذلك كلّه. قال: ثمّ دخل داره فلم يرَ راكبًا إلى السنة القابلة في مثل هذا اليوم، فلمّا كان في العام المقبل في مثل ذلك اليوم، فصلّى بالناس العيد، ثم لم يرجع إلى منزله ببغداد، ولكّنه صرف وجه دابته إلى ناحية القاطول، وخرج من بغداد، ولم يرجع إليها" (الطبري، تاريخ، 9: 18).

ويذكر ياقوت في معجم البلدان نفس المعنى تقريبًا –أي أنّ المعتصم خرج بجنوده إلى مدينته الجديدة سامرّاء قرب بغداد، خوفًا عليهم، وحماية لأهل بغداد. من الوصف السابق فإنّ الصدام مع أهل بغداد كان مع من سُمُّوا عُجمًا جفاة، وعلوج وكانوا يمثلون الطبقة السفلى من العسكر التركي، وغالبهم من المماليك المشترين من آسيا الوسطى. وتشير الدراسات الحديثة أنّ قادة هؤلاء العسكر، وإن كانوا من الجنس التركي أيضًا – ولكنّهم ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة ومتميزة. وهؤلاء القادة ينتمون إلى عائلات من الصّفوة التركية في خراسان الشرقية، وبلاد ما وراء النهر. والمجموعة الأخرى تتكون من عتقاء المعتصم قبل تولّيه الخلافة في بغداد، وهو الذي أغدق عليهم الأملاك والأموال، والوظائف العليا في الدولة (Gordon, *Oxford Studies,* XIV, 125–130). بدايةً كانت تلك الوحدات بمثابة الحرس الشخصي للخليفة، ولكن بعد انتقالها إلى سامراء، والزيادة الكبيرة في أعدادها أصبحت هي القوة العسكرية الرئيسية للدولة العباسية، واشتركت في الحملات العسكرية الخارجية، وخصوصًا ضد الدولة البيزنطية. ولعلّ أبرزها كانت قيامها بالدور الأساسي في فتح عمورية في آسيا الصغرى عام 224 / 883 – 884 (الطبري، تاريخ، 9: 57 – 71).

بعد وفاة المعتصم استمر نفوذ الأتراك داخل عاصمة الخلافة في سامراء إبان خلافة ابنيه هارون الواثق والمتوكل (اعتقل بمؤامرة القوادالأتراك في 861/247)، وقويت شوكتهم، وأقاموا وخلعوا الخلفاء على هواهم حتى أنّ في فترة العشر سنوات التالية لاغتيال المتوكل تولّى الخلافة أربعة أمراء قُتل منهم ثلاثة بواسطة الأتراك، وهم المنتصر والمعتز والمستعين، وكانت فترة فوضى وارتباك، واستبذاذ للأموال بواسطة الأتراك حتى عادت الخلافة مرة أخرى إلى بغداد في عهد الخليفة المعتمد في 892/278، وظلّ نفوذ الأتراك كما هو.

وبدون الدخول في تفاصيل أحداث تلك الحقبة نشير إلى أنّه قد جرت العادة على استخلاف أحد أفراد الأتراك على حكم مصر، وعادة ما كان هؤلاء الأتراك لا يرغبون في مغادرة سامراء، فيرسلون نُوابًا عنهم لحكم مصر. أحد هؤلاء الأمراء الأتراك استناب أحمد بن طولون وهو تركي الأصل أبوه طولون من الرقيق الأتراك من إحدى قبائل آسيا الوسطي حمله عامل بخارى وخراسان إلى المأمون، فاستخدمه وأعتقه، وأحسن تعليم ابنه أحمد حتى اختص به أمراء الأتراك، وأنابه باكباك المتقلّد حكم مصر عام 254 /868 خليفة (نائبًا) عنه لحكم مصر (البلوى، سيره أحمد بن طولون، 35 – 42) حتى استقلّ بها تمامًا، وصكّ العملة باسمه إلى جانب الخليفة ووُلّي العهد في عام 882/268 وأصبحت مصر في عهده دولة شبه مستقلة للمرة الأولى منذ الفتح الإسلامي، وإن لم تكن الأخيرة.

خلاصة القول إنّه للمرة الأولى يسيطر الأتراك على الدولة الإسلامية، وتصبح السلطة السياسية في أيديهم. وهناك وجه تشابه بين ما حدث في العراق، وفي مصر المملوكية مع بعض الاختلافات أهمها هو علاقة الأتراك مع الخلفاء. بلا شك سيطر الأتراك على الكثير من الخلفاء، وتلاعبوا بهم –كما أوضحنا–، ولكن كان هناك صراع دائم بينهم. ففي بعض الأحيان تمكّن الخلفاء مثل المتوكل وغيره من الاستقلال برأيهم، بل والسيطرة على الصفوة التركية وإقصاء أقطابهم ومصادرة أملاكهم، فكان الأتراك في حاجة دائمة إلى الخلفاء. أمّا الخلفاء العباسيون بالقاهرة، فكانوا أُلعوبة في يد المماليك المصرية بشكل كامل، وكانوا مهمّشين وليس لهم قوة حقيقية، أو ثروة، أو نفوذ يُذكر، ورضخوا تمامًا للأمر الواقع. هناك أسباب عديدة لذلك ربّما أبرزها القوة الروحية للخلافة في بغداد، وعدم شعبية أتراك سامراء، بل كره الأهالي لهم بعكس المماليك المصرية الذين بذلوا جهدًا كبيرًا لاكتساب حبّ الشعب لهم كما سنرى لاحقًا.

الاختلاف الآخر يكمن في أنّ صفوة سامراء التركية اعتمدت إلى حد كبير على أبنائها، وبذلت جهدًا ملحوظًا في توريثهم السّلطة والثروة. أما المماليك المصرية فقد اعتمدوا بشكل شبه كامل على الجيل الأول ممّن مسّهم الرق من المماليك، وكان التوريث غير معروف وفي أضيق الحدود.

كما أنّ السلطة الدنيوية المدنية كانت بالكامل في يد السلطان المملوكي وإن استمدّها اسمًا فقط من الخلفاء، وكانت مصادر الثروة مقسّمة ومحدّدة بشكلٍ قاطع وواضح عكس

أتراك سامراء، فجاءت مؤسسات الدولة مخالفة تمامًا في مصر عنها في العراق. وأخيرًا، فإن المماليك المصرية تصدّوا للدفاع عن الأمة الإسلامية بأنفسهم ممّا أكسبهم الشرعية. أما أتراك سامراء فباستثناء حصار عمورية – وكان المعتصم هو المحرّك الأساسي لهم – لم يكن لهم دور في أيّ حروب خارجية، وإن شاركوا في قمع الفتن الداخلية وأهمها ثورة الزنج في جنوب العراق. إذن فمصر المملوكية كانت تجربة جديدة، وفريدة لا أرى بينها وبين سامراء علاقة. ولكن بالطبع مصر المملوكية لم تنشأ من فراغ، وتأثرت بالأنظمة الإسلامية السابقة لها في مصر، وأجزاء أخرى من العالم الإسلامي.

4 – التجربة الثانية: الصالح نجم الدين أيوب والبحرية

توفى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي في دمشق في صفر 1293/589عن عمر سبعة وخمسين عامًا، ودُفن أولاً بقلعة دمشق، ثم نُقل إلى تربة خاصة به قرب الجامع الأموي في محرم 1205/602 وأنجب من الأولاد سبعة عشر ذكرًا، وأنثى واحدة زوّجها إلى ابن عمّها الملك الكامل محمد بن العادل أبو بكر. امتدت الأملاك الأيوبية إلى مصر وسوريا، وبعض مناطق الجزيرة وجنوب الأناضول واليمن. قبل وفاة الناصر صلاح الدين، كان قد قام بتوزيع أملاكه على أولاده، فاستقر في ملك الديار المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان، ودمشق وتوابعها أكبر أبنائه الملك الأفضل نور الدين علي، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي، وبالكرك وعدة بلاد أخرى أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، وباقي أملاك صلاح الدين كانت من نصيب أقاربه من أبناء أخيه، أو عمّه أسد الدين شيركوه (أبو الفدا، المختصر، 3، 107 – 110) وأصبح الملك الأفضل أكبر أبنائه هو السلطان، وإن لم يكن له نفوذ أو شخصية أبيه.

أثمرت جهود الناصر صلاح الدين وحروبه المتواصله المعروفة بالفتوحات الصلاحية عن استرداد القدس، والكثير من الأملاك الصليبية باستثناء المدن الساحلية مثل: عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس وإنطاكية، والشريط الساحلي الضيق الملاصق لهم.

بغياب صلاح الدين – مؤسس الدولة ورجلها القوي، وعدم وجود شخصية قوية مثله من أبنائه تحولت الدولة إلى شبه اتحاد كونفيدرالي مُكوّن من إمارات عديدة شبه مستقلة لا يجمعها إلاّ الانتماء إلى العائلة الأيوبية، تدين بالولاء الأسمي إلى كبير تلك العائلة، والذي

كان غالبًا السلطان بالقاهرة. بغياب سلطة مركزية قوية دخلت تلك الإمارات في صراع مستمر، وخلافاتٍ وقتية بين أفراد البيت الأيوبي بعضهم ببعض، أو بالتحالف مع بارونات وحكام الإمارات الصليبية، وذلك خلال الفترة التي أعقبت وفاة الناصر صلاح الدين في 1193/589 حتى نهاية الدولة الأيوبية في 1250/648. تكونت الدولة الأيوبية من ست إمارات شبه مستقلة في مصر ودمشق وحمص وحماه وحلب والجزيرة، ولكلّ إمارة توابعها من المناطق المحيطة بها.

تميزت تلك الفترة بالإضافة إلى النزاعات المستمرة بين العائلة الأيوبية بالتعاون التجاري مع الإمارات الصليبية، والدخول معهم في تحالفات عديدة، وبذلك تمكّن الصليبيون من استعادة معظم الأملاك التي فقدوها في الحروب الصلاحية. حتى أنّ الملك الكامل محمد أعاد مدينة القدس -بعد تدمير أسوارها- إلى الملك فردريك الثاني (الإمبراطور الروماني المقدس وحاكم صقلية) في 1229/626 حتى استعادها الملك الصالح نجم الدين أيوب بمساعدة المقاتلين الخوارزم الفارّين من المغول في عام 1244/642 بعد معركة غزة، والتي هُزم فيها الصليبيون والمتحالفون معهم من أمراء البيت الأيوبي مثل الصالح إسماعيل صاحب دمشق. (المقريزي، السلوك، 1: 316 - 317؛ أبو الفدا، المختصر، 3: 209) وكانت تلك الموقعة، وعودة القدس للمسلمين السبب المباشر لحملة لويس التاسع الصليبية على دمياط بعدها بأعوام قليلة. ولن ندخل في تفاصيل تلك الصراعات، والتكتّلات التي أدّت في النهاية إلى تكونُ كيانين منفصلين داخل العائلة الأيوبية. الأوّل يتكون من مصر وفلسطين ودمشق تحت قيادة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، والآخر في شمال سوريا ومركزه حلب، وعلى رأسه أحد أحفاد الناصر صلاح الدين، وأسمه أيضًا الناصر صلاح الدين يوسف، وكانت مصر وتوابعها تحت قيادة الصالح نجم الدين أكثر مركزية عن تلك في شمال سوريا.

الملك الصالح نجم الدين أيوب هو الابن الأكبر للملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر ملّكه أبوه في حياته ديار بكر وحصن كيفا في جنوب الأناضول، وولّى أخاه الأصغر العادل أبا بكر (الصغير) مصر وتوابعها. عند وفاة الكامل محمد تسلطن العادل الصغير في أواخر عام 1238/635 فلم يقبل الصالح نجم الدين سلطنة أخيه الأصغر، وخرج عليه في ديار بكر، واستولى على دمشق؛ ولكنّه لم ينجح وقُبض عليه، وسُجن في الكرك بواسطة ابن عمّه الناصر داوود، والذي رفض تسليمه إلى الملك العادل الصغير. ظل الصالح محبوسًا لمدة سبعة أشهر

مع جاريته شجرة الدر، وبعض خواصه من المماليك منهم بيبرس البندقداري –وهو ليس سمية السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، وكان الأخير أصغر منه (ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، 4: 322) – عانى خلالها محنًا وشدائد، ثم أطلقه الناصر داوود، فتوجه إلى مصر حيث تمكّن من عزل أخيه العادل الصغير، وتسلطن بدلاً منه في ذي الحجة سنة 1240/637 وقبض على السلطان العادل، وأقامه في الحبس حتى خُنق بعد تسع سنوات قبل وفاة أخيه الصالح بعدّة أشهر (أبو الفدا، المختصر، 3: 202؛ المقريزي، السلوك، 1: 293 – 296).

كان الصالح نجم الدين معروفًا بشغفه بالبناء فاستولى على جزيرة الروضة، وكانت منتزهًا به حدائق ودور ومساجد وقصور، فهدمها جميعًا، وبنى قلعة الروضة (638 – 1240) واستمرّ البناء بها لمدة ثلاث سنوات أنفق عليها أموالاً طائلة، وبنى بها الدور والقصور والأسوار والحدائق كذلك عمل بها ستين برجًا. انتقل إليها الصالح هو وأعوانه ومماليكه، والذين بلغ عددهم حوالي ألف مملوك (المقريزي، الخطط، 2: 183) وقد اندثرت تلك القلعة والدور والقصور بالكامل الآن. خلال سنوات حكم الصالح نجم الدين كثرت الحروب والمواجهات مع أعدائه من أفراد العائلة الأيوبية بسوريا الشمالية، كما انقلب عليه حلفاؤه من الخوازرم (المقريزي، السلوك، 1: 322 – 323) ولذلك أكثر الصالح أيوب من شراء المماليك، وأغلبهم من الأتراك، وكوّن منهم فرقة البحرية، وكانت هي نواة الدولة المملوكية، وسمّوا بالبحرية نظرًا لمقر إقامتهم في جزيرة الروضة.

أنشا الصالح أيضًا المدرسة الصالحية (أثر 38، 641 – 48 / 1243 – 1250) لتدريس المذاهب الأربعة السنية الشافعية، والمالكية، والحنفية، والحنبلية (الكثير من أجزائها الداخلية اندثرت) والوظيفة الأساسية للمدرسة هي التدريس، ولكن تُستعمل أيضًا كمسجد، وتقام بها صلاة الجمعة أحيانًا. ربما أنشئت المدارس في العصر الفاطمي طبقًا للمصادر التاريخية، ولكنّها اندثرت جميعها و لم يبق لنا أيّ منها. وقد استقرّ المقريزي في خططه على أنّ الناصر صلاح الدين هو أول من أدخل المدارس إلى مصر، وذلك لتدريس المذاهب السنية لمحاربة الدعوة الشيعية بعد إسقاطه للخلافة الفاطمية بمصر، وأولها كانت المدرسة الناصرية، وتتابع إنشاء المدارس في العصر الأيوبي حتى بلغت أربعًا وعشرين مدرسة في نهايته، لتدريس المذهب الشافعي وغيره أو الحديث (أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، 2: 49 – 55) وقد اندثرت جميعًا إلاّ بقايا مدرسة الحديث الكاملية (أثر 428، 622 /1225) والصالحية هذه هي الأولى من نوعها في مصر من ناحية تدريس المذاهب الأربعة.

الفصل الثاني

الحيّز المكاني – القاهرة حاضرة المماليك

1 – العمارة شواهد تاريخية:

لا يسع المؤرخ الاستغناء عن مصادره الأساسية المعاصرة للفترة التي يؤرّخ بها من كتبٍ، أو مخطوطات، أو وثائق، وهي التي تشكّل حجر الزاوية لأيّ بحثٍ أصيل. تجيء الفنون كمصدرٍ أصيلٍ آخر، حيث إنّها انعكاس مادي لطبيعة تلك الفترة التي تنتمي إليها. والعمارة واحدة من أكثر الفنون، وأقواها تأثيرًا في مجال التأريخ، وذلك لأنّنا قد نختلف أحيانًا حول المصدر الجغرافي أو الحقبة التاريخية لبعض المقتنيات الفنية المنقولة من زجاج، أو خزف، أو عاج، أو سجاجيد، أو خلافه، أمّا العمائر فهي رابضة لا تتحرّك كشاهد ودليل على عصرها.

دراسة الفنون عمومًا والعمارة خصوصًا تنحصر في الغالب في ثلاث دوائر متشابكة، ومؤثرة في بعضها البعض. الدائرة الأولى هي المادّية العملية Utilitraian وهي التي تحدّد استعمالات المنشأة Function، وأنشطتها المختلفة من حيث إنّها منشأ عام إداري، أو منزلي، أو دور عبادة، أو لتقديم خدمات اجتماعية، أو تعليمية، أو اقتصادية وغيره. بالطبع فإنّ هذا يملي الدائرة الثانية وهي الشكل من زاويتيه العمليتين كالتخطيط، واختيار العناصر المعمارية، لتحقيق الأغراض التي أقيمت من أجلها المنشأة والأغراض الأخرى من زخارف

ونقوش وألوان، لإشباع النواحي الروحية، ولمواءمة المثل الجمالية السائدة في تلك الفترة.

هناك دائرة ثالثة لا تقلّ أهمية وإن أهملت في الكثير من الدراسات المعمارية، وهي المكنون التعبيري، وأقصد بها هنا الفكرة والرسالة التي يرغب المنشئ - سواء كان فردًا أو جماعة أو دولة - من إعلانها والتعبير عنها. وتلك الرسالة في الغالب تُفصح عن الدور الذي يراه المنشئ لنفسه في هذه الحياة، والصورة الذاتية التي يرغب في الإعلان عنها في تلك الفترة وذلك المجتمع. هذه الصورة قد تكون روحية أي كرمزٍ ديني، أو اجتماعي، أو سياسي، أو مادية كتعبيرٍ عن القوة، والغنى، والسلطة.

والمكنون التعبيري في العمل المعماري قد يظهر بصورة مباشرة على شكلٍ مادي كالضخامة والعلو، والفخامة والإسراف في الزخارف المعقدة، أو بالنصوص الكتابية الواضحة. أو يظهر بشكل غير مباشر بغياب بعض أو جميع ما سبق ذكره للإعلان عن البساطة. وأخيرًا قد يظهر هذا المكنون بالرمز والإيحاء، والإشارات الطقسية المختلفة. وبالطبع فإنّ هذه الدوائر الثلاث محكومة بالقوانين، والشرائع السائدة، وبالإمكانيات المادية والتقنية المتاحة في هذا العصر (Humpherys, *Expressive Intent*, 69-119).

منهجنا هنا سوف ينحى نحو الاستدلال بالعمارة في داخل السياق التاريخي بقراءة المكنون التعبيري، لفهم الصورة التي يعتقدها المنشئ عن نفسه، والتي يرغب بالإعلان عنها وعن الدور الذي خططه لنفسه داخل هذا المجتمع. لما كانت مصر المملوكية هي موضوع هذه الدراسة وهي غنية بآثارها المعمارية، والتي ولا شكّ سوف تلقي كثيرًا من الضوء على نظرتنا إلى تلك الحقبة. الآثار التي سوف نناقشها سوف تقتصر على المنشآت العامّة الدينية، والاجتماعية، والتعليمية، والإدارية، والتجارية ومعظمها متداخل في العمارة الإسلامية بمصر. ولن نعرض للعمارة السكنية، أو العسكرية إلاّ بشكلٍ عابر لعدة أسباب أهمّها: أنّ ما وصل إلينا من العصر المملوكي وقبله قليل، وحدث عليها تغييرات كبيرة بحيث يصعب علينا استنتاج أحكام عامة، والدراسات الحديثة عنها محدودة.

المنشآت المعمارية في العالم الإسلامي ومنها مصر لها أنماط متعددة، طبقًا للغرض منها، ولكلّ نمط منها تخطيط يناسب هذا الغرض وبالطبع لن نناقش هذه الأنواع بالتفصيل، ولكن سوف نذكر أهمّها. المنشأة الأساسية ونواة معظم المدن الإسلامية هي المسجد الجامع الذي تُقام به صلاة الجمعة وهو غالبًا ضخم لاستيعاب أهل هذه المدينة. والتخطيط الغالب عليه

(ولكن ليس الوحيد) هو صحن مركزي مُحاط بأربعة أروقة أعمقها رواق القبلة (الرواق في العمارة الدينية مسطح مسقّف محمول على أعمدة أو دعامات، ويختلف عن معناه في العمارة السكنية وهناك يعني مسكن).

المدرسة: وهي منشأة تعليمية بالأساس، وتُستعمل أيضًا أحيانًا لصلاة الجمعة والخطبة. والتخطيط الغالب عليها – وأيضًا ليس الوحيد – هو التخطيط المتعامد، ويتكوّن من صحن سماوي مفتوح، أو مسقوف يحيط به إيوان أو أكثر بصورةٍ متعامدة (الإيوان هو وحدة معمارية مربعة أو مستطيلة مسقوفة يحيط به ثلاثة حوائط، والناحية الرابعة مفتوحة على الصحن) وهذه الإيوانات تستعمل كقاعة، لإلقاء الدروس، أو للصلاة أو غيرها من الشعائر، والمدرسة تتميز بأنّ لها ملحق سكني بمنافعه، لإقامة الطلبة أو المعلّمين والعاملين بهذه المنشأة.

الخانقاه: هي مُنشأة لإيواء الصوفية والمنقطعين للعبادة، وممارسة الذّكر والحضور، وغيرها من الشعائر الصوفية. وتخطيطها مُشابه للمدرسة إلى حد كبير، ويمكن تمييزها غالبًا بالنص التأسيسي أو وثيقة الوقف الخاص بها، كما أنها غالبًا ما تكون قليلة الزخارف، ويغلب عليها البساطة لتتناسب مع الممارسات الصوفية.

الزاوية: هي منشأة صغيرة بسيطة التخطيط غالبًا على شكل مكعّب يعلوه قبة يقيم فيها شيخ من شيوخ الطرق الصوفية، لممارسة شعائر الصوفية كالذكر والحضور والإجتماع بمريديه وأتباعه من الصوفية.

الرباط: في الأصل هو منشأة عسكرية في الثغور أي حدود دار الإسلام يرابط بها المجاهدون، للتعبد، والجهاد في سبيل الله، ويربطون بها الخيل لمواجهة الأعداء من خارج دار الإسلام أي دار الحرب. غير أنّ هذا المعنى تغيّر في العصر المملوكي، وأصبح الرباط منشأة اجتماعية خيرية كملاجىء للفقراء المسلمين، أو العبيد العتقاء، وخصوصًا النساء منهم، للإقامة بها لعدم وجود منازل لهم، وليس لها تخطيط تقليدي معروف أو محدّد.

السبيل: هو منشأة خيرية لتوزيع المياه على المارين بصورةٍ مجانية. ونظرًا لوقوع مدينة القاهرة بعيدًا عن نهر النيل، والتكلفة العالية لنقل المياه إليه بالجِمال، فكان السّبيل من أكثر منشآتها عددًا سواء كجزءٍ من مجمع، أو بصورةٍ منفصلة. وتخطيط السبيل غالبًا على شكل

حجرة مربّعة، أو مستطيلة فوق صهريج أرضي، لتخزين المياه وبها شبابيك تطل على الشارع الرئيسي لتوزيع المياه. وقد يلحق بها منافع لإقامة عامل توزيع المياه، والمعروف بالمزملاتي وغرفة لخزين أدوات السبيل.

الكتّاب: منشأة خيرية أخرى، لتعليم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن للطلبة الصغار غالبًا من الأيتام حتى سن البلوغ وهي غالبًا على شكل غرفة مربعه أو مستطيله مفتوحة بها شبابيك للتهوية، وكثيرًا ما تعلو السبيل. ويقوم بمهمّة التعليم شيخ أو فقيه له مساعد يُسمَّى العريف.

التربة: وهي منشأة متعدّدة الأغراض غالبًا تقع خارج المدينة، وقد تكون داخلها أيضًا، والغرض الأساسي منها الدفن لمنشئها وعائلته غالبًا تحت قبة جنائزية، ويلحق بها أجزاء أخرى للأعمال الخيرية كالتدريس، أو توزيع المياه وجزء سكنى، لإقامة القاطنين بها أو أصحابها والمستفيدين منها. يغلب على تخطيطها وجود حوش سماوي مفتوح يحيط به أجزاء التربة المختلفة وسور بمدخل، ويُستعمل الحوش في الدفن كذلك توجد بها في الغالب إيوانات خاصة، لدفن أصحابها، وأقاربهم، وأتباعهم من الرجال والنساء.

المشهد: في الأصل منشأة أُقيمت فوق ضريح أحد من أهل البيت من سلالة الرسول، ثم أصبح يُقام أيضًا فوق ضريح أحد أولياء الله الصالحين، أو أحد أئمة الفقه. وتخطيط المشهد غالبًا مربع به الضريح يعلوه قبة، أو صحن يؤدّي إلى رواق مسقوف، أو إيوان به الضريح.

المنشآت ذات الطابع السكني والتجاري تشمل الرّبع وهو مجموعة من الوحدات السكنية قد تعلو حوانيت وبها مداخل خاصة بها، لإقامة الأفراد وعائلاتهم وهي غالبًا مُتعدّدة الأدوار. الخان أو الوكالة هو منشأة تجارية، لتبادل البضائع وبها حواصل (مخازن)، وتخطيطها يغلب عليه وجود صحن يحيط به حواصل ومخازن بالدور الأرضي لخزين البضائع يعلوها وحدات سكنية، لإقامة التجار الأغراب القادمين من خارج المدينة للتجارة وهي تُعتبر كفندق.

القيسارية: هي منشأة تجارية أيضًا تشبه سوقًا مستقلاً يحيط بها من الخارج حوانيت وحواصل، وبها صحن من الداخل يحيط به أيضًا حوانيت وحواصل، ويعلوه وحدات سكنية يقيم بها غالبًا الصنّاع الذين يبيعون منتجاتهم في الحوانيت، وبهذا تختلف القيسارية عن الوكالة أو الخان الذي تُباع به السّلع الواردة من الخارج. (أمين وإبراهيم، المصطلحات المعمارية، 92).

هناك منشآت معمارية أخرى ثانوية، وغالبًا ما تكون مُلحقة بواحدة من المنشآت الرئيسية مثل الحمّام، وبعضه يكون منفصلاً هو المقعد، وهو إيوان يتكون من مُسْطح بسقف محمول على عقود، ومفتوح على صحن أو حوش. الجوسق والمنظرة: وهي منشآت للإقامة اليومية المؤقتة لمنشئيها وهي مفتوحة بلا حوائط. والمنظرة عرفت فقط في العصر الفاطمي في الأماكن الخلوية والبساتين للنزه اليومية، أو داخل القاهرة؛ لمشاهدة المواكب والاحتفالات المختلفة التي اشتهرت بها مصر الفاطمية.

أخيرًا يجدر بنا الإشارة إلى تداخل تلك الأنماط بعضها ببعض مع تشابه في التخطيط والشكل المعماري، بحيث يصعب معرفة وظيفتها إلاّ عن طريق نصوصها التأسيسية، أو وثيقة الوقف الخاصة بها، والمصادر الأدبية المعاصرة.

2 – المكنون التعبيري للتطور المعماري – العمراني لمدينة القاهرة

بعد الفتح الإسلامي في 20 /642 أنشأ عمرو بن العاص – كما هي العادة في الفتوح الإسلامية – مدينة جديدة هي الفسطاط في موقع مصر القديمة حاليًا على الضفة الشرقية من النيل في موقع متوسط بين شمال وجنوب الوادي. قسّم عمرو بن العاص الفسطاط إلى خطط (أحياء) يقيم في كلّ منها جزء من الجيش، طبقًا لانتماءاتهم القبليّة، وأقطع الجزء الأوسط منها لأهل الراية، وهي المجموعة التي تنتمي إلى قريش والصحابة. بنى عمرو في وسط ذلك الخط جامع عمرو، أو الجامع العتيق وهو أول جامع بمدينة القاهرة بالتخطيط المعتاد من صحن يحيط به أروقة، وملحق به دار الإمارة لإقامته وأعوانه. أي أنّ الفسطاط كانت مدينة، أو ثكنة عسكرية مُقسّمة على خطوط قبليّة، و لم يكن لها أسوار كما هي العادة في المدن الإسلامية الأولى كالكوفة والبصرة، ربما لأنّ العرب أهل الصحراء لم تعتد على قيود الأسوار والبوابات، أو لأنّ الحكومة المركزية في المدينة كانت تريدها مدينة مفتوحة. تطورّت الفسطاط بعد هذا، وتحوّلت من ثكنه عسكرية إلى حاضرة تعجّ بسكانها، ومركز أساسي للتجارة والأنشطة المختلفة، واستمرت كذلك إلى أن احترقت بالكامل في صفر 564 /1151. اندثرت مدينة الفسطاط إلى الآن، و لم يبق منها سوي أطلالها المحاطة بسور، وموقع جامع عمرو الذي أدخلت عليه الكثير من التوسعات والهدم، و لم يبق منه إلا الموقع، وآثار ضئيلة لا يهتم بها إلا الأثريون والعلماء (Raymond, *Cairo*, 15).

بعد عِمارة الفسطاط، وزيادة السكان بها اندثرت العمائر التي كانت شمالها، وهُجرت، وأصبحت أرضًا خلاء وصحراء. وعند هروب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر في 133/ 750 تتبعته العسكر العباسية حتى قبضوا عليه، وقتلوه، ثمّ أقام هؤلاء العسكر في الصحراء شمال الفسطاط، فانتقل مركز القيادة والحكم إلى تلك المنطقة التي عُرفت بالعسكر. أنشئ بها دار للإمارة ومسجد جامع عُرف بجامع العسكر، وصارت حاضرة بها منازل وأسواق، وزادت العمارة بها حتى اتصلت بمدينة الفسطاط جنوبًا، وإن ظلت الفسطاط العاصمة التجارية للبلاد. وقد هجرت العسكر عند قدوم أحمد بن طولون، واندثرت بالكامل ومكانها الآن حي السيدة زينب (المقريزي، الخطط، 1: 304؛ Raymond, *Cairo*, 24).

بقدوم أحمد بن طولون إلى مصر نائبًا عن الأمير التركي باكباك الذي عهد إليه الخليفة العباسي المعتز بالله في رمضان 254 / 868 أصبحت مصر مستقلة للمرة الأولى منذ الفتح الإسلامي تحت السّيادة الاسمية فقط للخليفة العباسي في بغداد، ليستمر هو وخلفاؤه في حكم مصر نحو أربعين عامًا حتى عام 292 / 905 حين عادت مصر إلى الحكم العباسي المباشر في خلافة المكتفي بالله. استقر ابن طولون أولاً بدار الإمارة بالعسكر، ثمّ هجر العسكر بعد أن ضاقت به، لكثرة أعوانه ومماليكه وعبيده، وبنى ابن طولون مسجدًا جامعًا كبيرًا في شمال مدينة العسكر لازال قائمًا حتى الآن بحالة جيدة، وبشكله الأصلي تقريبًا، على الرغم من الإضافات والترميمات العديدة التي لحقت به (أثر 220، 263 – 65 / 876 – 879) على مرّ العصور. وألحق به ابن طولون دار الإمارة، وجعل لها بابًا مفتوحًا على الجامع. وأنشأ بالقرب منها ميدانًا لعرض العسكر، كذلك أنشأ مستشفى (بيمارستان) وقناطر لنقل الماء إلى مقرّه، وأمر أصحابه وأعوانه بالبناء والإقامة حوله، وأقطع لكلّ مجموعة منهم قطعة أرض أو قطيعة للبناء عليها، ولذلك سمّيت بمدينة القطائع. وصارت مدينة كبيرة بما فيها من دور، ومساجد، وأسواق، وطواحين وحمّامات (المقريزي، الخطط، 1: 313 – 315).

ولما كانت سامراء هو الموطن الأصلي لـ ابن طولون، فقد بنيت القطائع إلى حد كبير بشكلٍ مُشابه لها، وجامع ابن طولون متشابه من حيث التخطيط مع جامع سامراءٍ، كما أنّ مئذّنته ذات السلّم الخارجي (الفريدة من نوعها بمدينة القاهرة) بلا شك على غرار مئذنة جامع سامراء، كذلك النقوش الجصية الداخلية من نفس نمط النقوش السامرائية المعروفة.

بزوال حكم أسرة ابن طولون في 292/ 905 هُجِرت مدينة القطائع، وخربت و لم يبق منها سوى جامع ابن طولون بالقرب من القلعة. والمصادر لا تذكر الظروف التي أدّت إلى خراب تلك المدينة، غير أنّه يُعتقد أنَّ العباسيين بعد عودتهم للحكم المباشر لمصر قاموا بإزالة تلك القصور والدور. (Raymond, *Cairo*, 27) يجدر بنا الإشارة إلى أنّ كلًّ من العسكر والقطائع كانتا مدينتين ملكيتين، بمعنى أنّ قاطنيها في الغالب النخبة الحاكمة والعسكر وأبناؤهم وأعوانهم، وقلة من السكان لخدمتهم، وظلّت الفسطاط هي الحاضرة الشعبية، والمركز الرئيسي للأنشطة الدينية والاقتصادية. يرجح أنّ الاندثار السريع لتلك المدن قد يكون لارتباطها بسلالة حاكمة، وزالت بزوالها، ولكن بُعد تلك المدن عن نهر النيل وصعوبة نقل المياه إليها قد يكون أيضًا من الأسباب التي أدّت إلى اندثارها.

استمر الحكم العباسي المباشر لمصر بعد سلالة ابن طولون، وتتابع عليها الولاة حتى وَلِي محمّد بن طغج الفرغاني، وهو من فرغانة ببلاد ما وراء النهر –كما يبدو من اسمه–. وَلِي مصر لفترة قصيرة وعُزل، ثم أُعيد في عهد الخليفة الراضي، ولُقب بالإخشيد في رمضان 327 /939 واستمرّ في حكم مصر كدولة شبه مستقلة هو وأولاده، وإن استبد بالحكم كافور بعد محمد بن طغج أولاً كخليفة (نائب) عن الإخشيد، وكان هو الحاكم الفعلي حتى تولّى فعلاً الحكم باسمه من قبل الخليفة المطيع في محرم 355/ 965 إلى أن تُوفّي في جمادى الأول 357/ 968 وكان في الأصل عبدًا خصيًا غير أنه كان عاقلاً حكيمًا مدبرًا. أدار شئون الدولة بدهاء وحِنكة، وتصدّى بنجاح لمحاولات الدولة الفاطمية لفتح مصر. في عهده قَدِم إلى مصر أبو الطَيب المتنبي شاعر العربية الأول، وله قصائد طويلة في مدح وهجاء كافور، وبوفاته انهارت العقبة الأخيرة أمام الفاطميين حتى استطاع جوهر الصقلّي نائبًا عن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله فتح مصر في شعبان عام 358/ 969، وقضى على الدولة الإخشيدية بعد أربعة وثلاثين عامًا من إنشائها. خرجت مصر من سيادة الدولة العباسية لثالث مرة في تاريخها الإسلامي، ولتصبح مستقلّة استقلالا تامًا، بلا تبعية ولو اسمية لأيّ سلطةٍ خارجية للمرة الأولى.

ثلاثة قرون ونصف من الحكم الإسلامي بمصر كإقليم تابع للخلافة لم تترك سوى أطلال مدينة الفسطاط وبقايا أربع آثار أخرى وهي جزء بسيط مًن جامع عمرو، ومقياس النيل (أثر 79، 247/ 961) في عصر الولاة العباسين، ومسجد أحمد بن طولون، وبقايا مشهد طباطبا

(أثر 563، النصف الأول من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي) وبالطبع يعكس هذا الوضع الإقليمي الضعيف لمصر، حيث كانت إقليمًا تابعًا للخلافة، وتذهب معظم ثرواتها إلى الخارج. وضحالة النشاط المعماري هو خير دليل على ذلك؛ ولعل عظمة مسجد ابن طولون هو الشذوذ الوحيد الذي يؤكد هذه القاعدة، ويبين بجلاء ثروة مصر إن ظلّت داخلها.

3 – الفاطميون ومدينة القاهرة:

عند وصول جوهر الصقلّي إلى مصر في 358/ 969 كانت الفسطاط حاضرة مصر، فيقول المقريزي في خُططه: "اعلم أنَّ مدينة الإقليم منذ كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص –رضي الله عنه– كانت مدينة الفسطاط المعروفة زماننا (كُتبت الخطط المقريزية في حوالي عام 820/ 1417 – 1418) بمدينة مصر قبلي القاهرة، وبها كان محل الأمراء ومنزل ملكهم، وإليها تُجبي ثمرات الأقاليم، وتأوي الكافة، وكانت قد بلغت من وفور العمارة وكثرة الناس وسعة الأرزاق، والتفنن في أنواع الحضارة، والتأنقّ في النعيم ما أربّت به على كلّ مدينة في المعمورة حاشا بغداد، فإنها كانت سوق العالم وقد زاحمتها مصر (أي الفسطاط)، وكادت تساميها إلا قليلاً، ثمّ لما انقضت الدولة الإخشيدية من مصر، واختلّ حال الأقاليم بتوالي الغلوات، وتواتر الأوباء والفنوات حُدثت مدينة القاهرة عند قدوم جيوش المعز لدين الله أبي تميم معد أمير المؤمنين على يد عبده وكاتبه القائد جوهر" (المقريزي، الخطط، 1: 359).

أمر المعز قائده جوهر الصقلّي ببناء مدينة جديدة أسماها القاهرة، ويقال إنّها سُمّيت أولاً المهدية، ثمّ تغير اسمها إلى القاهرة. وقد اختار جوهر موقع مدينة القاهرة في أرض فضاء تقع إلى شمال الفسطاط، ويفصلها عنها إطلال مدينتي القطائع والعسكر كمستطيل ضلعيه الشرقي والغربي هما الأطول، ويحدّ هذا الفضاء غربًا الخليج المصري (شارع بورسعيد حاليًا) وجبل المقطم شرقًا. و لم يكن يوجد بتلك الأرض الفضاء قبل القاهرة طبقًا للمقريزي – ويسمِّيها الرملة – سوى بضعة أماكن هي بستان الإخشيد المعروف بالبستان الكافوري، ودير للنصارى يُعرف بـ دير العظام كان قد اندثر في عصر المقريزي، و لم يبق إلاّ البئر الخاص به، وظلّ مُستعملاً خلال العصر الفاطمي، ومكان ثالث يُعرف بـ قصر الشوك، وموضعه

بعد بناء القاهرة هو قصر الشوق أحد القصور الفاطمية المعروفة بالقصور الزاهرة (المقريزي، الخطط، 1: 359 - 360).

أدار جوهر الصقلّي سورًا من الطوب النّيئ حول القاهرة لتصبح أول عاصمة ذات أسوار في مصر الإسلامية، وجعل لها سبعة أبواب. بنى قصرين في مركز المدينة، القصر الكبير الشرقي لسكنى الخليفة وحريمه، ولجلوسه لمقابلة أهل الدولة والعسكر، وبه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح، وتربة تُعرف بالتربة المعزية، أو تربة الزعفران نقل إليها رفات أجداده الخلفاء الفاطميين الثلاث. أما القصر الآخر الغربي الصغير، فقد أنشأه على جزء من البستان الكافوري أمام القصر الشرقي، وبينهما فضاء يُعرف بـ بين القصرين حتى يومنا هذا. وهذان القصران هما ما يعرفا بالقصور الزاهرة، وقد تمّ إضافة توسعات كثيرة على هذين القصرين، ثمّ اندثرا بالكامل بعد زوال الدولة الفاطمية، ولم يبق منهما سوى بعض أساسات القصر الشرقي الكبير، وذلك عند بداية الدولة الأيوبية.

كذلك اختطّ المعز الطريق الرئيسي الذي يقسّم المدينة، ويمتد جنوبًا من باب زويلة إلى باب النصر شمالاً، وكان يُسمّى الشارع الأعظم، أو قصبة القاهرة وهو ما يُعرف الآن بشارع المعز، وتتفرع منه شوارع جانبية تؤدّي إلى الأجزاء المختلفة من المدينة. وقد أحاطت بالقصور الزاهرة منشآت أخرى كالإسطبلات، ومخازن ومستودعات، وفي وقت لاحق أُقيمت دار الحكمة بواسطة الخليفة الآمر بأحكام الله في 510/ 1116 ودار الوزارة المقر الرئيسي للوزراء الفاطمين، وغيره من المنشآت (Raymond, *Cairo*, 53).

أنشئ الجامع الأزهر في مكانه المعروف الآن، وافتُتح في رمضان 361/ 971 والجامع الذي نراه الآن هو حصيلة إضافات عديدة خلال الأحد عشر قرنًا التالية، ولم يبق من الأصل الفاطمي إلا أجزاء قليلة. اختطّ العسكر القادمون مع جوهر حارات لكلّ منهم كل حسب قبيلته (ومعظمهم من البربر) فاختطّت قبائل زويلة حارة زويلة، وبرقة حارة البرقية والروم حارة الروم، وهكذا داخل أسوار المدينة. ظلّت مدينة القاهرة مدينة ملكية طوال العصر الفاطمي، فكانت حصنًا مُغلقًا والإقامة داخلها محصورة على الخليفة، وجنوده، وأتباعه، وإداراته، ويحظر على الأهالي الإقامة بها، وعليهم مغادرتها ليلاً.

امتدّ العمران قليلاً خارج أسوار القاهرة، فاستقر الجنود السودان، واليانسية في الجنوب خارج باب زويلة في اتجاه الفسطاط، وبنيت تربة خارج باب الفتوح والنصر شمال القاهرة،

وأُنشئ حي الحسينية نسبة إلى طائفة من الجند بهذا الاسم استقرت في تلك المنطقة. أما المنطقة خارج القاهرة إلى الغرب كان بها بساتين، وحدائق للتنّزه. أما من ناحية الشرق فإن أكوام الزبالة ومخلّفات المدينة لم تسمح بأيّ اتساع في هذا الاتجاه، حتى أُزيلت في عهد محمد علي في بداية القرن التاسع عشر.

أنشأ الفاطميون عدّة مساجد غير الجامع الأزهر، فبدأ العزيز بالله بناء مسجد خارج باب الفتوح القديم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله في سنة 393/ 1003، وافتُتح رسميًا في 403/ 1012 وهو جامع الحاكم (أثر15) ويُسمَّى أيضًا الجامع الأنور كعادة الفاطميين بإطلاق أسامي على جوامعهم على وزن أفعل!

الاتساع الحقيقي لمدينة القاهرة كان على يد الوزير بدر الدين الجمالي الأرمني الأصل الملقّب بأمير الجيوش، والذي استبدّ بالسلطة من 467/ 1074 حتى وفاته في 487/ 1094 وقد هدم السور والأبواب القديمة المبنية بالطوب النيء، وأحاط القاهرة بأسوار جديدة من الحجر بواسطة عمّال حجّارين من الأرمن في الفترة بين 480/ 1087 و485/ 1092. الأسوار الجديدة زادت من مساحة مدينة القاهرة، وأدخل فيها جامع الحاكم ومساحات أخرى في الجنوب تُمثل زيادة حوالي أربعة وعشرين هكتارًا أي مائتي وأربعين ألف متر مربع، لتصبح مدينة القاهرة تُغطي مساحة تُقدّر بمائة وستين هكتارًا أي حوالي مليون وستمائة ألف متر مربع وهي نفس مساحة القاهرة عند وصول الحملة الفرنسية إلى القاهرة عام 1798. (Raymond, *Cairo*, 55)أنشأ خلال تلك الفترة العديد من الأبواب بالحجر لم يبق منها إلا أربعة هم باب الفتوح، وباب النصر في السور الشمالي، وباب زويلة في السور الجنوبي، وبقايا باب البرقية في السور الشرقي.

في الفترة اللاّحقة أقام الوزير الفاطمي المأمون البطائحي في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله الجامع الأقمر (أثر 33، 516/ 1125) الذي أشرف على قصبة القاهرة، وقد اعتاد الفاطميون على إطلاق أسماء بصيغة أفعل على مساجدهم -كما ذكرنا- (مثل الأزهر، والأنور، والأقمر). كذلك أنشأ الصالح طلائع مسجده (أثر 116، 555/ 1160) خارج مدينة القاهرة أمام باب زويلة. والآخران مسجدان أصغر كثيرًا من الأزهر، أو الأنور ربّما لعدم الحاجة إلى مساجد كبرى، أو لعدم توافر إمكانيات مادية ضخمة، ولكن لا يقلاّن عنهما جمالاً أو إتقانًا.

استحدث الفاطميون نمطًا جديدًا من المنشآت الدينية وهو المشاهد، وكما ذكرنا فهي منشآت تُقام على ضريح لأحد أهل البيت النبوي – بحكم انتمائهم لسلالة الرسول من ابنته فاطمة لتكريمهم وتجديد ذكراهم، أو مشهد رؤيا وهو مشهد يُقام في مكان رؤيا أحد أهل البيت في المنام، وبالطبع لاستلهام البركة عند زيارتهم. ومعظم هذه المشاهد خارج مدينة القاهرة بُنيت، أو أعيد بناؤها في الفترة ما بين 516/ 1122 إلى 549/ 1154، ويُوجد الآن بمدينة القاهرة ثمانية مشاهد فاطمية هي مشهد أم كلثوم في القرافة (اثر 516، 516/ 1122) ومشهد أبي القاسم الطيب (أثر 284، منتصف القرن السادس/الثاني عشر)، ومشهد السيدة عاتكة والجعفري بالخليفة (أثر 333، 19 – 514/ 1125 – 1120) ومشهد السيدة رقية بالخليفة (أثر 273، 527/ 1133) ومشهد إخوان يوسف أسفل جبل المقطم (أثر 301، أول القرن السادس / الثاني عشر) ومشهد يحيى الشبيه (اثر 285، حوالي 545/ 1150) ومشهد محمد الحصواتي (أثر 315، منتصف القرن السادس/الثاني عشر) ومشهد الحسين، ولم يبق منه غير بابه، ويسمّى الباب الأخضر في جامع سيدنا الحسين (أثر 304، 1154). ويمكن إضافة مشهد الجيوشي بالمقطم (أثر 304، 478/ 1085) وسمّي مشهدًا طبقًا لنصه التأسيسي، ولا نعرف أنّ أيًا من أهل البيت مدفون هناك. وتتميز جميع هذه المشاهد بوجود محاريب جصية على درجةٍ فائقة من الإتقان (Williams, *Muqarnas*, 3:30 - 60).

ولما كان الفاطميون يستمدّون شرعيتهم من نسلهم النبوّي، وقرابتهم للرسول وأهل بيته، والخليفة الإمام الفاطمي هو رأس النّظام ممثل، وولي الله على الأرض (أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية، 249 – 250) فقد انعكس هذا على تخطيط مدينة القاهرة، فقصر الإمام (القصور الزاهرة) هو مركز المدينة حيث يعيش به الإمام، ويُدفن فيه بعد موته.

كذلك أكثروا من بناء المشاهد لأهل البيت داخل وخارج المدينة، تأكيدًا لسلطتهم الروحية، ولتذكير الشعب بأنّهم من سلالة الرسول التي تكسبهم الحق الإلهي للحكم. وأكثروا أيضًا من بناء المناظر داخل وخارج المدينة – وإن اندثرت جميعًا الآن– وهي منشآت للإقامة المؤقتة لمشاهدة المواكب والاحتفالات في مناسبات عديدة مثل: عيد النصر، والموالد الستة، وليالي الوقود الأربع، واحتفالات رمضان العديدة، والأعياد مثل: عيد الغدير، والنيروز، والمولد النبوي، وفتح الخليج (المقريزي، الخطط، 1:290 – 293) وقد اهتمّ الخلفاء الفاطميون الشيعة بشكلٍ كبير بتلك الاحتفالات، للتقرّب من الشعب وغالبيته من السنة.

كانت مدينة القاهرة مدينة ملكية مغلقة للعامة من أفراد الشعب وهي مركز الحكم وسكن أهل الصفوة، أما الفسطاط فظلّت كما هي المركز التجاري، والاقتصادي، والاجتماعي، والميناء النهّري للبضائع المستوردة والمصدرة، وسكن بها الغالبية من الأهالي، بل ازدادت في الأهمية خلال الدول الفاطمية وهو من المفارقات، نظرًا لإنشاء مدينة القاهرة. وقدّرت بعض الدراسات سكان الفسطاط في القرن الحادي عشر الميلادي بأنه يتراوح ما بين مائة وخمسين ألف إلى مائة وخمسة وسبعين ألف نسمة. وسكان القاهرة أقل من ذلك، ويتراوح ما بين خمسة وسبعين إلى مائة وخمسين ألف نسمة (Raymond, *Cairo*, 62) والوصول إلى الرقم الحقيقي صعب جدًا بالطبع غير أنّ أعمال الحفريات بمدينة الفسطاط التي قام بها علي بهجت وجبرايل في عشرينيات القرن العشرين، وجورج إسكانلون وكوبياك في ستينيات القرن العشرين تدلّ علي أنّ مدينة الفسطاط كانت مركزًا لنشاط سكاني مكثف، كذلك تكشف أوراق الجينيزا، وتعني بالعبرية الجنازة (وهي مجموعة كبيرة من الأوراق المستعملة المهملة دفنت في قبو حتى لا يدنّس اسم الله المكتوب عليها) واكتشفت في نهاية القرن التاسع عشر في معبد ابن عزرا بالفسطاط، ومعابد اليهود بالبساتين وهي مكتوبة بالعربية، ولكن بحروف عبرية ومعظمها خاص بالمعاملات التجارية والأسرية بين الجالية اليهودية في الفسطاط وخارجها. وهي تحتوي على مراسلات، وإيجارات، ومقايضات، وهبات، وعقود زواج، أو بيع أو شراء، أو خلافه مما ينمّ عن وجود حركة تجارية اقتصادية كبيرة، ونشطة في مدينة الفسطاط وتبادل تجاري مع الكثير من بلاد شرق البحر المتوسط. وللأسف فقد تمّ تهريب معظم هذه الأوراق خارج مصر إلى جامعات أمريكية وأوروبية، وانكبّ على دراستها الكثير من العلماء والباحثين في الخارج، والنادر منها في مصر (أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية، 24 – 25).

وهناك حادثتان أثرتا على تطور الفسطاط، والعسكر والقطائع خلال الدولة الفاطمية أوّلها هي الشدّة المستنصرية، وثانيها هو الحريق الكبير قبل سقوط الدولة الفاطمية. الشدة المستنصرية هي الأزمة الاقتصادية الحادة التي مرت بها مصر في منتصف عهد الخليفة المستنصر الطويل (427–1036/ 487–1094) الذي تولّى الخلافة وهو طفل عمره سبع سنوات، وسيطر على الحكم وزيره أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي (المتوفي 436/ 1045) ثمّ السيدة أم المستنصر. خلال العشرين سنة الأولى من حكم المستنصر وصلت الدولة الفاطمية إلى أقصى اتساعٍ لها، ولكن سرعان ما بدأ الانهيار السريع نتيجة صراعات خارجية

مع السلاجقة المسيطرين على الخليفة العباسي في بغداد، والحركات الانفصالية للممتلكات الفاطمية خارج مصر في أفريقية والشام. تواكب هذا مع أزمة داخلية طاحنة، وصراع بين طوائف الجند من الأتراك والسودان، وكانت فترة من عدم الاستقرار حتى إنه تولّى الوزارة من الفترة بين 450/ 1058 حتى 466/ 1073 أربعة وخمسون وزيرًا واثنان وأربعون قاضيًا (أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية، 139).

انتهى الأمر بهزيمة الجنود السودان، وتغلّب الأتراك على الدولة والخليفة، وطالبوه بالأموال فلمّا عجز عن الدفع نهب هؤلاء الأتراك القصوز والخزائن الفاطمية حتى محتويات تربة الزعفران. وكانت تلك الذخائر، والتحف، والأسلحة، والجواهر التي اقتناها الخلفاء الفاطميون مما يعجز الإنسان عن وصفه حتى إنّ المقريزي يصف ما تم استخراجه من القصور الفاطمية في حوالي عشرين صفحة، وينقل عن ابن الميسر أنّ حصر تلك الذخائر المنهوبة من تحف، وأثاث، وثياب، وذهب وغيره استغرق مجلدًا من عشرين كراسة (المقريزي، إتعاظ الحنفا، 2:280 – 296) و لم يبق للخليفة مالٌ إلا مال الصّدقة.

المصائب تأتي مجتمعة، فخلال تلك الفترة تناقص النيل عدة مرات لمدة سبع سنوات متوالية من الفترة 457–1064/ 464–1071 مما أدّى إلى أسوأ مجاعة عرفتها مصر في تاريخها الإسلامي، وهو ما يعرف بـ الشدة المستنصرية. ويصف المقريزي في خططه هذه الشّدة نقلاً عن غيره، فيقول:

"حل بمصر غلاء شديد في خلافة المستنصر بالله في سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وأقام إلى سنة أربع وستين وأربعمائة، وعمّ مع الغلاء وباء شديد، فأقام ذلك سبع سنين والنيل يمدّ وينزل، فلا يجد من يزرع، وشمل الخوف من العسكرية وفساد العبيد، فانقطعت الطرقات برًا وبحرًا إلاّ بالخفارة الكثيرة مع ركوب الغرر، ونزا المارقون بعضهم على بعض، واستولى الجوع لعدم القوت، وصار الحال إلى أن بيع رغيف من الخبز الذي وزنه رطل بزقاق القناديل كبيع الطرف في النداء بأربعة عشر درهمًا، وبيع إردب من القمح بثمانين دينارًا، ثم عُدم ذلك وأُكلت الكلاب والقطط، ثم تزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا، وكان بمصر طوائف من أهل الفساد قد سكنوا بيوتًا قصيرة السقوف قريبة ممّن يسعى في الطرقات، ويطوف وقد أعدوا سلبًا وخطاطيف فإذا مرّ بهم أحد شالوه في أقرب وقت، ثمّ خربوه بالأخشاب، وشرّحوا لحمه وأكلوه" (المقريزي، الخطط، 1:337).

من الطريف أن بداية هذه الفتنة كانت بدأت من أصغر الشرر كما يذكر تقي الدين المقريزي، فإنه كانت من عادة المستنصر في كل سنة أن يركب الخيل ومعه مجموعة من النساء الغواني، وإناء الخمر في موكب إلى موضع نزهة يسمَّى جب العميرة وهو نفس مكان بركة الحاج وهي المحطّة الأولى في طريق الحجيج إلى مكة والمدينة بالحجاز في ذلك العصر. وكان على سبيل اللهو والتسلية يُغيِّر من هيأته كأنّه ذاهب إلى الحج، ويوضع الخمر في السّقايا بدلاً من الماء، فيدور عليه السّقاة ومن معه كأنّه ذاهب إلى الحجاز للحج، وأنّ هذا الخمر هو ماء زمزم! (المقريزي، إتعاظ الحنفا، 2:265) وهي قصّة شديدة الغرابة غير أنّ المقريزي – وإن لم يخلُ من المبالغة كغيرة من مؤرّخي القرون الوسطى – إلا أنّه من أوثق المصادر في ذلك العصر، كما أنّه معروف بتعاطفه مع الفاطميين، ولا يُضمر لهم العداء كغيره من الكثير من المؤرخين المعاصرين من أهل الشام والعراق، فاستبعد شبهة محاولة الإساءة إلى الخلفاء الفاطميين.

ويستطرد المقريزي، ويذكر أنه في سنة 454/ 1062 خرج كعادته إلى بركة الحاج، فقام أحد من الأتراك وهو تحت تأثير الخمر بقتل بعض العبيد السود فغضب السودان من هذه الحادثة، وحمّلوا المستنصر المسئولية عنها، فأنكر الخليفة، وبدأت الفتنة من هذا الشرر، وزادها تعصّب السيدة رصد أم المستنصر، وكانت جارية سوداء وبمساعدتها للسّودان على الأتراك، كانت بداية الفتنة (المقريزي، إتعاظ الحنفا، 2: 265 – 267).

لم تهدأ الأمور إلا بقدوم القائد العسكري بدر الدين الجمالي وجنوده من الشام بناءً على استدعاء المستنصر له، وتقليده جميع السلطات العسكرية (أمير الجيوش) والإدارية (الوزير الأجل) والقضائية (قاضي القضاة) والدعوية (داعي الدعاة) في 467/ 1074 لإعادة الاستقرار للدولة. تسبّبت تلك الشدة، وهذا الغلاء مع الأزمة السياسية إلى خراب الفسطاط والعسكر والقطائع حيث هجرها أهلها؛ ولكن بعد سنوات أمر الوزير الفاطمي بدر الدين الجمالي بإعادة إعمار الفسطاط، وأزال أنقاض العسكر والقطائع، وأصبحت أرضًا فضاء حتى عادت الفسطاط إلى سابق أحوالها قبل هذه الشدة إلى أن جاء حريق الفسطاط في نهاية العصر الفاطمي.

الحادث الآخر هو حريق الفسطاط، ففي السنوات الأخيرة من حكم الفاطميين تنافس على منصب الوزارة عدة أشخاص، وبعد أحداث وصراعات اقتصر الصّراع على طرفين هما شاور بن محمّد السعدي (المتوفى 564/ 1169) وضرغام بن عامر بن سوار المنذري (المتوفى

559/ 1164)، واستعان كلٌّ منهما بالقوتين الخارجيتين الطامعتين في أملاك الدولة الفاطمية، وهما نور الدين الشهيد بن زنكي في الشام، والصليبيين الفرنجة في فلسطين، والسواحل الشامية بقيادة عموري ملك القدس. المصادر غنية بوصف تلك المرحلة بدءًا من عام 558/ 1163 وهي وزارة شاور الأولى، حتى قتله وانتصار قوات نور الدين زنكي الشامية بقيادة أسد الدين شيركوه (عمّ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب) في 564/ 1169.

لن نعرض لتفاصيل تلك الأحداث غير أنّ شاور قد ناور بين الطرفين لضرب كلٍ منهما بالآخر، واستعان بالفرنجة الصليبيين الذين تمكّنوا من دخول مصر، والاقتراب من القاهرة من الجنوب. في محاولة أخيرة من شاور للدفاع عن القاهرة أمر في صفر 564/ 1168 أهل الفسطاط بمغادرتها، والنزوح منها إلى مدينة القاهرة، فيقول المقريزي:

أمر شاور الناس بالانتقال منها (أي الفسطاط) إلى القاهرة، فتركوا أموالهم وأثقالهم، ونجوا بأنفسهم وأولادهم، وحريمهم وقد ماج الناس، واضطربوا اضطرابًا عظيمًا (المقريزي، اتعاظ الحنفا، 3: 296 – 297).

ثمّ أمر شاور بحرق مدينة الفسطاط حتى لا يستولي عليها الفرنجة، فأُحرقت بعشرين ألف قارورة نفط، وعشرة آلاف مشعل، واستمرت الحرائق خمسة وأربعين يومًا، فلم يبق بها ما ينفع (المقريزي، اتعاظ الحنفا، 3: 297) وعلى الرغم من المحاولات التالية لإعادة إعمار أجزاء من الفسطاط إلاّ أنّها باءت بالفشل، وهُجرت بالكامل وهدمت دورها، وبيع أنقاضها بعد عام 790/ 1188 بشكلٍ نهائي (المقريزي، الخطط، 1:337).

4 – القاهرة الأيوبية:

انتهت مؤامرات وأطماع الوزير شاور بقتله في ربيع الآخر 564/ 1169 (المقريزي، اتعاظ الحنفا، 3: 301) وحرق مدينة الفسطاط، وانسحاب الفرنجة، وسيطرة جنود الشام النورية وأغلبهم من الأكراد تحت قيادة أسد الدين شركوه بن شادي، والذي تمّ تنصيبه كوزير للخليفة الفاطمي العاضد في نفس الشهر غير أنّه سرعان ما توفّي بعد شهرين في جمادى الآخر 564/ 1169 وخلفه في الوزارة ابن أخته الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، ولقّبه العاضد بالملك الناصر على العادة الفاطمية. ثمّ ألغى الناصر صلاح الدين

الخلافة الفاطمية في محرم 567/ 1171 وتوفّي الخليفة العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطمين في مصر بعدها بأيام دون أن يعلم بإلغاء الخلافة (بناءً على أمرٍ من صلاح الدين لاعتباراتٍ إنسانية) فاستولى الناصر على القصور الزاهرة بما فيها من كنوز، وحبس العائلة الفاطمية في القصر بعدما فصل الرجال عن النساء، لمنع التناسل مما يؤدّي إلى الانقراض الطبيعي للعائلة دون سفك دماء!

شعر صلاح الدين كغيره ممن تملّك مصر بقوته وغناه، وتطلع إلى الاستقلال عن الدولة النورية بالشام، فوقعت الوحشة بينه وبين نور الدين زنكي في دمشق، وتشأ الأقدار أن يتوفّى نور الدين في دمشق في شوال 569/ 1174. وفي نفس العام يُتوفّى أيضًا عموري (Amarlic) ملك القدس، وآخر ملوكها الأقوياء، ويخلفه ابنه بولدوين وهومريض بالجزام، وعمره ثلاثة عشر عامًا (Runciman, *Crusades*, 2: 339 - 403).

بذلك أصبح الملك الناصر هو الشخصية الأقوى في الدولة النورية والفرنجة الصليبيين، ليبدأ جهاده ضد الفرنجة لمدة عشرين عامًا. بدأها بتحقيق الوحدة الإسلامية بضمّ دمشق وحلب والجزيرة، بالإضافة إلى مصر – قاعدة ملكه كمرحلة أولى تلتها المرحلة الثانية بالمواجهة مع الفرنجة، حتى استطاع تحطيم جيوش الممالك الصليبية التابعة لمملكة القدس والإمارات الصليبية الأخرى في طرابلس وإنطاكية، وفرسان المعبد (الداوية) وفرسان القديس يوحنّا (الاسبتارية) تحت قيادة ملك القدس في حطين. أعقب هذا استعادة القدس في ربيع الأول 583/ 1187 وغيرها من المدن، والقلاع الصليبية بفلسطين والشام، وهو ما يُعرف بالفتوح الصلاحية. أعقب هذا أحداث الحملة الثالثة الصليبية تحت قيادة ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد، وملك فرنسا فيليب التي انتهت بصلح الرملة في شعبان 588/ 1192 على أن يبقى للفرنج المدن الساحلية من يافا حتى إنطاكية والشريط الساحلي المحيط بها، وأن تفكك أسوار مدينة عسقلان وتبقى القدس للإسلام. وتوفّي الناصر صلاح الدين عقب ذلك في دمشق في صفر 589/ 1193. (أبو الفدا، المختصر، 3: 59 – 63، 66، 67، 107) ولكن الإمارات الصليبية استمرّت في الوجود لمدة مائة عام أخرى حتى قضى على البقية الباقية منهم المماليك –كما سنرى لاحقًا–، فأكملوا ما بدأه الناصر.

الناصر صلاح الدين كان له أثر كبير في التطور العمراني لمدينة القاهرة خلال فترة حكمة لمصر، والتي امتدت أربعة وعشرين عامًا، فصلاح الدين كان سنيًا معاديًا للشيعة كعادة الأكراد

والأتراك، وكان شديد التدين ومنذ أن تولّى الوزارة، فإنّه زهد في الدنيا، وأقلع عن شرب الخمر أو اللهو، وأصبح الجهاد ضد الصليبيين هو شغله الشاغل وهدفه الوحيد. بالإضافة إلى صفاته الشّخصية الأخرى من تواضع وبساطة، وعزوف عن جمع المال، ومظاهر العز والعزوة ويهوى الخلاء والانطلاق، فانعكست تلك السمات على مشاريعه العمرانية. عند إنهائه الخلافة الفاطمية لم ينتقل إلى القصور الزاهرة، بل استمرّ في الإقامة بدار الوزارة، واحتاط على تلك القصور، وقام بتوزيعها على أمرائه وأتباعه و لم يقم ببناء مساجد ضخمة، لتخليد ذكراه أو تشييد قصور فاخرة، واقتصرت أعماله العمرانية على بناء المدارس، لنشر المذهب السنّي، ومحاربه المذهب الشيعي وعلى تحصين مدينة القاهرة.

في عصره تغيرت مدينة القاهرة، فلم تصبح تلك المدينة الملكية المغلقة، بل أصبحت مدينة مفتوحة للجميع. مع خراب الفسطاط، وتوابعها من العسكر والقطائع وهجرة أهلها إلى القاهرة انتهت ثنائية الفسطاط والقاهرة، وامتدت العمران ليصبحا مدينة وحدة. نظرًا لطبيعة الناصر صلاح الدين الشخصية المذكورة والدور الذي اخطتّه لنفسه، وانشغاله بالجهاد الداخلي ضد الشيعة الرافضة، والخارجي ضد الفرنج، وقضائه معظم أوقاته منتقلاً من معسكر إلى آخر معظمها بالشام موضع نشأته وشبابه، وميدان جهاده. حتى أنّه قد غادر القاهرة – مقر ملكه – في المحرم 578/ 1182 في أحد غزواته بالشام، و لم يعد إليها أبدًا حتى وفاته بعد أحد عشر عامًا. أمر صلاح الدين أولاً بإصلاح أسوار القاهرة الفاطمية، وبدأ في مشروعه الضخم لبناء قلعة الجبل في 572/ 1176 على تل مرتفع شرقي سور القاهرة على سفح جبل المقطم شمالي الفسطاط في موقع صحي يمتاز بهوائه العليل، وإستراتيجي مُحكم الدفاع. فوض صلاح الدين بهاء الدين قراقوش الأسدي وهو خصي أبيض كان موضع ثقة في بناء القلعة، و لم تكن القلاع شائعة في مصر حيث إنّ أرضها المنبسطة دون تلال أو جبال لا تناسب مثل تلك الحصون بعكس الشام، وبها الكثير من القمم الجبلية التي تصلح لبناء القلاع، والتي برع في بنائها بارونات الفرنجة الصليبيين ذوي الأَصول الأوروبية.

لما كانت مدينة الفسطاط دون أسوار مما يعرّضها للغزو الخارجي، فقد بدأ صلاح الدين في نفس الوقت مع بناء قلعة الجبل بناء سورٍ ضخم يمتدّ من القلعة شمالاً، ليحيط بمدينة القاهرة، وجنوبًا ليحيط بمدينة الفسطاط في منظومة دفاعية واحدة. تشير الكثير من المصادر أنّ بهاء الدين قراقوش كان يعمل بدأبٍ ونشاط، لإتمام هذا المشروع الضخم، وكان مصدر

المواد الخام اللازمة محاجر المقطم الملاصقة، كما فكّك الكثير من أهرامات أبوصير جنوب القاهرة، ونقلها إلى موقع القلعة، واستفاد من أسرى الفرنج كمصدر مجاني للأيدي العاملة. يبدو أنّ العمل توقّف بعد وفاة صلاح الدين حيث إنّه لم يقم فيها قط، وأول من أقام بها هو الملك الكامل محمد بن العادل في 604/ 1207–1208 (المقريزي، الخطط، 2:203 – 204) أمّا سور القاهرة فهو لم يكمل أبدًا حتى يومنا هذا. ظلّت قلعة الجبل مركز الحكم في مصر حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حين انتقل الخديوي إسماعيل إلى قصر عابدين بمدينة القاهرة. وهي قلعة حصينة، و لم تسقط عنوة في تاريخها الطويل على الرغم من الاستيلاء عليها العديد من المرات صلحًا بعد حصارٍ طويل كان أو قصيرًا.

استكمالاً للرؤية الأيوبية كدعاة للمذهب السنّي أنشأ الملك الكامل محمد المدرسة الكاملية للحديث (أثر 428، 622 / 1225) بـ بين القصرين، ومشهد قبة الإمام الشافعي (أثر 281، 608/ 1211) والتي دُفن بها. وأنشأ آخر سلاطين بني أيوب قلعة جزيرة الروضة، وهي التي شهدت مولد فرقة المماليك الصالحية (نسبة إلى الصالح أيوب) والتي عرفت لذلك أيضًا بالبحرية لنشأتهم في جزيرة الروضة بـ بحر النيل كما عرف في ذلك الحين. وتلك الفرقة أصبحت القوة الضاربة الأولى، وشكلّت تاريخ مصر والإسلام في القرون الثلاث التالية.

اتسمت إذن أعمال الإنشاء في الدولة الأيوبية بالطابع العسكري والديني، والقليل منها عمراني، فلم يُضف إلى مدينة القاهرة والفسطاط سِوى قلعة الجبل. بذلك اكتمل التوسّع الأفقي لمدينة القاهرة من الجنوب بالفسطاط، ثم العسكر، ثم القطائع، ثم القاهرة الفاطمية والقلعة حتى بداية عصر المماليك والذين لم ينشؤوا أيضًا مدينة جديدة، ولكن قاموا بتطوير وحشو فراغات المدينة القائمة بطريقةٍ لم يسبق لها مثيل. ما نعرفه الآن بالقاهرة الأثرية، أو التاريخية، أو الفاطمية هو في جوهره القاهرة المملوكية.

الفصل الثالث

المغول – الإعصار القادم من الشرق

1– جنكيز خان، والاجتياح الأول:

في خضم الانقسام والصراع داخل العائلة الأيوبية نفسها وبينها وبين طوائف المماليك المختلفة، وفي ظل الهدنة مع الإمارات الصليبية في فلسطين ظهر الخطر الداهم القادم من الشرق وهو المغول. المغول – اختصارًا – هم قبائل وعشائر رُحل أصلهم من منغوليا في شرق آسيا شمال الصين، وجنوب سيبيريا تملّكهم أحد زعماء هذه القبائل، واسمه جنكيز خان (ولد في 1167 واسمه معناه الخان أو الملك القوي) في سلسلة من التحالفات، والحروب استطاع بعدها أن يقوم بتوحيد تلك القبائل والعشائر تحت قيادته، وذلك في اجتماع لمجلس للشورى، أو مجمع للأعيان لهؤلاء القبائل يُسمّى كوريلتاي، وأطلق عليهم اسم المُغول في عام 1206.

أبقى جنكيز خان رؤساء القبائل والعشائر المتحالفة معه على حالهم يديرون شئونهم بأنفسهم كما جعل لكلّ قبيلة من المتحالفين معه عددًا كبيرًا من الأتباع والأقنان والعبيد من القبائل الأخرى غير المتحالفة معه بعد إخضاعها بالقوة. وقد نظّم جنكيز خان شئون دولته وحكمه المركزي بواسطة قانون يُسمّى الياسا وهو الذي فصّل حقوق زعماء القبائل

والعشائر، وواجباتهم العسكرية والمالية تجاه الخان الأكبر. والياسا أيضًا شكلت القانون المدني والجنائي، والتجاري الذي يحكم كافة تعاملات القبائل المغولية.

تتميز القبائل المغولية بأنّهم بدو رُحّل طُبِعوا على النظام، وطاعة رؤسائهم، وهم أشدّاء اعتادوا شظف العيش، وفطروا على الفروسية وركوب الخيل منذ نعومة أظفارهم. يعيشون على جيادهم، وينتقلون بخيامهم وعائلاتهم، ودوابهّم وراء المراعي والماء والمطر والقنص. وكلّ مغولي من سِن خمسة عشر عامًا حتى سن الستين يجب عليه تأدية واجب الجندية عند الحاجة، ولا يشكّل هذا صعوبة لديهم؛ لأنها طبيعتهم فالشعب بأكمله هو نواة للجيش. ولهذا كان منهم الفرسان الشداد، وأتقنوا رمي النشاب (القوس) واللعب بالرمح وغيره من فنون الحرب المعروفة في هذا الوقت، وهم يعيشون في معسكرات شبه دائمة وبأعداد كبيرة.

شعب بتلك المميزات العسكرية النادرة لابد أن يغري قائدًا طموحًا مثل جنكيز خان بالتوسّع الخارجي والغزو. فبعد أن أتم وضع قواعد الدولة في الداخل انطلق جنكيزخان في أكبر حركة غزو عرفتها البشرية في تاريخها حتى اليوم، فاتجه شرقًا نحو الصين، فقضى على سلالة التشين الحاكمة، وأصبحت الصين ومنشوريا جزءًا من الإمبراطورية المغولية، وكوريا دولة تابعة لها في حوالي عام 1226 ولم يبق إلاّ اليابان كجزيرة مُنعزلة يصعب غزوها، ولكن هذا لم يمنع المغول من محاولة غزوها –كما سنرى لاحقًا– (Runciman, *Crusades*, 3:238 - 242).

في نفس الوقت اتجه جينكيزخان غربًا أيضًا، واصطدم مع الدولة الخوارزمية الإسلامية الممتدّة من تركستان شرقًا إلى بحر الأورال وشمال الهند تحت قيادة محمود شاه الخوارزمي وعاصمته في أورجنش بالقرب من خيفا على بحر قزوين (في دولة أوزبكستان حاليًا). فعبر المغول تحت قيادة جنكيزخان نهر سيحون (سير داريا في أوزبكستان حاليًا)، واتجهوا إلى بخارى التي استسلمت له، كذلك سمرقند (في أوزبكستان الحالية) واضطر محمود شاه إلى التراجع إلى خراسان، وتعقبته القوات المغولية حتى مات وحيدًا هاربًا مطاردًا في جزيرة صغيرة في بحر قزوين في 1220. تشتّت الجيش الخوارزمي (يقال إنّ عدد مقاتليه بلغ مليون مقاتل) وبقي جزء منه تحت قيادة جلال الدين بن محمود شاه الذي لجأ إلى أفغانستان، وتعقّبته الجيوش المغولية حتى تمكّنت منه، فهرب إلى مملكة دلهي بالهند، واستولى المغول

على أفغانستان. لكنّهم لم يغزوا الهند ربّما لعدم ملاءمة طقسها الحار لتلك القبائل القادمة من الشمال.

خلال تلك الحروب نشر المغول الفزع والدمار بصورة لم يسبق لها مثيل، وأفنوا سكان الكثير من المدن الإيرانية مثل مرو ونيشابور عن بكرة أبيهم، كذلك مدينة هرات لاقت نفس المصير، وقتل جميع سكانها البالغ حوالي مائة ألف نسمة، ودُمّرت تلك المدينة بالكامل متبنيًا سياسة الرعب لهزيمة أعدائه نفسيًا قبل المواجهة العسكرية. بحلول عام 1223 عاد جنكيزخان إلى موطنه في منغوليا، وقبلها بقليل اندفعت أجزاء من الجيش المغولي تحت قيادة كبار قادته نحو الغرب الإسلامي في إيران، فاستولوا على مدينة الري بالقرب من طهران، وقتلت جميع سكانها، وصنعت مثل هذا في همذان، واستولت على أذربيخان وجورجيا، وفي بداية 1222 اتجهوا شمالاً بمحاذاة شواطيء بحر قزوين نحو بلاد الأتراك الكبشاك (جنوب روسيا بين نهري الفولجا والدون).

عند وفاة جنكيز خان في 1227 ترك إمبراطورية واسعة تمتد من كوريا والصين شرقًا حتى بلاد فارس غربًا وحدود سيبريا شمالاً، حتى أفغانستان وشواطىء المحيط الهندي جنوبًا. توقف الغزو مُؤقتًا بعد وفاة جنكيزخان حتى يتم اختيار خليفة له، ولكنها أوضحت بجلاء التفوق العسكري الضخم للجيوش المغولية على أمثالها في الغرب الإسلامي، ونجحت أيضًا في بثّ الرعب والفزع في قلوب تلك المناطق، نتيجة لأساليب القتل الجماعي، والإبادة والقسوة والتخريب دون تمييز التي اتبعها الغزاة المغول مما حطّم الروح المعنوية للشعوب الإسلامية، وأفقدها القدرة بل والإرادة والعزيمة على المقاومة، عندما بدأت الهجمة الشرسة التالية، والتي استهدفت بغداد والخلافة الإسلامية ومصر وسوريا وآسيا الصغرى، كما سنري لاحقًا...

في تلك الفترة وبعد عودة جنكيزخان إلى بلاده تمكّن جلال الدين بن محمود شاه الخوارزمي والذي سبق وأن لجأ إلى الهند من جمع جيش من الخوارزم استطاع به استعادة فارس، وأذربيخان، وجورجيا، والسيطرة على بغداد، والتحرش بالأمراء الأيوبيين في الشام وذلك بحلول عام 1226 (Runciman, *Crusades*, 3:248).

بعد استقرار الأمور في كاراكروم عاصمة منغوليا بعد وفاة جنكيز خان باعتلاء أوجوداي

الابن الثالث عمرًا لجينكيزخان ليصبح الخان الأكبر (1229 – 1241) تمّ إعادة توزيع الأملاك المغولية على إخوته وعائلته، وإن استمر الجميع تحت إمرة الخان الأكبر.

2- هولاكو خان والاجتياح الثاني:

سرعان ما بدأت الغزوة المغولية الثانية، فاستعيدت بلاد فارس وأذربيخان وجورجيا، وهُزم جلال الدين ليموت في مكانٍ غير معروف في كردستان في 1231. بعد وفاته تفرقت جيوش جلال الدين الخوارزمية في الجزيرة والشام في تحالفات مع أمراء العائلة الأيوبية، ومنهم الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر الأيوبي، واستطاع بمعاونتهم استعادة القدس، وتحطيم الجيش الصليبي في غزه في 1244 –كما ذكرنا سابقًا– مما كان أحد الأسباب القوية لحملة لويس التاسع. غير أنّ الصالح انقلب على الخوارزم لتآمرهم عليه، واستطاع القضاء عليهم بالقرب من حمص في 1246 لتختفي بالكامل آخر قوة إسلامية من الجنس التركي والمقاوِمة للمغول، لتترك المجال للمماليك المصرية وحدهم.

اتجهت القوة الرئيسية للمغول شمالاً تحت قيادة بعض أمراء الأسرة الجينكيزية، وعلى رأسهم الأمير باتو (حفيد جنكيز خان وابن أخ الخان الحالي أوجوداي) وتمكنت من الاستيلاء على براري جنوب روسيا وأوكرانيا، وأخضعوا جورجيا وأرمينيا بالقوقاز. بعد ذلك استولوا على بولندا بشرق أوروبا والمجر ومولدافيا بوسط أوروبا حتى وصلوا إلى أطراف فيينا بعد هزيمة الجيوش الأوروبية المتحالفة مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ وذلك خلال الأعوام 1241 – 1242. توقّفت تلك التوسعات كالعادة عند وفاة الخان الأكبر أوجوداي، وبدأ الصراع على السلطة في العاصمة. ثم انسحبت القوة المغولية من وسط أوروبا في 1242، واستمرت في براري جنوب روسيا مكونة ما يعرف بدولة مغول القبجاق، أو القطيع الذهبي (نظرًا لأنّ خيامهم التي كانوا يقيمون بها بصفة شبه دائمة كانت ذهبية اللون).

عند وفاة الخان الأكبر أوجوداي اضطر باتو، وغيره من الأمراء إلى العودة إلى كاراكروم، لانتخاب خان أكبر جديد وذلك في ديسمبر 1241 غير أنّ عملية الانتخاب هذه استمرت عدة سنوات نتيجة لخلافات عائلية، وبذلك توقّفت أعمال الغزو باستثناء بعض التوسّعات المغولية في مناطق آسيا الصغري – على حساب الدولة السلجوقية – في أواخر عام 1242

مما اضطر السلطان السلجوقي كيخسرو إلى الاعتراف بسيادة المغول على مملكته، وأصبح السلطان السلجوقي لُعبة في يد قواد الحامية المغولية (Runciman, *Crusades*, 3: 253).

أخيرًا أصبح جويوك بن أوجوداي الخان الأعظم في 1246 و لم تشهد سنوات حكمه القصيرة حتى وفاته في 1248 توسّعات ذات خطر، ومرة أخرى بدأ الصراع على لقب الخان الأعظم، وانتهى بانتخاب مونجك في مجمع عام في 1251 وهو حفيد جنكيز خان من ابنه الأصغر تولوي، وباستقرار الأمور عادت سياسة التوسع مرة أخرى. فقام الخان بتقسيم الإمبراطورية بين إخوته، فعهد بالصين في الشرق إلى أخيه كيوبيلاي، والأملاك المغولية الإسلامية بالغرب إلى هولاكو، وأبقى أخاه الأصغر أريقبوغا معه في منغوليا. أما أملاك المغول في روسيا وأوروبا، فتركها مع ابن عمه باتو خان القطيع الذهبي حتى توفي في 1256، وخلفه أخوه بركة الذي دخل دين الإسلام، واستمر في الحكم حتى وفاته عام 1267.

هولاكو هو الذي يعنينا هنا؛ لأنّ فارس كانت من نصيبه وخانات المغول كانوا يعتبرون أنفسهم أسيادًا للعالم، و لم يكن يقبل من أي ملك، أو حاكم آخر أن يكون ندًا لهم، وعليه إما الخضوع ليصبح تابعًا له يملك ويحكم باسم الخان (كما فعل السلطان السلجوقي) أو يحاربه حتى يقضي عليه. ولهذا تحرك هولاكو شرقًا بهدفين أولهما هو القضاء على طائفة الإسماعيلية (الحشاشين) في معاقلهم الحصينة بجبال فارس، نظرًا لأنّ حكم فارس لن يتم دون إزالتهم، والثاني القضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على سوريا ومصر.

3 – سقوط بغداد، والقضاء على الخلافة العباسية:

جمع هولاكو جيشًا ضخمًا من شتى أنحاء المملكة المغولية من الصين وغيرها، وأرسل مقدمة هذا الجيش تحت قيادة كتبغا أكثر قواده حنكة ومهارة، وبعد استعدادات مكثفة أخرى استغرقت ثلاث سنوات عبر هولاكو وجيوشه نهر جيحون (نهر أموداريا في أوزبكستان حاليًا) إلى فارس في 653/ 1256 وبدأ في حصار ومهاجمة معاقل الإسماعيلية حتى اضطر زعيم الطائفة ركن الدين خورشاه إلى الاستسلام، وأرسل بناءً على طلبه إلى كراكروم لمقابلة الشاه الأكبر الذي رفض استقباله، وقتل في طريق العودة إلى فارس. وسقطت قلعة ألموط المقر الرئيسي للطائفة، ومع نهاية 655/ 1257 كان قد تم للمغول القضاء على الطائفة، والاستيلاء

علي حصونهم وقتل معظم أفرادها، و لم تقم لهم قائمة بعد هذا كقوة يعتدّ بها إلا أنهّم استمروا في الوجود حتى اليوم كطائفة صغرى يعيش معظم أفرادها في الهند وشرق أفريقيا تحت الزعامة الروحية لرئيسهم الملقّب بالأغاخان (Runciman, *Crusades*, 3: 299 - 300).

سار هولاكو وقواده الأساسيون مثل كتبغا وبايكو باتجاه بغداد، ومعه أيضًا فصائل من حلفائه من الجورجيين والأرمن وبعض الشيعة ومسلمي الموصل. كان الخليفة العباسي المستعصم يترقّب هذا الهجوم، وكان قد ورث عن والده جيشًا ضخمًا يبلغ مائة أو مائة وعشرين ألف مقاتل، وكان الخليفة المستعصم محبًا للّهو، ضعيف الرأى. والأمر لوزيره مؤيد الدين بن العلقمي، وكان شيعيًا وصمه بعض المؤرخين بأنّه كان خائنًا متواطئًا مع هولاكو. أيًّا كان الأمر فقد أقبل الخليفة على أمرٍ فيه الكثير من الحمق – بناءً على مشورة وزيره العلقمي على ما يبدو– بأن سرّح جيشه هذا، وفكّكه وأرسل الأموال الناتجة عن هذا الوفر إلى هولاكو لكسب وده، وبالطبع لم يفلح في هذا.

اختصارًا فقد حاصر هولاكو بغداد، وهزم ما بقي من الجيش العباسي في الأنبار بالقرب من بغداد، ثّم حطم سورها، واقتحم المدينة في صفر 656/ 1258 وقبض على الخليفة وعائلته، واستباح المدينة لمدة أربعين يومًا، وقتل من أهلها رجالاً ونساء وأطفالاً بلا تمييز ما بين ثمانمائة ألف إلى اثنين مليون شخص، ولكنّه أبقى على حياة الطائفة المسيحية بواسطة من زوجته المسيحية دكوز خاتون. هُدمت القصور والمساجد والمشاهد، وأُحرقت مكتبة بغداد الشهيرة، ثّم قُتل الخليفة غرقًا أو خنقًا دون إسالة دمائه الملكية، طبقًا لقانون الياسا المغولي. وبوفاة المستعصم انتهت الخلافة العباسية، وخرّبت بغداد، و لم تقم لها قائمة بعد ذلك، وكانت حاضرة العالم. (أبو الفدا، المختصر، 233:3 – 234؛ المقريزي، السلوك، 409:1 – 410؛ ابن تغري بردي، النجوم، 47:7 – 61؛ Runciman, *Crusades*, 3: 304 -305).

4 – المغول وغزو الشام:

بعد سقوط بغداد وخرابها أقام هولاكو الوزير مؤيد الدين العلقمي في حكمها نائبًا عنه تحت وصاية أمراء من المغول وأتباعهم، وتحرك هو صوب الجزيرة والشام، فشعر أمراؤها بالذعر، وتملكتهم الانهزامية، وتسابقوا بإعلان الولاء للغزاة المغول. فقام بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بإرسال رسالة اعتذار كما تملق ورثة السلاطين السلاجقة في آسيا الصغري

هولاكو. حتّى الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي (صاحب حلب ودمشق) أرسل ابنه الملك العزيز كرهينة لـ هولاكو. ميافارقين بالجزيرة كانت الإمارة الوحيدة التي أعلنت المقاومة، و لم تستسلم وسقطت بعد حصار لمدة عامين، وكان نصيبها التدمير الشامل، وقتل كافة سكانها من المسلمين بما فيهم أميرها الأيوبي الملك الكامل محمد بن غازي بن العادل مع المحافظة على حياة المسيحين كعادة هولاكو، وذلك في 658/ 1260.

أما هولاكو نفسه فقد توجّه إلى حلب عبر جنوب الأناضول، وكان الناصر صلاح الدين يوسف في عاصمته الثانية دمشق، فاستنجد بباقي الأمراء الأيوبية، وأعلن ولاءه لمصر في حركة يائسة للنجاة وترك حلب لعمه الملك المظفّر تورانشاه بن الناصر صلاح الدين الكبير (ذكر ابن تغري بردى في النجوم 75:7 خطأ انه ابن الناصر يوسف الصغير) الذي قاوم المغول مقاومة شديدة لمدة أيام حتى هُزم واضطر للاستسلام وعفا عنه هولاكو في لحظة كرم (Clemency) نادرة وغير معهودة فيه، نظرًا لشجاعته وسنه المتقدم، ولكنّه مات بعدها بأيام. قاومت قلعة حلب، ولكن تمكن هولاكو من الاستيلاء عليها، فهدمها وخرّب أسوارها وأسوار المدينة ودورها ومساجدها وأسواقها وبساتينها حتى صارت مدينة أشباح. وقتل الكثير من أهالي حلب المسلمين، ونكّل بهم دون تمييز، ونجا القليل منهم ويقال إنّه أسر منهم مائة ألف من النّساء والصبيان، وعفى هولاكو عن كافة الطوائف المسيحية، وأقام على حكم حلب بعض أتباعه. وقد وافاه في حلب الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص المعزول، وكان من أوّل أمراء البيت الأيوبي الذين أعلنوا الولاء لهولاكو، فأعاد إليه أملاكه السابقة وجعله نائبًا له بالشام وذلك في صفر 658 /1260 (أبو الفدا، المختصر، 240:3 – 241؛ النويرى، نهاية الأرب، 29: 385؛ المقريزي، السلوك، 422:1 – 423؛ ابن تغري بردي، النجوم، 74:7 – 76؛ Runciman, *Crusades*, 3: 305-306).

بسقوط حلب أُسقط من يد الناصر صلاح الدين يوسف، فانسحب من دمشق ومعه مماليكه وجزء من البحرية منهم ركن الدين بيبرس، وتوجه الجميع إلى مصر بعد نجاة الناصر من مؤامرة لاغتياله على يد مماليكه، ومعه أخوه الملك الظاهر غازي. عند حدود مصر تردّد في دخولها، وانفصل هو وأخوه عن ركن الدين بيبرس، وعاد مرة أخرى للشام عازمًا التوجه إلى الحجاز غير أنه اغترّ بوعود هولاكو، أو طمع في عفوه فاستسلم لقائده كتبغا، وسلم إليه عددًا من قلاع وحصون الشام التابعة له، وأرسل إلى هولاكو بمدينة تبريز، فوعده بإعادته إلى

أملاكه السابقة ودعاه الناصر إلى غزو مصر، وهوّن له من قدرتها. فأعاده هولاكو إلى الشام غير أنّه بعد هزيمة هولاكو - كما سنرى لاحقًا - قبضت فلول الجيش المغولي المنهزمة عليه في الطريق، وأعادته إلى تبريز. وهناك انقلب عليه هولاكو وقتله هو وأخاه وأتباعه، وكان هولاكو متقلّب المزاج سريع الغضب، نظرًا لإصابته بداء الصراع. نقم عليه هولاكو تهوينه من شأن المماليك المصرية، ولا ندري هل تعّمد الناصر هذا في صحوة ضمير ندمًا على تخاذله في الدفاع عن وطنه؟ على أيّ حال فقد دفع غاليًا ثمن تخاذله، فقُتل منفيًا ذليلاً في 659/ 1261 عن عمر يُناهز اثنين وثلاثين عامًا نتيجة لمصانعته لـهولاكو، وعدم تحالفه مع المماليك المصرية. لم يكن جديرًا بسمعة سيئة، وجده الأكبر الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان هو آخر الأمراء العظام من السّلالة الصلاحية (أبو الفدا، المختصر، 240:3 - 244، 252؛ النويرى، نهاية الأرب، 29: 388 - 390).

بعد هروب الناصر أُعطى الأمان لدمشق في صفر 658/ 1260 واستسلمت بعد هذا في الشهر التالي، ودخلها كتبغا، وكان مسيحي الديانة فأمّن أهالي دمشق على حياتهم غير أنّه سمح لنصارى دمشق باضطهاد وإهانه المسلمين في دينهم وشعائرهم، ولم يوفر لهم الحماية. وتتابع بعد ذلك استسلام كل من حماة وحمص، والاستيلاء عُنوة على غزة والجليل ونابلس، حتى أصبح جلّ مدن الشام خاضعة للمغول في 658/ 1260.

خلال عام 658/ 1260 أصبح معظم العالم الإسلامي من خراسان، وأجزاء من أفغانستان وفارس والعراق وآسيا الصغري السلجوقية، وبعض القوقاز وأجزاء كبيرة من الشام خاضعة لحكم هولاكو مكوّنة إمبراطورية ضخمة تُعرف بالدولة الإيلخانية أو بمغول فارس -كما سنطلق عليها هنا تمييزًا لها عن الدول المغولية الأخرى- أما بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق سلالات إسلامية تدين له بالولاء، وكانت عاصمتها في مدينة تبريز بإيران. أصبحت كبرى العواصم الإسلامية مثل بغداد وحلب ودمشق تحت الاحتلال المغولي تتحكّم فيهم الطوائف المسيحية، وكانت مدن الشام وفلسطين الساحلية وتوابعها معظمها خاضعة للحكم اللاتيني من فرنجة الشام. تعرض الإسلام بذلك لأزمة حقيقية قد تعرّضه للفناء، أو ليصبح ديانة محلّية تدين بها أقليّات متفرقة. وأصبحت مصر المملوكية هي الملاذ الأخير للإسلام في الشرق، والقوة الوحيدة الباقية العازمة على المقاومة حتى النهاية.

ماذا كان موقف الإمارات الصليبية اللاتينية في الشام من هذا الصراع الدّامي؟ خانات

المغول وعائلاتهم – على قسوتهم وفظاظتهم – كانوا متسامحين من الناحية الدينية. معظمهم يدينون بالديانات الشامانية على دين أجدادهم، ومن حينٍ للآخر يعتنق بعضهم البوذية أو المسيحية (النسطورية الشرقية في الغالب)، أو حتى الإسلام دين أعدائهم، وكان هذا ربّما لعدم الاكتراث أكثر منه لثقافة قبول الآخر. لهذا فإن حروبهم وغزواتهم، أو تحالفاتهم لم يكن دافعها الدين أبدًا؛ ولكنها محكومة برغبة التوسع والسيطرة والهيمنة علي العا لم المعروف كما ذكرنا سابقًا.

كانت النصرانية النسطورية معروفة في مناطق شرق آسيا ومنغوليا الخاضعة للمغول، وكان لها أتباع كثيرون في الشرق الإسلامي أيضًا، وتقليديًا كان الأرمن وجورجيا (من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية) متحالفين مع هولاكو والمغول وخصوصًا هيثوم ملك الأرمن. أمّا المسيحيون اللاتين (الكاثوليك) في طرابلس وعكا وصور، وباقي الإمارات الصليبية بما فيهم فرسان المعبد والإسبتارية، فكانوا متردّدين، و لم يحسموا موقفهم. بعضهم يرغب في التحالف مع المغول على أساس أنّ عدوّ عدوي هو صديقي مثل إمارة إنطاكية؛ نظرًا لقربها من مملكة الأرمن بالأناضول، وصلة القرابة التي تجمع بين سلالتها الحاكمة والعائلة الملكية الأرمنية. ولكن الأغلبية كانوا أكثر ثقة بالمسلمين عنهم بالمغول؛ نظرًا لطول العلاقة التي بلغت قرنًا ونصف القرن من التعايش حربًا أو سلمًا معهم. فلم يثقوا في هؤلاء الغزاه القادمين من الشرق البعيد، والمطبوعين على سفك الدماء.

لم يبد المغول أي نيات توسعية تجاه الإمارات الصليبية، وكانت الأخيرة تعاملها باحترام وحرص غير أنّ المغول لم يتردّدوا في ردع أيّ من البارونات الصليبيين إذا اعتدى على أي من حقوقهم كما حدث في عام 1259 عندما أغاروا على صيد (إحدى المدن الصليبية الكبرى)، ونهبوها ودمّروها تأديبًا لهم. حاول الكثير من خانات المغول، وبعض القوى الأوروبية عقد محالفة ضدّ القوى الإسلامية، وخصوصًا مصر المملوكية، ولكنّها باءت جميعًا بالفشل نتيجة لأسباب عديدة سنعرض لها في حينها. هكذا غداة المعركة الحاسمة بين المغول، وآخر معاقل المقاومة الإسلامية في مصر المملوكية قررت الإمارات الصليبية الوقوف على الحياد في هذه المواجهة، بل والسّماح للمسلمين بالمرور في أراضيها، ولكنّها لم تقّدم لهم أيّ مساعدة عسكرية.

في أغسطس 1259 (657) مات الخان الأعظم مونجكا –كان مريضًا ومدمنًا للخمور–

وهو في الصين مع أخيه كيوبلاي. كالعادة انقسمت العائلة في اختيار الخان الجديد، وانحصرت المنافسة بين كلّ من كيوبلاي وأخيه الأصغر أرتقبغا، وجمع كل منهم مجمع العشائر (كوريلتاي) لانتخابه كخان أعظم، وانقسمت العائلة الجنكيزية. فبينما كان هولاكو متعاطفًا مع كيوبلاي كان ابن عمه زعيم القطيع الذهبى في جنوب روسيا يناصر أرتقبغا. لهذا اضطر هولاكو لمغادرة حلب، ومعه جزء كبير من جيشه والاتجاه شرقًا إلى عاصمته تبريز، ليكون بالقرب من الأحداث، واستخلف كتبغا كنائب عنه في دمشق والشام، نظرًا لتوتر العلاقة بينه وبين ابن عمه خان القطيع الذهبى، حيث كان الأخير متعاطفًا مع المسلمين والأول مع المسيحيين. وعلى الرغم من أنّ الأخ الأصغر أرتقبغا كان مسيطرًا على العاصمة والخزينة الملكية إلا أن كيوبلاي تمكن من أن يصبح الخان الأعظم في 659/ 1260 (Runciman, *Crusades*, 3: 308-310).

الفصل الرابع

المماليك المصرية – التكوين والشتات

1 – من جزيرة الروضة إلى قلعة الجبل – سنوات التكوين:

في الفصول السابقة تعرضنا لخطّين أو ظاهرتين. الأولى هي ظاهرة الرق العسكري في الإسلام، وبداياتها خارج مصر في الدولة العباسية، والظروف التي أدّت إلى تكرار تلك التجربة – وإن كان بصورة مخالفة – في مصر عند نهاية الدولة الأيوبية، وظهور فرقة المماليك البحرية كنواة لمصر المملوكية؛ أما الظاهرة الثانية فهي التطور الأفقي المعماري لمدينة القاهرة كانعكاس لتطور الظروف السياسية، والاجتماعية الدينية، والاقتصادية لما للعمارة والعمران من أهميةٍ في تفسير الكثير من الظواهر التاريخية. هاتان الظاهرتان تعطيان الخلفية اللاّزمة لرؤيا مصر المملوكه في سياق التطور التاريخي الزماني والمكاني.

التقى الخطّان عند نهاية الدولة الأيوبية في دولة الصالح نجم الدين أيوب (توفي في 647/ 1249) وهي بداية فترة من أصعب فترات التاريخ الإسلامي لمصر، لتعرضها في نفس الوقت تقريبًا إلى هجمتين شرستين من الغرب والشرق.

ولنبدأ من الغرب ففي خِضمّ الصراعات الداخلية الأيوبية –كما عرضنا لها بإيجاز– بدا أنّ السلطان نجم الدين الأيوبي أصبح كبيرًا للعائلة الأيوبية بفضل فرقته البحرية. تزامن هذا

مع ما كان يجري في أوروبا من التحضير لحملة صليبية أخرى كبيرة على مصر كرد فعل لعودة القدس مرة أخرى للمسلمين (641/1244) وتحطّم الجيش الصليبي في معركة الحربية Le Farbie قرب غزة في نفس العام. كغيرها من الحملات الصليبية أخذ لويس التاسع عهدًا بحملة جديدة في 1244 باركها البابا أنوسنت المقيم في ليون بفرنسا، وتجمّعت قوة ضخمة من شتّى أنحاء أوروبا والشرق اللّاتيني خلال الثلاثة أعوام التالية أقلعت من فرنسا نهاية 1248 وأمضت أشهر الشتاء في قبرص قبل نزولها على مدينة دمياط في صفر 647/ 1249 بقوة حوالي خمسين ألف مقاتل (Runciman, *Crusades*, 3: 260 - 61).

كان الصالح نجم الدين أيوب في الشام، وكان على علم مُسبق بقدوم الحملة الصليبية عن طريق فريدريك الإمبراطور الروماني المقدس، وصديق العائلة الأيوبية الحميم، المناوئ للبابوية وهو على علم بأنّ هدفها مدينة دمياط. كان السلطان مريضًا، فنقل بعجل على محفة إلى مصر، ورتب قوات من عربان بنو كنانة، ويعرف عنهم الشجاعة مع غيرهم من مماليكه وأجناده تحت قيادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ، للدفاع عن دمياط. ولسببٍ ما هرب المدافعون عن المدينة، وأخلوها فدخلها الفرنجة، واستولوا عليها دون قتال. شقّ الأمر على الملك الصالح، وكان في النزع الأخير، فأمر بشنق شيوخ بنوكنانه، لتقاعصهم واكتفى بتبكيت فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والمماليك. ونزل السلطان المحتضر إلى مدينة المنصورة محمولاً على محفّة مع سائر جنده، فاشتدّ عليه مرض السل، حتى وافته المنية في شعبان 647/ 1249. أخفت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته عن الجميع سِوى فخر الدين بن شيخ الشيوخ قائد الجيش، وذلك خوفًا من الفرنجة. لم يوصِ الصالح بأحد لخلافته، و لم يكن له سِوى ولد واحد هو المعظّم توران شاه، وكان في حصن كيفا بجنوب الأناضول، فحلف له الأمراء والأجناد كسلطان، وبعثت شحرة الدر سرًا لاستدعائه (أبو الفدا، المختصر، 3: 217 – 218).

نظرًا لصعوبة موقفه عرض السلطان الجلاء عن دمياط مقابل إعادة القدس إلى الفرنج، فرفض ملك فرنسا وتوجّه بجيوشه إلى الجنوب، وعسكر على ضفة البحر الصغير وهو متفرّع من الفرع الشرقي للنيل مقابل مدينة المنصورة لمدة ستة أسابيع. في فجر اليوم الثامن من فبراير عام 1250 (ذو القعدة 647) عبرت مقدمة الجيش الصليبي البحر الصغير بقيادة أخ للملك من مخاضة سرية– يقال إنّه دلّه عليها أحد الخونة من المصريين الأقباط– وفاجأت

المعسكر المصري بالقرب من مدينة المنصورة، وقتلت العديد من بينهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ قائد الجيش. انتشت المقدمة بهذا النصر السهل، و لم تشأ أن تفقد عنصر المفاجأة، فخالفت تعليمات الملك الفرنسي، وهاجمت مدينة المنصورة دون انتظار لقوة الجيش الرئيسية بقيادة الملك لويس التاسع والتي لم تعبر المخاضة بعد.

غير أن المصريين كانوا قد أعادوا تنظيم قواتهم، والتحموا مع الجيش الصليبي في معركة رجل لرجل شديدة الوطيس داخل شوارع مدينة المنصورة أسفرت عن هزيمة طليعة الجيش الصليبي، وأبادته وقتلت قائده. وكان قوام الجيش المصري يتكون من فرقة المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس البندقداري (الملك الظاهر لاحقًا). وتمكّن القليل من فلول مقدمة الجيش الصليبي المهزومة من العودة للملك –الذي كان قد أتمّ عبور البحر الصغير هو وجيشه– وأخبروه بالكارثة فلم يسعه سوى المرابطة في معسكره، واستطاع رد هجمات القوات المصرية خلال الأسابيع القليلة التالية التي أحكمت فيها الحصار حول الجيش الصليبي.

في تلك الآونه في ذي القعدة 647/ 1250 وصل السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة، وتسلّم مقاليد الأمور، وأدرك الملك الفرنسي صعوبة موقفه فحاول المفاوضات، وعرض إعادة دمياط مقابل القدس، وبالطبع رفض المصريون واستمرّ الحصار حتى نفذت المؤن من الجيش الصليبي، وتفشتّ فيهم الأمراض والأوبئة، فلم يجد الملك الفرنسي مندوحة عن الانسحاب إلى دمياط عن طريق النيل وعن الطريق البري. غير أنّ القوات المصرية تعقبتهم برًا وبحرًا، وأنزلت بهم الهزيمة مما اضطرّ الملك الفرنسي إلى الاستسلام هو وقواته، وأرسل مندوبًا عنه إلى الملك المعظّم للاتفاق على شروط الاستسلام (Runciman, *Crusades*, 3: 264 - 275).

2 – المرحلة الانتقالية – شتات البحرية:

في تلك الأثناء – أي خلال فترة الحصار – وقعت الوحشة بين الملك المعظم، وبين الفرقة البحرية من ناحية نتيجة لتقديمه أعوانه عليهم مع شعورهم بأنهّم أصحاب النصر بالمنصورة، ومن الناحية الأخرى بينه وبين زوجة أبيه شجرة الدر لمطالبته إياها بإعادة أموال أبيه. أدّى هذا الخلاف في النهاية إلى اغتيال المعظّم بواسطة البحرية بعد مأدبة في محرم 648/ 1250

وكان العقل المدبّر هو ركن الدين بيبرس البندقداري. هي المرة الأولى التي يقتل فيها قواد المماليك سلطانهم بعد تحقيق نصر كبير في معركة مصيرية، ولكنّها لن تكون الأخيرة. اتفق الأمراء على سلطنة شجرة الدر أرملة الملك الصالح على أن يصبح عز الدين أيبك الصالحي أتابك العساكر أي القائد العام للجيش. ويقول أبو الفدا في مختصره:

"وحلفوا (أي الأمراء) على ذلك، وخُطب لشجرة الدر على المنابر، وضُربت السكّة باسمها، وكان نقش السكّة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل" (أبو الفدا، المختصر، 220:3).

كانت المفاوضات مع ملك فرنسا خلال فترة حبسه في دار ابن لقمان الشهيرة بالمنصورة أسفرت عن استسلامه هو وجيشه على أن يعيد مدينة دمياط مقابل الإفراج عنه وعن قواده، وأن يدفع فدية للإفراج عن باقي أفراد جيشه مقابل مبلغ أربعمائة ألف دينار، وبذلك انتهت هذه الحملة بالفشل الذريع، وكانت آخر الحملات الصليبية الكبرى تحت قيادة أي من الملوك الأوروبيين، وكانت أيضًا بمثابة ميلاد لفرقة المماليك البحرية التي أظهرت قدراتها العسكرية الفائقة، لينمو هذا الوليد، ويصبح عملاقًا.

عاد الأمراء إلى القاهرة في صفر 648/ 1250 وحلفوا للملكة الجديدة، وبالطبع كان استمرار شجرة الدر – الملكة الأولى والأخيرة التي حكمت مصر اسمًا، وفعلاً في العصر الإسلامي – تحيطه الكثير من الصّعاب نظرًا لخروجه عن التقاليد المألوفة في العالم الإسلامي، وتهكّم الخليفة العباسي المستعصم في بغداد على توليتها، واعتراضه عليها. كذلك تحرك الأمراء الأيوبيون في الشام ضد مصر، واستولى الناصر يوسف الحفيد الأكبر للناصر صلاح الدين الأيوبي على دمشق، وبدا أنّ المواجهة بين الأمراء المصرية والشامية قادمة لا محالة. أدرك الأمراء المماليك صعوبة الموقف، فتزوج أحد كبارهم وهو الأتابكي عز الدين أيبك من شجرة الدر، وتنازلت له عن السلطنة بعد ثمانين يومًا، ولقّب بالملك المعز في ربيع الآخر 648/ 1250 ليصبح بذلك أول سلاطين المماليك، وإن رأى البعض أنّ شجرة الدر هي سلطانة المماليك الأولى (المقريزي، الخطط، 237:2).

هنا برزت نقطة الضعف الأساسية والتي عانت منها دولة المماليك في بداياتها الكثير وهي الشرعية. التماس الشرعية للحاكم كانت معضلة في شتّى أنحاء العالم الإسلامي، ولم تكن قاصرة علي المماليك فقط. فحق اختيار الحاكم بواسطة إجماع، أو أغلبية المحكومين

على الرغم من بساطته ووضوحه، وملاءمته للفطرة لم يكن مطروحًا في العالم الإسلامي إلاّ في العصور الحديثة، ولم يزل غير مقبول أو مطّبق حتى اليوم في كثير من البلدان الإسلامية خصوصًا العربية منها! مع عدم وجود أي نصوص صريحة في القرآن العظيم لتنظيم السلطة السياسية، وتركها للاجتهاد. دأب الطامعون للحكم على استلهام الشرعية عن طرقٍ مختلفة دينية ودنيوية معروفة، وسردها خارج نطاق هذا الكتاب. ما يعنينا هنا فقط بأنّ أزمةَ إضفاء الشرعية علي السّلطة المملوكية التي عانت منها مثلما عانت جميع الأنظمة السياسية الأخرى، ولكنّها زادت عنها بعبء أثقل وأوضح هو أنّ النخبة المملوكية في الأصل رقيق يُباعِ ويُشترى، فكيف يدّعي من مسّه الرق الحق في الحكم؟! فقد استطاعت الدولة المملوكية تخطّي تلك العقبة بنجاحٍ كبير بوسائل عديدة سنعرض لها.

أول ما لجأت إليه الصّفوة المملوكية، لإضفاء الشرعية علي السلطة هو اختيار أحد الأمراء الأيوبيين (وقد توارثوا الشرعية المكتسبة بصورة عملية من جدهم الأكبر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بقضائه على الحكم الفاطمي الشيعي ودفاعه بنجاح عن الأمة الإسلامية ضد أعدائها من الصليبيين، ولكنه استمدّ الشرعية اسمًا من مباركة أمير المؤمنين الخليفة العباسي له وتقليده بالسلطنة) لمشاركة السلطان المملوكي في الحكم ولو اسمًا. فاختار الأمراء صبيًا عمره ست سنوات اسمه موسي بن الناصر وهو أحد أحفاد الكامل محمد بن العادل الأيوبي وسلطنوه ولُقّب بالمظفّر موسي، ليكون شريكا في الحكم للمعز أيبك، ليفضي الشرعية على السلطنة (المقريزي، الخطط، 2:237).

السنوات التالية كانت مرحلة صراع خارجي ضد الأمراء الأيوبيين في الشام، وعلى رأسهم الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب، وداخليًا بين السلطان وزوجته، وأمراء الفرقة البحرية. سار الناصر يوسف بجيوشه وحلفائه من الأمراء الأيوبيين والمماليك العزيزية (نسبة إلى والده العزيز محمد بن الظاهر غازي) إلى مصر لغزوها، فترك المعز أيبك المظفّر موسى، وتوجه بالجيش المصري وقوامه فرقة المماليك البحرية، وتقابل الجمعان بالعباسة بالقرب من مدينة الزقازيق في ذي القعدة 648/ 1251 فكانت الكسرة أولاً على أيبك التركماني، وبدأ في الانسحاب – لم يتميز أيبك بالشجاعة والإقدام– وتبعه الكثير من الجنود المصرية بالانسحاب إلى القاهرة. غير أنّ طائفة المماليك العزيزية انقلبت على الناصر يوسف، وانضمّت إلى السلطان فانقلبت دفّة المعركة فعاود أيبك الهجوم، وانسحبت القوات الشامية عائدة

شمالاً. وتمّ النصر لأيبك، وقبض على بعض الأمراء الأيوبيين وقوادهم، وأعدم بعضهم.

ثم قام أيبك بالاستيلاء على غزة في هذه السنة بواسطة الفرقة البحرية، ومقدمها فارس الدين أقطاي (أبو الفدا، المختصر، 3: 222 - 224) واستمرّت المناوشات بين الجانبين، وحاول الناصر يوسف استمالة الملك لويس التاسع - الذي لم يعد إلى موطنه فرنسا مباشرة، بل استمرّ في الإقامة بمدينة عكّا بعد إطلاق سراحه من المنصورة - بأن لمح إليه بإعادة مدينة القدس في مقابل مساعدته على الاستيلاء على مصر، و لم يقبل لويس التاسع تلك المبادرة، نظرًا لوجود عدد ضخم من الأسرى الصليبيين في مصر. وتشير المصادر الغربية إلى أنّ المعز أيبك لما علم بتلكٍ المفاوضات سارع بإرسال الهدايا إلى لويس التاسع، وأطلق سراح ثلاثة آلاف أسير، ثم جميع الأسرى بعد هذا، بل عرض على الملك الفرنسي إعادة جميع أملاك مملكة القدس حتى نهر الأردن مقابل مساعدته في حالة نجاحه في الاستيلاء على دمشق وفلسطين (Runciman, *Crusades*, 3: 276).

لا ندري حقيقة تلك العروض لإعادة القدس، وهل كانت جادةّ؟ على أى حال فأيًا من تلك التحالفات المزعومة لم يتحقّق، وعزف كل من الطرفين الشامي والمصري عن المواجهة حتّى قام الخليفة المستعصم بالوساطة بينهم نظرًا لبدء ظهور الخطر المغولي القادم من الشرق. فتمّ توقيع هدنة بين الطرفين في بداية عام 651/ 1253 على أن تبقى مصر وجنوب سوريا حتى نهر الأردن لسلطان المماليك (أبو الفدا، المختصر، 3:225).

غير أنّ السلطان المعز أيبك - وكان سفاكًا للدماء طبقًا للمقريزى- أراد الانفراد بالسلطة، وذلك لتنامي قوه ونفوذ أقطاي (رئيس البحرية) وزواجه من ابنة أمير حماة الأيوبي، ورغبته في الإقامة بالقلعة، فدبّر مؤامرة لقتله بأن دعاه إلى القلعة، وأمر بعضّ مماليكه وهم قطز نائب السلطنة ومملوكين آخرين يُقال لهم بهادر وسنجر الغنمي باغتيال أقطاي. ولما علمت البحرية بنجاح هذه المكيدة سارعوا بالفرار من القاهرة. فسار جزء من البحرية إلى آسيا الصغرى، ولجؤوا إلى السلطان السلجوقي علاء الدين، وتوجّه جزء آخر تحت قيادة ركن الدين بيبرس، وسيف الدين قلاوون إلى الشام، ومكثوا بها لعدة سنوات متنقلين من خدمة أمير أيوبي إلى آخر. وكانت هذه فترة الشتات للبحرية (أبو الفدا، المختصر، 3:229).

بمقتل أقطاي وشتات البحرية وهم من فرض المظفّر موسى كسلطان شريك انفرد المعز أيبك بالسلطة بعد عزل المظفّر موسى، وانقضت بذلك الدولة الأيوبية في مصر. أما الشام

فاستمرت المفاوضات بين الناصر يوسف صاحب دمشق، والفرقة البحرية التي لجأت إليه وبين عز الدين أيبك، وحاول الخليفة المستعصم مرة أخرى الوساطة، واستقرّت الأمور على أنّ الشام للناصر يوسف، ومصر لعز الدين ايبك في 653/ 1255. إلاّ أنّه حدثت الوحشة بين عز الدين أيبك، وزوجته شجرة الدر خصوصًا لرغبة الأخير في الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فدبرّت شجرة الدر اغتيال السلطان في الحمّام بواسطة بعض الخدم في ربيع الأول 655/ 1257. واتفق الأمراء على إقامة نور الدين على ابن الملك المعز من زوجته الأولى سلطانًا، ولقّبوه بالملك المنصور وعمره خمسة عشر عامًا. وقُبض على شجرة الدر وشركائها، وحُبست بالقلعة إلى أن قُتلت في ربيع الآخر 655/ 1257. وأصبحت المماليك الصالحية هي المسيطرة على الحكم، نظرًا لصغر السلطان وعلى رأسهم سيف الدين قطز، وركن الدين أقطاي المستعرب وسنجر الغنمي.

تميزت تلك الفترة بالانقسام بين مصر وأمراء الشام الأيوبيين، وطوائف المماليك فطائفة المماليك البحرية المصرية، وأبرزهم الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون في شتاتها بالشام انقلبت على الناصر يوسف صاحب الشام، وتحالفوا مع المغيث عمر صاحب الكرك الأيوبي، وساروا يريدون انتزاع مصر من يد المماليك الصالحية في مصر، ولكنّهم هُزموا وتراجعوا إلى الكرك في 656/ 1258. كماسبق لطائفة المماليك العزيزية – وهي التي لجأت إلى مصر فرارًا من صلاح الدين يوسف صاحب الشام انقلابها على المعز أيبك واضطرت إلى العودة إلى الشام (أبو الفدا، المختصر، 3:232؛ المقريزي، السلوك، 1: 206؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7:44 – 47).

بحلول عام 657/ 1259 وبعد سقوط بغداد، والاكتساح المغولي ظهر للجميع النيات التوسعية للمغول، وعجز الأمراء الأيوبيون عن مدافعتهم، واستنجد الناصر صلاح الدين بالمماليك المصرية، وأصبحت مصر في خطر، فرأى قطز نائب السلطنة (وكان مملوكًا للمعز أيبك) خطورة وجود سلطان صغير، وعزم على الانفراد بالسلطة. انتهز قطز فرصة غياب الأمراء الكبار في الصّيد، فجمع القضاة والشيوخ والوزراء، وخلع السلطان، وأقام نفسه سلطانًا وتلقّب بالملك المظفّر في ذي القعدة 657/ 1259 في سابقة هي الأولى من نوعها بأن يخلع مملوك ابن سيده السابق، ليحلّ محلّه، ولكنها بالطبع لن تكون الأخيرة. وهذا العمل قد لا يخلو من الدوافع والأطماع الشخصية؛ ولكنّه يشير إلى مبدأ هام ينبعُ من طبيعة النّظام

المملوكي ألا وهو حق جميع الأمراء في السلطنة. لهذا اغتنم قطز فرصة غياب الأمراء الكبار علم الدين سنجر المعظمي، وسيف الدين بهادر، بل وقام باعتقالهم تحسبًا لاعتراضهم على سلطنته تأكيدًا لمبدأ المساواة، والذي سيستمر طالما استمرّ النظام باستثناء ما حدث مع السلالة القلاوونية. هذا المبدأ يشكل تغييرًا جذريًا في نظام الحكم في مصر المستقلّه، والتي توراثته دائمًا سلالة حتى نهايتها تكريسًا لمبدأ التوريث، وتأكيدًا على حق المولد.

باعتلاء قطز السلطنة في 657/ 1259 تنتهي مرحلة الانتقال من الدولة الأيوبية إلى مصر المملوكية. كطبيعة المراحل الانتقالية لم يكن هناك مُتّسع من الوقت، أو الموارد للبناء والتشييد، فلم تبق لنا أيّ آثار من تلك الحقبة التي امتدت حوالي عشر سنوات. ولكننا تجاوزًا نستطيع أن نُلحق بها أثرين مُميّزين باقيين حتى اليوم؛ الأول هو قبة ضريح الملك الصالح نجم الدين أيوب (أثر 38) وقامت ببنائه السلطانة شجرة الدر، ملحقًا بمدرسته في بين القصرين، وقد نقلت جثّة الصالح نجم الدين أيوب من المنصورة إلى قلعة الروضة سرًا، وبعد أن خلعت نفسها من السلطنة قامت بنقل الجثة في احتفالٍ مهيب، ودُفن بهذة القبة في رجب 648/ 1250 (المقريزي، الخطط، 2: 374) أمّا الأثر الآخر فهو قبة ضريح شجرة الدر نفسها (أثر 169، 648/ 1250) وقد دُفنت فيه بعد مصرعها، وتخطيط قبة الضريح من مكعّب يعلوه منطقة انتقالية، ثم قبة كان معروفًا قبل هذا الوقت، وظلّ كما هو طوال العصر المملوكي بصورةٍ متطورة في تفصيلاته. والجديد هنا هو استعمال القبة الضريحية لدفن شخصية دنيوية لا تنتمي إلى آل البيت النبوي، أو من زمرة العلماء، وأولياء الله الصالحين وهي النواة الأولى لمثل تلك المنشآت الجنائزية، والتي انتشرت بشكلٍ كبير في العصر المملوكي.

الفصل الخامس

المجتمع المصري المملوكي

عرضنا فيما سبق إلى نشأة الدولة المملوكية وفترتها الانتقالية حتى ظهور التحدّيات الخارجية من المغول والفرنجة. قبل عرض مرحلة المواجهة والانتصار للإسلام، ثم الأطوار التي مرّت بها مصر المملوكية بعد هذا يجدر بنا أن نتعرّف على هذا النظام القديم الجديد، ثم نلقي بعد هذا الضوء على مؤسساته المختلفة. علمًا بأنّ معظم مكونات هذا النظام وعناصره كانت موجودة من قبل، وأعيدت صياغتها في منظومةٍ جديدة.

1 - المجتمع المصري: مماليك لكن مصريون

بداية سنعرض المكوّنات الرئيسية للمجتمع المصري، وطبقاته المختلفة في مصر المملوكية بشكلٍ عام، وإلى الصفوة المملوكية بشكلٍ خاص. قام المقريزي في مؤلفه "إغاثة الأمة بكشفُ الغمّة"، وموضوعه الأساسي أسبابُ الأزمة الاقتصادية العاصفة التي مرّت بها البلاد عام 806/ 1403 بذكر أقسام المجتمع المصري بتقسيمه إلى سبعة أقسام، فيقول:

"القسم الأول أهل الدولة، والقسم الثاني أهل اليسار من كبار التجار وأولي النعمة من

ذوي الرفاهية، والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من صغار التجار، ويقال لهم أصحاب البز، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة (أي المتاجرين بالأسواق) والقسم الرابع أهل الفلح (الفلاحين) وهم أهل الزراعات والحرث، سكان القرى والريف، والقسم الخامس الفقراء وهم جُلّ الفقهاء وطلاب العلم، والكثير من أجناد الحلقة (الجنود من المماليك الذين لا ينتمون إلى السّلطان أو أحد الأمراء كما سنفسر لاحقًا) ونحوهم، والقسم السّادس أرباب الصنائع، والأجراء أصحاب المهن، والقسم السّابع ذو الحاجة والمسكنة وهمٌ السوّال الذين يتكفّفون الناس، ويعيشون منهم" (المقريزي، الاغاثة، 72 – 73).

على الرغم من أنّ المقريزي يعرض لهذه الأقسام بإشارة عارضة –و لم يناقشها بالتفصيل– بغرض بيان تأثير الأزمة الاقتصادية، والنّقدية على كلٍّ منهاً إلا أنّها بلا شك تُوضّح الطبقات الاجتماعية السائدة في المجتمع المصري المملوكي بشكلٍ عام. فالطبقة الأولى وهي أهل الدولة هي الصفوة الحاكمة والتي تتمتع بالنفوذ السياسيٍ والمالي. و لم يقصر المقريزي هذا القسم على المماليك فقط حيث إنّ أهل الحكم ينقسمون إلى قسمين هم أهل السيف، وأهل القلم. وأهل السيف هم المماليك، ومنهم جاء جميع السلاطين باستثناء حالة واحدة سنعرض لها في حينها – كذلك جميع أفراد وقادة الجيش تقريبًا، والكثير من أصحاب المناصب الإدارية، والغالبية العظمى هم مِمّن مسّهم الرق أي كانوا رقيقًا في بداية حياتهم، ثم أُعتقوا وهم أبناء الجيل الأول من المماليك. أمّا أهل القلم في غالبيتهم من تلقوا العلم في المنشآت التعليمية المختلفة، و لم يمسّهم الرق، وولدوا أحرارًا، وإن كان بعضهم ينحدر من أصولٍ مملوكية. أهل القلم كان يتولّون الكثير من المناصب الإدارية العليا غير العسكرية، وجميع المناصب القضائية والدينية والتعليمية. وأهل السّيف ينحدر معظمهم من أصولٍ أثنية تركية وشركسية، وبعضهم من أصولٍ مغولية أو أوروبية أو آسيوية. أمّا أهل القلم فينتمون غالبًا إلى أصولٍ مصرية، ومنهم أيضًا فرس وأتراك ومغاربة.

الطبقة أو القسم الثاني من كبار التجار ذوي الثروات الضخمة وهم في الغالب التجار الذين يتعاملون في التجارة الخارجية مع اليمن والهند وجنوب شرق آسيا والصين وأفريقيا، وذلك في كثير من السّلع مثل: التوابل والسكر، والخشب، والمنسوجات، والأحجار الكريمة، والقمح، والخزف، وأحيانًا العنبر، وهذه الفئة كانت تشكّل طبقة تسمّى بتجار الكارم أو الكاريم، وعلى الرّغم من ثرواتهم الضخمة كان نفوذهم السياسي محدودًا جدًا أو غير موجود. الجزء الثاني من كبار التجار كانوا تجار العبيد، وخصوصًا تجار المماليك

والجواري، وقام هؤلاء التجار بجلب المماليك من الشّمال عن طريق تبريز والشام؛ لإمداد الدولة بحاجتها الدائمة إلى مماليك صغار؛ العنصر الأساسي للجيش والدولة كذلك الجواري، وغالبًا ما كان هؤلاء التجار يتمتّعون بنفوذٍ سياسيّ، نظرًا لأنّ عملاءهم الرئيسين هم السلاطين وكبار رجال الدولة من المماليك، وبعضهم جاء إلى مصر عن طريق هؤلاء التجار، وقد يُنسبون إليهم، ولكنّهم لم يشكّلوا طائفة مثل تجار الكاريم – وكانوا يعملون بصورة منفردة (Tsugitaka, *MSA* 10 (1) 2006, 154) وأكثرهم من غير المصريين.

القسم الثالث هم صغار التجار الذين يعملون بالأسواق، ويتعاملون في شتى البضائع. والبزاز هو تاجر المنسوجات والكتان وأنواع الملابس المختلفة، وهم الطبقة الوسطي في هذا المجتمع. القسم الرابع هم الفلاحون والمزارعون الذين يقومون بزراعة الأرض، ودفع ما عليها من خراج إلى مقتطعي تلك الأنحاء، وبالطبع معظمهم إن لم يكن جميعهم من المصريين.

القسم الخامس من الفقهاء والمتعلمين ويتعاطون المناصب الصغرى في الدولة، أو غيرها من المؤسسات الأهلية، أو في خدمة الطبقات العليا، فيعملون ككتبة، أو في التدريس كذلك الطلبة. تنتمي إلى تلك الطبقة والتي تعبر عن الطبقات الفقيرة الكثير من أجناد الحلقة وهم كاحتياطي للجيش العامل يتقاضون عطايا، ومرتبات ضئيلة من الدولة، ومعظم هؤلاء من أصول مملوكية من أبنائهم أي من الجيل الثاني منهم، وإن كان ينتمي إلى الحلقة أيضًا أجناد من الأكراد والتركمان والبدو والمغول، وأحيانًا من المصريين أيضًا.

القسم السادس هم العمال والصنّاع، وأصحاب الحرف يمارسونها في أسواق وأماكن معروفة بهم ولهم شيوخ، ولكن لم يكن لهم طوائف منظّمة كما هو في بعض المجتمعات الأوروبية أو المصرية في العصور المتأخرة. في القاع يبقى من لا ينتمي إلى أيّ من الأقسام السابقة، ويعيشون على السؤال والإحسان.

من هذا الموجز يتضح أنّ أساس الانتماء الطبقي (خارج الصفوة الحاكمة) كان اقتصاديًا غالبًا، وأنّ طبقة المماليك ممّن مسهّم الرق كانت محتكرة للسلطة العسكرية، والثروة في جيلها الأول فقط، ولم تقم بتوريث تلك المميزات إلى سلالتها ومعظم الجيل الثاني من المماليك (وهو ما يعرف بأولاد الناس) كان يلقى نفس مصير الطبقات الاجتماعية الأخرى في معظم الأحيان.

النظرة التقليدية السائدة عن المماليك –التي أعارضها هنا– أنّهم كانوا طبقة منعزلة عن المجتمع الذي حكموه كما عبّر عنها قاسم عبده بقوله:

"قد أحسّ المماليك أنّهم غرباء عن البلاد، و لم يحاولوا الاندماج فيها وفي حياة المصريين عمومًا، بل إنّ منهم من لم يتعلّم العربية على الإطلاق (قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، 16) وامتدادًا لتلك النظرة –حسب قوله– "فإن المصريين من جهة أخرى لم يروا في المماليك سوى طائفة من الغرباء الذين يحكمونهم بتفويض من الخليفة العباسي في القاهرة، ويغلب على الظن أنّ مشاعر المصريين تجاه أولئك الغرباء الذين تولّوا حكمهم على مدى أكثر من قرنين من الزمان، كانت مزيجًا من الكراهية السياسية، والعداء الاجتماعي، والولاء الديني".

بمعنى آخر كان هناك استقطاب ثنائي اجتماعي بين السلطان والرعية وهذه النظرة تحتاج إلى مراجعة على ضوء ما ذكره المقريزي، والمصادر الأخرى المعاصرة. فمثلاً المقريزي لم يذكر المماليك كطبقة مستقلّة، لأنهم لم يكونوا كذلك. وقد اقتصرت امتيازاتهم على فترة بقائهم في السلطة، و لم تورّث تلك الامتيازات، ولا الثروة الناتجة عنها إلى نسلهم بشكلٍ مباشر. حتّى إن المقريزي لم يذكر أولاد الناس وهم الجيل الثاني والثالث من المماليك كطبقةً من أيّ نوعٍ، لأنهم في الحقيقة قد اندمجوا، وتفرقوا في سائر الطبقات الأخرى.

يذكر المقريزي أيضًا أنّ الكثير من أجناد الحلقة ضمن القسم الخامس مع الفقراء وطلاب العلم. أجناد الحلقة طبقًا للقلقشندي هم الطبقة الثانية من الأجناد، وينتمون طبقا لتقسيمه إلى طبقة أرباب السيوف أي المماليك، وكانوا في العسكر المملوكي يشكّلون الاحتياطي العسكري، وكثير منهم كان من أولاد الناس. بمعنى آخر إنّ الانتماء إلى جنس المماليك (الأتراك أو غيرهم) لم يكن يعني بالضرورة البقاء في قمّة الصفوة الاجتماعية –كما هو معروف– في المجتمعات ذات النزعات التمييزية على أساسٍ عنصري أثنيّ.

إذن الانتماء إلى الجنس التركي وحده لم يكن مبررًا للبقاء في الصفوة، ولكن بالطبع فإنّ احتكار السلطة العليا كان مقصورًا على الجيل الأول من المماليك الذين مسّهم الرق، ومعظمهم من الأتراك، ثم الشراكسة وهذا يعود إلى طبيعة الحكم العسكرية. وتخصّصهم في هذا المجال، وليس لجذورهم الأثنية. ويجدر بنا أن نشير إلى أنّ هذا الجيل الأول متى استقر في البلاد – داخل مؤسسات الدولة كما سنرى لاحقًا – لم يعتبر نفسه غريبًا، بل مصريًا وفكرة العودة مرة أخرى إلى بلادهم الأصلية لم تكن مطروحة أو معروفة، حتى أنه

في تلك الحالة النادرة التي عاد فيها أحد الأمراء وهو جانبك الناصرى فرج (توفى في 870/ 1466) إلى بلاده الأصلية، فقد لُقّب بالمرتد (السخاوى، الضوء اللاّمع، 3:60 - 61) مما يشير إلى ندرة وفداحة الواقعة؛ لأنّ هؤلاء المماليك لم يعرفوا غير الإسلام دينًا، وغير مصر أو الشام وطنًا.

عدم إجادة اللغة العربية أمر وارد بالطبع، لأنّهم وُلدوا، وعاشوا فترة طفولتهم وصباهم الأول في أرض لا تتكلّم العربية، واختلاف اللغة لا يقدح في المواطنة كما هو معروف ومنتشر. ومع هذا فإنّ جميع أمور الدولة ودواوينها، ومنشوراتها ووثائقها المدنية والقانونية والشخصية كانت باللّغة العربية كذلك الأعمال الأدبية، والمؤلّفات التاريخية وغيرها -وكانت كثيرة- جميعها باللّغة العربية. كذلك النقوش الكتابية على العملة، والصكّة، وجميع العمائر والمنشآت المملوكية والمقتنيات الفنية مثل الخزف والزجاج والنسيج وهي الكثير أيضًا كانت باللغة العربية، و لم تصل إلينا أية وثيقة، أو نقش بلغةٍ أخرى في العصر المملوكي.

ليس هناك ولاء ديني، فلم يكن لأي من المماليك -مثل البيت الأيوبي قبلهم- أي ادعاءات أو طموحات دينية. وحرصهم على استصدار تقليد، ومباركة من الخليفة العباسي بالقاهرة كان شكليًا، و لم يكن للخلفاء أية شعبية بين عامة المصريين. والمماليك استمدّوا شرعيتهم من منطلقاتٍ غير دينية.

الأدبيات المملوكية المعاصرة - وهي عديدة - والكثير من موئلّفيها مصريو المولد والجنس والحياة، وهاجموا السلاطين وغيرهم من الشخصيات المملوكية، ونقموا عليهم بل كالوا لهم شتّى التهّم في بعض الأحيان، ولكن لم يُشر إليهم أبدًا بأنّهم غرباء أو دخلاء كما ذكرنا في معرض النظرة التقليدية. لتفسير تلك الظاهرة ينبغي أن نعود إلى مفهوم الوطن، والمواطنة السائد في العصور الإسلامية الوسطى، ولا نطبق المفاهيم العصرية للوطن والمواطنة وهي في الأساس مفاهيم غربية أوروبية. اختصارًا نُجمل مفهوم المواطنة بما قاله سيد قطب الوطن في الإسلام دار تحكمها عقيدة، ومنهاج حياة، وشريعة من الله (المواطنة من منظور إسلامي، سيد محمود عمر يوسف، 21) فلم يرَ الإسلام الحدود الجغرافية، والمسلم ينتقل في دار الإسلام دون قيود، ويُعتبر مواطنًا أينما حلّ، ولا علاقة لها (أي المواطنة) بالجنس أو باللغة أو بلون البشرة.

من هذا المنظور لم يرَ المصري في المماليك أغرابًا أو دخلاء ولكن ربّما انفصالهم في طور

الجيل الأول نابع من طبيعة الحكم والحكام في ذلك العصر التي جعلت الطبقة الحاكمة طبقة منفصلة، والتي جعلت باقي الطبقات تتنازل طواعية عن بعض حقوقها، وتقبل امتيازات الطبقة الحاكمة مقابل الدفاع عنها من الأعداء في الخارج، وإقامة العدل طبقًا للشريعة الإسلامية في الداخل. وبزوال تلك الصفة وضرورات الحكم – طبقًا لتقاليد العصر السائد– عادت تلك الصفّوة الحاكمة، ونسلها للاندماج مرة أخرى طواعية في سائر الطبقات طبقًا لقدراتها وقدرّها. وهذه الظاهرة نادرًا ما تكرّرت في مجتمعات أخرى قامت على التمييز العنصري الإثني والطبقي المستمر، والمتوارث والذي لا يتغيّر إلا بالثورات الداخلية أو الغزو الخارجي، وهذه الثورات الاجتماعية لم تحدث أبدًا في مصر المملوكية.

نحن إذن أمام ظاهرة في مجتمع متعدّد الطبقات والأصول العرقية قاطرة التطور فيه والقوة الحقيقية للدفاع عن الأمة في الخارج، وإقامة ناموس الدولة في الداخل حفنة من الأفراد ممن مسّهم الرق، والاستعباد يغلب عليهم الجنس التركي، ولكنّهم في نفس الوقت هم الصفوة الحاكمة على مجتمع من الأحرار في تناقض تاريخي واضح.

هذه الظاهرة لم تغب عن نظر مفكر إسلامي كبير مثل عبد الرحمن بن خلدون (ولد في 732/ 1332) ولم يكن مصري الجنس أو المولد، ولكن عاش الأربعة والعشرين عامًا الأخيرة من حياته بمصر المملوكية حتى وفاته في 808/ 1405. خلال تلك الفترة تقلّد فيها الكثير من وظائف التدريس، والقضاء (ابن خلدون، مقدمة، 1 : 30) وحياته تعبر عن مفهوم الوطن والمواطنة في ذلك العصر. فابن خلدون وُلد بتونس في رمضان 732/ 1332 وعاش كلّ حياته الأولى مُتنقلاً بين المغرب والأندلس، حتى استقر به المقام في مصر، فوصل الإسكندرية في 784/ 1382 وهو يناهز الثانية والخمسين، وتعاطى أولاً تدريس المذهب المالكي بالمدرسة القمحية بالقاهرة، ثم عُيّن كقاضي القضاة المالكي في جمادى الآخر 786/ 1384 أي بعد عامين فقط من وصوله إلى مصر لأول مرة. وهو أعلى منصب قضائي في الدولة المصرية لقاضي مالكيّ المذهب (كمعظم المغاربة) فكونه مولودًا خارج مصر، أو أنّه وافد حديث إليها لم يمنعه من تولّي أعلى المناصب. إذ إنّ المسلم في وطنه في أي قطرٍ داخل دار الإسلام، ويبدو أنّ ابن خلدون كان له الكثير من الأعداء من معاصريه، فاتهموه بالعديد من التهم القبيحة والسفيهة ولم يكن بينها أنّه غريب، أو أجنبي، أو دخيل (ابن خلدون، مقدمة، 1 : 109 – 112).

وقد أشاد ابن خلدون بظاهرة المماليك بعد أن درسها، وفسّرها بنظرياته المعروفة عن العصبية، وتجديد شباب الإسلام، وأرجع إليهم الفضل في إنقاذ الإسلام، فهو يقول (في كتاب الاعتبار خارج المقدمة) في معرض عرضه لمحنة الإسلام بعد الغزو المغولي، وحالة الضعف، وانعدام البأس نتيجة لحياة الدعة والانغماس في الملذات:

فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الإيمان بإحياء رمقه، وتلاقى شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه، وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها العزيزة المتوافرة أمراءً حامية، وأنصارًا متوافية يُجلبون من دار الحرب إلى دار الإسلام في مقادات الرّق يدخلون في الدين بعزائم إيمانية وأخلاق بدوية لم يدنّسها لؤم الطباع، ولا خالطها أقذار اللّذات، ولا دنسها عوائد الحضر، وما كسر من سورتها قذارات الترف. (Ayalon, *JSAI* 2:1980, 345). على ضوء ما سبق، فإنّ مراجعة النظرة التقليدية للنظام المملوكي، وعلاقته بمفهوم الوطن والمواطنة أو العزلة الاجتماعية قد أصبحت ضرورية.

وقد جذبت ظاهرة المماليك أنظار بعض المعاصرين لها من خارج العالم الإسلامي مثل الكاتب والسياسي الإيطالي نيقولا ميكافيللي في مؤلّفه الشهير "الأمير" (نُشر في عام 1513). ففي معرض تحليله لحاجة الأمير (يعني به أي حاكم في النظام الملكي، وليس الجمهوري المنتخب) سواء إن كان جديدًا (أي أنّه استولى على الحكم بنفسه، و لم يرثه) أو قديمًا (أي آل إليه بالوراثة) من حيث حاجة كلّ منهم إلى الاختلاط بشعبه، لكسب ودهم وولاءهم، أو الاعتماد على القوة العسكرية. يخلص ميكافيللي إلى أنّ الأمير الجديد يحتاج إلى شعبه أكثر من جيشه، والعكس بالنسبة إلى الأمير القديم الذي يعتمد على جيشه أكثر من شعبه.

استثنى ميكافيللي سلاطين المماليك من هذه القاعدة، وأشار إلى أنّ السلطان المملوكي جديد من حيث إنّه لا يصل إلى السلطنة عن طريق الوراثة أو علاقة الدم مع السلطان السابق؛ لذلك كان يجب عليه الاعتماد على الشعب لا الجيش. ولكنّه قديم أيضًا نظرًا لاستقرار نظام المؤسّسات المملوكية التي يصل خلالها إلى السلطنة، ويحكم من خلالها بعد هذا. لذلك ينبغي على السلطان المملوكي الاحتفاظ بولاء هذه المؤسّسات وهي الجيش بشكلٍ أساسي دون الاهتمام بالعامة أو الشعب (Machiavelli, *The Prince*, 98).

هذا تحليل صادق في مظهره الخارجي، ويتناسب مع نظريات ميكافيللى البراجماتية، ولا أقول الانتهازية والتي تؤمن بأنّ الغاية تبرر الوسيلة، ولكنّه يغفل عدة منطلقات ربّما

لم يستوعبها ميكافيللي، نظرًا لاختلاف الثقافة والتي دفعت السلطان المملوكي على الحرص على إرضاء العامة أيضًا. أولها حرص النظام المملوكي على شرعيته وهو ما يستمدّها أساسًا - في غيبة العامل الوراثي أو السلطة الدينية - من الدفاع عن الأمة داخليًا بحماية المواطن والدين الحنيف، وخارجيًا من الاحتلال الأجنبي. لا يقل عن هذا أيضًا الوازع الديني القوي لديهم مما عزّز من رغبتهم في التقيد بمبادئ العدالة، وإقامة الشريعة. أخيرًا فلم يكن المماليك سلالة خاصة، أو طبقة منفصلة -كما أوضحنا سابقًا- بل كانوا في النهاية جزءًا من النسيج الاجتماعي المصري. لكن من هو المملوك؟، وما هي أصوله ومراحل تطوره وعلاقاته، والمؤسسات التي ينتمي إليها؟

2 - من هو المملوك؟

المملوك مُسمّى آخر من مسميات العبد، أو من مسّهم الرق حتى بعد عتقه غير أنّه أصبح له معنى اصطلاحي آخر، فالمملوك يعنى به هؤلاء الرقيق الذكور من أصول تركية، أو شركسية في الغالب الذين جُلبوا للبيع عن طريق تجار متخصصين لأسواق الرقيق في مصر وسوريا. وتتوافر فيه عدّة معطيات أساسية وهي أن يكون أبيض اللون، لايدين بالإسلام، وغالبًا ما يحمل اسمًا تركيًا ويكون قد تعدّى سن الطفولة. يتميز بقوة الجسم، وحسن الشكل والذكاء. ويؤهّل هؤلاء للخدمة العسكرية على مراحل. صفوة المماليك في الغالب كانوا من المشتريات السلطانية، ويسمّون بالمماليك السلطانية، ويُنسب كل منهم إلى السلطان الذي قام بشرائهم، ويجمّع هؤلاء الصبية المشتروات في ثكنات تسمّى طباق كانت أولاً في جزيرة الروضة، ولهذا سُمّوا البحرية، ثم في أبراج القلعة، ويسمّون بالبرجية.

هنا تنقطع صلة المملوك ببلاده الأصلية، أو أهله وأقاربه، ولا يُنسب إلى والده أو عائلته، بل الجميع يحمل اسم ابن عبدالله، وينتمي إلى عائلته الجديدة وهم مالكه ويسمّي أستاذه وهو بمثابة الأب له هو ورفاقه في الطباق، ويُسمَّون خشداشين (مفرد خشداش) وهم بمثابة إخوته. وتبقى له علاقة بتاجره الذي جلبه من بلاده الأصلية وهو صلة الوصل الوحيدة الباقية بينه وبين موطنه الأصلي، وقد يُنسب إليه في اسمه أيضًا، ولكن هذه العلاقة ليست بحميمية علاقته بأستاذه (أبيه) وخشداشيه (إخوته)، وتلك علاقات لا تنفصم إلا بالموت من الناحية النظرية.

كان التجار يجلبون المماليك صبية قبل سن البلوغ، ولكن بعد سن الطفولة وبعد وضوح معالمه الجسمانية والعقلية. فيوضع في ثكنات خاصة (طباق) كانت تلقى عناية السلاطين، ولا يغادرها المملوك أبدًا، ويقوم على خدمتهم خدامًا. وكان لكلّ مجموعة من المماليك مقدّم مسئول عنهم، ويسمًّى طواشي (وهو عبد خصي قد يكون أسود اللون من أصولٍ أفريقية، أو أبيض اللون من أصولٍ أوروبية) وهو أول من يتسلّم المملوك صبيًا. ويوضع معِ خشداشيته (غالبًا من نفس الجنس)، فيتحوّل الصبي إلى الإسلام، ويبدأ منهاج التعليم أولاً بتعلم القراءة، ويتعهد كل مجموعة فقيه يحضر إليهم كلّ يوم، لتعليمهم الكتابة، والقرآن العظيم، وآداب الشريعة، والصلاة والصوم، والأذكار وغيره من العلوم الشرعية. فإذا بلغ الصّبي سن البلوغ يبدأ في الدراسات والتدريبات العسكرية المعروفة في هذا العصر، وهي السيف والمبارزة والرمي بالرمح، وما ماثله من آلة الحرب والقوس ورمي النشاب (السهام) كذلك فنون الركوب والفروسية، والعناية بنظافة وصحة الحصان رفيق دربه في ميدان القتال سنعرض لها بتفصيل أكثر عند مناقشة المؤسّسة العسكرية (المقريزى، الخطط، 2: 213؛ 6:316 ,Ayalon, *EI²*).

كان لكلّ طباق عدد من الطواشية والفقهاء والخدام، ويشرف على الطباق مملوك متوسط الرتبة يُسمًّى مقدّم المماليك يفوّض إليه مسئولية مراقبة المماليك الصغار، وتأديبهم في حالة اقترافهم ذنبًا، أو أخلّوا بأحد واجباتهم الدينية أو الدنيوية، وخصوصًا التصرفات الجنسية، نظرًا لأنّ هؤلاء الشباب الأصحاء كانوا مجتمعًا ذكوريًا منغلقًا، وتفاوتت أعمارهم بين الصّبا والبلوغ والشباب، ولهذا كانت عقوبة اللِّواط (ممارسة الجنس المثلي) هي الإعدام (المقريزي، الخطط، 2: 214). كانت أعداد المماليك في الطباق تتراوح ما بين ستة إلى عشرة آلاف مملوك، وكانت بالطبع أقل من هذا في المراحل المتأخرة.

يستمر هذا التدريب العلمي والعسكري الشّاق سنوات عديدة لا نعرف عددها بالضبط، ولكنّها كانت تطول أو تكثر حسب حالة الاستقرار والحالة المادية للدولة، حيث إنّ عملية شراء المماليك، وتدريبهم، ومعيشتهم باهظة التكاليف، وعمومًا فكانت فترة التدريب في الفترات المتأخرة أقل عنها في الفترات المتقدّمة من عمر الدولة.

وتنتهي فترة التدريب وقد بلغ المملوك درجةً عالية من الإيمان والتقوى، وحسن اللغة مع مهارةٍ شديدة في فنون الحرب والفروسية، فيقول المقريزي عنهم:

"فلا يبلغ هذه الرتبة إلاّ وقد تهذّبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدّ ساعده في رماية النشاب وحُسن لعبه بالرمح، ومُرن على ركوب الخيل، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف، أو أديب شاعر، أو حاسب ماهر.. فلذلك كانوا سادة يديرون الممالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل، ويردعون من جار أو تعدّى" (المقريزى، الخطط، 2: 214).

وهذا شاهد على عصره يخلص إلى أنّ النظام حرص على تدريب، وتهذيب أفراده من الناحية الدينية، والخلقية، والعسكرية، والعلمية حتى أصبحوا مُؤهّلين للقيام بواجبهم في الدفاع عن الدولة والدين، وإقامة العدل والشرائع؛ ليصبح الإسلام طبعهم وفنون الحرب طبيعتهم. ويمنح كلّ مملوك بعد إتمام تدريباته شهادة عُتق، فيغادر عالم الرق إلى عالم الحرية، ويلتحق بالجيش ويصرف له المال والملابس، والسلاح، والركائب، وتجرى عليه الأرزاق ليبدأ بتولّي الوظائف العسكرية والمدنية المختلفة داخل الدولة.

يُلاحظ أنّ الجميع من نفس النشأة وهم متساوون لا امتياز لأحد عن الآخر بحقّ المولد، أو الوراثة؛ ولكن الامتياز يكون بالقدرة، والتفوق، والتقوى. فلا حدود لطموحاتهم ولاسقفًا لرقيهم. وفي علاقة جدلية فإنّ هذه المساواة وهذا الدم المتجدّد كان هو السبّب في رقي الدولة، وبقائها الطويل، ولكنّه كان أيضًا السبّب في صراعات وانقسامات لا تنتهي، وذلك لغياب قانون وراثي لانتقال السلطة، والثروة في جميع مناصب الدولة حتّى كرسي السلطنة نفسه.

كان المملوك في العصور المتقدمة يحسن تدريبه ويطول، ثم يترقّى ببطء فيحسن القيام بوظائفه حتّى إن وصل إلى المنزلة الكبيرة ورتبة عالية عرف مقدارها، وما كان فيه من الشقاء، وما صار إليه من النعيم. (المقريزي، السلوك، 1: 525). غير أنّه في العصور المتأخرة للدولة أهمل في تدريب المماليك توفيرًا للنفقات، وجُلبوا في سن متأخرة نسبيًا، و لم تقتصر إقامتهم على الطباق فقط، بل أقام الكثيرون بالقاهرة. كان الكثير من المماليك المشتراة حديثًا (الأجلاب) في سنّ الرجولة كما قال المقريزي كانوا في بلادهم ما بين ملّاح سفينة، ووقّاد في تنور (موقد) خباز ومحوّل ماء في غيط أشجار، ونحو ذلك (المقريزي، الخطط، 2: 214) لم يعهد بهم إلى الفقهاء لتربيتهم، وتهذيبهم، وعند عتقهم لا يتدرّجون في الترقّي، بل تُمنح لهم الأموال والمزايا مرة واحدة، فلا عجب إن فسد أمرهم في العصور المتأخرة، وأصبحوا مصدرًا للقلاقل والمشاكل كما سنرى لاحقًا.

المقريزي – بعد التقريظ الشديد لمماليك العصور المتقدمة – يصفهم في العصور المتأخرّة بأحطّ الصفات فيقول "فبُدّلت الأرض غير الأرض، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم، وأخسهم قدرًا، وأشحّهم نفسًا، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضًا عن الدين ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد، وألص من فأر، وأفسد من ذئب، لاجرم إن خربت أرض مصر والشام من حيث يصبّ النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكّام، وشدة عبث الولاه، وسوء تصرّف أولي الأمر حتى إنّه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه" (المقريزي، الخطط، 2: 214).

مقارنة مقالتّي المقريزي يعطي انطباعًا حقيقيا عن التغييرات والتحوّلات التي طرأت على النظام. وما ذكرناه سابقًا عن المماليك السلطانية – وهم الأكثرية وأصحاب القوة الحقيقية في الدولة – ينطبق على المماليك الأميرية أي المماليك من مشتروات أمراء المماليك أنفسهم، وكانوا يتلقّون نفس التعليم، والتدرّج الوظيفي في خدمة أمرائهم، وإن كانت بالطبع حالتهم أكثر تواضعًا من أقرانهم من المماليك السلطانية من مشتروات السّلطان.

الفصل السادس

المؤسسات المملوكية

الدولة المملوكية كانت شديدة التنظيم من ناحية أنواع مؤسساتها ووظائفها، والتسلسل الهرمي بها، والألقاب والشعارات الخاصة بمسئوليها، ولها مؤسّسات عديدة وهي السلطنة والعسكر والإدارة المدنية، والقضاء والوظائف الدينية. يتولّى إدارة تلك المؤسّسات مجموعة من أرباب السيوف (العسكريون)، وأرباب الأقلام (المدنيون). بجانب ذلك توجد ثلاث مؤسّسات موازية لعبت دورًا بالغ الأهمية في مصر المملوكية، وهم الخلافة والإقطاع والأوقاف والتي سنعرض لها في الفصل اللاحق.

أولاً: السلطنة - "المُلك عقيم" الحكم لا يورّث:

السلطان هو رأس الدولة- ولَقب سلطان يُعطَى لأعلى سلطة دنيوية (السلطة الدينية للخلفاء)، وظهر هذا اللّقب خارج مصر أولاً نتيجة لضعف الخلافة في بغداد، وظهور الحاجة إلى قيادة دنيوية موازية للخلافة. المستقر عليه أنَّ السلاجقة في منتصف القرن الخامس/الحادي عشر بعد سيطرتهم على بغداد، وحجرهم على الخليفة فيها هم أوّل من حمل هذا اللقب بصفهٍ رسمية (ربّما استُعمل قبل هذا بصفةٍ غير رسمية من قبل سُلالاتٍ

حاكمة أخرى في الشرق الإسلامى مثل بني بويه أو الغزناويين). ويؤكّد هذا أنّ أقدم عُملة عُثر عليها ومنقوش عليها لقب سلطان هي الخاصّة بالسلطان السلجوقي طغرلبك، بعد أن استولى على السلطة في بغداد، وأعطاه الخليفة لقب السلطان ركن الدولة في 443/ 1051. (Kramers-[Bosworth], *EI²*, 9: 850) أما في مصر، فلم يستعمل هذا اللقب أحد قبل الملك الناصر صلاح الدين (توفّى 589/ 1193) وذلك بعد إلغاء الخلافة الفاطمية.

عند ضعف الخلافة الفاطمية بعد الشدّة المستنصرية كما ذكرنا سابقًا تخلّى الخلفاء عن سلطاتهم الدنيوية إلى وزرائهم، والذين عُرفوا باسم وزراء التفويض، نظرًا للسلطات الواسعة الممنوحة لهم في الجيش والوزارة والقضاء والدعوة، وأوّلهم بدر الدين الجمالي، والذي لُقّب بأمير الجيوش في 466/ 1074. وفي فترة لاحقة أعطى الخلفاء لقب الملك لوزارئهم، وكان أول من تلقب به هو الملك الصّالح طلائع بن زريق (549/ 1155) آخر الوزراء الفاطميين الأقوياء (أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية، 215).

جرت العادة في العصر الأيوبي على أن يحمل أمراء العائلة الأيوبية لقب الملك، وكبيرهم لقب السلطان. ويذكر المؤرّخ المملوكي جلال الدين السيوطى (توفّي في 911/ 1505) نقلاً عن ابن فضل الله العمري (توفّي في 749/ 1349) أنّ هذا "الاصطلاح ألاّ تنطلق هذه التسمية إلا على من يكون في ولايته ملوك، فيكون ملك الملوك فيملك مثل مصر، أو مثل الشام، أو مثل أفريقية، أو مثل الأندلس ويكون عسكره عشرة آلاف فارس، أو نحوها" (السيوطي، حسن المحاضرة، 2: 126). أي أنّ لقب السلطان أعلى من لقب الملك، وقد تلقّب به سلاطين المماليك حتى سقوط الدولة المملوكية في 923/ 1517، وانتقل اللّقب إلى السلطان العثماني، وعاد لقب السلطان مرة أخرى إلى مصر في عهد السلطان حسين من العائلة العلوية عام 1917 حتى تغيّر اللّقب إلى ملك في عهد فؤاد الأول عام 1923.

بالرغم من محاولات الكثير من سلاطين المماليك توريث العرش لأبنائهم، فقد ظلت القاعدة الرئيسية في الدولة المملوكية أنّ مجموع المماليك ممن مسّهم الرق لهم حق في السلطنة، ولم ينجح أيّ من السلاطين في إقامة سلالة له سوى المنصور قلاوون، فظلت السلطنة معه ونسله من 678/ 1279 إلى أن خلع حفيده الأكبر المنصور حاجي 792/ 1390 أي استمرت السلطنة في أربعة أجيال من العائلة القلاوونية زهاء مائة وإحدى عشر سنة باستثناء فتراتٍ قصيرة تولّى فيها السّلطنة ثلاثة سلاطين ممّن مسّهم الرق لمدة سنواتٍ

قليلة. بخلاف تلك الفترة فإنّ من تولّى السلطنة من أبناء السلاطين كان لا يتعدّى جلوسه على العرش أشهرًا قليلة كدُمية غالبًا تحت وصاية أحد أمراء المماليك الكبار، حتّى يتفق هؤلاء على سلطانٍ جديد من بينهم ممّن مسّهم الرق.

عادة يتم تعيين السلطان أو خلعه بعد اتفاق صفوة الأمراء الكبار عن طريق الخليفة العباسي بالقاهرة الذي كان أُلعوبة في أيدي السلطان والأمراء الكبار ولا سلطة له، أو ثروة سِوى نَسبه الشريف. يقيم السلطان بالقلعة بالقاهرة، ولا يُعتبر السلطان سلطانًا إلاّ إذا سيطر على القلعة بالقاهرة، وجلس بها وعليه أن يتركها بعد خلعه حيًا كان أو ميتًا، فلم يُدفن أيّ من سلاطين المماليك بالقلعة، وهذا ما يؤكّد أنّ انتقال السلطة بالتوريْث – باستثناء السلالة القلاوونية – لم يكن هو قاعدة الحكم في مصر المملوكية.

عادة فإنّ السلالات الحاكمة تُنشئ لنفسها قصورًا وأضرحة يدفن فيها سلاطين وأمراء تلك السلالة، وأبرز مثل على هذا هي تربة الزعفران، والقصور الفاطمية الزاهرة والتي سبق الإشارة إليها، لأنّها كانت رمز الشرعية المستمدّة من الانتساب إلى السلالة النبوية. أما في الدولة المملوكية فكانت القلعة جائزة لكل من يتولّى السلطنة، و لم تقترن باسم سلطان معين أو سلالة، كذلك لا توجد أضرحة سلطانية بالقلعة وقام كل سلطان – إذا توفّر له الوقت والثروة – بتشييد ضريح له، ولعائلته المباشرة، ومماليكه وجواريه. حتى السلالة القلاوونية العتيدة لم يكن لها ضريح عائلي خاص.

إذن نحن أمام ظاهرة مختلفة، حق المولد للسلطنة، وغيرها غير مؤكد أو مبرر عُرفًا أو قانونًا وثانويًا فلم تكن السلطنة والسلطة حكرًا على سلالةٍ واحدة؛ ولكن الاختيار يتمّ للأفضل والأقدر قدر الإمكان والظروف السائدة.

فى هذا السياق نذكر فقرة قصيرة ذكرها المقريزي نقلاً عن عهد الخليفة أبي الربيع سليمان بن أحمد العباسي إلى السلطان المظفّر بيبرس في محنتة خلال صراعة مع السلطان السابق الناصر محمد بن قلاوون (709/ 1309) وريث أبيه وأخيه، بعد تنازله عن السّلطنة في العام السابق، فيقول نص العهد:

"... واعلموا رحمكم الله أنّ المُلك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن سالف، ولا كابر عن كابر"، (المقريزي، السلوك، 2: 65؛ Bauden, *MSR*, 13 (1) 2009 : 55) ويقصد

بالعُقم هنا أنّ المُلك لا يورّث، ونظرية عُقم المُلك هذه طبقها المماليك في معظم عهودهم بصورة فعلية، وإن كانوا شكليًا يُظهرون الولاء لابن أستاذهم.

يقول ابن تغري بردي في معرض تولّي المظفّر قطز السلطنة بعد خلعه المنصور علي ابن المعز أيبك (أستاذ قطز) في ذي القعدة 658/ 1250 "والملك المظفّر قطز هو أوّل مملوك خلع ابن أستاذه من الملك وتسلطن عوضه، و لم يقع ذلك قبله من أحد الملوك، وتمت هذه السنة السيئة في حاصد إلى يوم القيامة، وبهذه الواقعة فسدت أحوال مصر" (ابن تغري بردي، النجوم، 7 : 56)

تولّى السلطنة في مصر المملوكية خمسة وخمسون سلطانًا (باعتبار شجرة الدر سلطانة) في مدة مائتين وستة وسبعين عامًا أي بمتوسط قدره أقل من خمس سنوات لفترة الولاية الواحدة بعض السلاطين تولّى السلطنة مرتين وثلاث، ولذلك لم نأخذ أسماء السلاطين في الاعتبار. فهذا الرقم هو عدد مُدد الولايات السلطانية مابين توليتة وعزله، أو موته بصرف النظر عن شخص من يتولاّها. ففي الفترة ما بين 648/ 1250 إلى 792/ 1390 تولّى السلطنة ثلاثين سلطانًا (بما فيهم شجرة الدر) منهم تسعة سلاطين ممّن مسّهم الرق، والباقي واحد وعشرون من الجيل الثاني والثالث من المماليك جميعهم باستثناء حالة واحدة من السلالة القلاوونية. في ست عشرة دورة أي نصفها تقريبًا كان السلطان كدمية محجورًا عليه، والباقي كانوا أصحاب السلطة الحقيقية.

أما في الفترة بين 792/ 1390 إلى 923/ 1517 فقد تولّى السلطنة خمسة وعشرون سلطانًا منهم أربعة عشر سلطانًا ممّن مسّهم الرق، وتسعة من أبناء السلاطين، وخليفة عباسي واحد. (Beherens-Abouseif, *Cairo of the Mamluks*, appendix). من هؤلاء التسعة ثمانية منهم كانوا سلاطين دُمية أي أنّ مبدأ التوريث في القرن التاسع/الخامس عشر كان قد اختفى تمامًا إلاّ لأسباب تتعلّق بكسب الوقت لحين اختيار سلطان جديد من الأمراء الذين مسّهم الرق. فمثلاً السلطان الأشرف قايتباي عارض حين وفاته في 901/ 1496 اعتلاء ابنه عرش السلطنة بعده –كان صادق الظن– حيث اتفق الأمراء على الرغم من هذا على اعتلاء ابنه محمد عرش السلطنة بعد وفاته؛ ولكنّهم سرعان ما اغتالوه في 904/ 1498 ليصبح بذلك السلطان الوحيد من سلاطين الدمية الذي أغتيل في القرن التاسع / الخامس عشر.

النظرة التقليدية لدولة المماليك أنها تتميز بالعنف السّياسي المفرط من حيث كمية الاغتيالات، والإعدام والتعذيب، والسجن، والنفي حتى بمقاييس القرون الوسطي، ويؤيد تلك النظرة البداية الدموية لها. ففي الفترة الانتقالية من الدولة الأيوبية قُتل المعظم توران شاه آخر سلاطين بنى أيوب على أيدي فرقة المماليك البحرية في 648/ 1250 وفي العشرة أعوام التالية لقيام الدولة تولّى العرش أربعة سلاطين (بخلاف شجرة الدر) قتل منهم اثنان المعز أيبك (655/ 1257) بواسطة زوجته شجرة الدر، والتي اغتيلت أيضًا انتقامًا في نفس العام، ثمّ المظفّر قطز 658/ 1260 و لم تستقر الأمور إلا بعد تولّي الظاهر بيبرس رابع سلاطين المماليك، والمؤسّس الحقيقي لمصر المملوكية.

كانت هذة هي البداية، وتم تغيير عرش السلطنة خمسًا وخمسين مرة (خمسة سلاطين تولّوا العرش أكثر من مرة، ويدخل ضمن هؤلاء السلاطين خليفة عباسي واحد فقط) بمتوسط تغيير حوالي كلّ خمس سنوات، ويتبع هذا التغيير عادة فترة من القلاقل والصراعات. وهذه نسبة عالية حيث إنّه خلال الدولة الفاطمية كان متوسط فترة تغيير الخلافة حوالي كلّ ثماني عشرة سنة. هناك تسعة وأربعون سلطانًا مملوكيًا (بما فيهم شجرة الدر) تداولوا السلطة في خمسة وخمسين تغييرًا، ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أنماط. **الأول** وهم السلاطين الذين مسّهم الرق كلّهم يحملون أسماءً تركية غير عربية، وعددهم حتى نهاية القرن الثامن/ الرابع عشر تسعة سلاطين اغتيل منهم بصفة مؤكّدة خمسة سلاطين أي الأغلبية، وفي القرن التاسع/ الخامس عشر تولّى السلطنة أربعةً عشر ممّن مسّهم الرق لم يُغتل منهم سِوى سلطان واحد. والسلطانان الأخيران قنصوة الغورى، والأشرف طومان باي قتلا في المعركة ضد العثمانيين، و لم يكونا ضحية للعنف السياسي.

النمط الثاني: هم السلاطين ممّن لم يمسّهم الرق من أبناء الجيل الثاني، ويحملون بالطبع أسماءً عربية؛ ولكنّهم باشروا السلطنة بأنفسهم وعددهم حتى نهاية القرن الثامن/الرابع عشر أربعة سلاطين. هؤلاء اُغتيلوا جميعًا باستثناء الناصر محمد بن قلاوون الذي توفي بصورة طبيعية في 741/ 1341 وواحد فقط في القرن التاسع/الخامس عشر هو فرج بن برقوق واُغتيل أيضًا في 815/ 1412.

النمط الثالث: وهم السلاطين الدمية من أبناء الجيل الثاني والثالث الذين لم يمسّهم الرق، وكانت ولايتهم مؤقته وتفاوتت من عدة شهور إلى سنواتٍ قليلة، وعددهم حتى نهاية القرن

الثامن/ الرابع عشر كان ثلاثة عشر سلطانًا أُغتيل منهم ستة كلهم من أبناء الناصر محمد الذين تولّوا السلطنة عقب وفاته. أما في القرن التاسع / الرابع عشر فكان عددهم سبعة سلاطين دُمية أُغتيل منهم واحد فقط.

نستخلص من هذا أن الفترة الأولى من الدولة من بدايتها حتى نهاية القرن الثامن /الرابع عشر كانت الأكثر عنفًا ودموية، فقد اغتيل منهم ممّن باشر السلطنة بنفسه (من النمط الأول والثاني) ثلاثة عشر سلطانًا من إجمالي ستة وعشرين سلطانًا (أربعة تولّوا السلطنة أكثر من مرة) أي بنسبة النصف وهي نسبة عالية جدًا. وفي القرن التاسع/الخامس عشر حتى النهاية اغتيل اثنان ممّن باشروا السلطنة بأنفسهم (من النمطين الأول والثاني) من إجمالي أربعة وعشرين سلطَانًا وهي نسبة أقل كثيرًا عن سابقتها وطبيعية.

لا شك إذن أنّ العصور المتقدّمة من الدولة هي التي تميزت بالعنف، وكانت العصور المتأخّرة هي الأقل دموية. ولا نستطيع بالطبع تحدّي تلك النظرة التقليدية، ولكن سنحاول إيجاد تفسير لهذه الظاهرة. في دراسة حديثة لـ دانيل بومونت أكّدت تفشي ظاهرة العنف، وخصوصًا في الصراع على كرسي السلطنة، وقامت بتعميم هذه الظاهرة على طول العصر المملوكي، و لم تتعرض لظاهرة انخفاضها بداية من القرن (التاسع/الخامس عشر) وتخلص هذه الدراسة إلى أنّ هذا العنف ليس وليدًا للأحداث الدموية التي صاحبت نشأة الدولة، ولا للطبيعة الأثنية لجمهرة المماليك القادمة من براري آسيا الوسطي والمنفصلة عن البيئة المولودة بها؛ ولكنّها تعود بها إلى طبيعة العلاقة الجدلية بين الأستاذ والمملوك أي السيد وعبده، والذين لا يمكن مساواتهم ببعضهم، وتستشهد بالآية الكريمة (سورة النحل، آية 74):

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ...﴾ (سورة النحل: آية 75) (Beaumont, *MSA*, 8 (1) 2004, 204) وفي هذا خروج بالآية عن سياقها، فهي لا تقنن عدم المساواة بين السيد وعبده؛ ولكنّها تعطي مثلاً للمشركين الذين لا يعرفون الفرق بين الأصنام والذّات الإلهية. وتخلص الدراسة إلى أنّ العلاقة بين المملوك، وأستاذه، أو خشداشيته ما هي إلاّ صراع عنيف بين السيد والعبد ينتهي بالخاسر إلى الموت، أو التنكيل به.

تسوق الدراسة مبدأين تفرض أنهما حاكمان لتوارث السلطة الأول وهو ما يُعرف بقانون الأتراك من قتل الملك أصبح هو الملك، والثاني ما ذكرناه سابقًا من أنّ المُلك عقيم فهذان المبدآن

يرفضان مبدأ التسلسل الوراثي للعرش في السلالة الواحدة، وبغياب الشرعية الوراثية يصبح العنف والصراع هو البديل الوحيد. (Beaumont, *MSA*, 8 (1) 2004, 219). مع اعترافنا بظاهرة العنف السّائدة بين الصفوة المملوكية، فلا يمكن قبول ظاهرة العلاقة الجدلية بين المملوك وأستاذه على أنّها علاقة سيد بعبده جوهرها الصراع والسيطرة، علمًا بأنّ السيد هنا هو أصلاً كان عبدًا وأعتق! أو هذا العنف كان ناتجًا عن غياب مفهوم واضح لوراثة العرش.

لم يكن العنف وسفك الدماء لتحقيق الهدف، دون اعتبار لعوامل الدين والولاء هو القاعدة. فباستثناء حالة المظفّر قطز، والظاهر بيبرس لم يعتلِ السلطنة من قام باغتيال السلطان السابق بعد هذه الحادثة، فقاتلا الأشرف خليل (693/ 1293) والناصر حسن (752/ 1351) لقيا مصرعهما على يد مماليك السلطان القتيل مما يؤكّد أنّ العلاقة بين الأستاذ ومماليكه هي علاقة ولاء، وليس صراعًا في الغالب. الكثير من السلاطين من أبناء الجيل الثاني (الدمي) خُلعوا من السلطنة دون أن يفقدوا حياتهم، واكتُفي فقط بسجنهم، أو بنفيهم إلى الإسكندرية، أو الخارج بدءًا من السلطان المنصور نور الدين علي بن أيبك في ذي القعدة 657/ 1259 وابني الظاهر بيبرس الملك السعيد محمد بركة خان، والصالح سلامش في 678/ 1279 والبعض من السلالة القلاوونية، وتكررت كذلك مع الكثير من أبناء السلاطين (ويسمّون الأسياد) بعد هذا. غير أن النادرة هي أنّ سلطانًا ممّن مسهم الرق يُخلع من السلطنة دون حتى أن يسجن، وأولهم العادل زين الدين كتبغا وهو من أصلٍ مغولي تولّى السلطنة لمدة حوالي سنتين، وخُلع من السلطنة بواسطة نائبة الملك المنصور حسام الدين لاجين دون حرب في صفر 694/ 1294 ووليّ نيابة صرخد بالشام مدة سنوات، ثم نيابة حماة ومارس أعماله كأي أميرٍ آخر وتوفّي كهلاً وهو نائب حماة في 702/ 1302 وهي بالطبع ظاهرة نادرة الحدوث، و لم تتكرر (ابن تغري بردى، النجوم، 7: 67 – 68).

البعض الآخر فضّل النزول من السلطنة دون مقاومة، حقنًا لدماء المسلمين، وكراهيته للفتنة وهذا ما حدث مع الملك المظفّر بيبرس عند عودة الملك الناصر محمد الثالثة للسلطنة في رمضان 709/ 1309 فقد رفض التحرك لدمشق لمحاربة الناصر محمد وأنصاره، وفضل النزول عن السلطنة سلميًا – ولكن هذا لم يمنع الناصر محمد من قتله بعدها بأسابيع قليلة، انتقامًا منه لسوء معاملته له في السابق ولضمان عدم مطالبته بالسلطنة مستقبلاً بالرغم من أنّه أرسل له الأمان (المقريزي، السلوك، 2: 66، 79، 81) وفي اعتقادي أنّ مفهوم العدل

عند المماليك كان مزدوجًا فحكموا بالشريعة بينهم وبين الناس، وبين الناس بعضهم وبعض، وبالسياسة بين المماليك أنفسهم. فالشريعة هي ما شرع الله به، وتركوها لحكم القضاة، فيقول المقريزي: "وفوّضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية كتداعي الزوجين، وأرباب الديون، ونحو ذلك" (المقريزي، الخطط، 2: 221) أي أنّهم لم يتداخلوا بالحكم في الأمور الشرعية، أو المعاملات بين الناس.

أما السياسة، وطبقًا للمقريزي هي تحريف لكلمة ياسا المغولية وهو القانون الذي وضعه جنكيز خان كما سبق ذكره لتنظيم أحوال المغول وكان ناموسهم، وفيه اختلافات جوهرية عن الشريعة (المقريزي، الخطط، 2 : 220) ونظرًا لتأثر المماليك بكثير من العادات المغولية، وكثرة معاملاتهم لهم فقد قاموا بالحكم بينهم بأحكام الياسا، وجعلوا لذلك منصب الحاجب، ليقوم مقام القاضي ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عاداتهم، والأخذ على يد قويهم، وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما في الياسا (المقريزي، الخطط : 2 :221) ويشبه هذا إلى حد كبير تطبيق القوانين العسكرية (وما بها من اختلاف عن القانون المدني) على العسكريين دون المدنين في عصرنا الحديث.

كان لمنصب السلطان شعائر وتقاليد خاصة اهتم بها المماليك اهتمامًا كبيرًا من حيث هيئة السلطان وأدواته نذكر بعضًا منها هنا نقلاً عن القلقشندي. سُرير الملك، ويقال له تخت وهو العرش الذي يجلس عليه السلطان كسائر الممالك والمقصورة وهو الحاجز في الجامع غالبًا أمام المحراب لصلاة السلطان، وحمايته هو ومن معه من حاشيته وخاصته.

جرت العادة على تطريز اسم السلطان، ونقشه على بعض الكساوى، والملابس المصنوعة من الحرير بالذهب، أو بلون مخالف، وذلك لاستعمال السلطان أو لتشريف من يرى السلطان إكرامه من أصحاب الوظائف. وخُصّص لهذا دار للصناعة بالإسكندرية سمّيت بدار الطراز. من أدوات السلطنة أيضًا والتي يتميز بها سلاطين المماليك فقط الغاشية وهي غطاء سرج من الجلد مخيّط بالذهب يخالها الناظر مصنوعة من الذهب تحمل بين يدي السلطان في المواكب والأعياد. القبة والطير وهي مظلة (تعرف بالجتر أيضًا) من حرير أصفر مزركش بالذهب أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان في المواكب، وأصلها من الدولة الفاطمية.

والرقبة هي من حرير أصفر أيضًا مزركش بالذهب تُستعمل كغطاء لعنق الفرس عند ركوب السلطان، وهي من خصائص السلطان المملوكي. والجفتة وهما غلامان من غلمان الإصطبل قريبان في السن بملابس من الحرير الأصفر المطرز لهما فرسان أشهبان برقبة، ومعدّات مثل حصان السلطان يسيران أمامه في المواكب وهما أيضًا من خصائص السلطان المملوكي.

الأعلام السلطانية منها راية كبيرة من الحرير الأصفر مطرّزة بالذهب، عليها اسم السلطان وألقابه وتسمَّى بالعصابة، وراية مماثلة على رأسها خصلة من الشعر وتسمَّى الجاليش، ثم رايات صفر صغار تُسمَّى بالسناجق وأصلها أيوبي. أما آلات الموسيقى فهي الطبلخانة وهي طبول معها أبواق، ومزامير تدق للسلطان في القلعة بعد صلاة المغرب، وتصحبه في أسفاره وحروبه وهي معروفة لجميع الملوك، والكوسات وهي صنج من النحاس يدّق بأحدها على الآخر في إيقاع مخصوص يصحبها الطبول أحيانًا. كذلك الخيام ولها أنواع كثيرة تُصنع من القطن بألوان مختلفة، أو من الجوخ وهي مثل القصور لإقامة السلطان في أسفاره. (القلقشندي، صبح الأعشى، 4: 5 – 8)

إقامة السلطان كانت بقلعة القاهرة، ويجلس بها معظم أيام الأسبوع. وبها الدور الخاصة به، وتسمَّى بالحريم حيث يقيم السلطان وعائلته وحريمه. وبها أيضًا إيوان كبير يسمَّى بدار العدل يجلس به السلطان مع القضاة أو غيره من أرباب الدولة، للنظر في مظالم الأهالي في يوم محدّد. كان الديوان السلطاني شديد التنظيم له ترتيب خاص في جلوس وقيام الأمراء كلٌ حسب مرتبته، طبقًا لمراسم صارمة سنعرض لها عند الحديث عن وظائف الدولة. أما بقية الأيام فكان يجلس على تخت الملك، أو على الأرض في قصره وحوله الأمراء وأرباب الدولة لإدارة شئون السلطنة. السلطان يحضر صلاة الجمعة والعيدين، فتقام الجمعة في جامع القلعة، ويصلّي السلطان في مقصورته، ويحيط به سائر الأمراء. وهو لا يؤم الصلاة، أو يلقي خطبة الجمعة حيث إنّ السلطان لم يكن رمزًا دينيًا، كما أعتقد أنّ الكثير من السلاطين لم تكن تجيد العربية بطريقة تسمح لها بإلقاء الخطبة، وإن لم تشر أيّ من المصادر المعاصرة لهذا. صلاة العيدين تكون بحضور السلطان أيضًا، ولكن في الميدان أسفل القلعة، وينزل إليها من ناحية الإصطبل الموجود أسفل القلعة من بابه (باب العزب حاليًا) في موكبٍ مهيب.

كان من عادة السلطان النزول في مواكب للعب الكرة (البولو) مع غيره من الأمراء في

ميادين مخصّصة لذلك. وكثرت أيضًا مواكب السلطان وخصوصًا بعد تولّيه فينزل من القلعة، ويشق القاهرة في موكبٍ حافل من الميدان أسفل القلعة إلى باب زويلة، ثم الشارع الأعظم (شارع المعز حاليًا) حتى يخرج من باب الفتوح، ويعود إلى القلعة من طريق الحاج أو بداية الدرب السلطاني في الصحراء شرق القاهرة المعروفة بصحراء المماليك أو الجبانة الشمالية. وقد يكون الموكب في الاتجاه المعاكس فيبدأ بالدرب السلطاني خارج القاهرة ويدخلها من باب النصر، ويشق القاهرة من الشارع الأعظم إلى باب زويلة، ثم الدرب الأحمر صاعدًا إلى القلعة.

في بعض الأحيان كان السلطان يركب لكسر السّد؛ وفتح الخليج عند وفاء النيل، ويتوجّه إلى مقياس النيل للاحتفال هناك وعمل الأسمطة (الولائم)، ثم يركب المركب السلطاني الخاص به ويُسمّى الذهبية، ليعود بها إلى القاهرة. ولكلّ هذه المواكب والاحتفالات طقوس خاصة، وبروتوكولات معروفة تفصيلاً، وتحكمها عادات وتقاليد توارثت على مرّ العصور.

ثانيًا: المؤسّسة العسكرية:

التدريب العسكري:

للالتحاق بتلك المؤسّسة الهامة يتلقّى المملوك تعليمًا دينيًا (عرضنا لخطوطه العريضة في موقع آخر)، ثمّ يبدأ في التدريب العسكري عند سنّ البلوغ للتمرس على جميع أنواع فنون القتال المعروفة في هذا العصر، وهو مايسمّى الفروسية وهي أربعة أنواع: ركوب الخيل، واللعب بالرمح، ورمي السهام، والمبارزة بالسيف وذلك بواسطة معلمين. تقتصر تربية المملوك الصبي على تعلم اللغة العربية، والقراءة والكتابة، ودراسة القرآن، ومبادئ الدين الحنيف. فهو صبي أعجمي غير مسلم يدخل الطباق، ويخرج منه بعد سنوات رجلاً مسلمًا يجيد اللغة العربية مُهذّب الأخلاق، وفارسًا محاربًا يجيد شتّى فنون القتال.

1 – ركوب الخيل:

يبدأ المملوك بالتدريب على ركوب الخيل بواسطة نموذج خشبي، أو من الحجر أو الطين المحروق، ليتعلّم كيفية القفز على الحصان المغطّى بسرج أو وهو عاري بدونه، والمملوك في كامل سلاحه وعدّته أوبدونها. بعد هذا يبدأ التدريب على الحصان الحقيقي بتعلّم طريقة اعتلاء الحصان والنزول منه وهو مغطّى بسرج من الصوف أو بدونه. ثمّ قيادة الحصان بسرعاته المختلفة من سيرٍ وهرولة وعدو وعدو سريع، ويقوم المعلّم بتدريبه على طريقة مسك اللجام، والجلوس باتزانٍ على السرج وطريقة استعمال الركاب، ثم الطرق المختلفة للنزول، وتغيير اتجاه الحصان وطرق القفز بالحصان وكيفية استعمال وحمل أسلحته وأدواته. كما كان عليه تركيب السرج بنفسه، ويستمر في التمرين حتى يجيد جميع تلك المناورات. ولا يقلّ أهمية عن هذا أن يتعلّم المملوك كيفية العناية بالحصان، وبأكله وبشربه ونظافته، وعلاج الحصان في حالة مرضه.

2 – اللّعب بالرمح:

بعد تمرس المملوك على ركوب الخيل يبدأ المملوك في التدريب على استعمال الرمح. أولاً كيفية ركوب الحصان وهو يمسك الرمح، ثم كيفية التعامل مع الرمح في الهجوم أو الانسحاب وهو ممسك بعنان اللّجام. ثم يبدأ التدريب على المناورات القتالية مثل كيفية دخوله المعركة (الدخول) وخروجه منها (الخروج أو التسريح) وكيفية الخروج من المأزق في

المعركة (النشل)، وبالطبع كيفية الرمي بالرمح (الطعن). للتدريب على دقة الطعن، وإصابة الهدف يستعمل جهاز يُسمَّى البرجاس وهو جهاز خشبي مقسَّم إلى سبعة أجزاء يوضع الجزء فوق الآخر حتى يصل إلى ارتفاع الحصان يعلوه قرص معدني مثبّت على قطعة من الخشب يتمرّن المملوك على تمرير الرمح داخل هذا القرص وهو مندفع بحصانه. لم تكن البرجاس هي آلة التدريب الوحيدة، ولكن يوجد أيضًا مناورات أخرى مثل جمع مخاريط خشبية، أو معدنية ملقاة على الأرض بواسطة الرمح خلال الركوب، أو إصابة كرة موضوعة على رأس شخص. وهناك العديد من المنشورات والكتب تُعدّد، وتشرح بنود إجادة اللعب للرمح فيما يسمَّى أدبيات الفروسية وكانت منتشرة بكثرة في العصر المملوكي.

بعد إجادة ركوب الخيل واللّعب بالرمح بصفة فردية يذهب المملوك إلى الميدان للتدريب الجماعي مع أقرانه، ويتدّرب معهم على كيفية دخول المعركة بصفة جماعية، والخروج منها والانحراف يمينًا أو يسارًا مع معرفة موضعه في التشكيل العسكريّ، ومواقع أقرانه للمناورة والتنسيق (كانت هذه التدريبات الجماعية من الأسباب الأساسية للتفوق المملوكي في ميدان المعركة). الميدان عبارة عن ساحة فضاء واسعة تُستخدم لأعمال التدريب، والسباق، وممارسة الرياضات ذات الطبيعة العسكرية، كذلك لعرض القوات بأسلحتها. بكلّ ميدان دكة (أي مدرج) لجلوس السلطان والقادة والزوار، لمراقبة التدريبات والمناورات والمباريات، والتفتيش على القوات وتسليحها وهذه الميادين كانت عديدة تبلغ حوالي ستة ميادين داخل وخارج القاهرة.

3 – الرمي بالقوس:

بعد ذلك يحين دور الرمي بالسهام، فيبدأ بكيفية تعلّم مسك القوس وجذب الوتر دون سهم، ثم يبدأ باستعمال السّهام دون ريشة في أقواس ضعيفة، ثم يتدرج في استعمال أقواس أشد (وأبعد مدى) من أربع درجات، والخامسه هي المستعمله في القتال. ثم يبدأ المملوك بالتدريب على النيشان، وإصابة هدف ثابت من مسافة قليلة تتدرج في الزيادة، ويبدأ في معرفة أنواع الأقواس والسّهام المختلفه، وطريقة أدائها واستعمالها، وتفادي إصاباتها (عند ارتداد الوتر) والتعامل مع الإصابات باليد والأصابع التي تصاحب عادةً كثرة الرمي بالسهام.

بعد هذا ينزل الفارس إلى الميدان، للتدريب على الرمي بالسهام وهو متحرك فوق

الفرس، ويتم هذا من خلال تدريبين أساسيين أحدهم، يُسمَّى القبقاج وهو هدف يتكون من سله مملوءة بالرمال توضع على الأرض، أو مستوى منخفض للتدريب على رمي السهام إلى أسفل من فوق الحصان بأن يقوم المملوك بشدّ الوتر وهو ممسك بلجام حصانه، ثم يقف على الركاب وينحني إلى الأمام، ويطلق السهم إلى أسفل على الهدف دون إصابة حصانه. الآخر هو القبق وهو عبارة عن جسم يشبه القرع العسلي (قد يكون من الذهب أو الفضة لمكافأة الناجح في إصابته) داخله قرص خشبي يوضع أعلى عمود طوله من سبعة إلى عشرة أمتار، فيصوب عليه المملوك وهو راكب حصانه مندفعًا إلى العمود أو الصاري من ناحيته اليمنى مائلاً إلى جانبه الأيسر قليلاً. ومن التدريبات الأساسية التي كان يقوم بها المملوك كان التدريب على رمي السهام من فوق الحصان بالجهة العكسيه بحيث يلتفّ الفارس مائة وثمانين درجه، ويقوم بإصابة هدف من الخلف مع قيادة الحصان إلى الأمام خصوصًا عند التظاهر بالانسحاب، وقد أجاد المماليك تلك المناورة وكانوا يتميزون بها.

4 – المبارزة:

أخيرًا المبارزة بالسيوف، ويتدرّج المملوك في استعمال السيوف الحقيقية (وزن رطلين أو كيلو جرام واحد) إلى السيوف الثقيلة (خمسة أرطال أو حوالي ثلاثة كيلو جرام) وذلك بالضرب على لوح من الطين اللّبن المعجون، والموضوع على مائدة قائمًا أو جالسًا على أحد ركبتيه. ثمّ بالضرب على ألواح من خشب، ومن الرصاص الأكثر سمكًا وصلابة. يتدرب المملوك على التحكم في قوة ضربة السيف ومدى اختراقها للجسم المستهدف حتى يتمكن من التحكم في اختراقه للهدف وقت المبارزة من حيث قتل خصمه أو إصابته فقط. كذلك يتدرّب المملوك على الضرب بالسيف يمينًا ويسارًا وهو مسرع على صهوة الفرس، وعلى مهارات استعمال سيف واحد أو سيفين في خِضمّ المعركه، وأنواع السيوف طويلة وقصيرة، متنوعة يطول شرحها.

بعد سنوات من التدريب الشاق يصبح المملوك مُؤهّلاً للالتحاق بالجيش، ويمنح صكّ حريته ويمنح سلاحًا وخيلاً وزيًا عسكريًا، ليبدأ رحلة جديدة يترقّى خلالها في سلك الجندية والإدارة، ويصبح المستقبل مفتوح أمامه مثل الجميع من أقرانه لا يحده في الترقّي والنفوذ والثروة إلا كفاءته وطموحه، وتوفيقه.

Hassanein Rabie, *The Training of The Mamluk Faris*, http//the_mamluk_faris.blogspot.com.

الزي العسكري المملوكي:

اهتم المماليك اهتمامًا شديدًا بأزيائهم المدنية والعسكرية، وسنعرض للأخيرة فقط هنا دون الأزياء المدنية استكمالاً للتدريب العسكري، نظرًا لأهميتها القتالية وباختصار لعدم الإطالة.

1 - الخوذة:

أهم أجزاء الزي هي الخوذة المعدنية لحماية الرأس (قد تكون مكفتة بالذهب أو الفضة) وتنوّعت أشكالها وكانت في كثير من الأحيان مزخرفة، وعليها نقوش كتابية باسم صاحبها وخلافه. الخوذة كانت مبطنة من الداخل بألياف لتكون رقيقة الملمس على الرأس، وملحق بها واق للأنف. كذلك بها زرد (نسيج معدني رقيق) لحماية الرقبة من الخلف، وواقية معدنية لحماية الرقبة من الأمام، وتعجّ المتاحف بنماذج شتّى من الخوذ المملوكية.

2 - الدرع:

استعملت الدروع كغطاءٍ لحماية الجسم، وكان له ثلاثة أنواع هي الزردية، والجوشن، والقرقل. فالزردية هي قميصٌ منسوج من حلقات معدنية أفقية ورأسية متشابكة وهي من قطعة واحدة تغطّي البدن بها كميّن وياقة لتغطية الذراعين والرقبة قد تكون طويلة أو قصيرة بأشكالٍ مختلفة. تمتاز الزردية بلونها، وتتخذ هيئة الجسم كما لو كانت قماشًا مخيطًا، وتتناسب مع الأجواء الحارة، ويمكن لبسها أيضًا تحت الملابس المعتادة للحماية السرية.

الجوشن هي زردية مُقواة بصفائح معدنيه طويله لحماية الصدر والرقبة. تكون أيضًا بأشكال وزخارف مختلفة مزودة بأكمام، وكان استعمالها في الغالب قاصرًا على الأمراء لارتفاع ثمنها. وأخيرًا القرقل وهو عباره عن قميص مصنوع من صفائح معدنية مغشاة بالديباج (الحرير) الأصفر أو الأحمر مفتوح من الأمام. وهو أغلى من باقي أنواع الدروع، وفي العادة يكون له نقوش زخرفية عديدة.

3 - واقيات الأذرع والسيقان:

هناك واقيات خاصة للأذرع والسيقان، وتتكوّن حاميات الأذرع من صفيحة كبيرة من الحديد متّصلة بكم الدرع لها شكل السّاعد، فتضيق من الرسغ، وتتسع عند الكتف ولها

صفيحة متصلة بزرد عند الكوع لمرونة الحركة، وقد يكون لها زردية في نهايتها لحماية ظهر الكف. أما حماية السيقان فكان لها عدة أدوات منها الرانات وهي عبارة عن جوارب من قماش لحماية الساق حتى الركبة. الطماقات (تعرف أيضًا بالساق موزًا) وهي تعني الخفّ الذي يكسو الساق والقدم حتى قرب الركبة. كانت تُصنع من الجلد، أو اللّباد، أو الصوف المبطّن بالزرد. واستكمالاً لحماية جميع أجزاء الجسم كان المحارب المملوكي يستعمل واقية للفخذ تتكون من صفائح معدنية رأسية متصلة بواسطة حلقات من الزرد تأخذ شكل الفخذ من حيث الاتساع من أعلى، والضيق عند الركبة، وتزوّد بأحزمة من الجلد لتربط على الفخذ. ويتّصل بها واقيه للركبه تتكون من صفيحة مستديرة تأخذ شكل الركبّه يتدلّى منها زرد لحماية أعلى الساق، ومثلها مثل جميع أنواع الملابس السابق ذكرها كانت تغطّى بنقوشٍ زخرفية، أو كتابيةٍ ومحفوظ منها نماذج كثيرة في شتى المتاحف الإسلامية (إبراهيم ماضيٍ، زى أمراء المماليكٍ، 191 – 222).

بعد إتمام المملوك للتدريب الديني والعسكري (يسمّون بالمماليك الكتابية أثناء فترة التدريب) يُلحقون بالجيش كأجناد بعد عتقهم، ثم يترقّوا في سلك الجندية. أول الرتب العسكرية أمراء عشرة (أحيانًا يعين البعض أمير خمسة، ولكنّها رتبة غير شائعة) أي أمير على عشرة من الجنود، أو ربما عشرين. الرتبة التالية هي أمير أربعين ويكون تحت قيادته أربعون أميرًا حتى سبعون، ويُسمَّى أمير طبلخانة حيث إنّ له الحق في دق الطبول والمزامير له عند دخوله وخروجه. ثم أمير مائة مقدم ألف أي أمير مائة فارس قد تزيد عشرين آخرين وهو مقدم ألف فارس وذلك في ساحة الحرب، أو عند الخروج في الحملات العسكرية فقط، وليس في وقت السلم. وكان عددهم على أكثر تقدير أربعة وعشرين أمير مائه مقدم ألف وهي أعلى الرتب العسكرية ويتولّى المناصب الكبرى العسكرية في الدولة أمراء من بينهم كما سنرى لاحقًا. وفي العصور المتأخرة انخفض عددهم ليصبح ما بين ثمانية عشر إلى عشرين أميرًا، ثم ثلاثة عشر وأحد عشر فقط.

يتكون الجيش المملوكى أساسًا من قسمين؛ قسم يحيط بالسلطان، وقسم آخر موزّع على كافة أقطار السلطنه. وهو مكون أساسًا من الأتراك والشراكسة، والروم، والمغول، والأكراد ومعهم أمراء التركمان والعرب، ويمثّلون قوات إضافية تشترك على الأجنحة في جبهة المعركة كقوة ثانوية مساعدة.

أ – المناصب العسكرية الكبرى في حضرة السلطان:

الجيش نفسه يتكون من المماليك السلطانية وهي مشتروات السلطان، وما يؤول إليه من مشتروات السلاطين السابقين، والسيفية وهم ما يؤول إليهم من مماليك الأمراء (وهم صفوة الجيش المملوكي من حيث التدريب والتسليح). ومماليك الأمراء وهم المماليك من مشتروات الأمراء. ثم مماليك الحلقة (لم يستقر المؤرخون على أصل كلمة الحلقة ربما لأنّهم يتحلّقون حول السلطان في المعارك) وهي القوة القتالية الاحتياطية المقيّدة في السجلات العسكرية، وتُستدعى عند الحاجة إليها، وتتكون أساسًا من المماليك المدرّبين وأولادهم. ولكن في العصور المتأخرة المتدهورة دخلت عناصر غير مملوكية، وغير مدربة عسكريًا، بل من أصحاب الصنائع والحرف عن طريق الشراء. ويتبع كل أربعين جنديًا من أجناد الحلقة مقدم يتحكّم فيهم فقط وقت الحرب أو الاستدعاء.

تتراوح دخول الأمراء وأغلبها ناتجة من ريع أراضي وبلاد تُمنح لهم بواسطة السلطان كإقطاع (سنناقش نظام الإقطاع كمؤسّسه مملوكية في موضع آخر) يرتبط بوظيفتهم. أمراء المائة مقدّمي الألوف بالطبع هم أصحاب أعلى الدخول، وتصِل إلى مابين سبعين ألف دينارًا إلى مائه ألف دينار جيشي (الدينار الجيشي مُسمًّى وليس دينارًا حقيقيًا يختلف قيمته من الدنانير الذهب من موضع لآخر). أمراء الطبلخانات تبلغ دخولهم السنوية ما بين ثلاثة عشر ألف إلى ثلاثين ألف دينارًا وأمراء العشرات تتراوح حول تسعة آلاف دينار. بينما إقطاع الواحد من مقدّمي الحلقة يكون حوالي ألف وخمسمائه دينار، والجندي يصل إلى مائتين وخمسين دينارًا. أما أمراء الشام فرواتبهم تعادل حوالي ثلثي رواتب أمراء مصر.

بالإضافه إلى تلك الدخول، فإنّ الأمراء الذين في حضرة السلطان بالقاهرة لهم رواتب يومية جارية من اللحم وتوابله، والخبز، والشعير، والزيت، والشمع، والسكر والكسوة. كما جرت العاده على أن يقوم السلطان بتفريق حوايص (منطَقة أو حزام يشدّ حول الوسط) بانتظام، وبالدور على كبار أمرائه قد تكون من ذهب أو فضة. كما يقوم السلطان مرتين سنويًا بتوزيع الجياد الثمينة ذات سروج مذهبة على الأُمراء المئين، ودون سروج على الأمراء الطبلخانة. هذا غير ما يقوم به السلطان من توزيع حلويات مسكرة في رمضان، وأضحية في عيد الأضحى، والبرسيم كعلف لدواب الأمراء. وتلك المنح تُعتبر حقًا مكتسبًا للأمراء يوجب على السلطان توزيعه عليهم، وإلا تذمّروا أو يثيرون القلاقل. أما المنح غير المنتظمة

للأمراء فكانت عديدة من نقد وذهب، وتحف، وأراض وعقارات، وأقمشة وملابس فاخرة ما يطول وصفه، وخصوصًا في فترات الرخاء أو الصراع السياسي.

ينظم الشؤون المالية والإدارية للجيش ديوان (إدارة) خاصة يُسمّى ديوان الجيش يرأسه ناظر الجيش وهي وظيفة مدنية، ولكن سوف نناقشها لارتباطها الحيوي بالمؤسّسة العسكرية. وهو من أهم الدووابن حيث يسجّل في هذا الديوان أسماء جميع الأجناد والأمراء، وأجناد الحلقة وأمراء التركمان والعرب، ورتبته وتاريخ التحاقه بالجندية أو الإمرة كذلك الإقطاع المخصّص له، والعائد منه ويدّون به كل تغيير يتم على الشخص عند انتقال من موضع لآخر.

هذا الديوان مسؤول عن تسجيل الإقطاعات المختلفة من حيث البلاد والقرى والضياع وخلافه، وأملاكه وعوائده الشهرية والسنوية. ويقوم أيضًا ديوان الجيش بتوزيع المبالغ النقدية أو المرتبات لمستحقيها، ويسجل الجنود التابعين للأمراء، ومقدمي الحلقة، ونقباءها ويسجل أيضًا أرباب الوظائف من المماليك السلطانية. اختصارًا يتولى ديوان الجيش تنظيم الشؤون المالية والإدارية للجيش مع ملاحظة أنّ عمله إداري بحت يقتصر على تسجيل الأمراء والوظائف والإقطاعات أما تعيين الأمراء والجنود، أو توزيع المناصب والإقطاعات فيقوم به السلطان ونائبه. ومن أهم خصائص ناظر الديوان وهو المحافظة على سرية المعلومات لديه، حتى لا تقع في أيدي الأعداء؛ ولهذا غالبًا ما كانت السجلات تُكتب برموزٍ خاصه لا يعرفها إلا الناظر.

أما الوظائف العسكرية المختلفة والتي تكون في حضرة السلطان بالقاهرة، والتي يتولاّها كبار الأمراء فهي عديدة نعرضها بترتيب درجة الأهمية (تغيرت الأهمية النسبية لبعض الوظائف بمرور الوقت).

1 – نائب السّلطنة:

وهو أعلى المناصب بعد السلطان، ويسمَّى كافل المملكة وهو السلطان الثاني فهو يختص بكل مايختص به السلطان، ويعين بعض أرباب الوظائف العليا وهو يتصدّى لكثيرٍ من شوؤن الدولة بعد التشاور مع السلطان، وله مجالس ومواكب وولائم حافلة مثل السلطان، ويسمع الشكاوى، ويعرض المظالم، ويشرف إشرافًا تامًا على ديوان الجيش الذي يجتمع غالبًا عنده. وكان نائب السلطنة من المناصب الدائمة في عصر الآباء المؤسسين، وكان معظمهم من

المماليك المقربين من السلطان غير أنه في دولة الناصر محمد الثالثة في الربع الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي أبطل السلطان هذا المنصب لمدة طويلة، ثم أعيد عدة مرات ولكن بدون سلطاتها الأولى. وهناك أيضًا نائب الغيبة، وهو من ينوب عن السلطان في غيبته عند سفره للحرب، أو الصيد، أو تفقد أحوال السلطنة.

2- الأتابكية:

ويسمّى صاحبها أتابك العساكر (الأتابك كلمه تركيه معناها الأمير الأب، وبدأت في عصر السلاجقة كأمراء قيّمين على الأمراء السلجوقية وهم صغار حتى يبلغوا سن الرشد). والأتابك يُعتبر أقدم الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل وهو بمثابة القائد العام، ويبدو أنّه مركز شرفي إذا ليست له وظائف مُحددة.

3 – رأس نوبة:

هو الذي يقف في خدمة السلطان وحراسته في نوبته، ويحكم بين المماليك السلطانية وهو أيضًا المسئوول الأعلى عن المماليك السلطانية خلال فترة التدريب الديني والعسكري في الطباق (الثكنات) من حيث الإعاشة والنظام عن طريق مقدمي المماليك. وهو أمير مائة مقدّم ألف، ويعاونه ثلاثة أمراء طبلخانات.

4 – أمير مجلس:

هو الذي يتولّى تنظيم مجلس السلطان، وهو المسؤول من الأطباء والكحالين (أطباء العيون) وأمثالهم وهو واحد فقط.

5 – أمير سلاح:

هو المسؤول عن حمل سلاح السلطان، وعن السلاحخانة (مخازن الأسلحة) السلطانية من ناحية صرف الأسلحة، وتوفيرها.

6- أمير آخور: (آخور كلمة فارسية تعني المكان الذي يأكل فيه الفرس أو الإسطبل)

هو المسؤول عن الإسطبل والخيول السلطانية وهو مقدّم ألف يعاونه ثلاثة أمراء آخور طبلخانة، وعدد كبير من المساعدين، ويسكن بالإسطبل السلطاني.

7- الدودار: (حامل الدواة)

هو مبلّغ الرسائل للسلطان، والمسئول عن تقديم القصص (الالتماسات)، له وتقديم البريد وهو الذي يأخذ توقيع السلطان على كافة الأوامر والمراسيم والرسائل. وكانت أولاً تتكون من عدة أمراء صغار، ثم صارت مرتبة عالية يتولاّها أمراء مقدمون.

8- الحجوبية:

الحاجب هو الذي يحجب الدخول على الملوك والحكام، وينظّمه وقد أسهب المقريزي في وصف تلك الوظيفة، وسمّاها بالحجبة وفصلَها. فكانت وظيفة الحاجب وكبيرهم حاجب الحجاب هي الحُكم بالخلافات بين الأمراء والجند في أمور الإقطاعات، أو ما يشابهه، وليس لهم الحكم في الأمور الشرعية مثل الدعاوى المدنية بين الأزواج، أو الأمور التجارية كالديون وغيرها، أو الأحكام الجنائية فهذه كلّها من اختصاص الشرع الشريف والقضاة، حتى إنّ الحاجب كان لا يستطيع القبض على من يستجير بقضاة الشرع. مع تدهور الأحوال اتسعت سلطات الحجاب، لتشمل الحكم أيضًا في الأمور الشرعية شرهًا منهم لكسب الأموال، فأصبح للحجاب سلطات واسعة تماثل القاضي الشرعي الطبيعي. وهي تماثل اليوم الأحكام العسكرية والعرفية وقوانين الطوارئ.

9 - أمير جاندار (ممسك الروح):

يختص هذا الأمير وأعوانه بالتحكّم في الأبواب السلطانية من حيث مراقبة الزوار، وتنظيم مقابلات السلطان. ويشترك في عرض البريد على السلطان مع الدوادار. بالإضافة إلى هذا فهو الذي يقوم بتنفيذ أوامر السلطان من حيث القبض على من يودّ السلطان القبض عليه، وإيداعه سجن الزردخانة وهو أقصى أنواع السجون حيث إنّ المقبوض عليه لا يمكث به فترة طويلة، فإما أن تُقبض روحه ويقتل، أو يُطلق سراحه وربما لهذا سُمّي باسم الأمير ممسك الروح، لمحافظته على روح السلطان من ناحية، والقبض على أرواح أعدائه من ناحية أخرى. وهو ملازم للسلطان يدور حوله بالزفة (أي الموسيقى في سفره وتحرّكاته).

10- الاستادار:

هو المشرف والمسؤول عن إدارة بيوت السلطان (أو الأمير) كلّها من حيث الطعام والشراب والخدمات والسلاح والدواب، فهو يشرف على الشرابخانة وهي بيت الشراب،

والأدوية والطشتخانه وهي بيت الغسيل والنظافة للملابس وخلافه من أثاث، والفراشخانة المسؤول عن الفرش والأثاث والتجهيزات المنزلية والسلاحخانة وهو بيت الأسلحة والدروع والزرد والركابخانة، وتشتمل على الخيل والسروج واللِّجام، وغيرها. والحوائجخانة وهو يشتمل على جميع أنواع الأطعمة والتموين والمطبخ السلطاني الذي يعُد به الطعام والغذاء والولائم السلطانية. وأخيرًا الطبلخانة وهو بيت الطبل بما فيها من أبواق وطاسات وآلات موسيقيه أخرى.

11- الجاشنكير:

هو ومساعدوه المسؤولون عن الأطعمه والمآدب السلطانية المسمّاه بالسماط كذلك تذوق الطعام والشراب، للتأكد من سلامته. يتبع الاستادار وكبيرهم من أمراء الألوف، وقد يكون في رتبة الاستادار.

هناك وظائف أخرى تقلّ أهمية عن السابقة مثل الخازندار، وهو المسؤول عن خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش، مقدم المماليك، وهو المسؤول عن طباق المماليك السلطانية وهو يعتبر من طبقة الخدّام، والزمامية وهم خدم السلطان وعائلته، وقد يصل أحدهم إلى رتبة أمير طبلخانة، ومعظهم من الطواشية الخصي. أمير جمدار، وهو المسؤول عن الملابس والأقمشة السلطانية، والمهمندار (المهمن هو الضيف بالفارسية) ومهمتهم استقبال الضيوف والسفراء، وتدبير مجال إقامتهم وضيافتهم. أمير علم وهو المسؤول عن الطبلخانة والأعلام السلطانية. وأمير شكار وهو المسؤول عن تنظيم رحلات صيد وقنص السلطان، ومايستلزمه هذا من طيور وجوارح وحيوانات الصيد. وشاد العمائر يشرف على جميع العمائر والمنشآت السلطانية، وصيانة وتجديد القصور والمنازل وغيرها. وجميع المناصب السابقة يتولاها أمراء من العشرات في الغالب.

أخيرًا فهناك الولاة وهم من المماليك أهل السيف، ويختصّون بأعمال الأمن الداخلي أو الشرطة بمعناها الحديث، وكذلك جميع المعلومات عن طريق شبكة من الجواسيس يسمّون بصاصين. وكبيرهم وإلى القاهرة وهو عادة أمير طبلخانة. هناك وال آخر للفسطاط وتتبعه القرافة (بعد أن كانت مستقلةً لها والٍ خاص) وهو أمير طبلخانة أيضًا.

للقلعة بالقاهرة وال خاص أيضًا وهو أمير طبلخانة مُهمّته حفظ باب القلعه الكبير المعروف

بالمدّرج، وتنظيم دخول الأمراء وخروجهم، وفتح وغلق الباب. وهناك والٍ آخر أقل شأنًا من أمراء العشرات وهو مسؤول عن الباب داخل القلعة والمعروف باسم باب القُلّة (القلعة).

ب- المناصب العسكرية الكبرى في غير حضرة السلطان:

بالطبع تحدث تغييرات بين حينٍ وآخر في طبيعة وسلطات، ومرتبة الوظائف الكبرى؛ ولكن ماذكرناه وسنذكره يمثل الملامح الرئيسية لتنظيم المؤسسة العسكرية والمؤسسات المدنية الأخرى.

داخل مصر:

وأهم هذه المناصب هم نوّاب الحكم داخل مصر وخارجها (بخلاف نائب السلطان بالقاهرة) ويمثلون السلطان كلّ في مِنطقته ولهم الإقطاعات والمواكب. ويتبعهم أمراء وأرباب وظائف عسكرية ومدنية كما في القاهرة فهو كسلطان مختصر أو مصغّر، ولهذا سوف نسمّيهم فقط ولن نعرض هياكلهم العسكرية والإدارية، لأنهاً مشابهة لما سبق عرضه.

ففي داخل مصر وجدت ثلاث نيابات وهي نيابة الإسكندرية وقد استحدثت هذه النيابة سنة 767/ 1365 في دولة الأشرف شعبان وذلك بعد غزو ملك قبرص للإسكندرية، وتدميرها ونهبها. والثاني نائب الوجه القبلي وقد استُحدثت هذه الولاية أيضًا في عهد الظاهر برقوق في نهاية القرن السّابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وكان سابقًا يسمَّي كاشف (أحد الأمراء من ذوي السيوف الأقل رتبة من النائب وأعلى من الوالي) ومقر النائب أسيوط، ويتبعه عدة ولاه في مدن الصعيد الكبرى. وأخيرًا والي الوجه البحري وقد استُحدثت أيضًا في عصر الظاهر برقوق ومقرها دمنهور بالبحيرة، ويتبعه أيضًا عدة ولاه لمدن الوجه البحري الكبرى.

خارج مصر:

أما خارج مصر في الشام، فتوجد ست نيابات أكبرها هو نائب الشام ومقره مدينة دمشق، وهو يلي السلطان مباشرة في الأهمية ولا يتولّى نيابتها إلاّ أحد كبار الأمراء، وتتبع هذه النيابة الكثير من المدن الساحلية حتى غزة جنوبًا كذلك القدس الشريف والجليل واللد والرملة، ويوجد بها مثل ما هو موجود بالقاهرة من وظائف. والولاية التي تليها في الأهمية

هي حلب، وتتبعها بعض المدن المحيطة بمدينة حلب وتمثل هذه النيابة الحدود الشمالية للدولة المملوكية، فنائبها هو المسؤول الأول عن الدفاع عن هذه الحدود وإقامة مناطق نفوذ عازلة بين الشام والمناطق الشمالية التي تسيطر عليها قبائل التركمان.

والثالثة نيابة طرابلس ويتبعها الكثير من القلاع، والنيابة الرابعة هي نيابة مدينة حماة، والخامسة صفد، والسادسة الكرك، وتعتبر غزة أيضًا نيابة قريبة من مصر. أما الحجاز فلم يكن لها نائب. إنّما يحكم مكة والمدينة أمراء من الأشراف تعينه القاهرة، ويخضع للحماية المصرية، ويُخطب لسلطان مصر على منابرها كسائر أجزاء الدولة المملوكية والظاهر بيبرس هو أول من حمل لقب خادم الحرمين. يقيم في جدة مسؤول مصري للإشراف على مينائها، وتحصيل الضرائب والمكوس على تجار البهار، وغيرها من السلع الواردة والصادرة العابرة للبحر الأحمر.

ثالثًا: الإدارة المدنية:

ويقوم بها أهل القلم أو أصحاب العمائم وهم غالبًا مصريون تلقّوا العلم في الأزهر أو في المدارس المختلفة بالقراءة على أيدي الأساتذة في شتى أنواع العلوم المعروفة في هذا العصر، وبعد استيفائهم المستوى العلمي المطلوب يتلقّون الإجازه (الشهادة) من أساتذتهم، ويلتحقون بالإدارة المدنية في دواوين الدولة المختلفة، أو سلك القضاء، أوالوظائف الدينية والأخرتان قاصرتان على المسلمين فقط، أما سلك الإدارة المدنية فمفتوح أيضًا للأقباط واليهود لمهاراتهم المالية والإدارية وإن كان الكثيرون منهم تحوّلوا إلى الإسلام بمرور الوقت. وظائف الإدارة المدنية عديدة أهمّها تسع وظائف كما يذكر القلقشندي، سبق لنا مناقشة ديوان الجيش وهو أحد أفرع الإدارة المدنية ولذلك لن نعرض له هنا.

1 – الوزارة:

هي أعلى الوظائف المدنية وكانت تلي السلطنة في المقام قبل استحداث وظيفة النائب الكافل، وقد يتولّاها أيضًا أحد أصحاب السيوف من العسكريين. الوزير منوط بكافة شئون الدولة المالية والإدارية، والنظر في أحوالها إلا أنّ الناصر محمد في بداية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي قام بإلغاء تلك الوظيفة، وأسند أعمالها إلى ثلاثة مناصب أخرى. فاستحدث أولاً وظيفة جديدة هي ناظر الخاص وهو الذي كان مكلفًا بالاستلام والتصرف في الموارد المالية السلطانية من إقطاعات وحقوق أخرى، ثم إنفاقها تبعًا لأوجه الأنفاق المتعارف عليها، أو طبقًا للأوامر السلطانية. والمنصب الثاني هو ناظر المال لتحصيل الموارد العامة للدولة (أحيانًا لم يكن هناك فرق كبير بين المال العام، والمال الخاص بالسلطان) وإنفاقها في مصارفها الشرعية والمشاريع العامة، وبالطبع طبقًا لأوامر السلطان، ويعاونه في هذا شاد (مشرف) الدواوين. والثالث كاتب السر (كما سنرى) الذي اختص بتصريف الشؤون العامة والإدارية بعد مشاروة السلطان أو برأيه بدلاً من الوزير. وبعد الناصر محمد أُعيدت الوزارة مرة أخرى كوظيفة، ولكنّها اقتصرت على الإشراف على المال العام وظبطه دون غيرها من المهام، وبذلك تضاءلت أهميتها و لم يعد له حق الولاية أو العزل لأي من الوظائف.

2 – كاتب السّر:

هو كسكرتير للسلطان يقدّم له الأوراق والمراسلات للاطلاع عليها، ويكتب أيضًا المراسلات والأوامر للسلطان للتوقيع عليها. وهو أيضًا الجالس بدار العدل مع السلطان للنظر في القضايا والطلبات المقدمة، ويقوم بالتأشير عليها بعد مراجعة السلطان عند الحاجة (وكانت إحدى اختصاصات الوزير في السابق). يعاونه في هذا العمل مجموعة من الكتبة يسمّون كُتّاب الدست. ومجموعه أخرى تُسمّى كُتاب الدرج وهم الذين يقومون بكتابة وتحرير أوامر التقليد بالولاية والوظائف، وغيرها من المكاتبات الخارجة من الأبواب الشريفة (السلطانية).

3– ناظر الخاص:

وظيفه استحدثها الناصر محمد في ولايته الثالثة للإشراف على الأموال السلطانية، وظبط الوارد منها والصادر، وتدبير مايحتاجه السلطان من نفقاتٍ خاصة به، وسبق ذكرها في أكثر من موضع.

4– ناظر الجيش:

سبق لنا تعريفها عند الحديث عن المؤسّسه العسكرية.

5– ناظر الدولة:

ويُسمّى أيضًا ناظر النظار، أو ناظر المال وهو على ما يبدو يشرف على أعمال النظارة، ويقوم بتصريف الأمور مثل عمل الوزير.

6 –ناظر الخزانة:

وكانت وظيفة كبيرة نظرًا لأنها خزانة أموال المملكة تتصرف فيها طبقًا للقواعد وأوامر السلطان، ولكن قلّت أهميتها بعد استحداث وظيفة ناظر الخاص، واقتصرت في الغالب على حفظ الخلع وملابس التشريفات، وتوزيعها على مستحقيها من أرباب الوظائف طبقًا للقواعد والأوامر السلطانية.

7– ناظر البيوت:

وهو المقابل المدني للاستادار، للإشراف على القصور والدور السلطانية كما فصلنا سابقًا.

8- ناظر بيت المال:

منوط إليه ضبط بيت مال المسلمين من حيث الموارد والنفقات وهي أموال عامة لها مصارفها الشرعية.

9- ناظر الإصطبلات السلطانية:

هو المسؤول عن جميع أنواع الخيول والبغال والدواب والجمال والهجين، من حيث البيع والشراء والإهداء، وكذلك العلف الخاص بها، وجميع شئون المستخدمين فيها. وهو المقابل المدني للأمير آخور.

بخلاف هذا توجد وظائف كثيرة لإدارة شتى شئوون المملكة بعد الرجوع إلى أصحاب المراكز العليا من أهل السيف والقلم مثل ناظر دار الضيافة الخاصة بالزوار، وناظر دار السلاح، وناظر الأملاك السلطانية، وناظر الأهراء السلطانية (شون الغلال السلطانية والمستعمله كاحتياطي عند أوقات الأزمات) ومنها تُورّد الغلال لكافة الاستعمالات السلطانية من دور وإصطبلات. ناظر البهار وهو مسؤول عن تجارة البهار الواردة من اليمن والهند، والإشراف على شؤون تجارها المعروفين بالكارم. وناظر المواريث الشرعيه وهو المشرف على ديوان المواريث الحشرية الذي تؤول إليه كافة أموال من يموت بلا وريث، أو الأموال الفائضة عمّن له وارث لا يستحقّ كافة أمواله طبقًا للشريعة. ناظر الطواحين السلطانية وهو المسؤول عن طحن القمح للاحتياجات السلطانية، وغيرها من الوظائف التي قد يطول شرحها.

رابعًا: القضاء والوظائف الدينية:

أ- القضاء:

يتولاّه علماء من أهل القلم المسلمين من أصلٍ مصري في الغالب، ولكن قد يكونوا من أصولٍ غير مصرية رومية أو عجمية أو مغربيّة، وهؤلاء هم الذين يجلسون بحضرة السلطان في دار العدل بالقلعه: ما بين بابي السلسلة والمدّرج موضع دار المحفوظات المصرية (الدفترخانة) أسفل القلعه حاليًا وقد بناها الظاهر بيبرس في سنة 661/ 1263 وكان يجلس بها يومي الإثنين والخميس مع القضاة والأمراء، وجمع كبير من أرباب الوظائف للنظر في أمور الرعية. استمرّ العمل بها حتى دولة المنصور قلاوون الذي قام ببناء إيوان كبير داخل القلعة كان به مجلس السلطان، وأصبح هو مقرّ دار العدل، واستمر الأمر على هذا إلى أن قام الناصر محمد بهدمه، وإعادة بنائه على صورة فخمة، وزوّده بأعمدة كبيرة، وقبة ضخمة جعل بها سرير الملك (العرش) وجعل أمامه رحبة واسعة وذلك في مُحرم من عام 715/ 1315 بعد انتهاء الروك الناصري. يجلس به السلطان يومي الإثنين والخميس ومعه أمراء الدولة، والقضاه، والوزير، وكاتب السر، وناظري الجيش والخاص، وكتّاب الدست يحيط بهم الجند كلّ حسب رتبته. استمر هذا الوضع خلال السلالة القلاوونية، وعندما تولّى الظاهر برقوق السلطنة في نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي نقل دار العدل إلى الإصطبل السّلطانى. واستمر هذا الوضع بعده، و لم يهتم برقوق وخلفاؤه بهذا المجلس، وإن استمروا في عقده بصورةٍ شكلية كأحد شعائر الملك والسلطنة.

ويتشكّل السلك القضائي من قضاة القضاة، وقضاة العسكر، ومفتي لدار العدل، ووكالة بيت المال والحسبة.

1- القضاة :

هم من كانوا يتصدّون للحكم طبقًا للشريعة الإسلامية للفصل في جميع القضايا المدنية والجنائية والأحوال الشخصية عن طريق أنفسهم، أو عن طريق نواب لهم. وقد كان هناك أولاً قاضي قضاة واحد غالبًا هو القاضي الشافعي. لكنَّ الظاهر بيبرس قام بتعيين ثلاثة قضاة آخرين حنفي ومالكي وحنبلي في 663/ 1265 أرفعهم شأنًا القاضي الشافعي، وعيّن له نوابًا بالقاهرة والفسطاط والوجهين القبلي والبحري، أما باقي القضاة فلهم نوّاب في القاهرة والفسطاط فقط.

3 – قضاة العسكر:

هم ثلاثة قضاة فقط ليس منهم حنبلي وهي وظيفة قديمة منذ زمن الدولة الأيوبية، وهؤلاء يتحركون مع السلطان عند خروجه في حملاتٍ عسكرية، أو لتفقّد أحوال المملكة للحكم في الأمور الشرعية، ويجلسون معه في دار العَدل بالقاهرة، ولكن في مرتبةٍ أقل من قضاة القضاة الأربعة.

4 – إفتاء دار العدل:

هم أربعة من الأربعة مذاهب، و لم تبين المصادر المتاحة وظيفة محدّدة لهم، ولكنّهم كانوا على درجة أقل من قضاة العسكر، ويجلسون في دار العدل أيضًا ربما لإبداء الرأي في المسائل الشرعية المُعروضة بصفةٍ استشارية، ولكن دون إصدار أحكام واجبة التنفيذ في القضايا المعروضة.

5 – وكالة بيت المال:

المسؤول عن بيت مال المسلمين والمشرف عليه من حيث بيع وشراء الأراضي والعقارات المملوكة له، والتعاقد عليها، والتصرف فيها. ويبدو لي أنّها وظيفه أعلى من ناظر بيت المال المذكور الذي كان مسؤولاً فقط عن إدارة وضبط حسابات الداخل والخارج لبيت المال، دون حقّ التصرف فيها بالبيع والشراء.

6 – الحسبة:

من الوظائف الإدارية الهامة جدًا وهو موكّل بمراقبة السلوك العام للأهالي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعاقبة الخارجين عن النظام (عن طريق الوالي) كذلك مراقبة الأسواق لمنع الغش في العملة، أو السلع، أو التلاعب في الأسعار، ومراقبة الموازين والمكاييل، واتخاذ الإجراءات اللازمة لضبط الأسواق والصناعة والتجارة. يوجد محتسبان الأول بالقاهرة وسلطته تمتد خارجها حيث يعين مندوبين عنه بالوجه البحري إلا الإسكندرية ولها محتسب خاص بها وهو الوحيد الذي له حق الجلوس بصحبة السلطان بدار العدل. أما المحتسب الآخر وهو أقل رتبة وهو محتسب الفسطاط، وسلطاته تمتد إلى الوجه القبلي بأكمله.

ب- الوظائف الدينية:

هؤلاء لا يحضرون مجالس السلطان وهي وظائف عديدة يصعب حصرها يتولّاها أيضًا علماء من أهل القلم من أهمها شيوخ المدارس المختلفة والخنقاوات، وأكبرهم شيخ الشيوخ وهو شيخ خانقاه سرياقوس التي أنشأها الناصر محمد، وناظر البيمارستان المنصوري في بين القصرين، وناظر الأحباس وهو المسؤول عن الإشراف على الممتلكات الخاضعة لنظام الوقف والتي يذهب ريعها إلى المنشآت الدينية المختلفة طبقًا لنظام الأوقاف، والذي سنناقشه في موضع آخر وهو مسؤول عن ذلك أمام السلطان نفسه أو نائبه أو أحد كبار الأمراء. الخطابة بالجوامع المختلفة كانت أيضًا من الوظائف المقررة ومعهم المؤذنون، وينتشرون في كافة أنحاء المملكة.

أخيرًا وظيفة التدريس، ويتصدّى لها مجموعة من العلماء في أنواع علوم الفقه والحديث والتفسير واللغة والنحو في المدارس المختلفة مثل الأزهر، والشيخونية وهذا يقابل التعليم الجامعي حاليًا. كذلك الطّب بأنواعه المختلفة غالبًا في البيمارستان المنصوري. أما العلوم الوضعيّه كالرياضة والهندسة والفلك، فللأسف لم يتصدَّ لها إلا القليلون. أما التعليم الأولي للأطفال دون سن البلوغ، فكان يقوم به فقهاء أقل شأنًا من العلماء السابقين يعاونهم عرفاء (المفرد عريف) في الكتاتيب المنتشرة، لتعليم مبادئ اللغة العربية والقراءة وتحفيظ القرآن الكريم.

ج – مصادر دخل أرباب الأقلام:

الرواتب الشهرية كانت المصدر الرئيسي للدخل بالنسبة لهم، ولهم أيضًا جرايات (حصة يومية) أخرى من لحم وخبز وعلف للدواب وسكر وكسوة وغيرها كلّ على قدر رتبته. هذا بخلاف الخِلع وملابس التشريف التي تتناسب مع مناصبهم، وتوزّع عليهم في المناسبات المختلفة. أعلى تلك المرتبات كانت للوزير وهي حوالي مائتين وخمسين دينارًا جيشيًا شهريًا. أما القضاه فمرتباتهم من السلطان وتكون حوالى خمسين دينارًا جيشيًا في الشهر هذا بالإضافة إلى مخصصات لهم عند الإشراف على المدارس، أو غيرها من المنشآت الدينية الخاضعة لنظام الوقف. أمّا العلماء والفقهاء القائمون بالتدريس فيقتصر دخلهم على المنشآت العلمية التي يعملون بالتدريس بها، وهي تختلف اختلافًا كبيرًا حسب موارد أوقافها،

ولكنّهم عمومًا لا يُعدّون من مياسير الناس. وقد سبق لنا مناقشة الوضع الاجتماعي لأرباب تلك الوظائف.

ملحوظه عامة أخيرة إنّ مؤسسات الدولة، وهيكلها الوظيفي العسكري والمدني كان أوسع مما ذكرناه هنا الذي يقتصر على خطوطها العامة وليس حصريًا. كذلك لم يكن بالطبع ثابتًا خلال سنوات الدولة الطويلة بل تعرض للتغيير كثيرًا. مصادرنا الرئيسية (كما سنرى لاحقًا) كانت ما كتبه النويري المتوفّى في 733/ 1333 وابن فضل الله العمري المتوفى في 749/ 1349 والقلقشندي المتوفّى في 821/ 1418 والمقريزي المتوفّى في 845/ 1442 والسيوطي المتوفّى في 911/ 1505 ولكن جميع هذه المصادر متقدّمة كانت أو متأخرة اعتمدت بصورة أساسية على أقدمها وهما النويري وابن فصل الله العمري، وإن لم تشر بعضها إلى مثل هذا النقل كالمقريزي مثلاً. ولما كان النويري وابن فصل الله العمري يكتبان ويعملان في دولة الناصر محمد الثالثة، فلذلك فإنّ ما أوردناه في هذا الفصل ينطبق غالبًا عليها أي على الأوضاع السائدة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. حتى إنّ ما أورده السيوطي المتوفّى 901/ 1505 أي في نهاية الدولة المملوكية بعد هذا العصر بحوالي قرنين من الزمان لا يختلف كثيرًا، بل ينقل حرفيًا عن ابن فضل الله العمري. وهذا يعني أنّ التغيرات في هيكل المؤسّسات الحاكمة لم تكن كثيرة خلال تلك المدة. فالدولة المملوكية كانت شديدة الحرص وشديدة المحافظة على تقاليدها، وعلى مؤسساتها الموروثة. هذا كان السبّب الأكبر في استمرار الدولة لمدة تزيد عن مائتين وسبعين عامًا، ولكنّه كان أيضًا السبّب في اضمحلالها ونهايتها كما سنرى (النويري، نهاية الأرب، 8: 196 – 228؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الإبصار، 27 – 35، 49 – 62؛ القلقشندي؛ صبح الأعشى، 4: 8 – 40؛ المقريزي، الخطط، 2: 206، 215 – 220؛ السيوطي، حسن المحاضرة، 2: 128 – 132؛ Popper, *Notes to Ibn Taghrin Birdi History of Egypt*, 81-110).

الفصل السابع

المؤسّسات المملوكية الموازية

هي تلك المؤسسات التي لعبت دورًا غير مباشر، ولكنّه حيوي في مجرى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والدينية، والتعليمية، والعمرانية والفنية. إنّها ليست مؤسسة بالمعنى التقليدي بمعنى أنّه ليس لها هيكل تنظيمي محدّد ثابت أو سلطة تنفيذية، إنّما تخضع دائمًا لباقي المؤسّسات الحاكمة الأخرى التي عرضنا لها سابقًا. تستمد هذه المؤسّسات وجودها من الحاجة إليها لإكساب النظام الشرعية، ولتنظيم توزيع موارده المالية، ولضمان تمويل وتأمين مستقبل منشآته في الأمد البعيد. هذه المؤسّسات هي الخلافة، والإقطاع، والأوقاف وجميعها كانت معروفة خارج مصر، ولكنّها اكتسبت شكلاً جديدًا في مصر المملوكية.

أولاً : الخلافة

بعد سقوط بغداد في يد المغول، وقتل الخليفة المستعصم في صفر 656/ 1258 انتهت الخلافة العباسية في بغداد، وأصبح العالم الإسلامي دون خليفة مُعترف به في كافة أنحائه لأول مرة. في السنوات السابقة على سقوط بغداد أعلن أمير تونس أبو عبد الله الحفصي

نفسه خليفة، ولُقّب بالمستنصر، وخُوطب بأمير المؤمنين في 650/ 1253 ولكن لم يعترف بخلافته أحد سوى شريف مكة. غير أنّ قطز بعد انتصاره على المغول في عين جالوت في 658/ 1260 أَرسل إلى أبي عبد الله هذا يخطره بالنصر، وخاطبه بلقب أمير المؤمنين مما عزز من مكانته في غيبة خليفة عباسي في بغداد.

بعد تولّي الظاهر بيبرس السلطنة في 658/ 1260 ومن ضمن جهوده في إرساء دعائم الدولة المملوكية رأى ضرورة إضفاء الشرعية على الدولة الفتية، وذلك بأن يقوم خليفة الوقت بتقليده سلطانًا هو ومن يليه على العرش. غير أنّ بيبرس لم يشأ أن يكون حاكمًا قويًا وطموحًا مثل أبى عبد الله الحفصي هو هذا الخليفة، فهداه تفكيره إلى إحياء الخلافة العباسية مره أخرى في مصر، فقام باستقبال أحد أفراد العائله العباسية الفارين من الحكم المغولي وهو أبو القاسم أحمد –كان أبوه وأخوه خلفاء قبل الغزو المغولي– وأقامه خليفة بعد التأكد من نسبه، ولقّبه أيضًا بالمستنصر، وذلك في رجب 659/ 1261 وقام الأخير بدوره بتقليد بيبرس سلطانًا، وفوضِ إليه أمور البلاد الإسلامية في الشهر التالي.

لم يكن للخليفة في الحقيقة أية سلطة حقيقية سوى تقليد السلاطين، أو خلعهم بالاتفاق مع قضاة الشرع، بناء مايتفق عليه كبار أمراء المماليك أصحاب السلطة الحقيقية. أقام معظم الخلفاء في القلعه مغلوبين على أمرهم، أو مُبعدين للإقامة بمدينة القاهرة في منطقة قلعة الكبش. أحيانًا يُنفون خارج القاهرة إلى الإسكندرية أو قوص بالصعيد، ولكن لم يتعرض أي من الخلفاء إلى القتل أو الاغتيال، حتى عندما تدخّل بعضهم في الخلافات السياسية بين المماليك، فعادة يكتفي الطرف المنتصر بنفي الخليفة أو عزله فقط ربما لحرمتهم الدينية، وقرابتهم من الرسول.

تغير الجالس على كرسي الخلافة إحدى وعشرين مرة حتى نهاية الدولة في 923/ 1517 أي بمتوسط حوالي اثني عشر عامًا وهي مدة أطول كثيرًا من متوسط التغير على كرسي السلطنة، مما يشير إلى الاستقرار النسبي لهذه المؤسسة غير أنّ بعض الخلفاء ارتقى كرسي الخلافة أكثر من مرة، فكان عدد الخلفاء سبع عشرة خليفة. جميعهم بالطبع من العائلة العباسية كان آخرهم هو الخليفه المتوكل على الله محمد، والذي عزله السلطان سليم الأول في 922/ 1516 بعد موقعه مرج دابق، وبعدها انتقلت الخلافه من القاهرة إلى آل عثمان بالأستانة (إسطنبول حاليًا).

لم يكن للخلفاء العباسين عزوة ولا ثروة، فأولاً قام الظاهر بيبرس بنقش اسم الخليفة على السكة (العملة)؛ ولكنّه خاف مغبّة هذا العمل، فتوقف عنه وإن أبقى الدعاء لهم في خطبة الجمعة. واعتمد الخلفاء ماديًا على هبات السلطان والأمراء وإن كان لهم الحق أيضًا في الحصول على جزءٍ من أموال صندوق النذور بمسجد السيدة نفيسة وإن تعفّف بعض الخلفاء عن هذا السلوك.

عند وفاة الخليفة الثاني الحاكم بأمر الله أبي العباسي أحمد في 701/ 1302 بعد أربعين عامًا في كرسي الخلافة دُفن بجوار السيدة نفيسة في قبرٍ أُعدّ له، فكان أول الخلفاء العباسين المدفونين في تلك المقبرة الباقية حتى الآن. وتوالى دفن خلفائه هناك، وكان المستنصر بالله الخليفه العباسي الأول قد قُتل ودفن بالعراق عند محاولته الفاشلة لاستعادة بغداد في 660/ 1261. الخليفه الثالث المستكفي بالله أبو الربيع سليمان اعتلى الخلافة وهو في العشرين من عمره، وكان معاصرًا للسلطان الناصر محمد، وفي نفس سنّه وكانا صديقين يدرسان ويلعبان معًا صغارًا وكبارًا، ويخرجان لمحاربة المغول معًا غير أنّهما اختلفا في فتوى المُلك عقيم عندما ناصر الخليفة المظفّر بيبرس الجاشنكير كما سبق، وذكرناه مفصلاً وغضب عليه الناصر، ونفاه إلى قوص بالصعيد في 736/ 1336 حتى وفاته في 740/ 1340 بل رفض تولية الابن الذي عهد إليه بالخلافة (تعيين ولي عهد الخلافة من الحقوق القليلة التي احتفظ بها الخلفاء في مصر).

توالى الخلفاء وهم على حالهم لعبة في يد سلاطين وأمراء المماليك، وكانت الخلافه تنتقل من أبٍ لابن أو لأخ، فالمتوكل على الله أبو عبد الله تولّى الخلافة ثلاث مرات أولها في 763/ 1360 لمدة ستة عشر عامًا، ثم خُلع من الخلافة ونفي إلى قوص بواسطة أيبك البدري أحد كبار مماليك السلطان الدمية المنصور علي بن الأشرف شعبان في 779/ 1377 ولكنّه أُعيد مرةً أخرى بعد أيام قليلة إلى أن خلعه الظاهر برقوق في 785/ 1383 لمدة حوالي ست سنوات، ليعيده للخلافة مرة ثالثة من محبسه بالقلعة في 791/ 1389 ويستمر فيها حتى وفاته في 808/ 1406 أي سبعة عشر عامًا أخرى. تذكر المصادر نقلاً عن المقريزي أن المتوكل على الله هو كان أول من أثرى خلفاء مصر وكانت له ثروة ضخمة (لا تذكر مصدر هذه الثروة) وذرية كبيرة، وتولّى الخلافه خمسة من أولاده من بعده وهو رقم قياسي لم يتحقّق لأي من الخلفاء في السابق أو اللاحق وكان شهيرًا له حرمة ومُبجّلاً داخل وخارج مصر أيضًا حتى إنّ

السلطان العثماني بايزيد طلب منه في 797/ 1395 تقليده وتشريفه بتولّيه حكم بلاد الروم (تركيا حاليًا).

خلف المتوكل على الله أبو عبد الله ابنه أبو الفضل العباسي، ولُقِّب بالمستعين بالله وهو الوحيد من تولّى السلطنه من الخلفاء أو من خارج طبقة المماليك مِمّن مسّهم الرق أو ذريتهم، وذلك نتيجة لخلافات بين كبار أمراء مماليك الناصر فرج شيخ، ونيروز في دمشق (سوف نعرض لتلك الأحداث في حينها). فقتل الأمراء السلطان الناصر فرج في محرم 815/ 1412 واتفقوا على تولية المستعين بالله سلطانًا، فامتنع أولاً ثم قبل السلطنة معتقدًا صدق نية الأمراء، واستقر بالقلعة على أن يكون الأمير شيخ هو مدبر المملكة. سرعان ما اكتشف الخليفة حقيقة الأمر، وأنّه كان لُعبة في الصراع بين الأمراء، وليس له من السلطنة سِوى الاسم، ولما حاول ممارسة صلاحياته عزله شيخ، وذلك في 816/ 1414 أي مكث في السلطنه حوالي سبعة أشهر، و لم يلِ السلطنة خليفة من بعده. وقد تسلطن شيخ بعد ذلك، ولُقب بالمؤيد، وعيّن أخاه المستعين بالله خليفة، ونفاه هو إلى الإسكندرية حيث توفّي بها مصابًا بالطاعون في جمادى الآخر 833/ 1430.

كما ذكرنا ارتقى كرسي الخلافة أربعة آخرون من إخوة المستعين بالله حتى نهاية القرن التاسع/ الخامس عشر، وكان الخلفاء يتميزون بحسن السيرة والصلاح، والتدين والعلم والعدل، وابتعدوا عن أمور السياسة باستثناء القائم بالله أبو البقاء حمزة حيث عاودته أحلام السلطنة مثل أخيه، فاصطدمت بالواقع السّياسي، وتمّ عزله في 859/ 1455 في سلطنة الأشرف إينال، ونُفي أيضًا إلى الإسكندرية. الخلافة كما رأينا كانت مؤسسة اسمية ووظيفة شرفيه، وكل ما هو مطلوب منه إضفاء الشرعية على السلطان والأمراء، وانتهت بانتهاء الدولة المملوكية. ومعظم الخلفاء العباسيين مدفونون في قبة الخلفاء العباسيين الأيوبية الأصل، والتي لا تزال قائمة إلى اليوم (أثر 276، حوالي 640 / 1242 – 43) بجوار مشهد السيدة نفيسة بالقاهرة (ابن تغرى بردى، مورد اللطافة، 1: 236 – 267؛ السيوطي، حُسن المحاضرة، 2: 64 - 101; Lewis, *EI* ², 1:21-23).

ثانيًا: الإقطاع

هو ذلك النظام الذي بموجبه تتنازل الدولة عن إيرادات جهة معينه بصفه مؤقتة للأمراء والعسكر أو الأفراد كلّ حسب رتبته مقابل الخدمات التي يؤديها للدولة في السلم والحرب. وإن كان قد جرت العادة على منح الأمراء والعسكر أموالاً إضافيه تُسمّى نفقة، وذلك عند تولي سلطان جديد أو إرسالهم للحملات العسكرية. الإقطاعات معظمها من الأراضي الزراعية – وإن كان بعضها نقديًا مثل عائد بعض الضرائب أو الجمارك أو المناجم. تقليديًا فإنّ الدولة كانت تجمع الإيرادات بصورة مركزية، ثم تقوم بتوزيع هذه العوائد على الأمراء والجنود وسائر موظفي الدولة على هيئة مرتبات مع دفع سائر التكاليف الأخرى، ومايفيض من هذا يذهب إلى بيت المال.

أول من أدخل نظام الإقطاع بدلاً من الرواتب هو نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملك شاه في إيران في نهاية القرن الخامس/الحادي عشر، وقد حذت حذوهم الدولة الزنكية في الشام والجزيرة، وإن كانت الإقطاعات وراثية في الغالب. مصر في الدول الأموية والعباسية والفاطمية لم تعرف نظام الإقطاع حتى بداية الدولة الأيوبية التي أدخلت نظام الإقطاع لأول مرة، فأراضي مصر كلّها صارت تُقطع للسّلطان والأمراء والجنود. طبقًا للمقريزي (المتوفى في 845/ 1442) فإنّ أرض مصر في زمانه كانت سبعة أقسام. قسم خاص للسلطان، وقسم ثانٍ للأمراء، وقسم ثالث يوقف على الجوامع والمدارس والخوانق وسائر جهات البر، وقسم رابع للعاملين والقائمين على إدارة المساجد والجوامع، وقسم خامس يُباع ويشترى، ويورث، ويُوهب، وقسم سادس لا يزرع؛ للعجز عن زراعته فيصبح مرعى للمواشي، أو يجمع منه الحطب، وأخيرًا القسم الذي لا تصله مياه النيل فهو صحراء جرداء (المقريزي، الخطط، 1: 97).

جرت العادة على قياس وحصر جميع الأراضي الزراعية في مصر فيما يُعرف بالروك، وهو ما سنعرض له لاحقًا بشيء من التفصيل. ورث المماليك نظام الإقطاع من الدولة الأيوبية مع فارق أساسي هو أنّ الأقطاع أصبح لا يورّث، بل يرتبط بوظيفة ورتبة المُقطع له ويزول بزوالها. بالطبع استأثر السلطان والأمراء بأجود الإقطاعات، وكانت قيمة الإقطاع تتراوح من قرية واحدة إلى عشر، وغالبًا لا تكون متجاورة ولكن متفرقة في أنحاء المملكة، وقد تكون أيضًا جزءًا من القرية الواحدة. إدارة وتوزيع الإقطاعات كانت من اختصاص ديوان الجيش –كما ذكرنا سابقًا– من الناحية الإدارية فقط. أما انتقاء الإقطاع ووهبه لأحد الأمراء،

فكان من أخصّ حقوق السلطان. فإن وقع الاختيار على أحدهم أمر السّلطان كاتب الجيش، فيكتب له ورقة مختصرة تُسمّى المثال وهو عباره عن ورقه يكتب بها بيانات الإقطاع –بعد ترك ثلثيها من أعلاها بياضًا– واسم المُقطع له ويتناولها السلطان، ويؤشّر عليها بخطّه بكلمة "يُكتب"، فيعطيها الحاجب للمستفيد الذي يُقبّل الأرض تعبيرًا عن شكره للسلطان، وتُحفظ هذه الورقة في ديوان الجيش.

هناك طريقتان أخرتان لتوزيع الإقطاع أولها أن يتقدّم أحدهم بطلبٍ يُسمَّى قصة، وفيها يُخطر السلطان بوفاة صاحب الإقطاع، أو انتقاله عنه أو طلب تجديد الإقطاع ونحو ذلك، ويتحقّق منها ناظر الجيش، ويرفعها للسلطان للموافقة بتأشيرة "يُكتب" كما في المثال، والطريقة الثالثة وتُسمَّى بالإشهاد وفيها يتنازل أحدهم عن إقطاعه للآخر أو يقايضه بآخر أو يشارك فيه آخر، فيقوم ناظر الجيش بالكشف والتحقيق فيه، ثم يقوم السلطان بالتأشير عليه كما في الحالتين السابقتين.

بعد هذا يُحفظ المثال، أو القصة، أو الإشهاد في ديوان الجيش كأصل، ويصدر الديوان مَربعة (ورقه مربعة من صفحتين متقابلتين) تكتب تفاصيل الإقطاع واسم صاحبه ولقبه وغيره، وتؤرّخ وترسل المَربعة إلى كاتب الإنشاء الذي يقوم بدوره بتحرير منشور بالإقطاع به أيضًا جميع التفاصيل بعد مراجعتها على الأصول المحفوظة، ويقوم السلطان بعد هذا بالتوقيع عليها، ثم تُسلّم إلى صاحب الإقطاع.

تسري نفس القواعد على الأمراء بالشام، فإذا مات أحدهم أو نُقل لا يحق لنائب الشام التصرّف في إقطاعه، بل عليه أن ينتظر أوامر السلطان. أما بالنسبه لأمراء الحلقة فكان نائب السلطان يقوم بنقل ملكية إقطاع أحدهم إن توفّى، ولكن في جميع الأحوال يتبع نفس النظام السابق من حيث المثال والمَربعة والمنشور. في حالة موت أحد من الأمراء، أو الجنود أصحاب الإقطاعات وهو مستحوذ على إقطاع، فيقوم ديوان الجيش بالمحاسبة إلى وقت وفاته، وتقوم بإعطاء الفائض إلى ورثته، أو تستقطع منهم إن كان هناك عجز؛ ولكن الإقطاع نفسه يؤول لديوان الجيش لتوزيعه بمعرفة السلطان. الإقطاعات تُعطَى للسلطان والأمراء فقط، وأحيانًا لأجناد الحلقة، أما جنود الأمراء فليس لهم إقطاعات، ولكن في العادة يقوم الأمير بتوزيع ثلثي إيراد إقطاعه على جنوده وأحيانا يُسمّى عائد الإقطاع بالخبز.

(ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، 47 – 49؛ القلقشندي، صبح الأعشى 159:13 – 163؛ المقريزى، خطط، 1: 95 – 97؛ Poliak, *Feudalism in Egypt*,18- 31)

ثالثًا: الأوقاف:

1 – نظام الأوقاف:

نظام الأوقاف (يُسمَّى في بعض الأحيان الأحباس) هو الآلية القانونية التي بموجبها يتنازل فيها مالك عن كلّ أو جزء من ممتلكاته للأبد يُخصّص ريعه لغرض خيري غالبًا كمنشأة دينية، أو تعليمية، أو لصالح مجموعة ما، أو كعائد نقدي لتمويل نشاط معين. عُرف نظام الوقف بأشكاله المختلفة في معظم مناطق العالم الإسلامي على الرغم من أنه لم يُذكر في القرآن الكريم؛ ولكنه استمدّ شرعيته من العديد من الأحاديث النبوية الشريفة أشهرها هو ذلك الحديث المذكور في صحيح مسلم "**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية**" لهذا ورد ذكر هذا الحديث الشريف في متن بعض حجج الوقف؛ لتأكيد شرعيتها.

موضوع الوقف يُسمَّى الموقوف. يتنازل عنه الواقف (المالك) بواسطة وثيقة قانونية شرعية مُوثقة تسمَّى حجَّة الوقف إلى المستفيد، أو المستفيدين بالوقف. يجب أن تتوافر لهؤلاء عدّة صفات (تختلف طبيعتها وشروطها من مذهب فقهي لآخر، ولكن التالي هو الأكثر عمومًا). أولاً الواقف يجب أن يكون راشدًا له الأهلية العقلية، والقانونية للتصرفات المالية. يجب أن يكون حرًا (أي ليس عبدًا) حسن السمعة غير مفلس، أو عليه أحكام جنائية. وله أن يتصرف عن كلّ أو جزءٍ من ممتلكاته دون الخضوع لأحكام الوصية الشرعية (من حيث التصرف في الثلث فقط من ممتلكاته) إلاّ إذا كان في مرض الموت، فيخضع لأحكام الوصية الشرعية، ولايشترط في الواقف أن يكون مسلم الديانة.

أما الموقوف فيجب أن يكون مالاً متقومًا بمعنى أنّه يمكن تقويمه حاليًا، والتحكم فيه ماديًا فلا يمكن وقف قطيع سمك في بحرٍ مثلاً. ثانيًا يجب أن يكون من مادة شرعية، فلا يمكن وقف خمر أو لحم خنزير، أو آلاتٍ موسيقى، أو مخدرات وأمثاله. كذلك لا يمكن وقف مادة خاضعة لتصرفٍ غير قانوني مثل وقف ملكية عامة أو مال مرهون أو محجوز عليه، أو جارية أم ولد (التي تَلد في فراش مالكها، فلا يمكنه التصرف فيها بأيّ من أنواع التصرفات الشرعية سوى عتقها). ويجب على العين الموقوفة أن تكون مُحددة بصيغةٍ قاطعة، وليس بصورة شائعة، ولا يمكن وقف الديون.

اختلفت المذاهب على إمكانية وقف المنقولات، ولكن عمومًا ونظرًا لأنّ الوقف أبدي -من الناحية النظرية- فلا يمكن وقف مما تقتصر قيمته على استهلاكه فقط كالطعام والشراب مثلاً، ولكن يمكن وقف المنقولات القابلة للاستهلاك في بعض الأحيان مثل الأشياء التي تتبع منشأة غير قابلة للنقل مثل العبيد الذين يعملون بها، أو دوابها أو الآلات الخاصة بها، أو الكتب المزودة في المكتبات العامة، أو أدوات المطبخ، أو أدوات توزيع الماء في الأسبلة.

المستفيد بالوقف قد يكون فردًا أو أفرادًا من عائلة الواقف ونسله، أو من خارج نسله على أن يكونوا مسلمي الديانة. قد يكون المستفيد منشأة خيرية أيًا كان نشاطها دينيًا، أو اجتماعيًا، أو تعليميًا (لم يتطرق الوقف الإسلامي إلى المنشآت والمؤسسات العسكريه مثل ما هو معروف في الغرب المسيحي في القرون الوسطى). المستفيد المباشر يجب أن يكون موجودًا بصورة مادية، فلا يمكن عند غالب المذاهب أن يكون المستفيد طفلاً لم يولد بعد، أو شخصًا متوفيًا أو منشأة لم تُبنَ بعد (يمكن للاتساعات المستقبلية لمنشأة حالية أن تكون مستفيدة من الوقف). بالطبع المستفيد، والغرض من الوقف يجب أن يكون شرعيًا، فلا يمكن أن يكون المستفيد كنيسة أو معبدًا يهوديًا (حتى لو كان الواقف ذميًا). غير أنّ بعض المذاهب تبيح هذا لو كان الغرض غير ديني، وليس للعباده مثلاً كدار ضيافة، أو مستشفى تابعة لكنيسة أو معبد.

لا يمكن للواقف أن يكون أيضًا مستفيدًا من الوقف، ولكن له أن يستفيد من بعض إيراداته في حياته إن كان هو ناظر الوقف (المسؤول عن إدارة وتنفيذ الوقف) وهو مايتيحه الشرع. كذلك له الحقّ في استعمال بعض ممتلكات الوقف خلال حياته كالإقامة به، أو بعد وفاته بالدفن فيه. وللواقف وضع شروط الوقف وتغييرها، وتحديد المستفيدين منه كما يشاء، وله أن يغير المستفيدين أيضًا كما يشاء في حياته.

اختلف الفقهاء والمذاهب أيضًا فيما يكون مصير ريع الوقف في حالة انقراض المستفيدين من الوقف من أشخاص أو منشآت تكون قد هُدمت واندثرت. لما كان الوقف أبديًا فبعض الفقهاء أصرّوا على أنّ وثيقة الوقف يجب أن يكون بها نص يمنع انتهاء المستفيد بمعنى أنّه عند انقراض المستفيد الأصلي تؤول عائدات الوقف في النهاية إلى الفقراء من أقارب الواقف، أو في أي مكانٍ آخر، واستقر الرأي على أنّ هذه هي النهاية الطبيعية للوقف الخيري حتى دون ذلك النص.

وحجّة الوقف وثيقه قانونية يجب أن تكون واضحة بلا التباسات وُموَرّخة (بعض المذاهب لاتتطلّب هذا، ولكن تتطلب وضوح النوايا) بل وموثّقة بواسطة قضاة للشرع وشهود. وصحة الوقف لا تتطلّب موافقة المستفيد، وإن كان من حقه التنازل عمّا آل إليه. كذلك تعتبر هذه الوثيقة نافذة فقط بعد تسلّم المستفيد للموقوف، ووضع الوثيقه حيز التنفيذ (Petters, *EI²*,11:59).

2 – الأوقاف في مصر:

انتشرت الأوقاف في مصر انتشارًا كبيرًا منذ الفتح الإسلامي، ففي البداية كانت على شكل هبة لإقامة مسجد أو منافع أخرى للمجتمع، حيث ذكر ابن دقماق (ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار،1 : 61 – 62) أنّ مسجد عمرو بن العاص قد بُني على أرض كان يملكها قيسبة بن كلثوم النجيبي من أهل الراية، وتصدّق بها لبناء هذا المسجد الجامع في العام الأوّل لفتح مصر 21 /641. غير أنّ أول حُجّة وقف نعرفها في مصر قد ذكرها أيضًا ابن دقماق في معرض حديثه عن بركة الحبش الواقعة جنوب الفسطاط، وكانت في ملك أبي بكر محمد بن علي المادرائي أحد وزراء أحمد بن طولون الذي عقد كتاب شرط أي حجّة وقف في رمضان 307/ 919 أوقف فيها المادرائي ريع البركة وما حولها من حدائق ومزارع على عدة مشروعات مائية، لشق قنوات وعمل قناطر وخلافه، وخصّص ما يفيض عن المصروفات لإطعام عددٍ من الفقراء والمساكين بتلك الناحية. توالت الأوقاف بعد هذا في حبس الربوع، والعقارات، والأطيان الزراعية، والحمامات، وخلافه على الأعمال الخيرية، وبناء المنشآت الدينية وغيرها في العصرين الفاطمي والأيوبي.

طبقًا للمقريزي يبدو أنّ الأوقاف أو الأحباس اقتصرت أولاً على العقارات مثل الرباع (جمع ربع أي مبنى سكني) وأمثاله، ولم تتعرض إلى شيء من أراضي مصر، كما حدث في الأحباس الموقوفة على جامع ابن طولون (أثر 220، 263 – 65 / 876 – 79) والمارستان، وغير ذلك من منشآت أحمد بن طولون. في بداية الدولة الفاطمية ألغيت الأوقاف، وأنشئ ديوان الأحباس، وآلت إليه جميع هذه الأوقاف وله سلطة الحكم والتصرف فيها وذلك في ربيع الآخر 363/ 974 وطُولب المستفيدون بالوقف بتقديم مايثبت حقوقهم الجارية، وما تبقّى بعد ذلك يؤول إلى بيت المال؛ لإنفاقه على شتّى الأعمال الخيرية ومنع وقف الأراضي لمدة، ثم أعيد في عصر الحاكم بأمر الله. غير أنّه ظلّ للقضاة سلطة التفتيش على حالة الأوقاف

التابعة لديوان الأحباس (المقريزي، الخطط، 2: 295) وتحول نظام الوقف في العصر الفاطمي إلى الضمان بمعنى أن يُعهد إلى شخص ضامنٍ بالقيام بتحصيل إيرادات الوقف، ويسدد ما يستحق عليه إلى بيت المال والباقي لَه. وقد أنتقد هذا النظام لأنه يؤدي إلى تدهور حال الموقوف لرغبة الضامن، لتوفير النفقات، وزيادة العائد المخصّص له. وثيقة الوقف الوحيدة المعروفة لنا من العصر الفاطمي (منقولة عن نسخة مملوكية) هي تلك الخاصة بالوزير الفاطمي الصالح طلائع بن رزيق (قُتل في رمضان 556/ 1161) وأوقف بها أراض زراعية كوقفٍ خاص على بعض الأشخاص من سلالة الإمام الشيعي موسى الكاظم.

حدث تغير جوهري لنظام الوقف في العصر الأيوبي مع دخول نظام الإقطاع إلى مصر. فالناصر صلاح الدين أقطع كثيرًا من الأراضي المملوكة لبيت المال إلى قواده، لتوفير الأموال اللازمة لدفع فدية الأسرى المسلمين في الحروب الصليبية. كذلك استعملت تلك الأموال لبناء المدارس والخوانق، لمحاربة المذهب الشيعي المذهب الرسمي في مصر طوال حوالي مائه وسبعين عامًا قبل إلغاء الخلافة الفاطمية في محرم 567/ 1171 ونشر المذهب السنيّ، ويسمّي بعض الباحثين هذا النظام بالرصد حيث إنّه يرصد الأموال العامة من بيت المال لأغراض خيرية معينة بخلاف الأوقاف التي تحبس أو توقف من الأموال الخاصة .(Behrens-Abouseif, *EI*[2], 11: 63-64)

ثم أُعيد تنظيم نظام الأوقاف في مصر المملوكية، فانقسمت إلى ثلاثة أنواع كلّ منها له ديوان خاص الأوّل ويسمّى الأحباس أو الرزق (الإيراد) الإحباسية، ويشرف على الديوان الخاص به الدوادار نائبًا عن السلطان مع ناظر الأحباس، ومعاونيه من الكتبة. الرزق الإحباسية هي أراضي زراعية مملوكة للخزانة العامة في مختلف أنحاء المملكة، ويخصّص إيرادها لتقديم شتّى الخدمات للمجتمع خارج القاهرة مثل العناية بالمساجد، والزوايا، والعمل فيها كخطباء، أو مؤذنين، كذلك لأشخاصٍ يعملون كخفراء للأراضى، أو لتوفير الآلات الزراعية.

النوع الثاني ويسمّى بالأوقاف الحكمية بمدينة القاهرة، والفسطاط، ويشرف عليها قاضي قضاة الشافعية وفيه يخصص إيراد بعض العقارات في داخل المدينة لأغراض خيرية أهمها النفقة على أهل الحرمين الشريفين بالحجاز. كذلك يتمّ توزيع جزء منها للطلبة بالقاهرة والفقراء بها. النوعان السابقان يعتبران أرصادًا من حيث إن الأموال الموقوفة هي أموال

عامة في الأصل، وليست أموالاً خاصة. وقد اختلف الفقهاء في شرعية وهب الأموال العامة بواسطة السلطان كوقف، فذهب الفقهاء الحنفيه لعدم شرعيتها، بينما أحلّها الفقهاء الشافعية على أساس أنّها مُوجّهة لأعمال الخير والمصارف الشرعية الأخرى وهو الأصل في استغلال الأموال العامة.

النوع الثالث والأخير هو الأوقاف الأهلية وهي تلك الأموال والممتلكات التي يوقفها أصحابها من أموالهم الخاصة (وليس من الأموال العامة) للأعمال الخيريه. الكثير من تلك الممتلكات كان المستفيد منها سلالة الواقف، كذلك لتمويل وبناء وصيانة الكثير من المنشآت الدينية والاجتماعية مثل المساجد، والمدارس، والخنقاوات، والأربطة، والزوايا، والأسبلة، والترب التي انتشرت بشكلٍ كبير في العصر المملوكي.

انتشر نظام الوقف في العصر المملوكي انتشارًا كبيرًا لعدة أسبابٍ سياسية واجتماعية، ودينية واقتصادية نستطيع أن نجملها بأنّها كانت وسيلة لحماية وتأمين الأموال في عصرٍ يتميّز بالتقلّبات السياسية المتلاحقة، وما يتبع هذا من مصادرة، كذلك لإعفاء هذه الثروات من الضرائب والمكوس حيث إنّ الأملاك الموقوفة كانت معفاة منها. كذلك كانت إحدى وسائل نقل الثروة إلى ورثة وذرية الواقف في نظام يعتمد أساسًا على الجيل الأول، ولا يعترف بحق المولد لنسله. ولا شك أيضًا أنه كانت هناك رغبة في التودّد إلى الشعب عن طريق المنشآت ذات الطابع الخيري، مع حبّ الظهور والمنافسة والتفاخر. وأخيرًا فإنّ قوة الشعور الديني لدى طبقة الصفوة المملوكية كانت حافزًا قويًا لهم لوقف أجزاء ضخمة، أو معظم ثرواتهم للمنشآت الدينية، وغيرها من أعمال البر والخير والمنفعة العامة.

3 – الأهمية الاقتصادية للأوقاف:

لعبت الأوقاف دورًا اقتصاديًا هامًا من حيث انسياب الثروة –إلى جانب حمايتها من المصادرة، وحتى من الضرائب والمكوس بواسطة الشريعة– فكانت تمثل القناة الشرعية البديلة عن نظام الإرث الإسلامي. لم يقتصر هذا على مخصّصات المستفيدين من الوقف المباشرة، بل أيضًا عن طريق فوائض ريع الوقف. أي الزيادة في إيرادات الوقف عن مصارفه المحددة، والتي تؤول إلى منشئ الوقف ونسله حتى انقراضهم. فنجد أنّ فوائض الريع وهي مبالغ ضخمة إذ قدرت بعض الدراسات ريع وقف السلطان الأشرف قايتباي في الربع الأخير من القرن التاسع/الخامس عشر مثلاً بحوالي ثماني وخمسين ألف دينار سنويًا في حين كانت

مصارف وقفه حوالي أربعة آلاف دينار أي أقل عن عُشر إجمالي الريع، وباقي هذا المبلغ لم تحدّد له مصارف، ولكن ذهب مباشرة إلى قايتباي نفسه وبعض من أتباعه. ونفس الشيء يتكرر أيضًا مع السلطان الأشرف قنصوه الغوري في الربع الأول من القرن العاشر/السادس عشر فإنّه خلال العشرة أعوام الأولى من دولته أنشأ العديد من الأوقاف المخصّصة اسمًا لمدرسته وتربته، وقُدّر ريع تلك الأوقاف بحوالي ثلاثة وستين ألف دينارٍ أشرفي في حين أنّ مصارف وقفه على مدرسته وتربته لم تتعدّ ستة آلاف دينار مرةً أخرى أقلّ من عشر قيمة الريع، والباقي ذهب إلى الغوري نفسه.

.(Petry, *Protcetors or Praetorians*, 199-203)

بالطبع كانت هناك استثناءات حيث خصصت الفوائض إما لصيانة الوقف، أو التوسّع في أملاكه. ولكن كان الغالب أنّ هذه الفوائض الضخمة لم يعد استثمارها في الوقف نفسه، وبذلك لم تنمو ثروات الوقف بل على العكس قلّت قيمتها مع مرور الزمن نتيجة للتضخّم المالي، أو الإهمال، أو المصادرة، أو خلافه. ولعلّ هذا من الأسباب البارزة التي أدّت إلى اندثار العديد من المنشآت التابعة للأوقاف.

بالإضافة إلى هذا نشير إلى عاملٍ آخر ساهم بشكلٍ فعّال في عدم خلق الظروف المناسبة التي تتيح النمو الاقتصادي لمؤسّسة الوقف، وهو عدم وجود هيئة مركزية مُوحّدة للسيّطرة على الأوقاف، واستغلالها اقتصاديًا. كذلك عدم وجود مؤسّسات دينية رسمية في مصر المملوكية تكون متلقية للهبات من الأفراد والجماعات مثلما هو الحال في الغرب المسيحي. فمثلاً كنيسة القديس بولس الكاثولكية في روما وغيرها من المؤسسات الكنسية في الإسكندرية والقسطنطينية وأنطاكية والتي تبعتها العديد من الجمعيات ذات الصّبغة الدينية التبشيرية البحتة مثل بيوت الإخوة الفرنسيسكان، أو الجزويت، أو الدينية العسكرية مثل بيوت فرسان الإسبتارية (Knights of the Hospital of Saint John) أو الداوية (The Knights Templar) والتي كانت تتلقّى تبرعات وهبات الأفراد والجماعات المسيحية، فجمعت ثروات ضخمة، وقامت تلك المؤسسات باستثمار تلك العوائد في أنشطة اقتصادية وتجارية وزراعية وصناعية، بل ومالية مختلفة أتاح لها التمويل الذاتي من عائد تلك الأنشطة حتّى أصبحت تلك المؤسسات شديدة الغنى، بل ومستقلّة عن الدولة ذاتها في بعض الأحيان.

نتيجة لعدم وجود تلك المؤسّسات، والكيانات المتلقية للهبات كان الوقف الفردي هو البديل الوحيد المتاح شرعًا وقانونًا. ولذلك ظلّ الوقف الإسلامي في مصر مفتتًا على شكل وحدات صغيرة مستقلّة اقتصر نشاطها الاقتصادي على إيجار الأطيان الزراعية، أو العقارات، أو استغلال الوحدات الصناعية الصغيرة، و لم تتوافر لها ظروف التراكم الرأسمالي أو النمو. وهذا يفسر لنا غيبة الكثير من الأنشطة الزراعية، أو التجارية، أو الصناعية من المنشآت التابعة للأوقاف مما أدّى إلى تدهور أحوالها لعدم قدرتها على النمو، وعدم ممارستها لأنشطة اقتصادية فعّالة بشكلٍ متطور، مع حرمانها من الجانب الأكبر من عوائد أملاكها.

الفصل الثامن

نهاية الشتات – حماة الإسلام – قطز والبحرية

1 – نهاية شتات البحرية:

تولّى قطز السلطنة بعد أن خلع ابن أستاذه المنصور علي في 657/ 1259 وبعدها بقليل سقطت حلب في يد المغول في صفر (658/ 1260) ثم دمشق وغيرها من المدن الشامية بعدها بأيام، ووصلت طلائعهم إلى غزة بمصر لمناوشة المصريين، وبذلك استولى المغول على كلّ العالم الإسلامي، ولم يبق غير مصر في المواجهة والحجاز واليمن والمغرب في المؤخرة. وانهار أو استسلم جميع أمراء العائلة الأيوبية، ولم يبق إلا المنصور محمد صاحب حماة مع المظفّر قطز – وهو من أحفاد الملك المظفّر تقي الدين عمر ابن أخ الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، والذي كان من أكثر قواده شجاعة وإقدامًا. انضمّ بعض أمراء العائلة الأيوبية إلى المغول مثل الملك الأشرف موسى بن إبراهيم بن أسد الدين شيركوة صاحب حمص، والذي ولاّه هولاكو على حماة أيضًا، والملك السعيد بن الملك العزيز عثمان بن الملك العادل وكان معتقلاً، فأطلقه التتار وانضم إليهم.

شرع التتار في هدم قلاع وأسوار المدن الشامية الكبرى، وقتلوا وسبوا كلّ من لم يستسلم لهم أو قاومهم، وتبنّوا سياسة تقوم على محاباة المسيحيين المحليين على حساب المسلمين

(المقريزي، السلوك، 1: 422 - 426؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7: 73 - 78، العيني، عقد الجمان، 1: 228 - 243) ثم اضطر هولاكو إلى العودة بجزء كبير من جيشة إلى الشرق لمدينة مراغة -كما ذكرنا سابقًا- حتى يكون قريبًا من مركز الأحداث في منغوليا، ولخوفه أيضًا من أن يقوم القطيع الذهبي -أبناء عمومته وأعدائه الألداء- بغزوه من الشمال وخصوصًا بعد تحوّل الخان بركة للإسلام في ربيع الأول 658/ 1260 وجعل (أي هولاكو) أخص أمرائه كتبغا (وكان مسيحيًا نسطوريًا) نائبه في حلب وبيدرا نائبه في دمشق. عاد هولاكو إلى العراق بمعظم قواته، وترك مع كتبغا قوة صغيرة من حوالي اثني عشر جنديًا وربما السبب في هذا عدم توافر التبن والمراعي للجياد والماشية التي عادة تصاحب الجيش المغولي بأعداد كبيرة. وربما يعود هذا أيضًا لضعف استخبارات المغول واستهانتهم بقوة الجيش المملوكي وعزيمتهم على القتال. تبين للمظفّر قطز ضعف موقفه، ورأى ضرورة مصالحة الملك الناصر يوسف الأيوبي، وكان هائمًا على وجهه في الشام بعد فقد دمشق وحلب حاضرتي دولته، وكان معه مجموعة كبيرة من المماليك البحرية الفارين من المظفّر قطز أبرزهم ركن الدين بيبرس، وسيف الدين قلاوون وغيرهم من كبار الأمراء البحرية، وبقايا من الجيش الخوارزمي والأكراد والتركمان والعربان (Amiati-Preiss, *Mongols and Mamluks*, 28 - 29).

كتب إليهم المظفّر، وتوجهوا جميعًا جنوبًا إلى غزة، ومنها إلى قطيا وهي مدينة قديمة على حدود مصر، انقرضت ولم يبق إلا أطلالها بين القنطرة والعريش الآن. (ابن تغري بردي، النجوم، 7: 77 حاشيه 2) غير أنّه وقعت بها فتنة بين قوات الناصر من التركمان والأكراد. خاف منهم الناصر، فغير رأيه وفارق عسكره، وتوجّه مرة أخرى إلى الشام، كما رأينا سابقًا.

أما ركن الدين بيبرس ومن معه من البحرية وباقي العسكر استكملوا الطريق إلى القاهرة حيث وصلها ركن الدين بيبرس في ربيع الأول (658/ 1260) فاستقبله المظفّر بحرارة، وأقطعه قليوب، وأنزله بدار الوزارة.

وفي تلك الأثناء وصلت رسل هولاكو ومعها رسالة تهديد ووعيد بطلب الاستسلام، فما كان من قطز إلاّ أن جمع الأمراء حوله، وأمر بقتل رسل هولاكو وهو يعتبر إعلان الحرب على المغول حيث إنّ قتل السفراء كان معناه الحرب في شريعة المغول.

2 – المواجهة الأولى: عين جالوت

خطب قطز في الأمراء، وطالبهم بالجهاد والخروج إلى الشام فتباطأ الكثير منهم خوفًا من المغول، فركب السلطان ومعه بعض أمرائه الأخصاء، وقال أنا سألقى التتار بنفسي (المقريزي، السلوك، 1: 429) فاضطر باقي الأمراء إلى الخروج معه. سار بيبرس في مقدمة الجيش، وتلاقى مع طلائع المغول وهزمهم في غزة، ثم سار باقي الجيش مع المظفّر شمالاً. لما علم كتبغا بخروج المصريين سار بجيشه إلى عين جالوت في فلسطين، وتلاقى الجيشان هناك في (15رمضان 658/ 1260). الجيش المغولي يتكون من المغول أساسًا ومعهم بعض أمراء الأرمن وجورجيا، كذلك بعض أمراء البيت الأيوبي مثل الملك الأشرف موسى صاحب حمص، والملك السعيد حسن والجميع بجيوشهم.

الجيش المصرى بقيادة قطز كان أكثر عددًا من المغول وإن كنا لا ندري عدد الجيش المملوكي بدقة. في البداية ظهرت بشائر الانهزام عليهم، وتراجعت صفوفهم غير أنّ المظفّر قطز نزل بنفسه للقتال بين جنوده، وألقى خوذته أرضًا، وحمل على الأعداء وهو يصيح صيحته الشهيرة "واإسلاماه" وأعادها مرة أخرى، وهو يقول "يا الله انصر عبدك قطز على التتار" (المقريزي، السلوك، 1: 431) فألقى الحماسة في جنوده، واندفعوا للقتال حتى تمكّنوا من النصر وهزيمة المغول، وقتل قائدهم كتبغا (ويقال إنّه أُسر فأمر قطز بقتله بعد حديث بينهم هدّده فيه كتبغا، وتوعده) وقتل كذلك الأمير الأيوبي الملك السعيد حسن لخيانته. أما الملك الأشرف موسى فإنه انحاز إلى المصريين بعد بداية المعركة بما أعانهم على النصر، فعفى عنه المظفّر وأعاده إلى إمارته في حمص (أبو الفدا، المختصر، 3: 245 – 247؛ المقريزي، السلوك، 1: 431–427؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7: 78 – 80؛ العيني، عقد الجمان، 1: 243 –245؛ Amiati-Preiss, *Mongols and Mamluks*, 39-45).

هذه المعركة المصيرية والتي جاء النصر فيها مفاجأة للجميع بما فيهم المصريين أنفسهم، والتي كانت المواجهة الأولى في سلسلة طويلة لمصر المملوكية مع المغول هي الانكسار الأوّل للمغول، وإن لن يكن الأخير. هذه المعركة كان لها الفضل في حماية الإسلام، وربما اللّغة العربية؛ لأن مصر كانت خطّ الدفاع الأخير أمام المغول، وانهيارها كان هو النهاية. هناك الكثير من العوامل والظروف التي أدّت إلى هذا النصر ومع هذا فإنّ نتيجة هذه المعركة الحاسمة وغير المتوقعة، والتي انتهت بخروج المغول من الشام، وتوطيد حدود دولة مصر

المملوكية في الشمال والشرق لم تتغير أبدًا خلال المائتين والخمسين عامًا المقبلة بالرغم من محاولات المغول الشرسة المتتالية، كما سنرى لاحقًا.

عوامل النصر كثيرة معنوية ومادية. ولا شك أنّ أهمها الروح القتالية للجيش المصري الذي كان يدافع عن وطنه ودينه، بل ووجوده أمام غزاة بلا رحمة. أيضًا كانت شخصية المظفّر قطز الفذة وشجاعته، ودوره الحاسم في الوقوف ضد المغول، ورفضه البات لأيّ نوع من أنواع الاستسلام قبل وخلال المعركة، وهو ما أجمعت عليه جميع المصادر المعاصرة. ربّما لعلمه أنّه ليس أمامه سوى النصر أو الشهادة، ولشدّة إيمانه بالإسلام هو وسائر الجيش المملوكي. وقطز خوارزمي الأصل يُعتقد أنّه كان ابن أخ ملك الخوارزم جلال الدين، واسمه محمود بن ممدود اعتقله المغول طفلاً، وباعوه في أسواق الرقيق، فاشتراه المعز أيبك، وجعله مملوكة ونائبه، كما رأينا سابقًا. فأُضيف إلى حميته في الدفاع عن الإسلام كراهيته للمغول، وعزمه على الانتقام منهم، وتصميمه على المواجهة معهم إلى النهاية.

لا شك أنّ عودة هولاكو بعد فتح الشام إلى العراق، ومعه جزء كبير من جيشه أضعف القوة الضاربة المغولية، وقلّل من عددهم على الرغم من أنّ كتبغا وبيدرا (نجا الأخير من الموت وتمكّن من الهرب ليعود بعد سنوات عديدة لهزيمة أخرى يُقتل خلالها) كانا من أمهر قادة المغول العسكريين، ولكن هذا أعطى المماليك المصرية وحلفاءهم التفوق العددي. وتشير بعض المصادر إلى أنّ القوة المصرية كان قوامها عشرين ألف الكثير منهم من الخوارزم والتركمان والأكراد، ولكن القوّة الضاربة الأساسية كانت من الأتراك المماليك – أما المغول فيُقدّر عددهم بحوالى اثني عشر ألفًا وكما ذكرنا الكثير منهم من الأرمن وجورجيا وجيوش الأمراء الأيوبيين. (Waterson, *Knights of Islam*, 75 – 78) ولا شكّ أيضًا أنّ تحول الأمير الأيوبي الملك الأشرف صاحب حمص للمصريين بعد بداية المعركة قد ساعد على النصر.

الجيش المغولي يتكون أساسًا من فرسان كلّ منهم يتحرّك ومعه عدة أحصنة تتراوح ما بين الخمسة والعشرة يقوم بتبديلهم أثناء المعركة، لتجديد نشاطهم ويصحبهم أيضًا عدد كبير من الغنم والأبقار والدواب وغيره، وهذا يحتاج إلى مراعي وسهول واسعة مثل تلك الموجودة في وسط آسيا. أما الشام فإنّ مراعيها ومصادرها المائية محدودة، وخصوصًا في الصيف (وقت المعركة) فطبيعة الأرض الشامية لا تسمح للمغول بتكوين جيوش كبيرة، وتُحد من حريتهم

في التحرك بعكس الجيش المملوكي الذي اعتاد الحرب، والمناورة في تلك الأماكن.

على الرغم من أنّ الكثير من المراجع العربية المعاصرة لا تذكر الدور الذي لعبه الصليبيون في تلك المعركة وإن لم يشاركوا فيها بأنفسهم، فمعظم المدن الساحلية الشامية وتوابعها كانت في يد الصليبيين الفرنجة، وكان هؤلاء على اتصال بالمغول إلا أنّ فرنجة الشام وبعد مناقشات استقرّ رأيهم على الحياد؛ ولكنَّهم سمحوا للجيوش المصرية بالمرور في أراضيهم وزودوهم بالمؤن. وبالطبع لا يخلو الأمر من أمورٍ مادية حيث إنّ المماليك المصرية وعدت بأن تبيع الفرنجة الخيول التي ستستولي عليها – في حالة النصر – من المغول بأسعارٍ بخسة. (Runciman, *Crusades*, 3: 311 - 312) وضمن بذلك المصريون حياد الفرنجة، وعدم طعنهم لهم في الظهر، وتفرّغوا بجميع قواهم وإمكاناتهم لمواجهة المغول.

أخيرًا هناك عامل حاسم وهو المهارة العسكرية والأسلحة وأسلوب القتال أي التكتيك العسكري، والذي برع فيه المماليك بدرجة تفوق المغول؛ نظرًا لأصولهم المتشابهة. كان المغول لهم أسلوب مميز في القتال وهو أسلوب أمواج الهجوم والالتفاف، فكانت الجبهة تتشكل من قلب من فرسان المغول وجناحين، وعند بداية المعركة يقوم فرسان القلب بالهجوم الشّرس السريع على جموع جيش الأعداء، ويمطرونهم بالسّهام من فوق الخيول بحيث يؤدّى هذا الهجوم إلى خلخلة جيوش العدو، بينما يقوم الجناحان بمحاولة الالتفاف حول جبهة العدو المخلخلة، فتصبح جبهة المغول على شكل هلال مواجه للعدو قلبه من فرسان المغول، وطرفيه من الجناحين، وغالبًا ما يكون من القوات المساعدة المتحالفة مع المغول (فرسان الأرمن وجورجيا والأمراء الأيوبيون في عين جالوت). بعد أن تسدّد الموجة الأولى من فرسان القلب المغول ضربة شديدة للعدو سرعان ما تستدير، وتعود إلى المؤخرة في حركة فروسية بارعة وهي ما تزال تسدد سهامًا إلى الخلف، فيتبعها العدو ويتشتّت في محاولة اللّحاق بها. ولكن سرعان ما يفاجأ بموجة ثانية من فرسان المغول نشطة، وبكامل أسلحتها تظهر من خلف الخطوط في هجوم صاعق جديد غالبًا ما يقضي على الجسم الأساسي لقوات العدو، بينما يكون الجناحان قد أكملا الالتفاف حول العدو، وحصاره بحركة كمّاشة. وأمّا الموجة الأولى فإنها تعود إلى الخطوط الخلفية، لتغيير خيولها والتماس القليل من الراحة، وإعادة التسليح لتقوم بجولة ثالثة إن لزم الأمر.

كان هذا هو الأسلوب التقليدي الذي اتبعه المغول في معظم معاركهم بنجاحٍ منقطع

النظير، وكان فرسانهم مسلحين غالبًا بقوس من نوعية خاصة يُسمَّى بالقوس المزدوج، نظرًا لأنّه مصنوع من نوعين من الخشب لضمان مرونته، وسهامهم خفيفة للرشق بعيد المدى، وأخرى أكثر ثقلاً للرشق قصير المدى، ليكون أكثر قدرة على اختراق الدروع الصلبة. ولكن في عين جالوت فُوجئ المغول من عدّة نواح أهمّها أنّ الموجة الأولى من هجوم فرسان المغول لم تتمكن من كسر جبهة المماليك حيث إنّ العامل الأول لكسر الجبهة هو تشتيتها، وعدم تماسك وحداتها. غير أنّ الوحدات المملوكية كانت شديدة التنظيم ومدرّبة بشكل يوميّ على التماسك، والتصاق كل محارب بحشداشه، فظلّت الجبهة متماسكة و لم تؤثر فيها موجة الهجوم الأولى بعكس الكثير من الجيوش الأخرى المكونة من وحدات ذات أصول مختلفة لم تعتد، أو تتدرّب على الحرب سويًا. وعندما حان الوقت لعودة الموجة الأولى المغولية إلى الخطوط الخلفية لإرهاق خيولها، أو لنفاذ ذخيرتها كانت الوحدات المملوكية لازالت متماسكة، فقامت بملاحقتها والقضاء عليها قبل تمكنها من العودة إلى الخلف، وإفساح الطريق للموجة الثانية. كما أنّ انسحاب جناح المغول المكون من جيش الأمير الأيوبي الأشرف موسى صاحب حمص لم يمكّن المغول من الالتفاف حول الجيش المصري.

كانت الجيوش المغولية في مواجهة الشمس، ومع اضطرابها وعدم نجاح حركة الكماشة أو الموجات الهجومية اضطرت للمبارزة بالسيف والرمح، وهو ما يتفوّق فيه المماليك. كذلك تمكّن قطز – وكان يعلم بتفوقه العددي – من إخفاء جزء كبير من القوة المملوكية، ثم ألقى بها في أتون المعركة بعد امتصاصة للموجه الهجومية الأولى (Waterson, *Knights of Islam*, 81 – 83).

بالإضافة إلى ما سبق فإنّ الجيش المملوكي كان جيد التدريب سريع الحركة، وكان مُسلّحًا بأقواس وسهام أقوى وأبعد مدى من نظيرتها المغولية، وكانت الخيول العربية التي يركبها المماليك أكثر قوة واحتمالاً، وأكبر حجمًا من خيول المغول.

3 – مصرع قطز:

هكذا كانت الهزيمة التاريخية الأولى وتشتّت بقايا الجيش المغولى، وفروا عبر الفرات إلى العراق، ودخلت كل من دمشق وحلب وحمص وحماة، وسائر الممالك الشامية في حكم السلطان المملوكي قطز الذي توجّه إلى دمشق، وفي نيته الذهاب إلى حلب. وقام المظفّر

قطز بضبط أمور الممالك الشامية، وتعيين نواب له على سائر النيابات من بين أمرائه والأمراء الأيوبيين الموالين له، وبعض العربان غير أنه لم يستجب لرغبة ركن الدين بيبرس بتعيينه نائبًا للسلطنة في حلب كمكافأةٍ له على حسن بلائه في حرب المغول، وذلك خوفًا منه ورغبة في إبقائه قريبًا منه تحت المراقبة، فاستنكر بيبرس هذا وتوترت الأمور بينهما، وأحس قطز بهذا فغير وجهته للعودة إلى القاهرة والتحصن بالقلعة.

في حقيقة الأمر يبدو أن بيبرس والبحرية لم يغفروا لقطز قتله لكبيرهم فارس الدين أقطاي، كما سبق ذكره؛ واضطرارهم للفرار من مصر لسنواتٍ طويلة عاشوها في الشتات، فاتفقوا فيما بينهم على التخلّص من قطز قبل دخوله القاهرة. تختلف المصادر المعاصرة على أسماء المتآمرين مع بيبرس، وفي بعض التفاصيل غير أنّها تتفق جميعًا على أنه أثناء العودة إلى القاهرة، وقبل الوصول إلى الصالحية انفصل قطز عن عسكره في منطقة تسمَّى القصير الذي –أي الجيش– واصل المسير، وأقام معسكره بالصالحية. وركب قطز للصيد خلف بعض الأرانب بالصحراء، فتتبعه بيبرس والآخرون وحين صار وحيدًا طلب منه أحدهم شيئًا، فلمَّا أجابه أمسك يده متظاهرًا بأنه يقبّلها ولكنها في الواقع كانت إشارة للآخرين، وأيضًا لمنع قطز من الحركة أو الدفاع عن نفسه. فعاجلت باقي الأمراء السلطان بالسيوف والنشاب، ويبدو أنّ ركن الدين بيبرس كان هو من سدّد الضربة القاتلة. وكان ذلك في الخامس عشر أو الثامن عشر من ذي القعدة 658/ 1260.

عاد المتآمرون إلى الدهليز السلطاني (خيمة القيادة بالمعسكر)، وأول من قابلوه كان أتابك العسكر (القائد العام للجيش) فارس الدين أقطاي المستعرب، وأخبروه بقتل السلطان، وقال بيبرس أنا قاتله وكان هذا رعونة منه، وتسرّعًا حيث كان من الممكن معاقبته على هذا العمل، ولهذا أيضًا تردّد سائر الأمراء عن إعلانهم الاشتراك في هذه المؤامرة. غير أنّ الحظ قد حالفه، و لم يطالب أي من الأمراء بمعاقبته، بل دعاه أقطاي إلى الجلوس على كرسي السلطنة وبايعه هو وباقي الأمراء سلطانًا. أما قطز فقد دُفن في حينه بالصالحية لفترة، وتزايد زواره فخاف بيبرس الفتنة فنبش قبره، ونقله إلى مكان آخر لينتهي به المطاف بالدفن في قرافة القاهرة في مكانٍ غير معلوم. ومن عجب الأقدار أن تكون هذه نهاية قطز بطل عين جالوت، وحامي الإسلام، وأوّل من أوقع هزيمة بالمغول، وأول سلطانٍ مملوكي على بلاد الشام (أبو الفدا، المختصر، 3: 247– 248؛ المقريزي، السلوك، 1: 432 – 435؛ العيني، عقد الجمان، 1: 245 – 264؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7: 80 – 89).

الفصل التاسع

الآباء المؤسّسون (1) – بيبرس البندقداري

بتولّي بيبرس السلطنة يكون رابع سلطان مملوكي (أو خامس لو اعتبرنا شجرة الدر هي الأولى) في حوالي عشر سنوات. كانت الأولوية الأولى لبيبرس هي الاستيلاء على قلعة القاهرة، وفعلاً تمكن من الاستيلاء عليها دون مقاومة مع مجموعة من أمرائه في التاسع عشر من ذي القعدة 658/ 1260 وتلقب بيبرس أولاً بلقب الملك القاهر، لكنّه غيره إلى الملك الظاهر بناءً على نصيحة وزيره ابن حنا حيث أخبره أنّ ممّن حمل هذا اللقب من الملوك لم يكن موفقًا فتشاءم منه، وكان بيبرس متطيرًا بطبعه.

طبقًا لنظام الألقاب المملوكي يتكوّن اسم السلطان من اللّقب السلطاني عند اعتلائه العرش وهو الملك الظاهر ركن الدين (صفة الدين مثل حسام الدين، وسيف الدين تُضاف إلى الاسم العلم عند تأمّره في الغالب) أبو الفتوح (كُنية السلطان مثل أبو المعالي وأبو السعادات، ولا نعني هنا الأبوة الحقيقية؛ ولكنها أبوّة صفة من صفات المجد) بيبرس (وهو الاسم العلم ويكون تركيًا غالبًا بين المماليك ممّن مسّهم الرق من الجيل الأول، وله في الغالب معنى وبيبرس يعني الفهد) ابن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي (النسّب في نظام الألقاب المملوكي للجيل الأول لا يعود إلى الأب الطبيعي، ولكن يسمّى، بن عبد الله لتجهيل النسب،

ونفي أي علاقة بالمملوك، وأصوله غير المسلمة، ثم يُنسب بعد هذا إلى أستاذه أو تاجره، أو مهنته، أو وظيفته، أو علامة جسمية مميزة له، أو أصله العرقي أو غيره). البندقداري هنا تعود إلى أيدكين البندقدار وهو أول من اشتراه صغيرًا في أسواق الشام، ثمّ أهداه إلى الصالح نجم الدين أيوب ولهذا ينسب بيبرس أيضًا إليهما معًا. أشرنا هنا إلى اسم السلطان، ولقبه، وكنيته، ونسبه بالتفصيل حيث إنّها تتكرر على هذا المنوال لجميع السلاطين، وأيضًا الأمراء ولكن دون تسمية الملك أو اللّقب السلطاني سوى بين أمراء العائلة الأيوبية.

وُلد بيبرس في حدود عام 620/ 1223 وهو من قبيلة القبجاق أحد القبائل التركية في براري وسط آسيا وجنوب روسيا، وقد أشرنا سابقًا إلى أنّه كان من أمراء الفرقة البحرية بالقاهرة، واضطر إلى الشتات والتنقل في خدمة الأمراء الأيوبية بالشام حتى سلطنتة. وعلى الرغم من إجماع معظم المؤرخين المعاصرين على قصة مبايعة فارس الدين أقطاي لبيبرس لكونه من اعترف بقتل قطز عملاً بالقاعدة التركية، إلا أنّي أميل إلى ما أورده بدر الدين العيني من أنّ بيبرس لم يكن من أكابر البحرية، وكان صغير السن نسبيًا لم يتعدّ الأربعين و لم يكن غنيًا، ولكن الأمراء الكبار أرادوا أن يصدّروه هو بعد قتل قطز، وخاف كل واحد على نفسه من القتل انتقامًا لقطز ولذلك بايعوا من لم يكن أكبرهم، فإذا استقرت الأمور خلعوه. ولكن لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن وكان حقًا هو "الأسد الضاري بيبرس البندقداري" (العيني، عقد الجُمان، 1: 260 – 264). لتفاصيل سيرة ركن الدين بيبرس قبل سلطنتة انظر (ابن تغري بردي، النجوم، 7: 94 – 102؛ عاشور، الظاهر بيبرس، 20 – 39).

1 – الشرعية وبناء الدولة من الداخل:

بدأ بيبرس أولاً بتدعيم دعائم ملكه، ثمّ إضفاء الشرعية على دولته مُستخدمًا في هذا جميع إمكانياته؛ شجاعته، ودهائه، وسياسته مع عدم التزام واضح بوعدٍ أو عهد في سبيل تحقيق أهدافه. فتخلّص أولاً من كبار الأمراء الذين تمرّدوا عليه مثل الأمير علم الدين سنجر الشجاعي الذي تسلطن في دمشق، ولقّب نفسه بالملك المجاهد وغيره من كبار الأمراء البحرية في مصر والشام، واستمال الشعب بأن قام بإلغاء بعض الضرائب التي فرضها المظفّر قطز لأجل محاربة المغول، وودّ بعض كبار الأمراء الأيوبية مثل الأشرف موسى بن شيركوه صاحب حمص، والأمير المنصور محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماة، وأقرّهم على

مناصبهم، وولّى الوظائف الكبرى والنيابات إلى أتباعه وخلصائه من الأمراء، واستطاع القضاء على بعض حركات التمرد الصغيرة.

استطاع أيضًا التغلّب على حمله مغولية أخرى أرسلها هولاكو تحت قيادة بيدرة في حوالي ستة آلاف مقاتل استغلالاً للفترة الانتقالية، والقلاقل التي عادة ما تصاحبها، فاستولت على حلب وبعض المدن الأخرى. تلاقوا مع جيوش المماليك وهم قلة في حوالي ألف وخمسمائة مقاتل عند مدينة حمص في الخامس من محرم 659/ 1260 بقيادة أميري حمص وحماة الأيوبيين ومعهم بعض العربان، وأغلب جنودهم من المماليك بالطبع، وهزموا المغول فيما عُرف بواقعة حمص الصغرى، لتمييزها عن موقعة حمص الكبرى بعد زهاء حوالي عشرين عامًا والآتي ذكرها. بعد الهزيمة عادت فلول المغول عبر الفرات إلى العراق، وانسحبت من حلب وسائر البلاد الشامية. وبهذه الموقعة استقرت حدود مصر المملوكية الشرقية بينها وبين المغول عند نهر الفرات، وفي هذه الواقعة تمّ أسر العديد من الجنود المغول، وانضم بعضهم إلى الجيش المملوكي، وترقّوا به حتى وصل أحد هؤلاء الأسرى إلى منصّة السلطنة وهو العادل كتبغا (جموع المغول الذين هجروا هولاكو ولجؤوا إلى مصر تعرف بالوافدية) السابق ذكره. (Waterson, *The Knights of Islam*, 90 - 91) وهدأت المواجهة مع المغول بعد هذه المعركة لظروف عديدة إلى حين مما أمكن السلطان الجديد أن يتفرغ إلى أعداء الإسلام الآخرين من فرنجة الشّام والأرمن.

ما إن دخل العام الجديد إلا وكان السّلطان مستقرًا على عرشه، فقام في صفر من عام 659/ 1261 بأول ظهور علني له في موكب حافل بكامل هيئة الملك وشعارات السلطنة السابق الإشارة إليها، فنزل من القلعة إلى خارج القاهرة (الجبانة الشمالية) ثمّ دخل من باب النصر، وشقّ القاهرة وأمامه الأمراء والأجناد وكبار رجال الدولة من أرباب السيوف والأقلام، وقد زُيّنت له القاهرة ونثروا أمامه الدنانير الذهب، ثم خلع الخِلع على الجميع (المقريزي، السلوك 1: 443 / 444).

يبدأ من هذا التاريخ (659/ 1261) مرحلة الاستقرار، وتدعيم وبناء الدولة ومؤسساتها. الملامح الرئيسية التي أرسلها الظاهر بيبرس ستبقى للنهاية من سمات مصر المملوكية. ويتّجه الظاهر بيبرس إلى حركة عمران، وبناء عسكرية ومدنية ودينية فهو أولاً يأمر بإصلاح قلاع الشام التي خرّبها المغول، فيأمر بإصلاح قلاع دمشق، والصلت وعجلون، وصرخد،

وبصري، وبعلبك، وشيرز، وحمص وغيرها، وتمّ تزويدهم بالذخائر والمؤن، وشحنها بالمماليك والجنود، وقام بتنظيمها وترميم أسوارها وأبراجها. كما أمر بإصلاح قلعة الروضة قرب القاهرة، وكان المعز أيبك قد أمر بتخريبها فأعاد بناء أبراجها وأسوارها، وأمر قواده الكبار كقلاوون الألفي بالمرابطة بها.

أمر أيضًا بإنشاء مشهد النصر بعين جالوت، ولا ندري أين هذا المشهد الآن. كما حصّن أسوار الإسكندرية ودمياط، وبنى برج مراقبة برشيد لكشف مراكب الفرنج. وأمر أيضًا ببناء الشواني (مراكب الحربية) كذلك ببناء القناطر والجسور بناحية شبرامنت بالجيزة. وبالنسبة للعمائر الدينية قام بإصلاح وعمارة الحرم النبوي بالمدينة، وبعث العمّال لعمارة قبة الصخرة بالقدس، وبدأ في بناء مدرسته بالشارع الأعظم بالقاهرة (أثر 37، 660 – 662/ 1262 – 1263) والتي اندثر معظمها و لم يبق منها إلا جزء صغير من واجهتها التي تحمل اسم بيبرس وشعاره الفهد وتاريخ الإنشاء، كما قام بترتيب البريد لسرعة نقل الأخبار بحيث إنّ الخبر يصل من قلعة القاهرة إلى دمشق في أربعة أيام، والعودة في مثلها ليتم له التحكّم في أقاليم الدولة وهو مقيم في القلعة بالقاهرة (النويري، نهاية الأرب، 30: 23 – 25؛ المقريزي، السلوك، 1 : 445 – 446).

ومن أهمّ أعماله في تلك الفترة هي أحياؤة للخلافة العباسية وذلك لأسباب عديدة منها الدينية لأنّه للمرة الأولى في تاريخ الإسلام تبقى الأمة دون خليفة لمدة ثلاثة أعوام ونصف من أوائل سنة (656/ 1258) عند مقتل الخليفة المستعصم في بغداد على يد هولاكو. فقد اتفق أن وصل إلى القاهرة في رجب 659/ 1261 أحد أفراد العائلة العباسية قادمًا من بغداد، ويسمَّى أبو القاسم أحمد، وادّعي أنه أخو الخليفة العباسي الأخير في بغداد المستنصر. وكان في الحبس أثناء سقوط بغداد، ثمّ أطلق وانتقل من مكان إلى آخر إلى أن انتهى إلى دمشق، فلما علم بأمره الظاهر بيبرس أمر بإحضاره إلى القاهرة واستقبله بنفسه، ثم أحضر الفقهاء والعلماء والأمراء والتجار وكافة الأعيان، فأثبتوا نسبه إلى آل بني عباس، وبايعوه خليفة للمسلمين باسم المستنصر بالله أيضًا (وهي ظاهرة نادرة الحدوث حيث يلقب الخليفة الجديد بلقب أخيه الخليفة السابق) ثم قام الخليفة بتقليد الظاهر بيبرس كسلطان للمسلمين في احتفال ضخم، وفي وثيقة تقليد رسمية طويلة قُرئت على الجميع. وبهذا أحدث بيبرس تقليدًا جديدًا بإعادة الخلافة العباسية الإسلامية إلى مصر وهو الذي يقلّد السلطان، وبذلك أضفى الشرعية إلى مُعتلي كرسي السلطنة في مصر المملوكية.

كان الخليفة الجديد المستنصر بالله أسود اللون بهي الطلعة قويّ الشكيمة، ويبدو أنّ الظاهر بيبرس أراد التخلّص منه، بعد أن أدّى دوره. لا ندري لماذا قام الظاهر بإنفاق مبالغ طائلة تصل إلى ألف ألف (مليون) دينار في تجهيز الخليفة من مماليك وأسلحة وخيل وملابس، ورتب له جنودًا ووظائف ومهمات لا تقلّ عن ما يملكه السلطان، وخرج معه إلى الشام في رمضان من 659/ 1261 ثمّ افترق عنه، وأرسله في ضجّة وفخامة كبيرة، ولكن في قليلٍ من الجند إلى بغداد؛ ليستعيد عاصمة الخلافة وهو ما يعني إرساله إلى حتفه الأكيد. وذهب هوَ إلى دمشق؟! عبر الخليفة الفرات في طريقة إلى بغداد، فخرج إليه قائد مغولي يسمَّى قرابغا ومعه خمسة آلاف فارس، وتلاقى الجمعان في الأنبار في محرم 660/ 1261. سرعان ما فر الجند التركمان والأعراب من معسكر الخليفة، فانهزم الخليفة وقتل هو ومن معه و لم ينجُ سوى نفر قليل منهم أحد أفراد العائلة العباسية اسمه أبو العباس أحمد الذي عاد إلى القاهرة. فلقيه الظاهر، وأعلنه خليفة جديدًا، ولقب بالحاكم بأمر الله، وذلك في ربيع الأول 660/ 1261 (المقريزي، السلوك، 1: 457 – 460، 467؛ العيني، عقد الجمان، 1: 293– 310، 328 – 329؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7 : 113 – 119).

قام الملك الظاهر بإحكام قبضته على سائر الممالك الشامية، فبدأ أولاً بحلب ودمشق. فقام بالقبض على الملك المغيث فتح الدين عمر أمير الكرك – كان الظاهر يُكنّ له العداء منذ أيام شتاته بالشام وتحالفه معه، ثم اضطراره للهروب من الكرك خوفًا من المغيث، وترك زوجته وأهله بها، واعتداء المغيث على زوجته – فاحتال الظاهر على المغيث بالمواعيد والمعاملة الحسنة حتى حضر إلى مصر، فقبض عليه وأمر بقتله – بعدما اتهمه بالتآمر ضده مع المغول، وأقام الحجة الشرعية عليه، وقام بضم الكرك وذلك في جمادى الآخر 661/ 1263 (أبو الفدا، المختصر، 3 : 257 – 258).

في نفس العام قام بضمّ حمص إلى مملكته بعد وفاة صاحبها الأمير الأيوبي الملك الأشرف شيركوه، وكذلك ضمّ الشوبك من أميرها الأيوبي الملك المغيث، وبهذا تساقطت الإمارات الأيوبية الباقية في الشام، و لم يبق منها إلا حماة (ظل يحكمها أمراء أيوبيون من نسل تقي الدين عمر تحت السيادة المملوكية حتى عام 741/ 1341). بعد تخلّصه من كبار الأمراء الأيوبيين وسيطرته على الشام قام أيضًا بالتخلص من كبار أمرائه خشداشيته الذي يشعر بالخطر منهم وهم الذين ساعدوه في إقامة ملكه، ففي رجب 661/ 1263 قبض على سيف

الدين بلبان الرشيدي (وكان نائب السلطنة) والأمير عز الدين الدمياطي والأمير شمس الدين البرلي وهما أيضًا من كبار أمرائه وكانا محلّ ثقته وذلك لشكه في ولائهم له، فتحايل عليهم ولاطفهم حتى قبض عليهم، وتخلّص منهم بالحبس، و لم يقتلهم حيث مات الأولان بعد سنوات من القبض عليهما أمّا الأخير (البرلي) فقد كان آخر العهد به ولا ندري مصيره، و لم يتعرّض لمماليكهم أو حاشيتهم ولا لبيوتهم أو أهلهم، وذلك من حسن سياسته (المقريزي، السلوك، 1 : 393 – 394؛ النويرى، نهاية الأرب، 30: 84 – 87؛ العيني، عقد الجمان، 1: 358 – 360).

لضمان سيطرته على الحكم، وقطع أمل سائر الأمراء في السلطنة خصوصًا عند غيابة عن القاهرة قام بتنصيب ولده محمد بركة سلطانًا مشتركًا معه، ولقّبه بالملك السعيد وذلك في شوال 662/ 1264 فحلف له الجميع، وقرأ خطاب تقليده أمام الأمراء والقضاة والفقهاء. بعد توطيد دعائم حكمه في مصر والشام، وإصباغه الشرعية على حكمه بإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة شرع في تنظيم أجهزة الدولة، وأهمّها سلك القضاء. كانت العادة في الدولة الأيوبية وجود قاضي قضاة واحد في مصر شافعيّ المذهب، واستمر الحال كذلك في مصر المملوكية إلى ذي القعدة من 663/ 1265 حينما غضب بيبرس على قاضي القضاة الشافعي لتعنّته في بعض الأحكام، فقرّر بناء على مشورة بعض الأمراء تولية قاضي قضاه لكلّ مذهب على حدة، أي يكون هناك أربعة لوظيفة قاضي قضاة؛ شافعي، وحنفي، وحنبلي، ومالكي، وأصبح لكلّ من هؤلاء القضاة الأربعة نوابًا، وكتب لكلٍ منهم تقليدًا (مرسومًا) بذلك، وبعدها بمدة قصيرة فعل نفس الشيء في دمشق (المقريزي، السلوك، 1: 538 – 540؛ النويرى، نهاية الأرب، 30: 117 – 122؛ العيني، عقد الجمان، 1: 407 – 408؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7 : 121 – 122).

كذلك أحدث تجديدات شتّى في الجهاز الإدارى للدولة، فقام بتعيين نائب للسلطان في كلٍ من النيابات الكبرى مثل حلب ودمشق وحمص والكرك وغيره. كذلك استحدث بعض الوظائف من وظائف أهل السيف، أو غيّر من مفهومها لضمان سيطرته عليها.

2 – التحديات الخارجية وسياسة بيبرس:

بعد دعم دولته داخليًا وجه بيبرس اهتمامه إلى مواجهة التهديدات الخارجية. علمًا بأنّ معظم السياسات التي أرسى قواعدها في الداخل والخارج لم تتغير كثيرًا إلى نهاية مصر المملوكية بعد مائتي وخمسين عامًا. فلم يكن بيبرس توسعيًا، و لم يبد منه ما يشير إلى رغبة في إنشاء إمبراطورية واسعة مثل المغول، أو القوى الأوروبية المعاصرة. فمن المتناقضات التاريخية أنّ شخصية عسكرية النشأة مثل بيبرس، أو دولة تقوم على الرّق العسكري لم تكن أبدًا بالدولة التوسعية. والحدود التي استقرت عليها في نهاية عصر بيبرس لم تتغير سوى قليل إلى النهاية، فكانت مهمة بيبرس الأولى هي تأمين، مصر والشام والحجاز، الأقاليم الرئيسية للدولة. واتبع في ذلك سياسة واضحة، فبعد معركة حمص الأولى توقّف الخطر المغولي مرحليًا لأسباب عديدة نعود إليها بعد ذلك، واستقرت حدود مصر المملوكية الشرقية عند نهر الفرات، والشمالية عند جنوب الأناضول، والجنوبية عند بلاد النوبة، والغربية عند برقة بليبيا حاليًا.

سنعرض باختصار أولاً سياسة بيبرس الخارجية لمواجهة أعداء مصر والإسلام من المغول والفرنجة الصليبيين. وكان لها هدفان رئيسيان، الأول عزل المغول خلف الفرات، والهدف الثاني هو منع قيام أيّ حملة صليبية جديدة، أو على الأقل إضعافها والعلم المبكّر بها للاستعداد لها. بعد هذا نتطرق إلى جهده الحربي، وتحركاته العسكرية، والتي كانت موجهة بالأساس إلى القضاء على القوة العسكرية الصليبية الباقية في سواحل الشام، والاستعداد لمواجهة أي حملة صليبية جديدة محتملة عن طريق حملات وغزوات مستمرة في الشام، والأناضول، وأرمينيا شمالاً، وبلاد النوبة جنوبًا، وهو ما يُعرف بالفتوحات الركنية.

سياسة بيبرس تجاه المغول كانت احتواءهم خلف الفرات مع خلق القلاقل في مناطق نفوذهم، والتحالف مع أعدائهم بهدف صرفهم عن غزو الشام ومصر وهو مانجح فيه طوال فترة حكمه. فلم يحاول بيبرس جديًا الاستيلاء على أي من الأملاك المغولية شرق الفرات، وكل حروبه معهم خارج مصر المملوكية كانت إما تأديبية لحلفاء المغول من الأرمن والسلاجقة والتركمان، لخلق مناطق عازلة للشام buffer zone.

استغل بيبرس سوء العلاقة بين مغول فارس (الدولة الإيلخانية) وأبناء عمومتهم مغول القبجاق (القطيع الذهبي) في براري جنوب روسيا. حيث إنّ زعيم تلك السلالة بركة خان

(أحد أحفاد جينكيز خان وتولّى الحكم صغيرًا في 655/ 1257) تحول إلى الإسلام، وساءت علاقته مع هولاكو نتيجة لعدة أسباب منها الاختلاف على اختيار الخان الأعظم الجديد في منغوليا عند وفاة مونجكا عام 1259 وأيضًا طمع هولاكو في السيطرة على مناطق كانت تحت نفوذ القطيع الذهبي مثل القوقاز وبلاد الروم السلاجقة (آسيا الصغرى). كذلك غضب بركة خان المسلم من هولاكو لقتله الخليفة العباسي في بغداد، وإنهاء الخلافة العباسية. فاشتعلت حرب بين أولاد العم من المغول وذلك في عامي 1262 و1263 والتي أسفرت عن هزيمة هولاكو، فانشغل بذلك هو وخلفاؤه عن غزو الشام خلال دولة بيبرس.

وقد أرسل بركة خان إلى الظاهر بيبرس قصّاد (سفراء) وهدايا، فاحتفى واختصّ بهم بيبرس، وأحسن استقبالهم، وأرسل معهم الهدايا الثمينة للخان. وعقد معهم أيضًا تحالفًا وهذا التحالف يعتبر أحد دعائم السياسة الخارجية لاحتواء مغول فارس والعراق. غير أنّ طول المسافة بين القاهرة وعاصمة القطيع الذهبي على نهر الفولجا، حيث تستغرق رحلة القاصد وعودته عدة سنوات لم تسمح بترجمة هذا التحالف إلى عملٍ عسكري ضدّ العدو المشترك لصعوبة التنسيق، ولكن استمرّ الجانبان في تبادل السفراء والرسائل والهدايا.

وهناك دافع آخر لبيبرس في سياسة الصداقة مع القطيع الذهبي، وهو تأمين مصدر لجلب المماليك الصغار، ومعظمهم يأتي من المناطق التي يسيطرون عليها. وهؤلاء المماليك هم شريان الحياة، وأساس تطور الجيش والنظام المملوكي. وكان معظم هؤلاء المماليك ينقلون على سفن الجنويين (نسبة إلى مدينة جنوا بإيطاليا).

وبالنسبة إلى الخطر الثاني وهو الغرب اللاّتيني فقد عمل بيبرس على تفادي قيام حملات صليبية جديدة، أو على الأقل العلم بها قبل قيامها. كذلك العمل على تحاشي قيام تحالف بين الكرسي البابوي، أو أي من القوى الأوروبية والمغول. وكانت تربط مصر والإمبراطور الروماني المقدس الألماني الأصل فريدريك الثاني هوهينستاوفن وهو أيضًا ملك صقلية علاقات ودية منذ دولة الكامل محمد الأيوبي (615/ 1218 – 635/ 1238) وكان هناك عداء تقليدي بين هذا الإمبراطور والكرسي البابوي، وحافظ بيبرس على هذه العلاقة حتى أنه أرسل سفارة إلى الإمبراطور (وتُسمّيه المصادر المملوكية المعاصرة الأنبرور) مانفريد بن فريدريك، وهدايا من جملتها زرافة أُعجب بها الإمبراطور إعجابًا شديدًا وذلك في شعبان 660/ 1262 أي في بداية الدولة الركنية (المقريزي، السلوك، 1: 469؛ النويري، نهاية الأرب، 30: 56).

استمرت هذه العلاقة حتى بعد تغيير السلالة الحاكمة في صقلية، فهناك اتصالات وسفارة مع الفرنسي شارل الأنجوي (Charles of Anjou) – أخ لـ لويس التاسع وملك صقلية الجديد والذي سبق أسره في حمله لويس التاسع على دمياط، وأُطلق سراحه مقابل فدية– الذي أرسل رسالة إلى بيبرس في رمضان 662/ 1264 ودية للغاية ومعها هدايا. ولا شك أنّ هذه العلاقات لعبت دورًا في منع حملات صليبية جديدة على مصر – وهو ما لم يحدث بصورة جدية في عهد الظاهر بيبرس، وحملة لويس التاسع الأخيرة الفاشلة سنة 1271 توجهت إلى تونس، و لم تتوجه إلى مصر. وربما يكون شارل الأنجوي هذا قد لعب دورًا في هذا التوجّه الصليبي (المقريزي، السلوك، 1: 502، 513؛ النويري، نهاية الأرب، 30: 100؛ العيني، عقد الجمان،1: 385؛ Humphreys, *MSR* 2 (1998), 14 - 15).

أقام بيبرس علاقة ودية مع الإمبراطورية البيزنطية، ليمنع أيّ تحالف بينها وبين المغول، وضمان عدم مساندتهم للفرنجة الصليبيين في الشام، أو المساعدة على حملة صليبية جديدة، و لم يكن هذا صعب التحقيق إذ إنّ الإمبراطور البيزنطي (وتُسميِّه المصادر المعاصرة الأشكري) نسبة إلى الإمبراطور تيودور لاسكاريس الأول Theodore Lascaris وهو أول إمبراطور بيزنطي في المنفي في نيقايا (إزنيك بتركيا الحالية) بالأناضول، وكان بالطبع معاديًا للغرب اللاتيني الذي استولى على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية القسطنطينية عام 1204 فيما يُعرف بالحملة الصليبية الرابعة. واستمرت القسطنطينية في حوذة اللاتين حتى استعادها الإمبراطور ميخائيل الثامن Michael Paleolgus. وقد أرسل بيبرس رسلاً إلى هذا الإمبراطور البيزنطي بناء على طلبه ومعهم أساقفة ملكية في عام 660/ 1261 – 1262 وتصادف وصولهم مع عودة الإمبراطور إلى كرسي مملكته الأصلي بالقسطنطينية. واستمرت العلاقة الوثيقة بين القاهرة والقسطنطينية حتى بعد موت بيبرس (المقريزي، السلوك، 1: 179، 408، 471، 514، 703).

أقام أيضًا بيبرس علاقات صداقة مع الحبشة والتي أرسل له ملكها رسالة يتواضع فيها له، ويطلب منه إرسال مطرن، ليكون بطركا لأقباط الحبشة، كما جرت العادة، وإجابة السلطان إلى هذا في صفر 673/ 1274 (المقريزي، السلوك، 1: 615 – 616).

3 – الفتوحات الركنية:

لعل أكثر ما يميز فترة حكم ركن الدين بيبرس هي فتوحاته العديدة وغزواته، فقد قام بيبرس بتوجيه ضربات قاضية للصليبيين من فرنجة الشام، وإن لم يتمكّن من التخلّص منهم تمامًا، وترك إتمام هذه المهمة لخلفائه. سنعرض لهذه الفتوحات بإيجاز دون تفاصيل نظرًا لكثرتها. مبدئيًا فقد اهتم بيبرس اهتمامًا شديدًا بالجيش وتدريبه وتسليحه، فأكثر من شراء المماليك. بخلاف التدريب العسكري المتواصل، فإنه حرص على ممارستهم الرياضات العسكرية مثل سباق الخيل، واللّعب بالكرة (البولو)، ولعبة القبق التي بنى لها ميدانًا خاصًا خارج القاهرة (موضع الجبانة الشمالية الآن) وذلك في محرم 666/ 1267 والقبق كلمة تركية معناها القرع (نوع من الخضروات)، فيقول المقريزي: "القبق عبارة عن خشبة عالية جدًا تُنصب في أبراج من الأرض، ويعمل بأعلاها دائرة من الخشب، وتقف الرماة بقسيها، وترمى السهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك، تمرينًا لهم على إحكام الرمي" (المقريزي، الخطط، 2: 111).

كان يحثّ الجند وخواصه ومماليكه على رمي النشاب (الأسهم) واللّعب بالرمح، وكان ينزل إلى الميدان المذكور كلّ يوم من الظهر إلى العشاء وهو واقف بالشمس للتدريب. وكان شديد الحرص على تسليح الجنود، واستكمال عدّتهمْ الحربية، فيذكر النويري أنّ في ذي القعدة سنة 662/ 1264 أمر الظاهر بيبرس الجيش باستكمال تسليحه، وإعداده للغزو فقام باستعراض الجيش عند طلوع شمس ذلك اليوم وهُمْ بكامل أسلحتهم ودروعهم، ومعهم جيادهم وجنائبهم (الجنائب هي الجياد التي تسير بجانب المقاتل حتى يستعين بها وقت الحاجة في المعركة) واستمرّ العرض طوال اليوم حتى تأكّد أنّ جميع الأجناد مجهّزة تجهيزًا كاملاً، وأن لا أحد يستعير السلاح من زميله، ثم ركب فرسًا وسط أجناده لرفع روحهم المعنوية. وحضر سفراء بركة خان مغول القطيع الذهبي هذا العرض، وتساءلوا إن كانت هذه عساكر مصر والشام جميعها، فكانت الإجابة: أنّهم عساكر القاهرة فقط غير الجنود في الثغور وسائر المدن الأخرى. (النويري؛ نهاية الأرب، 30: 101 – 102) وكان هذا المشهد يتكرر كثيرًا مما يدل على قوة الجيش المملوكي، وحسن تدريبه واهتمام السلطان به، ولا عجب في هذا حيث إنّ الظاهر بيبرس هو في الأصل جندي محارب، وقائد ميداني ماهر.

في بداية دولة بيبرس عام 659/ 1261 قام بعقد صلح مع الملوك والبارونات الصليبيين

في الشام الذين قدموا إليه لتهنئتة بالسلطنة، ومنهم حكام يافا وعكا وبانياس وبيروت، وعقدوا صلحًا مع الظاهر بيبرس، واتفقوا على إطلاق سراح بعض الأسرى من الفرنجة، وعادت حركة التجارة والتنقل كما كانت في السابق (المقريزي، السلوك، 1: 464 – 465؛ النويري، نهاية الأرب، 30: 47، 48؛ العيني، عقد الجمان، 1: 316).

بعد أن رتّب بيبرس أمور دولته، وثبّت قواعد ملكه وشرعيته في مصر والشام، وأكمل تدريب وتسليح جيشه بدأ حملاته العسكرية، وكانت موجّهة ضد فرنجة الشام. فمع انشغال المغول عن غزو الشام بعد عين جالوت وحمص الصغرى اتبع بيبرس معهم سياسة دفاعية فقط، فكانت قلعة البيرة على الفرات (شمال شرق الشام وداخل تركيا حاليًا) هي خط دفاعه الأول ونقطة مراقبة تحركات المغول، و لم يتحرّك بنفسه أو بواسطة أمرائه إليها إلاّ في حالة قيام المغول بمحاولة الاستيلاء عليها، أو عبور الفرات كما حدث في أوائل 663/ 1264 حين علم بمحاصرة المغول لها بالمنجانيق وعدد كبير من العسكر، فأرسل طليعة قواته تحت قيادة كبار أمرائه، وتحرك هو ببقية جيشه، ولكن وصلته الأخبار بانسحاب المغول فأمر قواده بتقوية حصن البيره، وتزويده بمؤن تكفيه لعشر سنوات و لم يذهب إليه، بل اتجه بجيشه لغزو الفرنج، كما سنرى لاحقًا. (النويري، نهاية الأرب، 30: 262 – 265) لم تحدث أي مواجهة شاملة مع المغول طوال الدولة الركنية بسنواتها الطوال سِوى في نهايتها، واقتصرت كلّها على مطاردات وغارات واشتباكات ثانوية.

الشام كانت الهدف الطبيعي لبيبرس، فلما دانت له الشام الإسلامية الأيوبية وجّه قوته الأساسية لمعاقل فرنجة الشام بالسواحل الشامية. بعض الدراسات الحديثة تذهب إلى أنّ الهدف الرئيسي لهذا التوجّه كان للحيلولة دون حدوث تحالف بين المغول والفرنجة الشامية أو الأوروبية إذ كان بإمكان بيبرس الاحتفاظ بعلاقة ودية مع الممالك الصليبية كما حدث طوال العصر الأيوبي بعد الانتهاء من الفتوحات الإصلاحية، ولكن خوفه من تغير سياسة الحياد التي اتبعها فرنجة الشام؛ والاتجاه إلى التحالف مع المغول هو سبب هجوم بيبرس على الفرنجة (Amiati, *MSA*, 9 (1) 2005, 66-68).

وهو رأي له وجاهته حيث إنّ المغول كانوا الأخطر والأشرس من بين العدوين، ولكن الهدوء على الجبهة الشرقية دفع بيبرس إلى الجبهة الغربية. وعلى الرغم من طبيعة بيبرس العملية البراجماتية، فلا نستطيع أن نتجاهل الدافع الديني القوي عنده، لتخليص الشام ودار

الإسلام من عدو صليبي مُتعصّب يتخذ الدين كحافزٍ أساسي ظاهري وستار لعدوانه عكس المغول واضحي الأهداف، فكانت أهدافهم توسعية واضحة، و لم يتستّروا خلف أيّ واجهة دينية. فكانت الفتوحات الركْنية أساسًا ضد فرنجة الشام، ثم حلفاء المغول من الأرمن والروم السلاجقة في الأناضول وطائفه الإسماعيلية؛ لخروجهم عن المذهب السني (الذي يدين به المماليك وعموم الجنس التركي) وكونهم أيضًا شوكة في ظهر أيّ حكومة مركزية، وأخيرًا النوبة المسيحية.

نبدأ بفرنجة الشام وكان الهدف الإستراتيجي لبيبرس هو غزو، واسترداد أكبر عدد ممكن من مدنهم وقلاعهم الكبرى في الشام. واتبع سياسة تخريب وتفكيك أسوار تلك المدن والقلاع والحصون بالساحل بعد الاستيلاء عليها لمنع بناء رووس جسر في حالة غزو صليبي بحري قادم من أوروبا في المستقبل والذي كان يخشاه. في نفس الوقت أقدم على تقوية، وتدعيم المدن والقلاع والحصون الداخلية بالجند والسلاح والمؤن. ثمّ تأمين الحدود الشمالية في جنوب الأناضول، والتي يسيطر عليها المغول عن طريق حلفائهم السلاجفة ومملكة أرمينيا المسيحية. للأسف لم يهتمّ بيبرس – أو خلفاؤه من بعده إلاّ في حالات قليلة– ببناء أسطولٍ بحري قوي يدافع به عن السواحل البحرية المصرية والشامية. ربّما لندرة الخشب، وقلة الملاحين، أو لعدم وجود نية توسّعية خارج الحدود التاريخية، فلم تكن لمصر المملوكية قوة بحرية متفوقة على الغرب الأوروبي تتناسب مع تفوقها العسكري البري، وكان لهذه السياسة عواقب وخيمة في نهاية الدولة. للمزيد عن الأسطول والسياسة البحرية المملوكية انظر: (Fuess, *MSR* 5 (2009), 45-71).

استمرت تلك الغزوات حوالي ست سنوات بداية من 663/ 1265، فبدأت بغزو مدينة قيصرية الشام (تمييزًا لها عن قيصرية الروم بالأناضول) والاستيلاء عليها وهي مدينة ساحلية (في إسرائيل الآن) في منتصف المسافة تقريبًا بين عكا شمالاً ويافا جنوبًا. وبذلك قسّم الساحل الفلسطيني الصليبي إلى جزءين، وعزل يافا عن باقى المدن الشمالية. في العام نفسه استولى علي مدينة أرسوف القريبة من يافا، وقد سعد بيبرس بهذا النصر حتى إنّه ملّك قواده الكبار ملكا خالصًا كثيرًا من القرى المحيطة بأرسوف، عوضًا عن منحها لهم كإقطاعات كما جرت العادة (العيني، عقد الجمان، 1: 398) وفي العام التالي 664/ 1266 قام بفتح مدينة صفد وبحيرة طبرية في الجليل وجنوب لبنان هذا غير غاراته المتعددة على صور

وعكا وغيرها من المدن الساحلية. في نفس العام أرسل حملة إلى أرمينيا الصغرى (جنوب الأناضول تمييزًا لها عن أرمينيا الحالية شرق تركيا ضمن بلاد القوقاز) قامت بالاستيلاء على عاصمتها سيس (فى تركيا حاليًا) والقبض على ملكها ليفون بن هيتوم بن قسطنطيين، وقتل بعض أمرائها، ثمّ أفرج عن ليفون في العام التالي.

في عام 665/ 1267 عقد صلحًا مع فرنجة صور، ومع فرسان الاسبتارية (فرسان المستشفى للقديس يوحنا المعروفين حاليًا بفرسان مالطا، ومركزهم روما ولهم علاقات دبلوماسية مع مصر) وكانت مدّة الصلح عشر سنوات وعشرة شهور، وعشرة أيام، وعشر ساعات كما جرت العادة (المقريزي، السلوك، 1: 558 – 559).

في العام التالي (666/ 1268) فتح مدينة يافا وقد سقطت بعد حصار يوم واحد، واستولى على قلعة الشقيف (Beafort) وكانت من أقوى وأمنع قلاع الفرنجة (في لبنان حاليًا) ثمّ توج هذا كلّه بالاستيلاء على مدينة أنطاكية وهي أقدم الممالك الصليبية، ثم قلعة بغراس وهي قلعة منيعة كانت في حوزة الداوية (فرسان المعبد).

في العامين التاليين لم يقم الظاهر بأيّة فتوحات جديدة من أملاك الفرنجة، ففي ذي القعدة 667/ 1269 توجّه الظاهر إلى الحجاز لتأدية فريضه الحج سرًا، (كان بيبرس كتومًا بطبعه ويضفي السرية على تحركاته) حتى أنّه قطع لسان أحد أصحابه، لأنه طلب منه أن يصطحبه معه – رغم تحذيره له بعدم التحدث في هذا الشأن– حتى لا ينتشر الخبر (المقريزي، السلوك، 1: 580 – 581؛ العيني، عقد الجمان، 2: 46 – 48) وفي العام التالي 668/ 1270 انشغل الظاهر عن فتح مدن أو قلاع جديدة من فرنجة الشام، وذلك بمحاصرة والاستيلاء على حصون طائفة الإسماعيلية والاستيلاء عليها (تُسميهم بعض المصادر الحشاشين أو الدعوة) وكانت عديدة وعلى مركزهم الرئيسي في قلعة مصياف، وعين عليها أميرًا من عنده وكانت هي نهاية الفرع الشامي لتلك الطائفة، وكان فرعها الرئيسي في فارس (قضى عليهم جنكيز خان كما ذكرنا سابقًا) والتي طالما مارست أعمال الاغتيال السياسي، والإرهاب على جميع القوى المتصارعة في المنطقة بلا تمييز، والتي كانت تفرض إتاوات عليها، واضطرت الآن إلى دفع مبالغ قرّرها عليها السلطان في القاهرة.

هذا التوقّف ربّما يكون نتيجة وصول أنباء من أوروبا تفيد بقيام حملة صليبية جديدة بها

بعض ملوك أوروبا على رأسهم لويس التاسع ملك فرنسا؛ ولذلك كان على بيبرس الترقّب والحذر، وأخيرًا وردت الأنباء في صفر 669/ 1271 بأنّ الحملة توجهت إلى تونس بدلاً من مصر، وبعد نزولها الشواطىء التونسية بقليل توفّي لويس التاسع فتفرقت الحملة. وكان الظاهر بيبرس قد أرسل عساكر والكثير من العربان لمساعدة سلطان تونس، فلمّا وصلت أنباء الحملة عاد بيبرس إلى نشاطه المعتاد. (المقريزي، السلوك، 1 : 590). ونحن نتساءل هل لعبت دبلوماسية بيبرس دورًا في تحويل مسار هذه الحملة إلى تونس وليس إلى مصر –كما هي العادة– في جميع الحملات الصليبية بعد الحملة الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد، وذلك على ضوء العلاقة الوثيقة مع ملوك صقلية، وآخرهم شارل الأنجوي أخو ملك فرنسا لويس التاسع قائد الحملة؟ أم أنّ السبب قوة الجيش المصري المملوكي، وضعف الإمارات الصليبية، وانهيار الكثير منها، وسياسة هدم القلاع والحصون الساحلية الشامية، وذكرى الهزيمة والأسر المريرة للملك الفرنسي نفسه في المنصورة منذ عشرين عامًا أو ربّما لهذة الأسباب جميعًا؟

في رجب 669/ 1271 حاصر حصن الأكراد وهو أكبر وأكثر حصون فرنجة الشام مناعة –لا زال قائمًا شامخًا حتى يومنا هذا– وكانت من أملاك فرقة فرسان المعبد (الداوية)، وكانوا محاربين أشدّاء؛ ولكنّهم اضطروا إلى تسليم الحصن الذي يقع بالقرب من اللاّذقية في موقع إستراتيجي ممتاز، فقام السلطان بتجديده و لم يقم بفكّه وتدميره كما هي العادة في الحصون الساحلية، وسقطت أيضًا في هذا العام قلاع مثل عكاز بالقرب من طرابلس الشام وصافينا وغيرها.

وجّه السلطان حملة بحرية لفتح قبرص لم يُقدر لها النجاح إذ هبّت عاصفة شديدة حطّمت الكثير من مراكب الأسطول (المقريزي، السلوك، 1: 592 – 595) وبعد هذا التاريخ توقّفت الحملات ضد الفرنجة الشامية، واستمرت المواجهات والمناوشات مع المغول، وانتهت جميعها بانسحاب المغول إلى قواعدهم في شرق الفرات. وكانت نتيجة تلك الفتوح تحطّم القوة العسكرية لفرنجة الشام بشكل كبير، و لم يعد في حوزتهم سوى القليل من المدن مثل طرابلس وصور وعكا، وناصفوا السلطان على كثير من ممتلكاتهم، و لم يقم السلطان بالقضاء على فرنجة الشام بالكامل، ولكنه لم يصانعهم كما كان الحال مع الأمراء الأيوبية، نظرًا لانقسام هؤلاء الأمراء على أنفسهم وحاجتهم للتحالف مع الفرنجة أحيانًا. أما سلطنة المماليك فكانت دولة مركزية قوية في غير حاجة إلى تلك التحالفات، ولعل أبلغ تعبير

عن هذه السياسة ما أورده النويري من مكاتبة للسلطان مع الفرنجة وذكّرهم بأنّ الحصون الشامية التي يملكونها كانت نتيجة لحاجة الأمراء الأيوبيين إليهم في نزاعهم مع السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة، ويطلب استردادها الآن فيقول: "وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد (أي الحصون الشامية) من الصالح إسماعيل (الأيوبي) لإعانة مملكة الشام وطاعة ملكها ونصرته، وقد صارت مملكة الشام وغيرها لي (أي بيبرس)، وأنا لا أحتاج إلى نصرتكم فلتردوا ما أخذتموه بهذا الطريق، وتفكوا جميع أسرى المسلمين وغير هذا لا أقبله" (النويري، نهاية الأرب، 30: 256 – 257؛ لتفاصيل الفتوحات الركنية بالشام انظر: النويري، نهاية الأرب، 30: 255 – 344؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7: 186).

لم تقتصر الفتوحات الركنية على الشام فقط، بل شملت الجنوب أيضًا وهدفه بلاد النوبة، وكانت تلك البلاد عصية على الفتح الإسلامي منذ فتح مصر في 21/ 641 نظرًا لمهارة أهلها في استعمال الرمح وإصابة العين، ولصعوبة أحوالها الجوية وفقرها مما دفع المسلمين على عقد صلح معها على أن يؤدوا للمسلمين ما كان يُعرف بالبقط وطبقًا لهذه الاتفاقية يرسل أهل النوبة عددًا من السبي (العبيد) يتراوح ما بين ثلاثين وأربعين على أن يرسل لهم المسلمون مقدارًا من القمح والعدس، وبمقتضى هذه الهدنة يُسمح لأهل النوبة بالمرور بمصر دون الإقامة بها، ويمتنع أهل النوبة عن قتل المسلمين بها أو أن يقدموا مأوى للفارين من مصر من العبيد، أو من أهل الذمة (ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، 215 – 16).

استمرّ هذا الوضع بتغيرات بسيطة في قيمة البقط، وكانت النوبة غير إسلامية ومستقلّة عن مصر خلال العصرين الأموى والعباسي والفاطمي. ثم حاول الناصر صلاح الدين في بداية دولته فتح بلاد النوبة، فأرسل إليها أخاه الأكبر شمس الدين توران شاه عام 568/ 1173 لفتحها، لجعلها قاعدة للعائلة الأيوبية للتراجع في حالة فشلهم في محاربة نور الدين الشهيد بن زنكي. تمكن توران شاه من الاستيلاء على عاصمتهم إبريم؛ ولكنه سرعان ما انسحب منها لفقرها وسوء أحوالها الجوية، وسار بعد ذلك إلى اليمن لفتحها (ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، 187 – 188).

ثمّ حدث ما أغضب الظاهر بيبرس من داود ملك النوبة لإغارته على أسوان وعيذاب (ميناء مصري على البحر الأحمر) فأرسل إليه في 674/ 1275 حملة هزمت جيوش النوبة، واستولت على بلادهم، وحرقت كنائسهم وأفرجت عن الأسرى المسلمين بها، وفرّ داود،

واعتلى عرش النوبة ابن أخت الملك داود وكان متحالفًا مع المصريين، وتصالح معهم على أن يدفع لهم نصف دخل بلاد النوبة وخيّر الأهالى ما بين الدخول في الإسلام، أو الجزية، أو القتل، فاختاروا الجزية بدينار عن كلّ شخص، وبقوا على دينهم، وضمّت المناطق الشمالية الغربية من أسوان إلى مصر، وبقي البقط المتعارف عليه كما هو بعد زيادته بعدد من الحيوانات النادرة وغيره، وأُرسلت جميع ممتلكات الملك المخلوع داود إلى القاهرة، ثم قُبض على داود وأرسل إلى القاهرة، وتسكت المراجع المعاصرة عن ذكر مصيره. وبهذا ضُمَّت النوبة لأول مرة إلى مصر، ودخلت دار الإسلام (النويري، نهاية الأرب، 30: 344 – 349؛ المقريزي، السلوك، 1: 621 – 623؛ عاشور، بيبرس، 120 – 128).

كما كانت أولى الفتوحات الركنية هي قيصرية الشام فإنّ آخر غزواته – وليست فتوحاته– كانت قيصرية الأناضول. كانت دولة السلاجقة الروم (بالأناضول) تحت نفوذ المغول والسلطان السلجوقي (عاصمة حكمه قيصرية الروم) مجرد دمية، وفي عام 666/ 1267 قتل السلطان ركن الدين قليج أرسلان، فتولّى من بعده ابنه غياث الدين كيخسرو وكان عمره أربع سنوات والقائم بالحكم وزيره معين الدين سليمان البراوناه (ومعناها بالفارسية الحاجب) وهو الذي تآمر مع المغول المقيمين في قيصرية على اغتيال والده، وكان البراوناه يصانع الملك الظاهر، ويكتب له في السر يدعوه إلى تملّك بلاد الروم (الأناضول) وطرد المغول وكان منافقًا. قدم على الظاهر في صفر 675/ 1276 بعض أمراء الروم من أعداء البراوناه يدعونه إلى غزو الأناضول، فعقد السلطان عزمه على غزو تلك البلاد، وبدأ في إعداد قواته وعرضها بكامل أسلحتها، واتفق مع الأمراء، وحثهم على الجهاد وقام هو نفسه (وكان قد تجاوز سن الخامسة والخمسين) بالركوب، والتدريب، والكر، والفر حتى أدهش الجميع. ثمّ رحل هو وقواته من القاهرة في رمضان 675/ 1277 متوجهًا إلى الشام، ثم إلى الأناضول لمقاتلة سلاجقة الروم والمغول أصحاب النفوذ في تلك المنطقة، وجدير بالذكر هنا أنّه طوال الستة عشر عامًا من سلطنته، والتي قاتل فيها المغول ثماني مرات (مناوشات لا معارك) كانت كلّها لصد المغول عند عبورهم الفرات أي أنّها دفاعية الطابع، فهذه هي المرة الأولى التي تكون المبادرة في الهجوم له تعكس تغيرًا واضحًا في سياسية بيبرس.

تحركت قواته شمالاً، وأرسل تعزيزات إلى الفرات تحسبًا لغزو المغول من هذه الجهة، ثم عبر بيبرس بقواتة إلى داخل الأناضول إلى عين تاب (بتركيا حاليًا) وتلاقت طليعة جيشة

مع مقدّمة التتار، فهزمتهم وبلغ السلطان أنّ الخان أبغا بن هولاكو قد أرسل قوة من المغول حوالي أحد عشر ألف فارس تحت قيادة تاوون أحد قواده، بالإضافة إلى عساكر سلاجقة الروم تحت قيادة مغيث الدين سليمان، البراوناه (كانوا يحاربون في معزل عن قوة المغول الأساسية حيث إنّ الخان لم يكن يثق في البراوناه) وبلغ السلطان أنّ تلك القوات متمركزة في مكان صحراوي بالقرب من مدينة أبلستين جنوب الأناضول، فنزل عليهم الظاهر بيبرس في العاشر من ذي القعدة 675/ 1277 من جبل قريب، وقاتلهم قتالاً شديدًا حتى هزم جنود الجيش المغولي الذين اضطروا للترجل من على جيادهم، والمقاتلة على أرجلهم حتى الموت. وقتل قائد المغول تاوون في المعركة وفر البراوناه من ميدان المعركة إلى قيصرية الروم وكان بها السلطان السلجوقي الدمية، فأخذه معه إلى حصن توقات على مسيرة أربعة أيام.

أما الظاهر فقد قام بأسر الأمراء السلاجقة وفيهم أقارب البراواناه، وقتل بعضًا من أسرى المغول و لم يخسر إلا قليلاً من جنوده. توجّه بعد ذلك إلى مدينة قيصرية حيث استُقبل بالحفاوة والترحيب من قِبل أهالي الأناضول، واستولى على الكثير من بلاد تلك المنطقة حتى دخل دار سلطنة السلاجقة الروم في السابع عشر من ذي القعدة، وجلس على التخت السلطاني، وضرب السكة (العملة) باسمه، وأقام الأهالي احتفالات ضخمة للترحيب به. بعث الظاهر إلى البراوناه للحضور إليه، فتلكأ وطلب خمسة عشر يومًا مهلة وهو في الحقيقة كان ينتظر قدوم الخان أبغا من فارس على رأس جيشٍ كبير لمحاربة بيبرس.

يبدو أن بيبرس علم بقدوم هذا الجيش وقدّر بأن موقفه ضعيف نظرًا لقلة المؤن بالمدينة، ولطول خطوط إمداده من الشام، فقرّر الانسحاب والعودة مرة أخرى إلى الشام، فأعلن عزمه على التوجّه إلى شمال الأناضول لمواصلة غزوها للتضليل (وكان ماهرًا في أساليب التمويه والتخفّي)، ثم توجه سرًا إلى الجنوب في الثاني والعشرين من ذي القعدة 675/ 1277 حتى دخل دمشق بكامل قواته في محرم 676/ 1277 وفي ذلك الوقت وصل الخان أبغا بن هولاكو بعد رحيل السلطان، ولاقاه البراوناه، وفشلا في اللّحاق بالسلطان. ذهب أبغا إلى موقع المعركة بأبلستين، وعاينها وغضب غضبًا شديدًا، نظرًا لكثرة عدد قتلى المغول، وكان يقدّر بحوالي ستة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلاً مع قلّة عدد قتلى حلفائهم الروم (السلاجقة) أو أعدائهم من المماليك. فأطلق العنان لانتقامه بأن قتل دون تمييز من الأهالي المسلمين في سبعة أيام أعدادًا ضخمة تذكر المراجع (وهي عادة مُبالغ فيها) أنّها تصل إلى نصف مليون

قتيل، وبالطبع قتل البراوناه شر قتلة في صفر من عام 676/ 1277 بعد علمه بأنّه هو الذي دعا بيبرس لغزو قيصرية الروم (المقريزي، السلوك، 1: 625 – 633؛ النويري، نهاية الأرب، 30: 350 – 362، العيني، عقد الجمان، 2: 156 – 167).

لم يمكث بيبرس سوى أيام قليلة في قيصرية عاصمة السلاجقة الروم، ولا ندري دافعه إلى هذا فهل كان يرغب في ضمِّ الأناضول إلى مملكته؟. يؤيد هذا أنّه ضرب العملة باسمه. ولماذا تراجع سريعًا بعد معرفته بقدوم الخان أبغا، وهو المحارب الصلد، وقيل أيضًا إنّه ندم على تلك المغامرة عند عودته إلى دمشق. على أيّ حال كانت تلك آخر الغزوات والفتوحات الركنية وهي أكبر مواجهة بين بيبرس على رأس جيشه والجيش المغولي، فهي المعركة الميدانية الوحيدة معهم في سلطنته. وقد انتصر فيها انتصارًا حاسمًا على الرغم من أنه يحارب بعيدًا عن قواعده، وفي ظروف مخالفة لما اعتاد عليه، وهذا النصر بعد عين جالوت يؤكّد التفوق العسكري للمماليك على المغول تسليحًا وتنظيمًا.

هنا نعود إلى الملاحظة السابق ذكرها نقلاً عن المصادر المعاصرة من أنّ فرسان المغول قد ترجّلوا، وحاربوا على أقدامهم حتى الموت. وهذا عمل اليائس من قدرة فرسه على الاستمرار في القتال، لأنّ محاربة فرسان المغول مترجّلون معناه الموت الأكيد علمًا بأنّ المغول بطبعهم محاربون من فوق الفرس. وتفسرّ الدراسات هذا بسببين أولهم أنّ الجندي المملوكي جيد التدريب على إصابة الهدف بالسّهام. فعليه أن يتمكّن من إصابة هدف طوله متر واحد من مسافة خمسة وسبعين مترًا قبل قبوله كجندي محترف، وعليه أن يتمكّن من إطلاق ثلاثة أسهم في ثانية واحدة ونصف الثانية. أما المغول فتشير المصادر إلى أنّهم يبدؤوا في رمي السهام عند مسافة خمسين مترًا أي أنّ المماليك تصوّب عليهم السهام لمسافة خمسة وعشرين مترًا قبل قيام المغول بالرّد عليهم، ولذلك فقد أثخنوا المغول بالسهام في يوم أبلستين لفترة طويلة قبل قدرة المغول على الرد. وكما ذكرنا سابقًا فإنّ الحصان المغولي وزنه حوالي ثلاثمائة كيلو جرام أي أقل وزنًا من الحصان العربي الذي يركبه المماليك، والذي يبلغ نحو نصف طن في المتوسط؛ ولهذا السبب وأيضًا للقدرة التحمّلية العالية للحصان العربي يمكث الحصان المغولي مدة حوالي عشر إلى خمس عشرة دقيقة في أرض المعركة، ويجب تغييره بحصان أنشط. أمّا الحصان العربي فيتحمّل المعركة إلى النهاية وفي وقعة أبلستين يبدو أنّ السهام المنهمرة على المغول، وهجوم فرسان المماليك لم تمكّن جند المغول

من تغيير جيادهم المرهقة، فاضطروا إلى الترجّل والحرب على أقدامهم، فكانت نهايتهم (Waterson, *Knights of Islam*, 166 -168).

أخيرًا نورد إحصائية قام بها جاستون فييت عن غزوات بيبرس بالشام خلال مدة سلطنته البالغة سبعة عشر عامًا قام خلالها بعمل سبع وثلاثين حملة أغلبها وهم اثنين وعشرين منها موجّهة إلى فرنجة الشام مما أدّى إلى تحطيم قوتهم العسكرية، وتقليص مساحة دولتهم بحيث أصبح القضاء النهائي عليهم مسأله وقت، ولكنّها حتمية. يلي الفرنجة في الترتيب المغول في تسع مواجهات كلها نتيجة لاعتداء المغول باستثناء الحملة الأخيرة في الأناضول، والتي كانت بمبادرة بيبرس. وقد وجّه بيبرس خمس حملات إلى الأرمن عقابًا لهم على مساندتهم للمغول ممّا أدّى أيضًا إلى القضاء على قوتهم العسكرية. وأخيرًا فقد قام بتوجيه ثلاث حملات إلى طائفة الإسماعيلية أدّت إلى القضاء عليهم، والاستيلاء على كافة حصونهم. هذا بالإضافة إلى حملتيه ببلاد النوبة، والتي أدّت إلى فتحها لأول مرة في العصر الإسلامي (Wiet, *EI*², 1: 1126).

لقد قاد بيبرس بنفسه خمس عشرة حملة منها، وقضى أكثر من نصف مدة حكمة خارج القاهرة عاصمة الدولة متنقّلاً في بلاد الشام والأناضول حتى وافته المنية فجأة، ودُفن بدمشق العاصمة الثانية لمصر المملوكية؛ وذلك في عام 676/ 1277. أصبحت سيرة بيبرس أسطورة شعبية، وشخصه بطلاً من أبرز أبطال الإسلام، والفتوحات الركنية ربما هي التي خلقت تلك الأسطورة؛ ولكن إنجازاته الحربية لابد أن تستند على عوامل أخرى غير القوة العسكرية فقط، وهذا ما سنناقشه في التالي.

4 – الدولة الركنية:

عرضنا فيما سبق لقيام بيبرس بتنظيم قواعد دولته الداخلية، وإضفائه الشرعية عليها، وتنظيمه للقضاء ووظائف الدولة، والبريد، والجيش؛ كذلك سياسته الخارجية. ثم عرضنا فتوحاته العسكرية التي لم تكن ممكنه –مع اعترافنا بقدراته العسكرية الفائقة، وشجاعته الشخصية– دون قاعدة إدارية واقتصادية قوية، ونظام حكم عادل ومستقر. تظهر قدرات بيبرس كرجل دولة في عدّة نواحي أهمّها الاستقرار الإداريّ، وقلّة الفتن الداخلية، وطريقة

معالجته للأزمات الاقتصادية، وأخيرًا منشآته المعمارية الضخمة، وقد ساعد على هذا صفاته الشخصية البارزة؛ وسنعرض لهذه النواحي هنا.

يبدو الاستقرار الإدارى واضحًا في قلّة تغييره لأمرائه والمقربين منه، فكان نائبة أولاً فارس الدين أقطاي المستعرب حتى وفاته، ثم تولّى النيابة من بعده مملوكه بدر الدين بيليك الخازندار حتى وفاة السلطان. بعد خروج بعض الأمراء عليه في بداية سلطته – وهذا أمر متكرر في دولة المماليك – مثل سنجر الحلبي (الذي عفا عنه السلطان، فظلّ على ولائه للنهاية) وغيره. لم تحدث طول سلطنة الظاهر أية حركات تمرد، أو خروج عن الدولة ذات أهمية. كذلك لم يفكّر أيّ من الأمراء الصالحية الكبار أو البحرية، وهم أقران وخشداشية الظاهر مثل سيف الدين قلاوون، وشمس الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسري في الخروج عليه حتى وفاته. كذلك في الإدارة المدنية، فتولّى الوزارة الصاحب بهاء الدين بن حنّا معظم سلطنة الظاهر حتى بعد وفاته، كذلك القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز الشافعي (المقريزي، السلوك، 1: 640؛ النويري، نهاية الأرب، 30: 368) أما القضاة الحنفية والمالكية والحنبلية لم يتم تغييرهم إلاّ عند وفاتهم طوال دولة بيبرس (المقريزي، النجوم، 7: 123– 136).

طريقة معالجة بيبرس للأزمة الاقتصادية الحادّة والمجاعة، وكانت هي الأولى في العصر المملوكي عام 662/ 1264 هي خير دليل على سياسته الداخلية الحكيمه، واهتمامه بمصالح رعاياه. ففي ربيع الآخر 662/ فبراير 1264 ولأسبابٍ غير معروفة وغير مذكورة في المراجع المعاصرة ارتفعت الأسعار – على الرغم من أنّ الوقت كان شتاءً أي أنّ المحصول الجديد لازال في الحقل، وأنّ الاستهلاك يكون من محصول العام الماضي – أي لابد أنّه كانت هناك دلائل على ضعف المحصول القادم، مما أدّى إلى زيادة الاستهلاك أو تخزينه للمضاربة به، فارتفع سعر القمح إلى مائة وخمسة دراهم للأردب (أي أكثر من ستة أضعاف سعره المعتاد) كذلك باقي المحاصيل مثل: الشعير، والخبز بالطبع، واللحم في القاهرة والإسكندرية، فعزت الأقوات حتى اضطر الناس إلى أكل ورق اللّفت، والكرنب، حتى عروق الفول الأخضر في الحقول.

عندئذ تحرك السلطان بيبرس سريعًا لمواجهة الأزمة، فبدأ بأن فرض التسعير الجبري، ولكن لم تنجح هذه السياسة، فبادر السلطان إلى الذهاب إلى دار العدل بالقلعة في السابع من ربيع الآخر 662 /7 1264 وأبطل التسعير الجبري، واتخذ قراراتٍ فورية فأمر

ببيع خمسمائة إردب يوميًا للفقراء بكميات محدودة، لمنع إعادة البيع وذلك من الأهراء السلطانية وهي أماكن تُخزّن بها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان، ولا تُفتح إلا بأمره في الطوارىء، ثم نادى على جميع الفقراء للحضور إلى الميدان تحت القلعة، وأمر بتسجيل أسمائهم وكانوا ألوفًا فأخذ الكثيرين منهم، ووزّع بقيتهم على ابنه الملك السعيد ونوابه، وأمر ديوان الجيش بحصر الأجناد، والأمراء المقدّمين والتجار والأغنياء على كافة صفاتهم على أن يتولّى كلّ منهم إطعام مجموعة من الفقراء لمدة ثلاثة أشهر، وصرف لكل فقير مبلغ نصف درهم لشراء خبز من الأسواق حتى يتم استقرار النظام الجديد. كذلك قام بتوزيع مائة إردب قمح يوميًا من المخازن السلطانية على شكل خبز من جامع ابن طولون، وأتت هذه السياسة بثمارها فانخفض سعر القمح عشرين درهمًا في يوم واحد، واختفت المجاعة، وقلّ عدد المحتاجين حتى جاء المحصول الجديد وعادت الأمورُ إلى طبيعتها، و لم تذكر المصادر حدوث وفيات، أو حالات فوضى، أو غيره –كما هي العادة– في حالة ظهور المجاعات. هذا يُظهر حزم السلطان وعزمه، والتزامه بواجبه الأخلاقي في مساعدة الفقراء، وأن يكون مثلاً لغيره من الأمراء، وكبار رجال دولته، وغيرهم من القادرين (المقريزي، السلوك، 1: 506 – 508؛ النويرى، نهاية الأرب، 30: 516؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7 : 213؛ Sabra, *Poverty*, 138 – 140).

5 – المنشآت المعمارية الركنية:

الظاهر بيبرس كان شديد الاهتمام بالعمران والبناء، وتعكس طبيعة تلك المنشآت الصفات الشخصية له، وللنظام الجديد من النواحي الدينية، والعسكرية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية في مصر، وأنحاء السلطنة. وهي منشآت عديد يصعب سرد تفاصيلها في هذا العمل، وسنوجز بعضها فقط. فمن ناحية المنشآت الدينية كانت باكورة منشآته بالقاهرة مدرسته في بين القصرين (شارع المعز حاليًا) بالقاهرة، وبدأ بناءها في ربيع الآخر 660/ 1262 وانتهى منها في صفر 662/ 1263 (أثر 37) وقد اندثرت بالكامل و لم يبق منها إلا جزءٍ من مدخلها، وفوقه نصها التأسيسي والسبع شعار بيبرس. وكان لها باب من النحاس هو تُحفة فنية رائعة، وقد تم نزعه وهو الآن الباب الرئيسي للسفارة الفرنسية بالجيزة. ومن المصادر المعاصرة نستخلص أنّ المدرسة كانت تتكون من صحن، وأربعة إيوانات. القبلي

منها لتدريس المذهب الشافعي، والشمالي المقابل له لتدريس المذهب الحنفي، والإيوان الشرقي لتدريس الحديث، والغربي المقابل له لتدريس القرآن وقراءاته، وألحق بها مكتبة وكُتابًا لتعليم الأيتام، وميضأة. وكان لها مِئذنه ضخمة انهارت عام 1874 كما يبدو من تقارير ورسوم الرحّالة، وزوار القاهرة (ابن تغري بردي، النجوم، 7: 120- 121؛ Behrens-Abuseif, *Cairo of the Mamluks*, 119-120).

وقد أوقف للمدرسة أوقافًا منها الربع الظاهري في تحت الربع خارج باب زويلة، لتفريق الخبز والكسوة والماء على قاطنيها. ويبدو تديّنه، وورعه من أنّه عند ذهابه لزيارة المدرسة في ربيع الأول 665/ 1267 وقد اجتمع بها الفقهاء والفقراء، فقال: هذا مكان جعلته لله تعالى، فإذا متّ لا تدفنوني هنا، ولا تغيّروا معالم هذا المكان (المقريزي، السلوك، 1 : 556) مما يُظهر أنّه أمر ببنائه لوجه الله، و لم يُدفن فيه الظاهر فعلاً.

ثاني أعماله الدينية هو المسجد الجامع بالحسينية خارج القاهرة (أثر 1، 665/ 1266 – 667/ 1269) بحي الظاهر الآن، وهو أول مسجد جامع يُبنى بمدينة القاهرة بعد مسجد الصالح طلائع (أثر، 555) بعد فترة أكثر من قرن من الزمان، ومرة أخرى يبدو تديّنه عند اختياره موقع المسجد، فقد أشار عليه أمراؤه ببناء الجامع في موقع هو مناخ للجمال، فرفض واختار موقعًا كان ميدانًا للعب الكرة يُسمّى ميدان قراقوش، وقال "لا والله لا جعلت الجامع مكان الجمال، وأولى ما جعلت ميداني الذي ألعب فيه الكرة وهو نزهتي جامعًا" (المقريزي، السلوك، 1: 556) ويقال أيضًا إنّه اختار هذا المكان، لقربه من زاوية أقامها السلطان لشيخه المفضّل خضر المهراني (توفي في محرم 676/ 1277) والذي كان أثيرًا لديه. وهو جامع ضخم تبلغ مساحته حوالي ثلاثة أفدنة، وقد استعمل في بنائه أخشابًا ورخامًا استقدمهما من مدينة يافا بعد فتحها، وهدم أبراجها وأسوارها. وتمّ فتح الجامع في شوال 667/ 1269 وأوقف بيبرس على الجامع باقي الأراضي المحيطة به في الميدان.

تخطيط المسجد وزخارفه مماثلة للمساجد الجامعة الأخرى بمدينة القاهرة مثل جامع الحاكم، أو ابن طولون، ويتميز هذا الجامع بقبّة ضخمة تماثل في حجمها (كطلب الظاهر بيبرس نفسه كما يذكر المقريزي في خُططه) حجم قبة ضريح الإمام الشافعي، واستعمل في بنائها الأخشاب القادمة من يافا مما دفع البعض إلى إضفاء قيمة رمزية على هذه الفئة على أنّها مشهد لانتصار بيبرس على الفرنجة في يافا، وللمذهب

السنّي لتماثلها مع قبة ضريح الشافعي (المقريزي، الخطط، 2: 299–300؛ السلوك، 1: 556؛ Behrens-Abuseif, *Cairo of the Mamluks*, 121- 126) وهذه بالطبع اجتهادات، ولا يوجد ما يؤيدها ويربط بينها وبين انتصارات بيبرس العسكرية، أو انتصاره للمذهب السنّي سواءً في الأدبيات المعاصرة، أو النصوص التأسيسية، أو غيرها من النقوش الكتابية. لا نعرف لبيبرس غير مشهد النصر الذي أقامه في عين جالوت، لتخليد ذكرى تلك الواقعة الفاصلة، والذي اندثر الآن.

هذا الجامع يُعرف أيضًا بجامع العافية وهو اسم على غير مسمًّى، لأنه توقفت إقامة الشعائر به منذ القرن العاشر الهجري، لصعوبة الصرف عليه نظرًا لاتساعه الكبير، ثم تخرب بعد هذا وسقطت مئذنته، واندثرت كذلك معظم أجزائه، ولم يبق منه سوى أسواره الخارجية من الحجر. وتغيّرت استعمالاته فكان في العصر العثماني مخزنًا للمهمات العسكرية، ثم أصبح ثكنة عسكرية خلال الحملة الفرنسية على مصر (1798 – 1801) وفي عصر محمد علي أصبح مخبزًا ومعملاً لإنتاج الصابون، ثم أصبح مذبحًا لجيش الاحتلال البريطاني، وفي سنة 1918 أصبح متنزهًا عامًا، ثم بدأت أعمال ترميم جزئية فيه في 1928 بواسطة لجنة حفظ الآثار العربية، واستمرّت أعمال الترميم الجزئية حتى يومنا هذا آخرها بتمويل من دولة كازاخستان بآسيا الوسطى اعتقادًا منهم بأنّها الموطن الأصلي للظاهر (ابن تغري بردي، النجوم،7: حاشية 2، 161).

سنعرض في عُجالة لأعماله الأخرى بالقاهرة (اندثرت جميعًا) وباقي أنحاء السلطنة، وأهمها المنشآت بالقلعة وجميعها سكنية منها قبة كبيرة محملة على اثني عشر عمودًا من الرخام الملوّن والطرافة فيها أنّه عمل بها صورًا شخصية لأمرائه وحاشيته، لو بقيت إلى الآن لكانت مفيدة للغاية في معرفة هيئة وملابس تلك الفترة، ومثل تلك الصور نادرة للغاية. وأنشأ دورًا للأمراء خارج القاهرة وهو ما يعكس رغبته في فصل العسكر عن سائر طوائف الشعب، وجدّد العديد من الجوامع الفاطمية وقلعة الروضة التي سبق ذكرها، غير أنّه سرعان ما هُدمت بعد وفاة الظاهر، لاستعمالها كمواد بناء لمنشآت أخرى، وعمّر غيرها من القلاع خارج القاهرة. وأقام الكثير من القناطر بالقاهرة وخارجها أهمها قناطر السّباع على الخليج بالقاهرة، والتي استمرت إلى القرن الماضي وعُرفت بقناطر السباع نظرًا لنقش السّباع (شعار بيبرس) الموجود عليها، وحفر العديد من الخلجان، وطهّر الترع في سائر أنحاء مصر. وهذه الأعمال لتطوير الإنتاج الزراعي، وزيادة العائد منها.

أمّا خارج مصر، فقام بتجديد وعمارة الحرم النبوي بالمدينة، وأنشأ بالمدينة المنورة بيمارستانًا (مستشفى) زوّده بالأدوية والأطباء، ولا عجب في هذا فهو أو من تلقّب بلقب خادم الحرمين، وقلّده في هذا العاهل السعودي بعد حوالى ثمانية قرون. وبنفس الدافع الديني جدّد الكثير من الأماكن المقدّسة في الخليل، والقدس وغيرها من المدن الشامية. بالطبع فإنّ عمائره العسكرية عديدة، فجدّد معظم القلاع التي خربها المغول، أو تلك التي استعادها من فرنجة الشام بعيدًا عن السواحل خلال الفتوحات الركنية السابق ذكرها. وبالنقيض من هذا فإنّه اتبع سياسة هدم، وتفكيك أسوار وأبراج جميع القلاع الساحلية حتى لا تكون رأس جسر لأيّ محاولات غزو صليبية جديدة، وبنى القصر الأبلق في دمشق، وأعادبناء قلعتها وغيرها من الأعمال التي يطول شرحها.

هذا بالطبع غير أعمال البناء الأخرى التي قام بها أمراؤه من أبنية، ورباع وخانات، ودور ومساجد وحمامات حتى اتسعت مدينة القاهرة، وتعمّرت الكثير من أنحائها. وتعتبر هذه الحركة على الرغم من اندثار أكثرها بداية لتقليد جديد وحركة بناء لم تفقد حيويتها طوال العصر المملوكي، ويجمل ابن تغري بردي أسباب حركة العمران في ختام الجزء الخاص بالمنشآت الركنية، فيقول: "وكل ذلك من كثرة عدله وإنصافه للرعية، والنظر في أمورهم، وإنصافه الضعيف من المستضعف، والذب عن العدو المخذول –رحمة الله– وعفا عنه" (ابن تغري بردي، النجوم، 7: 190 – 197).

6 – وفاة بيبرس:

استعرضنا حياة وإنجازات بيبرس وهو المؤسس الحقيقي لمصر المملوكية، وأخيرًا سنعرض لموته الذي كان مفاجئًا. فبعد عودته من الحملة على بلاد الروم (الأناضول) وهزيمته للجيش المغولي، وأعوانه من السلاجقة والأرمن وغيرهم، ودخوله قيصرية عاصمة دولة الروم (الخاضعة للاحتلال المغولي)، وعودته السريعة إلى الشام دخل مدينة دمشق في محرم 676/ 1278، وأقام بالقصر الأبلق الذي أنشأه منذ أكثر من عشر سنوات، وظنّ أن الدنيا أقبلت عليه (وإن كان قد ساورته الشكوك كما ذكرنا سابقًا، وندم على تلك المغامرة وإن كانت ناجحة) فجلس للاحتفال في قصره، وأسرف في شرب القمّز (وهو مشروب كحولي مصنوع من لبن الحصان بعد تخميره، وهو المشروب المفضّل للأتراك والمغول) وذلك يوم الخميس

الرابع عشر من محرم 676/ 1278، فتوعّك بعد المجلس، وتقيّأ غير أنّه خرج بالموكب يوم الجمعة كالعادة. عاودته الآلام مرة أخرى، ويبدو أنّه حاول إخفاء توعكه عمّن حوله (السرية كانت خصلة مطبوعة فيه) فتناول دواء دون مشورة الأطباء، فزاد المرض عليه فاضطر إلى استدعاء الأطباء الذين أنكروا عليه استعمال هذا الدواء دون مشورة، وسقوه مسهّل لطرده. حاول الأطباء علاجه بالطرق المعروفة في ذلك العصر، فلم ينجحوا وزاد الإسهال، وتقيّأ دمًا حتى وافته المنيّة يوم الخميس الثامن والعشرين (أو السابع والعشرين في أقوال أخرى) من المحرم.

كانت مدة مرضه حوالي أسبوعين فدخل عليه أمراؤه الكبار الصالحية على رأسهم سيف الدين قلاوون وبدر الدين بيليك الخازندار مملوكه المقرّب، ونائب السلطنة، وأخفوا الخبر حتى يتم إعادة مبايعة ابنه الملك سعيد محمد، وكان مشاركًا للظاهر في السلطنة ويقيم بالقاهرة. ظلّ جثمانه بقلعة دمشق إلى أن قام ابنه بتجهيز تربة وقبة في دمشق قرب الجامع الأموي نُقل إليها بعد شهور في رجب 676/ 1267 والتي لا يزال مدفونًا بها إلى اليوم، و لم يدفن في مدرسته بـ بين القصرين بالقاهرة، أو جامعه الضخم بالحسينية طبقًا لرغبته.

مات الرجل وبدأت الأسطورة متداولة لليوم فيما يعرف بسيرة الظاهر وهي من الملاحم الشعبية التي ينقصها الكثير من الدقة التاريخية. وهذا الموت المفاجىء للظاهر وعمره أقل من سبعة وخمسين عامًا (لو سلمّنا بأنّ تاريخ ميلاده هو عام 620 كما أورد ابن تغري بردي) وكان يتمتّع بصحة جيدة، ولياقة بدنية عالية، فكان لابدّ وأن يبدو هذا الموت بفعلٍ فاعل، واعتقد الكثيرون بأنه مات مسمومًا. وهذه القصة أوردها الكثير من المؤرخين نقلاً عن كلٍ من الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الداودار، والمؤرخ وكان ملازمًا للظاهر بحكمِ وظيفته كداودار (حامل الدواة وكاتم السر أي السكرتير الشخصي) كذلك المؤرخ قطب الدين اليونيني باختلافات بسيطة، وملخصها أنّ الظاهر بيبرس كان متطيرًا بطبعه، كثير البحث في النجوم لمعرفة المستقبل (خصلة أخرى به، ويقال إنّ إيمانه بالشيخ خضر– وهو شخص أفّاق في نظر بعض المؤرخين المعاصرين – نتيجة أن هذا الشيخ تنبأ له بالسلطنة، حينما كان أميرًا صغيرًا في الشام خلال فترة شتات البحرية).

تصادف في هذا الوقت حدوث كسوف كليّ للقمر، فتأول البعض بأنّ هذا علامة على وفاة رجل جليل كأن يكون ملكًا، فتطيّر الظاهر من ذلك، وأراد تحويل هذا التأويل إلى غيره

لعلّه ينجو. وتصادف أيضًا وجود أحد أمراء البيت الأيوبي وهو الملك القاهر عبد الملك بن المعظم عيسى، وكان ملكًا شجاعًا أبلى بلاء حسنًا في الحملة على بلاد الروم، وتحدّث الناس عن شجاعته أمام السلطان، فيبدو أنّه غار منه (الغيرة والحسد كانتا أيضًا عن صفات الظاهر). بالإضافة إلى هذا فإنّ الملك القاهر كان قد تكلّم مع السلطان بعنف خلال الحملة على بلاد الروم، عندما أظهر السلطان الندم عليها كما ذكرنا. وتذكر الرواية أنّ السلطان أسرّ هذا في نفسه عازمًا على الانتقام (حبّ الانتقام صفة أخرى له) فقرر بينه وبين نفسه دسّ السم للملك القاهر، فدعاه لشرب الخمر معه، وبالغ في إكرامه بأن أصرّ على أن يشرب الملك القاهر من الكأس السلطانية، وكان للسلطان ساق خاص به يسقيه عادة من ثلاثة كؤوس متشابهة مخصّصة له وحده. فتناول السلطان إحداها، ووضع بها السّم بنفسه خلسة، ودعا الملك القاهر إلى شربها فلما شربها أحسّ بما بها، فخرج من المجلس ومات بعدها بأيام. أمّا السلطان فقام لقضاء حاجته وعاد إلى مجلسة، فأسقاه الساقي من نفس الكأس خطئًا وبه باقي آثار السم فتجرعه السلطان، وأحسّ بالسم ولكن بعد فوات الأوان ممّا سبّب وفاته (المقريزي، السلوك، 1: 635 – 637؛ النويري، نهاية الأرب، 30: 365–367؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7: 175–179؛ العيني، عقد الجمان، 2: 179–182).

في اعتقادي أنّ تلك القصة وليدة الظروف المحيطة بالسلطان، وليست حقيقية وبداية الأسطورة التي حِيكت حول حياته. فليس من المعقول أنّ السلطان – وكان شديد الدهاء – يخطئ بهذه الطَريقة، كما أنّ الملك القاهر لم يشكّل أيّ خطورة على السلطان كذلك فإنّه –أي السلطان– توفّي بعد حادثه السّم بحوالي أسبوعين، وهذه مدة طويلة نسبيًا، وبالطبع لا يمكن التكهنّ بالسبّب الحقيقي دون تحليل بقايا جثة السلطان باستعمال الوسائل العلمية الحديثة. غير أنّ نظرية المؤامرة لها أصول تاريخية طويلة، وتظهر دائمًا في حالة الموت المفاجئ مع عدم وجود سببٍ ظاهر له.

أيًا كان السبب فإن الظاهر بيبرس توفّي فجأة بعد مرض قصير وهو في صحّة جيدة ولياقة بدنية وذهنية عالية بعد سنوات طويلة من الجهاد والكفاح، وهو يشبه في هذاً إلى حد كبير الناصر صلاح الدين الأيوبي الّذي يسبقه بأقلّ من قرن من الزمان. وكلاهما أيضًا جاء إلى السّلطنة على غير المتوقّع، على الرغم من وجود من هم أكبر منها سنًا أو مكانة وتقاربت مدة حكمهما إلى حدٍ كبير، كلاهما نذر حياته للجهاد والدفاع عن الإسلام. الفتوحات

الركنية، والفتوحات الصلاحية متشابهتان في إنجازاتهما حقّقتا الكثير. فنجحت الأولى في صد المغول عن مصر والشام، وتوجيه ضربة قاضية للفرنجة بالشام. والأخيرة تمكّنت من استعادة القدس، كذلك القضاء على القوة الضاربة لفرنجة الشام. كلا من هاتين الفتوحتين لم يسفرا عن الطرد النهائي للقوى الخارجية من المغول، أو فرنجة الشام؛ ولكنّهما أضعفاها بحيث إنّ القضاء عليهما أصبح حتميًا، وتحقّق في النهاية.

كلّ من بطلي الإسلام توفّيا فجأة بعد مرض أقل من أسبوعين وبعد معركة ضارية، الظاهر بعد غزوة الروم والمغول، والناصر بعد الحملة الصليبية الثالثة. أمّا أخلاقهما الشخصية فهي شديدة الاختلاف لم يجمعهما سوى وحدة الهدف والشجاعة والتديّن، واختلفا فيما عدا هذا، خصوصًا في التزاماتهما الأخلاقية، ووسائل تحقيق الأهداف غير أنّ المقارنة التفصيلية بينهما بعيدة عن موضوع هذا الكتاب.كلاهما مدفون بدمشق على بُعد خطوات من المسجد الأموي.

الفصل العاشر

الآباء المؤسّسون (2) – المنصور سيف الدين قلاوون

1 – أبناء بيبرس – السّعيد بركة شاه، والصالح سلامش:

عاد الأمير بدر الدين بيليك الخازندار مملوك الظاهر بيبرس، ونائب السلطنة بالعسكر والأموال إلى القاهرة، وصعد بها إلى قلعة الجبل، وسلّمها إلى الملك السعيد محمد بن الظاهر بيبرس في السادس والعشرين من صفر 676/ 1278 وأعلن وفاة الظاهر، وجدّد الولاء للسلطان الجديد منفردًا، وقام بدر الدين بيليك بتحليف الجميع للسلطان الجديد، واستمر هو في منصبه كنائب للسلطنة وبدا أنّ الأمور قد تستقر للسلطان الشاب (كان عمره تسعة عشر عامًا) وشقّ القاهرة كالعادة، وكان يعتمد في تسيير أمور الدولة على بيليك نائبه، و لم تمضِ أسابيع قليلة حتى توفّي بدر الدين بيليك الخازندار فجأة في السابع عشر من ربيع الأول 676/ 1278 ويقال إنّه مات مسمومًا بيد والدة السلطان خوفًا منها على عرش السلطان الصغير، وأيًا كانت الأسباب فبموته اختلّت الأمور، وبدأ الانقسام والخلاف. فقد قام السلطان بتقريب أحد الأمراء الصّغار السن، واسمه سيف الدين كوندك الظاهري، وكان في مثل سنه وزميله في الدراسة حتى صار نائبًا للسلطنة، وأحاط نفسه بمجموعة من الأمراء الصغار الخاصكية، أو ما يطلق عليهم الأمراء الجوانية (هم مجموعة الأمراء الذين يقيمون

بالقلعة ويحيطون بالسلطان أي حاشيته) وكان هؤلاء على خلاف مع كوندك، ومن ناحية أخرى فإنه بعّد نفسه من الأمراء الكبار الصالحية خشداشية والدة الظاهر، والأمراء الظاهرية (مماليك والده) فوقعت جفوة عميقة بينهم وبين السلطان، وهكذا بدأت الأزمة.

أسبغ السلطان العطاءات والإقطاعات على أمرائه الخاصكية الصغار، وقام بالقبض، وسجن بعض الأمراء الكبار ومنهم خاله، ثمّ أفرج عنهم بواسطة والدته، وحاول استرضاءهم بلا جدوى، وبهذا خالف نصيحة والده السلطان بيبرس بألا يغاضب الأمراء الكبار، حيث ذكر ابن واصل في مفرج الكروب أنّ السلطان أرسل له قبل وفاته وصية، يقول:

"ولما أحس (الملك الظاهر) بالموت –رحمه الله– كتب تذكرة إلى ولده الملك السعيد، وهو بمصر ومن جملتها إنّك صبي، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي، فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك، وتحقّقت ذلك عنه فاضرب عنقه في وقته ولا تعتقله، ولا تستشر أحدًا في هذا، وافعل ما أمرتك به وإلاّ ضاعت مصلحتك" (المقريزي، السلوك، 1: 641 حاشيه 5).

ثمّ سافر السلطان إلى دمشق ومعه والدته وأخوه وخاصكيته والعسكر، ومن دمشق أراد إبعاد بعض الأمراء الكبار، فبعث سيف الدين قلاوون بحملة لغزو سيس (عاصمة أرمينيا الصغرى في الأناضول) والأمير بدر الدين بيسرى إلى قلعة الروم (في الأناضول أيضًا) وكلّ يصحبه عشرة آلاف من العسكر، وكان الأمراء يدركون أنّ السبب الحقيقي لهذه الحملات هو إبعادهم. وخلالها اتفق الخاصكية وعلى رأسهم مملوك للسلطان يسمّى لاجين الزيني السعيدي على تجريد هؤلاء الأمراء المبعدين من مناصبهم، وإقطاعاتهم. وكانوا هؤلاء (أي الخاصكية) على خلاف أيضًا مع كوندك نائب السلطنة والأثير عند السلطان، وطلبوا عزله فرفض الأخير أمامه طلبهم ممّا أوغر صدره (أي كوندك) عليهم.

عند عودة الأمراء من غزواتهم أرسل لهم كوندك يعرّفهم بنية السلطان والخاصكية بالتخلّص منهم، فامتنعوا عن دخول دمشق، وأظهروا العصيان، واتهموا السلطان بسوء الرأي، فخاف السلطان سوء العاقبة، وحاول هو والدته والأمير سنقر الأشقر (أحد كبار الأمراء) استرضاءهم بلا جدوى حيث إنّهم اشترطوا تسليم حاشية السلطان وخاصكيته لهم، فلم يقبل السلطان عندئذ توجّه الأمراء وكوندك، وكثير من العسكر إلى القاهرة. حاول السلطان اللّحاق بهم، فلم يتمكّن وتخلّى عنه أكثر أجناد الشام والعربان، و لم يبق معه

إلا خاصكيتة والقليل من الأمراء، وسنقر الأشقر الوحيد من الأمراء الكبار غير أنّه سرعان ما فارقه، وانعزل عن الجميع في هذه الأزمة. تمكّن السلطان من الصعود إلى القلعة بالقاهرة غير أنّ الأمراء الكبار حاصروها، وبقى هو فيها مع حفنة قليلة من مماليكه السعيدية، وحاول مفاوضة الأمراء؛ ولكنَّهم أصروا على خلعه، فطلب بعد ثلاثة أيام من المحاصرة أن يذهب إلى الكرك، ويملكها على أن يمتلك أخوه خضر الشوبك فوافقوا على هذا، وخلع نفسه من السلطنة في ربيع الآخر 678/ 1280 فكانت مدة سلطنته منفردًا حوالي سنتين وشهرين، وكان على رأس الأمراء المحاصرين للقلعة سيف الدين قلاوون (وكان الملك السعيد زوج ابنته) فسلطنوا أخاه سلامش، وكان عمره سبع سنوات ولقّب بالملك الصالح، وأصبح قلاوون أتابك العساكر (قائد عام الجيوش) بعد أن رفض السلطنة، وأصبح هو الحاكم الفعلي ومدبّر المملكة فعلاً وليس اسمًا.

أقام الملك السعيد في الكرك بعد خلعه، وأكثر من استخدام المماليك، وكسب ود القلوب بعطائه وكرمه؛ ولكنّه سرعان ما مرض بعد حوالي ستة شهور، ومات بها في الحادي عشر من ذي القعدة 678/ 1280 وهو شاب، وحزن الجميع عليه وقيل إنّ المنصور قلاوون هو الذي دسّ له السم كما هي العادة. أمّا أرملته فحزنت عليه حزنًا شديدًا، وتألّمت لفقده و لم تتزوج بعده –وهو أمر نادر في السلوكيات المملوكية– على الرغم من صغر سنّها إلى أن توفّيت بعده بحوالي عشر سنوات.

استبد سيف الدين قلاوون بالأمر، وأبعد الأمير سنقر الأشقر بأن عيّنه نائبًا بالشام، وانغمس الأمير بيسرى –المنافس الأول لقلاوون– في اللهو والشراب، ثم تخلّص قلاوون من الكثير من الأمراء الظاهرية (أمراء الظاهر بيبرس) بالسجن والإبعاد، ثم عفى عنهم وقام بتعيين بعضًا من الأمراء الصالحية في المراكز العليا، وأصبحوا نوابًا خارج مصر، وأنعم عليهم بالإقطاعات، وأعاد الكثير من الأمراء خشداشيته المعتزلين مرة أخرى للخدمة، وأنعم عليهم. لما استتبَّ له الأمر، وقويت شوكته جمع الأمراء، وتعلّل بصغر سن السلطان وعزله وبايعه الأمراء والقضاة والخليفة والجميع سلطانًا، وتلقّب بالملك المنصور؛ وذلك في رجب 678/ 1279 أي أنَّ العادل سلامش كان سلطانًا لمدة تقرب من مائة يوم فقط (ابن تغري بردي، النجوم، 7: 259 – 274؛ العيني، عقد الجمان، 2: 185 – 224؛ المقريزي، السلوك، 1: 641 – 658؛ النويري، نهاية الأرب، 30: 369 – 400).

2 – المنصور قلاوون:

هكذا وللمرة الثانية يقوم أحد الأمراء الكبار – بعد تمكّنه من السلطنة – بخلع السلطان الصغير الدمية، ليحل محلّه، وخلال القرن الثامن/ الرابع عشر سوف يتكرر هذا النموذج بأشكاله المختلفة خلال السّلالة القلاوونية بمراحلها الخمس. وسيصبح النموذج النّمطي لانتقال السلطة في القرن التاسع/الخامس عشر حتى نهاية الدولة.

الملك المنصور سيف الدين قلاوون، ويُعرف بالألفي، لأنّ مالكه الأصلي اشتراه بألف دينار وهو مبلغ كبير بالنّسبة إلى مملوك، ولا نعرف على وجه التحديد تاريخ ميلاده وإن ذكر ابن تغري بردي نقلاً عن الحافظ شمس الدين الذهبي أنّه كان من أبناء الستين قرب وفاته أي أنّه كان في حوالي الخمسين عند تولّيه السلطنة، وأصله من القبجاق وهى قبائل تركية تسكن جنوب روسيا في حوض نهر الفولجا. وانتقل إلى ملكية الملك الصالح عام 647/ 1249، 50 بعد قليل من شرائه أي أنه لم يكن صغير السن عند قدومه، ربّما في نهاية سن المراهقة ما بين الخامسة عشر والعشرين عامًا تخميننا، وذلك بناءً على ما أوردناه نقلاً عن ابن تغري بردي كذلك لارتفاع سعره، وعدم إتقانة اللغة العربية حتى وفاته. أي أنّه لم يحضر إلى مصر صبيًا كباقي المماليك، ثم أعتق. وكان بين الأمراء البحرية الذين فروا إلى الشام مع بيبرس، وعانى من الشتات فيها حتى عاد إلى القاهرة في دولة قطز، وشهد عين جالوت، ثم أصبح من كبار أمراء الظاهر بيبرس، حتى صار أتابك العساكر في دولة العادل سلامش كما رأينا. ويُعتبر عصر قلاوون امتدادًا للظاهر بيبرس للتشابه الكبير بينهما وكالعادة بدأ حُكمه بإلغاء بعض الضرائب. وشقّ مدينة القاهرة في موكب وعليه شعائر السلطنة، واستمر في سياسته بإبعاد المماليك الظاهرية، واستعمال مماليكه كنواب في الشام والقلاع المختلفة. و لم يبلع ريقة –على حد قول– ابن تغري بردي حتّى أعلن سنقر الأشقر نائب الشام العصيان، ورفض الحلف للمنصور، بل وأعلن نفسه سلطانًا وتلقب بالملك الكامل مثل ما حدث للظاهر بيبرس من حوالي عشرين عامًا، واجتمع حوله بعض الأمراء وشيوخ العربان في الشام مثل عيسى بن مهنا، وأحمد بن حجي، وصارت معظم الشام خارج سلطنة المنصور بالقاهرة.

أمّر السلطان الكثير من مماليكه وعلى رأسهم كتبغا المغولي الأصل، والذي أصبح فيما بعد سلطانًا وامتنع عن الخروج، وتخوّف من المماليك الصالحية والظاهرية خوفًا من تحالفهم

مع سنقر الأشقر بالشام، وقام بتعيين مملوكه حسام الدين طرنطاي نائبًا للسلطنة، وعزل الوزير ابن السنجاري، وأحلّ محله فخر الدين بن لقمان؛ كذلك استحدث وظيفة جديدة هي كاتب السر (سكرتير خاص) وكان يقوم بها الوزير قبل ذلك، وأجرى تعديلات بين القضاة، ونظّم شئونهم، ورسم أن يكون للقاضي الشافعي فقط نواب خارج مصر والقاهرة، ثم تفرّغ لسنقر الأشقر، فأعدّ جيشًا كبيرًا وأرسله للشام تحت قيادة سنجر الحموي، ومن المفارقات أنّ سنجر الحموي هذا هو من كان قد خرج عن طاعة السلطان بيبرس في أوائل سلطنته، وأعلن نفسه سلطانًا ولقّب بالملك المجاهد بدمشق، وكأنّ التاريخ يُعيد نفسه. فالتقى سنقر الأشقر وأتباعه مع الجيش المصري خارج دمشق في صفر 679/ 1280 في معركة أسفرت عن هزيمة سنقر الأشقر، بعد أن تخلّى عنه أتباعه، فهرب إلى الصحراء أولاً مع أمير العُربان عيسى بن مهنا، ثم لجأ إلى حصن صهيون في شمال سوريا، وكان قد أرسل إليها عائلته وثروته فلحق بهم واستقرّ بها. وعادت الشام إلى سلطة المنصور مرة أخرى، فاحتفل بهذا في القلعة بالقاهرة، وأرسل السلطان أمانًا إلى أهالي دمشق، وقام بالعفو عن الأمراء والعربان وأتباعهم ممّن كانوا شقّوا عصى الطاعة، وانضمّوا إلى سنقر الأشقر مما يدل على بُعد نظر المنصور، وعزوفه عن سفك الدماء وهي من صفاته المحمودة.

3 – عودة المغول إلى الشام – معركة حمص الكبرى

في جُمادى الآخر 679/ 1280 وردت الأخبار بمسير التتار إلى الشام في ثلاث فرق أحدها بقيادة صمغار أكبر قادة المغول في بلاد الروم (الأناضول)، والأخرتين بقيادة بيدو حفيد هولاكو، ومنكوتمر أخو الخان أبغا، فاستولوا على حلب بعد أن أخلاها أهلها خوفًا من وحشية المغول، كما استولوا على عدّة قلاع مثل عينتاب وبغراس وغيرها، ويبدو أنّها كانت قوة صغيرة إذ إنّها سرعان ما انسحبت بعد تخريب حلب وحرق مسجدها الجامع، و لم تحدث مواجهة مع الجيش المملوكي.

لماذا عاد الخان أبغا إلى مهاجمة المماليك بعد فترة توقّف حوالي ثلاث سنوات من بعد هزيمة جيوشه في إبلستين في نهاية عهد الظاهر بيبرس قُبيل وفاته؟ ولماذا لم يحاول الخان مهاجمة الشام في عصر الملك سعيد محمد وأخيه العادل سلامش، بالرغم من صغر سنهما، وفترة الاضطراب والفوضى التي ما عادةً تصاحب انتقال السلطة؟ ويمكن تفسير هذا بعدّة

أسباب أوّلها انشغال الخان بحروبه الداخلية خلال أعوام (677 و678 / 1278 و1280) مع أحد طوائف المغول الأخرى، والتي أغارت على جنوب فارس وأيضًا الحرب مع القطيع الذهبي شمالاً، بالإضافة إلى انتشار الأوبئة بين البشر والحيوانات في العراق والجزيرة وأجزاء من إيران (Amiati-Preiss, *Mongols and Mamluks*, 183).

السبب الآخر هو اشتعال الفتنة، وخروج سنقر الأشقر عن الطاعة هو وعيسى بن مهنا ومكاتباتهم أبغا في فارس يدعونه إلى غزو الشام وأعلماه بأنّ الأمراء منقسمون على أنفسهم، ولذلك عاود أبغا مهاجمة الشام وربّما انسحب منها بعد ما لم ينضم إليه سنقر الأشقر وأعوانه.

حذا المنصور قلاوون حذو سلفه بيبرس، فقام بتعيين ابنه الأكبر علاء الدين علي سلطانًا معه، ولقّبه بالملك الصالح، وذلك في السابع والعشرين من جُمادى الآخر 679/ 1280 وبدأ السلطان في لمّ الشمل فعقد صلحًا مع سنقر الأشقر على أن يبقى في صهيون، وتكون له هي وبعض البلدان المحيطة، وإن رفض تسميته بالملك أو الأمير على أن ينضمّ سنقر وأتباعه إلى جيش المسلمين في حاله معاودة التتار إلى غزو الشام. كما أنّه صفح وعفى عن عيسى بن مهنا أيضًا وفي بداية عام 680/ 1281 عقد السلطان هدنة مع فرسان الاسبتارية (المستشفى) في عكّا ومع أمير طرابلس بهمند لمدة عشر سنوات وعشرة شهور، وعشرة أيام، وعشر ساعات كما هي العادة، وذلك وهو في طريقة إلى الشام تاركًا ابنه الصالح علي، ونائبة كتبغا بالقاهرة، ثم كشف مؤامرةً لاغتياله بواسطة بعض الأمراء الظاهرية والسعيدية بقيادة سيف الدين كوندك الظاهري، فقبض على رؤوس المؤامرة، وأعدم كوندك بواسطة نائبة طرنطاي، وهكذا أصبح السلطان مُستعدًا لأيّ هجومٍ خارجي من المغول بعد إصلاح بيته من الداخل.

في جُمادى الآخر 680/ 1281 عاود المغول غزوهم للشام بجيشٍ كبير تُقدِّره المصادر المملوكية بحوالى من ثمانين إلى مائة ألف مقاتل نصفهم من المغول، والباقي من حلفائهم من الأرمن والكرج (جورجيا) والروم، وبعض الفرنجة من فرسان الاسبتارية، ولابدّ أن السلطان كان قد وصلته أنباء هذا الغزو مُقدمًا عن طريق عملائه وأصدقائه من فرنجة الشام؛ لأنّه قضى معظم العام في دمشق ومعه الجيوش المملوكية في حالة شبه استنفار. كما يبدو أنّ أبغا حاول استمالة فرنجة الشام إلى جانبه في وقتٍ سابق على الغزو، ولكنّ الفرنجة – مرة

أخرى– آثروا البقاء على الحياد كما فعلو في عين جالوت من منذ أكثر من عشرين عامًا. وقد حاول أبغا عقد تحالف مع الفرنجة، ولكن الاختلافات داخل فرنجة الشام وحنكة قلاوون الدبلوماسية حالت دون إتمام هذا التحالف والذي لو تمّ لربما قلب موازين القوى حيث إنّ الجيش المملوكي في هذا الوقت لابدّ أنّه كان يعاني نقصًا نتيجة للتخلصّ من عددٍ كبير من الأمراء والأجناد الظاهرية والسّعيدية خلال فترة الصراع التي أعقبت وفاه الظاهر بيبرس.

من الناحية الأخرى فإنّ المنصور قلاوون أكثر من شراء المماليك، ويقال إنّه قام بشراء حوالي اثني عشر ألف مملوك في دولته، وأحسن تدريبهم في أبراج خاصة أقامها بالقلعة لإقامتهم، ولذلك سُمّي هؤلاء بالمماليك البرجية (سوف يلعبون دورًا حاسمًا في الكثير من الأحداث في المستقبل) ربما كانت تنقصهم الخبرة، ولكن لم تنقصهم الشجاعة.

قاد الخان أبغا بنفسه جزءًا صغيرًا من الجيش بقي في شرق الفرات، أما الجزء الأكبر فأرسله إلى الشام تحت القيادة الاسمية لأخيه منكوتمر بن هولاكو، ولكن القيادة الحقيقية كانت في يد مجموعة من القادة المخضرمين، ولا نعلم لماذا أحجم الخان عن قيادة جيشه بنفسه؟ تحرك المغول وحلفاؤهم من الأناضول باتجاه الجنوب ولكن ببطء نظرًا لضخامة الجيش فمروا على مدينة حلب وحماة بدون أن يدخولهما، ولكن بالطبع لم يمنع هذا أهالي تلك المدن من الفرار منها، والاتجاه جنوبًا إلى دمشق.

أما المنصور قلاوون ففور علمه بالزحف المغولي وكان بمدينة دمشق بدأ في تعبئة قواته وجيوشه المصرية والشامية والحموية خارج المدينة، وأرسل لاستدعاء العربان كذلك سنقر الأشقر والأمراء الموالية له من صهيون. ويذكر أمياتي–برايس الاختلاف على إستراتيجية المواجهة مع المغول بين السلطان وكبار أمرائه فهو كان يفضّل البقاء في دمشق، ليتمكن من العودة إلى مدينة القاهرة في حالة الهزيمة، وباقي الأمراء الكبار أصروا على التحرك إلى الشمال ولقاء المغول خارج حمص، واضطر السلطان إلى موافقتهم في مجلس الحرب، واتّجه بجيوشه شمالاً إلى حمص (Amiati–Preiss, *Mongols and Mamluks*, 188).

وصل السلطان إلى موقع المعركة مُبكرًا في شهر رجب 685/ أكتوبر 1281 وإن اختلفت المصادر على تحديد يوم وصوله، وبدأ في ترتيب قواته ووصلته أخبار عن قوة العدو وتشكيلهم عن طريق الحمام الزاجل تفيد بأنّ القوة الضاربة للمغول سوف تكون في الميمنة، ولذلك عمل السلطان على تقوية ميسرته والقلب. المصادر المعاصرة تُعطي الكثير من التفاصيل نذكر

بعضها هنا. كالعادة رتّب السلطان قواته بتشكيل يتكون من قلب أمامه مقدمة (جاليش) وميمنة يليها جناح الميمنة، وميسره يليها جناح الميسرة. وهذه موقعة حاسمة يسعى فيها المغول للثأر لهزائمهم المتتالية السابقة، فلذلك سوف نعالجها ببعض التفصيل.

ذكر المقريزي (السلوك، 1 : 692 – 693) أنّه في صباح الرابع عشر من رجب 680/ 1281 رتّب السلطان العساكر، فجعل في الميمنة الملك المنصور صاحب حماة الأيوبي والأمير بدر الدين بيسرى، ومعه جمع من الأمراء الصالحية المقدمين مع عساكرهم، وفي جناح الميمنة رتّب عيسى بن مهنا وباقي عربان الشام، وجعل في الميسرة سنقر الأشقر وأتباعه من الأمراء كذلك مجموعة من الأمراء المقدّمين مثل علم الدين سنجر الحلبي وغيره مع أتباعهم، وجناح الميسرة وضع فيه جموع التركمان وجيش حصن الأكراد. أمّا الجاليش (مقدمة القلب) فوضع فيه مملوكه ونائب السلطنة حسام الدين طرنطاي، وبعض الأمراء المقدّمين الآخرين والمماليك السلطانية (المنصورية). أما السلطان فكان في القلب ومعه أربعة آلاف وثمانمائة فارس من مماليكه تحت العصائب السلطانية (الرايات)، ثم انفرد السلطان ومعه مائتي مملوك، ورابط على تل مرتفع لمعاينة سير القتال، وإرسال المدد لصدّ نقاط الضعف خلال المعركة.

نقل إمياتي– برايس عن مصادر من فرنجة الشام أنّ سنقر الأشقر تولّى قيادة الميسرة، وعز الدين أيبك الأفرم قيادة الميمنة (Amiati-Preiss, *Mongols and Mamluks*, 193) ومن الصعب معرفة حجم الجيش المملوكي، ولكن يبدو أنّ كان أقل عددًا من الجيش المغولي بما يقرب من النصف طبقًا لبعض المصادر المملوكية (ابن تغري بردي، النجوم، 7: 303).

معظم المصادر المملوكية لا تذكر تشكيل الجيش المغولي ولكن إمياتي–برايس أورد أنّ الجيش المغولي كان يتكوّن من قلب تحت القيادة الاسمية لمنكوتمر ومعه من كبار قادة المغول تنكا ودولاداي وميمنة قوية (كما وصلت الأخبار إلى قلاوون) تتكون من الأرمن تحت قيادة ملكهم ليفون، والجورجيين (الكرج) تحت قيادة ملكهم ديمتري وعسكر المغول والروم من الأناضول تحت قيادة صمغار وغيرهم من قادة المغول وبعض الفرنجة. والميسرة تتكون أساسًا من باقي الجيش المغولي (Amiati-Preiss, *Mongols and Mamluks*, 192) وامتدت جبهة القتال من شمال حمص عند قبر خالد بن الوليد إلى الرستن قرب نهر العاصي وهي مدينة قديمة تقع تقريبًا في منتصف الطريق بين حمص وحماه أي بطول حوالي خمسة وعشرين كيلو مترًا وفي صباح الخميس الرابع عشر من رجب 680 /29 أكتوبر 1281 تقابل الجيشان، و لم تستمر المعركة سوى هذا اليوم.

في الحقيقة كانت هناك موقعتان وليست واحدة، ففي الغرب حملت ميمنة المغول القوية حملة شديدة، وترادفت جموعهم حتى استطاعت كسر ميسرة المسلمين ودحرهم، فتراجعوا مسافة كبيرة والمغول خلفهم يقتلون وينهبون غير أنّ بعضًا من فرسان المماليك تمكّنوا من الالتفاف والعودة إلى المعركة مرة أخرى. وبعد فترة توقّفت ميمنة المغول عن التقدم، وأخذت تستريح حول بحيرة حمص ظنًا منهم أنّ المعركة قد حُسمت لصالحهم، ولما تأخر وصول باقي الجيش المغولي قلقت الميمنة، وارتدوا عائدين إلى أرض المعركة وفي هذا الوقت كانت ميمنة المسلمين صدمت ميسرة المغول وكسرتها، واستطاعت الالتفاف على القلب، وظلّ المنصور صامدًا في موقعه، بل وأرسل قوات القلب للهجوم. وتتعدّد الأقاويل ولكن يبدو أنّ ميسرة وقلب المغول لم تتحمّل الهجمات المتتالية من الميمنة ومن انضم إليها من أمراء الميسرة مثل سنقر الأشقر وأعوانه، وعيسى بن مهنا والأعراب، وبدأت في الانهيار. وهنا أُصيب منكوتمر قائد حملة المغول عندما سقط من على حصانه، وحلّ به الفزع ولا ندري من أصابه، وهناك رواية أنّ الحاج أزدمر (أحد أعوان سنقر الأشقر، وكان غاضبًا على السلطان) تظاهر بالخيانة، وطلب اللجوء إلى منكوتمر خلال المعركة فأخذوه إليه، فغافلهم وأصابه وقُتل هو في هذه المحاولة بالطبع. أيًا كان السبب فقد أُصيب منكوتمر، وانسحب من أرض المعركة وأعقب هذا انهيار القلب والميسرة المغولية، وفرار الجيش المغولي إلى الصحراء والبادية، وبعضهم الآخر اتجه إلى حلب ونهر الفرات.

نظرًا لطول جبهة القتال فإنّ الميمنة المغولية المنتصرة لم تشعر بهزيمة الميسرة والقلب، كما أنّ ميسرة الجيش المملوكي لم تدرك نصرة الميمنة والقلب، وتفرّقت في صفد ودمشق وحتى غزة. أمّا السلطان فقد ثبت في موقعه بالتل ومعه مجموعة صغيرة من مماليكه لا تتعدّى الألف، وعند عودة الميمنة المغولية المنتصرة في جموع غفيرة مرت بجوار التل الذي يقف عليه السلطان ومماليكه، فطلب منهم لفّ الرايات والتّوقّف عن قرع الطبول حتى لا يشعر بهم المغول. وبعد مرورهم بجانبه هاجمهم السّلطان من الخلف، ففرّوا يريدون اللّحاق بقائدهم منكوتمر، ومع غروب شمس هذا الخميس كانت المعركة قد حُسمت تمامًا لصالح المصريين، وفرار الجيش المغولي على الرغم من كثرتهم العددية.

أظهر فرسان المماليك مثل سنقر الأشقر، وبدر الدين اليسرى، وحسام الدين طرنطاي وغيرهم من كبار المماليك شجاعة فائقة في القتال. أما المنصور قلاوون فيبدو أنّه لم يشارك في المعركة بنفسه باستثناء مطاردة الميمنة المغولية عند عودتها، ولكن ثباته في المعركة أدّى

إلى بثّ الروح في قواده وقواته مما أدى إلى النصر. لم يتتبع فلول المغول المنهزمة سوى قوة مملوكية قليلة العدد قتلت الكثير منهم، كما غرق الكثير من المغول في نهر الفرات عند عبوره، وقتل وأُسر الكثير من الذين تمكنوا من عبور الفرات بواسطة أهل حصن البيره شرق الفرات. واختبأ بعض المغول في الأحراش على الشاطىء الغربي للفرات، فأمر السلطان بإشعال النار بها فاحترق أكثرهم، ولا تذكر المصادر عدد قتلى المغول.على الرغم من قتل وأسر الكثير من قادتهم غير أنّ منكوتمر تمكّن من العودة سالمًا. لم علم أبغا وهو في موقعه بشرق الفرات بالهزيمة انسحب هو وجنوده إلى بغداد، أما الجيش المملوكي فلم يفقد – طبقًا للمصادر – إلا قليلاً أي حوالي مائتي قتيل بينهم الأمير عز الدين أزدمر الحاج وبعض الأمراء الكبار(المقريزي، السلوك، 1: 691 - 699؛ النويرى، نهاية الأرب، 31: 30 –37؛ العيني، عقد الجمان، 2: 269 - 283؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، 1: 62 - 64؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7: 303 - 307؛ Amiati–Preiss, *Mongols and Mamluks*، 187 - 201; Waterson, *Knights of Islam*, 177 - 183).

تعتبر هذه هي الموقعة الرابعة الكبرى، والتي ينتصر فيها الجيش المملوكي على نظيره المغولي – بخلاف الغزوات والمناوشات الصغرى، وُسمّيت بموقعة حمص الكبرى تمييزًا لها عن موقعة حمص الصغرى في بداية عصر الظاهر بيبرس. في هذا الوقت كانت الإمبراطورية المغولية بأقسامها المختلفة تمتدّ من الصين وكوريا شرقًا إلى نهر الدانوب في وسط أوروبا غربًا، وشمالاً من سيبريا إلى حدود الهند وفارس جنوبًا، وتعتبر أكبر أمبراطورية عرفها التاريخ. ومن مفارقات القدر –وإن كان هذا خارج موضوعنا هنا– أنّ الخان الأعظم كوبلاي خان وعاصمته بكين وهو مؤسّس أسرة يوان الصينية الحاكمة قد تمّ له الاستيلاء على كوريا، واستقر رأيه على غزو اليابان. بنفس الصّلف المغولي أرسل عدة سفراء إلى اليابان يطلب منهم الاستسلام والدخول في طاعته، فتجاهل اليابانيون سفراءه مدة، ثمّ أقدموا على خُطوة أخرى جريئة –كما فعل المظفر قطز مع أشقائهم في إيران– بأن قاموا بقتل السفراء وهو ما يعني إعلان الحرب في عرف المغول. فقرّر الخان غزو اليابان في عام 1274، وأرسل الخان الأكبر أسطولاً لغزوها، ولكنّه فشل في مسعاه نتيجة لسوء الأحوال الجوية.

فعاود المحاولة في عام 1281 –أي نفس عام موقعة حمص الكبرى ولكن قبلها بشهور– بأن أرسل مائة وخمسين ألف فارس معظمهم من المغول والباقي من كوريًا في

عدة آلاف من السفن إلى جزيرة كيوشو بجنوب اليابان. واستطاع المغول التوغّل فيها لمدة ثلاثة وخمسين يومًا حتى قامت في الرابع عشر من أغسطس 1281 عاصفةٌ هوجاء حطّمت الأسطول المغولي، وأجبرتهم على الانسحاب وأنقذت اليابان من الغزو. وقد أطلق اليابانيون على هذه العاصفة كامكازي أي الرياح المقدَّسة باللغة اليابانية. لقي المغول بعد شهورٍ قليلة هزيمة كبرى أخرى على يد المماليك في حمص على بعد آلاف الأميال، لتبقى اليابان ومصر الدولتان الوحيدتان اللتان تمكنتا من هزيمة المغول، ولم يتم احتلال أي منهما أبدًا بواسطة المغول (Storry, *A History of Modern Japan*, 40 - 41).

توفّي كلٌ من الخان أبغا وأخيه منكوتمر، وتم اختيار ابن آخر لهولاكو اسمه تكدار خانًا جديدًا متخطيًا أرغون ابن هولاكو، وذلك في نهاية 1282. أعلن توكدار إسلامه، وتسمّى أحمد سلطان، وأرسل في جمادى الأول 681/ 1282 سفراء إلى قلاوون يُعلمه بإسلامه، وأنّه أمر بفتح وإنشاء الجوامع والمدارس وإرسال الحاج، وأعاد إلى السلطان أحد جواسيسه بدلاً من قتله، وطلب من السلطان اجتماع الكلمة – حيث إنّه أصبح الآن مسلمًا – كذلك طلب الصلح لإخماد الفتن والحروب. فقابل السلطان هؤلاء السفراء، وأظهر سروره وقبوله للصلح، وأعاد السفراء إلى بلادهم عن طريق حلب غير أنّ القراءة المتأنية لخطاب الخان، وردّ السلطان على أصل الخطاب ومشافهات السفراء (المقريزي، السلوك، 1: 977 – 984) يظهر منه بوضوح تهديدات توكدار بالعودة إلى الحرب لو لم يقبل السلطان طلبه للصلح، كذلك التباهي بكونه مسلمًا وحمايته للمسلمين وإقامته للشريعة، وأخيرًا طلبه من السلطان الطاعة له والصلح، فردّ السلطان عليه يذكّره بسبقه –أي السلطان– إلى الإسلام والجهاد، ويسخر من تهديده بالحرب، ويُذكّره بهزائم المغول السابقة في الشام، ويُبكّته على ما يرتكبه أخوه وأعوانه من جرائم في حقّ مسلمي الروم (الأناضول) الخاضعين لسلطة المغول وأشياء أخرى نحن في غنى عن سردها.

غير أنّ أحمد توكدار أرسل بعثة ثانية وصلت إلى قلعة البيرة (الحدود على نهر الفرات) رأسها أحد كبار شيوخ المغول المسلمين، ومعه أحد أمرائهم وجماعة كبيرة من العسكر في ذي الحجة 682/ 1284 فقابلهم أحد أمراء حلب، فسلب منهم سلاحهم، ومنعهم من حمل الجتر (مظلة ملكية) من شعائر السلطنة، وأرسلهم إلى دمشق، وأجرى عليهم نفقة كبيرة وأطعمة وخلافه. في تلك الأثناء وصلت الأنباء إلى السلطان بوفاة أحمد توكدار، وتولية أخيه أرغون

بن أبغا (و لم يكن مسلمًا) فأبقى السلطان هؤلاء السفراء عدة شهور، ثم قابلهم ليلاً على ضوء الشموع وحوله مائة وخمسون من مماليكه بكامل هيأتهم، وسمع منهم الرسالة و لم يرد عليها بالطبع لوفاة مرسلها. ويبدو أنَّ هذه الرسالة كانت أكثر هدوءًا واعتدالاً من سابقتها، و لم تشر فيها إلى دعوة السلطان للدخول في طاعة المغول، ولا تُهدِّد بالحرب. على الرغم من ذلك فإنّ السلطان بعد قبول هداياهم الرفيعة قام بوقف الرواتب المدفوعة لهم، وصادر أموالهم، وسجنهم بقلعة دمشق حيث توفّي في رمضان من نفس العام الشيخ رئيس البعثة، ثم أطلق سراح أتباعه بعد هذا واحدًا تلو الآخر (المقريزي، السلوك، 1: 717، 722 - 723؛ النويري، نهاية الأرب، 31: 99 - 102؛ Broarbridge, *MSA* (5) 2001, 111-118).

قصدت من تلك الإفاضة في هذه السفارة هو بيان تغير جوهري في العلاقة بين المماليك والمغول ألا وهو دخول خان المغول إلى الإسلام، مما يسلب المماليك من أهمّ مبرّرات استمرار الحرب بينهما. غير أنّه قد استمرّ المغول – على الرغم من إشهار إسلام الخان – في سياستهم التوسّعية، وأرادوا من سلطان المماليك الدخول إلى الطاعة بناءً على الأيدلوجية المغولية (تطبيقًا لحكم الياسا) التي تنادي بأنّ على جميع شعوب العالم أن تكون خاضعة للخان المغولي سليل العائلة الجانكيزية المقدَّر لها حكم هذا العالم بأمر السّماء. لم يقبل المماليك بالطبع تلك الذرائع، واستمروا في عدائهم للمغول، وتحسّبهم لنواياهم العدوانية. ولما كانت فترة حكم أحمد خان قصيرة ولا يبدو أنَّ إسلامه كان صادقًا، لهذا فإنّ الصراع الأيدولوجي سرعان ما خبى ليظهر بعد هذا بعقد من الزمان عندما تحوّل الخان ودولته تحولاً حقيقيًا إلى الإسلام فتبادل مسلمو الطرفين باتهام الطرف الآخر بالزندقة والبغي، وادّعاء الإسلام كما سنرى في حينه.

لم ترضَ باقي العائلة الجنكيزية الحاكمة وقادة وأعيان مغول فارس بتحوّل أحمد خان إلى الإسلام، فثار عليه ابن أخيه أرغون وقبض عليه، وقتله بأن حطّم ظهره (الياسا لا تسمح بسفك دماء أي من أفراد العائلة الجانكيزية، وإن كانت تسمح بقتلهم بأي طريقة أخرى). لم يكن أرغون خانًا قويًا وانشغل مغول فارس بمشاكلهم الداخلية، فتراجع الخطر المغولي لمدة اثني عشر عامًا طوال باقي حكم المنصور قلاوون الذي تفرّغ بدوره –بعد إعادة بناء قواته– إلى فرنجة الشام، لبدء سلسلة من الفتوحات تُعتبر استكمالاً للفتوحات الركنية.

4 – الفتوحات السيفية:

مع هدوء الجبهة الشرقية مع المغول سنعرض لأحوال الجبهة الغربية مع فرنجة الشام والقوى الأوروبية المؤيّدة لهم في ذلك الوقت (الربع الأخير من القرن الثالث عشر) والتي شكّلت المصدر الرئيسي للحملات الصليبية وهي فرنسا وإنجلترا والقوى البحرية الكبرى مثل جنوا والبندقية وأراجون بأسبانيا (لنقل الجنود عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الشرق الإسلامي) وكانت الإمبراطورية البيزنطية بعيدة عن المشاركة الفعلية، ولكنّها تراقب الموقف. أما القوة الروحية والدينية الكبرى فكانوا بباوات الفاتيكان وهم الداعون للحملات الصليبية والمحرّكون لها، ولكنّهم بلا قوى عسكرية.

فرنسا كانت مهتمّة بالسيطرة على صقلية أكثر من اهتمامها بحملة صليبية جديدة، وكانت إنجلترا أيضًا مشغولة بضمّ ويلز، ثم بضم أسكتلندا. وبالطبع فإنّ تلك الحروب المحلية كانت تستنفذ موارد كل من إنجلترا وفرنسا. أما جنوا والبندقية فكانت لهما مصالح تجارية مع مصر المملوكية، فالأولى تقوم بنقل المماليك الصغار القادمين من جنوب روسيا وشواطىء البحر الأسود والبندقية تُزوّد مصر بما تحتاجه من أخشاب وحديد لازمين لتسليح الجيش المصري والغير متوافرة محليًا. أما الباباوات في روما فهم مشغولون أيضًا بمصير صقلية وبمحاولاتهم الفاشلة لوحدة الكنيسة المسيحية الشرقية في القسطنطينية مع الغربية في روما تحت قيادتهم. ولهذا فإنّ محاولات الخان أرغون المتتالية في أعوام 1285 و1287 ثم أخيرًا في عام 1291 لاستنفار البابا وملوك إنجلترا وفرنسا لعمل مشترك معه ضد مصر المملوكية ذهبت هباءً، نظرًا لاختلاف الأولويات بين المغول والدول الأوروبية الأخرى (Runciman, *Crusades*, 3 : 398-402).

بدأ المنصور غزواته بعد تجهيز جيشه، وإرساء دعائم دولته بتأديب حلفاء المغول ممّن ساندوهم في غزوهم الأخير فاستولى على قطيا في جنوب الأناضول في عام 682/ 1283 ثمّ قلعة الكختا القريبة منها وكان يملكها الأرمن، ثم قام أيضًا في نفس العام بالإغارة على بلادهم انتقامًا منهم لمساندة التتار وحرق جامع حلب، فقتلوا ونهبوا وحرقوا عاصمتهم سيس.

في عام 684/ 1285 عقد السلطان العزم على الاستيلاء على قلعة المرقب الواقعة شمال طرابلس وهى قلعة حصينة على تل مرتفع يملكها فرسان الاسبتارية، والذين اضطروا

للاستسلام بعد حصار لمدة ثمانية وثلاثين يومًا في التاسع عشر من ربيع الأول 684/ 1285 وهدمت فيه أبراجها، وتوجّهوا إلى طرابلس ومراقيا في الجنوب.

مثل ما فعل الظاهر بيبرس، فإنّ المنصور قلاوون قام بغزو النوبة في حملتين الأولى في 686/ 1287 وكان ملك النوبة وعاصمته دنقلة يدعى سمامون ويبدو أنّه خرج عن الطاعة، وقطع إرسال البقط، فجرد عليه السلطان حملة بقيادة عدد من الأمراء بالقاهرة والصعيد والعربان. لما وصلت الحملة إلى أطراف النوبة أخلاها سمامون وأمر نائبه في بلاد شمال النوبة ويُدعى جريس صاحب الجبل بأن يحذوا حذوه، فأخذوا في الانسحاب. وزحف الجيش المملوكي على دنقلة فهزموا ملك النوبة ففرّ إلى الجنوب وقبض على نائبة جريس، وعزلوا الملك وولّوا أحد أقاربه، وأطلقوا سراح جريس، وأصبح نائبًا للملك الجديد. ثم رحل الجيش عائدًا إلى مصر ومعه الكثير من الغنائم من رقيقٍ وخيل، وجمالٍ وأبقار وغيره، غير أنّ سمامون لما علم بعودة الجيش إلى مصر سارع بالعودة إلى دنقلة، واستولى عليها ففرّ الملك الجديد ونائبة جريس، ومجموعة من الأمراء إلى مصر، وأخبروا السلطان بعودة سمامون.

عندئذ قام المنصور بتجهيز جيش كبير بقيادة الأمير عز الدين أيبك الأفرم، وعدد من كبار الأمراء والعربان في حوالي أربعين ألف رجل بالإضافة إلى مجموعة من المراكب الكبيرة والصّغيرة، ومعهم الملك الجديد (توفّي في أسوان، فأرسل السلطان أميرًا نوبيًا آخر ليصبح ملكًا للنوبة) ونائبه جريس وذلك في شوّال 688/ 1289. تقدّم الجيش جنوب أسوان وطليعته ملك النوبة، ونائبه جريس وبعض من عرب وأمراء أسوان، فاستسلم أهالي شمال النوبة وجزيرة ميكائيل، وهمّ أتباع جريس نائب الملك فأمنّهم الجيش المصري. أخلى أهل البلاد جنوب أسوان طبقًا لأوامر ملك النوبة في دنقلة، فنهبها الجيش وحرقوا مساكنهم حتى وصلوا إلى النوبة، فوجدوا أنّ سمامون أخلاها أيضًا وهرب جنوبًا إلى جزيرة بالنيل. تتبّعه الجنود وحاصروه، ولكنّه رفض الاستسلام وهرب إلى جهة خارج مملكته، ففارقة أمراؤه والأسقف والقسس، وطلبوا الأمان من الجيش المملوكي، وعادوا معهم إلى دنقلة حيث قام قائد الحملة عز الدين أيبك الأفرم بتتويج الملك القادم معهم بدلاً من الملك الهارب في احتفالٍ كبير وحلّفوا الملك الجديد للسلطان، وأعادوا الجزية المعروفة بالبقط إلى ما كانت عليه، ثمّ عادوا للقاهرة بعد ترك حامية صغيرة في دنقلة.

بعد فترة ستة أشهر عاد سمامون إلى دنقلة، فأنضمّ إليه الأمراء والجيش النوبي مرة أخرى،

فاضطرت الحامية المصرية الصغيرة إلى الانسحاب إلى مصر، وعاد سمامون إلى ملكه وقتل كلاً من الملك الجديد المرسل من القاهرة ونائبة جريس، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه. غير أنه سمامون هذه المرة أرسل إلى السلطان الملك المنصور بالقاهرة يستعطفه ويطلب العفو، والتزم بإرسال البقط سنويًا، وأرسل هدايا كثيرة من رقيق وغيره كالعادة. غير أنّ هذه الأحداث جاءت في أواخر الدولة المنصورية، وكان السلطان مشغولاً بأمور كثيرة، ونظرًا لبعد مملكة النوبة وصعوبة الجو بها وفقرها، فقد أرجا السلطان – وسط مشاغله – التعامل معه، وآثر الصلح فقبل السلطان الهدايا، وأقرّ سمامون في عرشه كنائبٍ له (المقريزي، السلوك،1: 736 – 737، 749 – 753).

في عام 686 /1278 سقطت اللّاذقية في يد السلطان وهي الميناء التجاري لتجار حلب. انتهز السلطان فرصة سقوط أسوارها نتيجة لزلازل، وأعلن أنّ اللاذقية وهي تابعة لأنطاكية لا تخضع للهدنة، واستولى عليها بسهولة. في نفس الوقت تقريبًا مات أمير طرابلس بوهمند السابع بدون ورثة من ذريته وأعقب هذا خلاف داخلي على من يتولّى حكم طرابلس، ورفض الأهالي الأميرة لوتشيا أخت بوهمند (وكانت تقيم في إيطاليا) وأعلنوا قيام كوميونة Commune للحكم الذاتي، وطلبوا مساعدة جنوا والتي استجابت لهم مقابل امتيازات تجارية، وأرسلت خمس قطع بحرية إلى طرابلس، واتفق قائدهم مع الأميرة لوتشيا على الاعتراف بها ولكن هذه الاتفاقية لم تُرضي جميع الأطراف ومن بينهم أمير جبيل بارثلميو إمباريو. وكان الأخير على عداء مع بوهمند السابع وعائلته، كذلك البندقيون نظرًا لمنافستهم التجارية مع جنوا، فبعثوا سرًا إلى السلطان يدعونه إلى فتح طرابلس على أن تكون مناصفة بينهم. كما قام مندوب من البندقية بتخويف السلطان من أنّ سيطرة جنوا على طرابلس ستقضي على مكانة الإسكندرية، وتحوّل عنها طريق التجارة الأوروبية. ويبدو أنّ بارثلميو أحسّ أنّ الفِرق الأخرى داخل طرابلس لا ترضى عن اتفاقه هذا مع السلطان، فبدأ في المماطلة والتسويف فما كان من السلطان إلا أن جهزّ جيشًا كبيرًا مُجهّزًا بآلات الحصار، ونزل على طرابلس في أول ربيع الأول 680/ 1289. وأمام هذا الحدث اجتمعت كلمة الفرنجة للدفاع عن المدينة، فبقيت داخلها الأميرة لوتشيا وقوات من فرسان الاستبارية والمعبد والجنويين والبنادقة بمراكبهم، وقوة فرنسية صغيرة وقوة من قبرص تحت قيادة أخ ملكها هنري. لم تصمد المدينة طويلاً تحت الحصار، فتحطّمت أسوارها وسقطت بعد حصار استمر أربعة وثلاثين يومًا في الرابع من ربيعِ الآخر 680/ 1289 فهرب الجنويين والبنادقة في مراكبهم كذلك الأميرة

لوتشيا وأخو ملك قبرص، وقادة فرسان الاستبارية والمعبد وقُتل بارثلميو أمير جبيل، وتسابق أهالي المدينة، في الهرب إلى البحر ودخل المسلمون المدينة وسيطروا عليها وقتلوا بعضًا من أهاليها، واستولوا على الكثير من الأسرى والأموال. كالعادة قتل القليل من أمراء المماليك وحوالي خمسة وخمسون من الجنود، ودخل السّلطان إلى طرابلس، وأمر بهدم أسوارها وأبراجها والمدينة نفسها أُعيد بناؤها بدون أسوار بعيدًا عن الشاطىء بعدة أميال، طبقًا للسياسة الدفاعية المملوكية. وقد حاول بعض المواطنين الهرب إلى جزيرة قريبة فتتبعهم المماليك فلقوا نفس مصير إخوانهم في طرابلس. وبسقوط طرابلس لم يبق في أيدي فرنجة الشام سوى عكا، والقليل من توابعها، وبدا أنّ نهاية الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي أصبح حتميًا وقريبًا (المقريزي، السلوك، 1: 746 - 748؛ النويري، نهاية الأرب، 31: 46 - 49؛ ابن تغري بردي، النجوم، 7: 320 - 322؛ Runciman, *Crusades*, 3: 404-407).

يبدو أنّ السلطان كان عازمًا على فتح عكا على الرغم من الهدنة، وكانت نظريا من ممتلكات مملكة القدس وملكها هنري لوزينان –مقره قبرص ولكنه كان موجودًا في عكا في هذا الوقت– والذي أحسّ بنوايا السلطان وبصعوبة موقفه، فسارع إلى مدّ الهدنة مع السلطان لكلٍ من مملكة القدس وقبرص، وحذا حذوه ملك أرمينيا وصاحبة صور. لم يجرؤ الملك هنري على طلب مساعدة المغول، خوفًا من اعتبار قلاوون هذا العمل نقضًا للهدنة، فلجأ إلى الأسلوب التقليدي والذي اتبعه سابقوه من ملوك وأمراء فرنجة الشام بعد فقدهم أحد ممتلكاتهم الكبرى ألا وهو الاستعانة بالبابا وأوروبا لإرسال حملة صليبية جديدة. فأرسل البابا نداءات إلى ملوك أوروبا، وأمر أساقفته بالدعوة إلى حمل الصليب، ولم تلق الدعوة آذان صاغية بين الملوك، لانشغالهم بالحروب الداخلية –كما ذكرنا– إلا أنّ مجموعة من غوغاء شمال إيطاليا استجابت للدعوة وحملت الصليب. لم يكن بينهم أمراء أو نبلاء؛ ولكنهم كانوا شرذمة من الفلاحين الفقراء وسكان المدن العاطلين الباحثين عن المغامرة والثروة، وربما بعض الوازع الديني تحت اسم الصليب. اضطر البابا رغمًا عنه لإرسالهم إلى عكا تحت إشراف أسقف طرابلس اللاجىء إلى روما على المراكب التي زودتها مدينة البندقية ذات المصالح التجارية في عكا.

بعد وصولهم اتضح للجميع في عكا من بارونات وفرسان أنّ هؤلاء الإيطاليين عبء عليهم، لأنهم مجموعة من الغوغاء السكارى المنحلّين وغير منظبطين. وسرعان ما انطلقت

شرارة الاضطرابات بعد جلسة شراب تبعتها بعض الاحتكاكات بينهم وبين مسلمي عكا، فانطلقوا في شوارعها وضواحيها يقتلون كل مسلم يرونه أو حتى مسيحي شرقي تحت اسم الصليب. جزعت السلطات في عكا، وحاولت حماية المسلمين في قلعتها ولكن بعد فوات الأوان. وبالطبع غضب السلطان غضبًا شديدًا عندما علم بالمذبحة، ورفض توسلات واعتذارات الملك في عكا، وأصرّ على إرسال شرذمة الإيطاليين إليه لمعاقبتهم، وبالطبع رفض البارونات والأمراء إرسال هؤلاء المسيحيين حاملي الصليب إلى حتفهم المؤكّد على يد السلطان. فما كان منه إلاّ الاستعداد لشنّ الحرب، واعتباره المذبحة نقضًا صريحًا للهدنة (Runciman, *Crusades*, 3: 408-412).

كان السلطان يعتزم الحج في هذا العام فلما بلغه خبر المذبحة ألغى خُططه، وبدأ في تجهيز وتعبئة الجيش المصري والشامي وآلات الحصار وغيره. ثمّ خرج إلى معسكره خارج القاهرة في آخر شوال 689/ 1290 في طريقة إلى الشام فمرض في معسكره عدة أيام، ثم توفي في السادس من ذي القعدة بعد مدة حكم أحد عشر عامًا وثلاثة أشهر، وخلفه ابنه خليل، ولقّب بالأشرف.

5 – السلف مثل الخلف – الامتداد

يُعتبر عصر قلاوون امتدادًا لعصر الظاهر بيبرس من شتّى النواحي العسكرية والسياسية (داخليًا وخارجيًا) والإدارية والاقتصادية والعمرانية، فمن الناحية العسكرية وجّه المنصور جل اهتمامه إلى الجيش فأكثر من شراء المماليك، حتى بلغوا حسب المصادر المعاصرة اثني عشر ألف مملوك من أجناسٍ مختلفة أحسن تدريبهم وتهذيبهم، وزوّدهم بالأسلحة. وقد أفرد لعددٍ كبير منهم حوالي ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك أبراجًا بالقلعة معظمهم من الشراكسة (سُمّوا بالبرجّية) كما أعتق الكثير منهم، وجعل منهم أمراء ونواب دولته وحرص على مظهرهم، واستحدث ملابس جديدة لهم وعاملهم كأبنائه. كانت الجيوش المنصورة (كما تسمّى في المصادر) دائمًا على أهبة الاستعداد، وفي حالة استنفارٍ دائم والسلطان دائب الحركة إلى الشام وغيرها من أصقاع الدولة، ولهذا تمكن من هزيمة المغول هزيمة قاسية في موقعة حمص، فلم تقم لهم قائمة طوال الدولة المنصورية، واستولى على باقي الممالك والقلاع من فرنجة الشام كما رأينا سابقًا.

أمّا من الناحية السياسية فامتاز ذلك العهد بالاستقرار أيضًا من الداخل، فتعامل المنصور بمهارة مع معارضيه من خشداشيته، وأظهر مرونة وحرصًا على حقن الدماء، ولعلّ أبرز مثال هو تعامله مع سنقر الأشقر وهو أحد الأمراء البحرية الكبار. وكما ذكرنا فإنه (أي سنقر الأشقر) رفض سلطنة المنصور بداية وتسلطن في دمشق، فأرسل إليه المنصور حملة، ثم أعطاه الأمان، وترك له أملاكه في شمال سوريا في صهيون وتوابعها في عام 679/ 1280 واشترك سنقر الأشقر في معركة حمص في العام التالي وأبلى بها بلاء حسنًا، ثم اعتزل المنصور وأقام في أملاكه بصهيون، وقد تحقّق قلاوون من اتصال سنقر وأعوانه مع المغول ودعوتهم إلى غزو الشام قبل معركة حمص، ومع هذا عفى عنه وبقي سنواتٍ منعزلاً عن السلطان مستقلاً بأملاكه، ورفض مشاركة المنصور في غزو قلعة المرقّب عام 684/ 1285 وأخيرًا لما ضاق به السلطان وبتصرفاته أرسل عليه حملة حاصرته، واضطرته لطلب الأمان في 681/ 1287 فأمّنه المنصور واستسلم سنقر الأشقر. مع هذا استقبله السلطان في القلعة أحسن استقبال مع سائر الأنجال (الأسياد) والأمراء، وأنعم عليه بالهدايا من ذهبٍ وتحف وأقمشة، وأعطاه إقطاعًا كبيرًا وعاش سنقر مُعززًا مُكرمًا إلى نهاية الدولة المنصورية.

سار على هذا المنوال مع الكثير من أمراء الدولة مثل علم الدين سنجر الحلبي (الثائر على بيبرس) وأمراء العربان مع حزم أيضًا كما في حادثة مؤامرة سيف الدين كوندوك الظاهري في 680/ 1281 فأعدمه علمًا بأنّ كوندوك لم يكن خشداشًا للمنصور، ولم يكن ضمن الأمراء الكبار البحرية. لتحقيق الاستقرار في حالة وفاته أو خروجه إلى الشام، فقد قام المنصور بتعيين ولده علاء الدين علي سلطانًا معه، ولقبّه بالصالح، ثم قام يتعيين ابنه الأشرف خليل بعد وفاة الصالح المفاجئة في شعبان 687/ 1288.

مثل دولة بيبرس تميزت دولة قلاوون بقلّة التغييرات الإدارية، ففي السّنة الأولى لسلطنتة عين خشداشه عز الدين أيبك الأفرم الصالحي نائبا للسلطنة، فطلب إعفاءه بعد مدة قصيرة فأعفاه، وتولّى النيابة بعده مملوكه حسام الدين طرنطاي إلى نهاية الدولة المنصورية بعد أحد عشر عامًا. وكذلك نوّابه في الشام (دمشق)، فكان حسام الدين لاجين السلحدار المنصوري حتي النهاية، وحلب تولاّها نائبان بعد وفاة الأمير جمال الدين أقش الشمسي. أما الوزارة فتولّاها أربعة من المعمّمين أصحاب الأقلام، ثمّ استحدث تولية الوزارة لأحد من أرباب السّيف أوّلهم الأمير علم الدين سنجر الشجاعي (غير الحلبي) وكان إداريًا حاذقًا، ولكنّه كان

كثير الظلم والمصادرة، فعزله بالأمير بدر الدين بيدرا المنصوري حتى نهاية دولته. باختصارٍ فالاستقرار الإداري والسياسي، وقلّة الفتن والثورات الداخلية كانت سمة الدولة المنصورية كما هو الحال في الدولة الظاهرية بيبرس.

استمرّ المنصور في سياسة احتواء المغول، ومنعهم من التحالف مع الصليبيين، واستغلال الانقسامات والمصالح الأوروبية المتضاربة لإبعادهم عن مُساندة فرنجة الشام. فاستمرّ في العلاقات الحسنة، والتحالف التقليدي مع القطيع الذهبي لتأمين مصدر للمماليك، والذي أكثر المنصور من شرائهم، ونظرًا لعدائهم التقليدي مع مغول فارس العدو الرئيسي لمصر. تذكر بعض المصادر أنّ المنصور في بداية دولته أرسل رسالة إلى منكوتمر خان القطيع الذهبي وأخيه تدان منكو، ومعها ستة عشر حِملاً من الأقمشة والتّحف والأسلحة لهم، وللكثير من قواد وأعيان دولته (Broadbridge, *MSA* (5) 2001, 103).

يذكر المقريزي بأنه وصل إلى السلطان في عام 682/ 1283 رُسل من طرف خان القطيع الذهبي تدان منكو يحملون رسالة تتضمّن أنّ الخان أسلم، ويطلب من السلطان نعته باسم من أسماء الإسلام، وأن يرسل له علمًا من أعلام الخليفة العباسي، وآخر من طرف السلطانٌ يقاتل بهما أعداء الدين (مغول فارس في الغالب). فأرسل السلطان الرُسل إلى الحجاز، ثم عادوا إلى مصر وبلادهم بعد أن أجاب السلطان طلباتهم، وهذا بالطبع يظهر جليًا المكانة العالية لسلطان مصر الدينية والدنيوية. ثم تصمت المصادر عن ذكر أيّ رسل متبادلة حتى نهاية عام 686/ 1287 حيث يذكر المقريزي أن السلطان أرسل هدية ثمينة ومبلغًا نقديًا قيمته ألفا دينار إلى دولة القطيع الذهبي، وذلك لإنشاء جامع هناك يكتب عليه اسم وألقاب السلطان، وأرسل معهم حجّارًا لنقش هذه الأسماء (المقريزي، السلوك، 1: 716، 738).

حرص المنصور على الاستمرار في سياسة سلفه بإقامة علاقات طيبة مع القوى الأوروبية، فوصل إلى القاهرة في 684/ 1285 سفراء كل من إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الانبرور) والإمبراطور البيزنطي (الأشكرى) ومن الجنويين كذلك سفراء محملين بالهدايا النفيسة. لم يقتصر المنصور على إقامة علاقات طيبة مع أوروبا، ولكنّه أقام علاقات قوية في دول المشرق أيضًا، فجاء إلى مصر في عام 682/ 1283 سفراء من جزيرة سيلان (سيريلانكا الآن) يحملون رسالة من ملكها يخطب فيها ودّ السلطان. كذلك أرسل صاحب اليمن في 684/ 1285 هدايا قيمة من عبيد وجياد وفيل وأشياء أخرى ثمينة، فقبلها السلطان وأكرم

رسله كالعادة. في عام 687/ 1288 أرسل السلطان رسائل إلى حُكّام وأكابر الأعيان ببلاد السند والهند والصين واليمن تتضمَّن دعوة تجار هذه البلاد إلى مصر للتجارة والزيارة، وكتب لهم صورة أمان على حياتهم وأموالهم (المقريزي، السلوك، 1: 713، 729، 738، 742).

اتّسم عصر المنصور برخاء وانخفاض الأسعار، ولم تتعرّض البلاد إلى أزماتٍ اقتصادية بسبب انخفاض فيضان النيل إلاّ مرة واحدة في 682/ 1283 حين ارتفع سعرُ القمح في مصر، فأخرج السلطان الجيش إلى الشام تقليلاً للاستهلاك، ولخفض الطلب والأسعار. فلمّا لم تنخفض اتبع السلطان سياسة سلفه، ففكّر في فتح الأهراء (المخازن) السلطانية، وبها الاحتياطي الاستراتيجي، وتوزيع القمح على العامة غير أنَّ الأمراء رأوا أنّ بقاء الأهراء السلطانية ممتلئة بالقمح يُوحي بالأمان والاطمئنان بين العامّة، فأمر السلطان الأمراء بفتح شونهم، وببيع القمح بسعرٍ منخفض حتى ظهور المحصول الجديد، فمرت الأزمة بأمان.

6 – منشآت المنصور المعمارية

كان المنصور – كسلفه بيبرس – مُولعًا بالتعمير والإنشاء، ففي بداية حُكمه وبعد هزيمة المغول في حمص أمر السلطان بإعادة بناء ما هدمه المغول في حلب وغيرها من بلاد الشام، وقام أيضًا بإنشاء تربة كبيرة لدفن زوجته فاطمة خاتون أم السلطان الصالح علي بالقرب من المشهد النفيسي، ما زالت بقاياها موجودة حتى الآن بشارع الخليفة (أثر 274، 682 – 83/ 1283 – 1384). وهي تربة كبيرة وجميلة وإن كانت الآن غارقة في مياه الصرف وفي حالة يُرثى لها، ودُفن بها كلٌّ من فاطمة خاتون عند وفاتها في 683/1284 وولدها الصالح عليٍ عند وفاته المفاجئة في 687/ 1388 (Behrens-Abouseif, *Cairo of the Mamluks*, 129-130).

لا شك أنّ أبرز منشآته المعمارية – وربما أيضًا المملوكية – هي البيمارستان المنصوري في خط بين القصرين (شارع المعز حاليًا) (أثر 43، 683 – 84/ 1284 – 1285). وهي مجموعة تتكون من بيمارستان (مستشفى) وقبة جنائزية للدفن ملحق بها مئذنة ويجاورها مدرسة يفصلها الممر المؤدّي إلى البيمارستان خلف القبة والمدرسة وسبيل، وتقع المجموعة أمام المدرسة الصالحية (اثر 38، 641 – 648/ 1243 – 50) ومدرسة الظاهر بيبرس (أثر 37، 660 – 62/ 1262 – 1263) وبذلك أرسى تقليدًا سوف يستمر قرونًا لبناء منشآتٍ

سلطانية على جانبي الشارع الأعظم أو قصبة القاهرة (شارع المعز حاليًا). اندثر البيمارستان (أهم أجزاء المجموعة) ولكن القبة والمئذنة والمدرسة لازالوا في حالةٍ معقولة، وخضعت لسلسة من التجديدات على مرّ القرون حتى بداية القرن الحادي والعشرين، وهي تحفة فنية رائعة.

سنتجاوز هنا دلالتها الجمالية الشكلية إلى دلالتها التعبيرية الأخرى من الناحية الاجتماعية والعلمية والسياسية. فيبدو من دراسة الوقفية الخاصة بها (ابن حبيب، تذكرة النبيه، الملاحق 295، 396) أنّ البيمارستان كان هو محلّ الاهتمام الأول للمنصور، فقد أوقف عليه الجزء الأكبر من موارد أملاك الوقف، والتي قدّرها المقريزي بحوالي مليون درهم سنويًا. كما يذكر محمد أمين نقلاً عن السّخاوي بأن فائض ريع البيمارستان في عام 851/ 1447 أي بعد قرنين من إنشاء البيمارستان كان أربعة عشر ألف دينار وهو مبلغ ضخم (ابن حبيب، تذكرة النبيه،1، الملاحق، 308). وقد أسهب النويري في وصف البيمارستان وأقسامه ومحتوياته، وأطبائه وموظفيه ومصارفه وخدماته حيث إنّه باشره (أي أشرف عليه كناظر) لمدة أربعة أعوام من 703/ 1303 إلى 707/ 1307 (النويرى، نهاية الأرب، 31: 104 – 113) وذكر أيضًا أنّ البيمارستان كان هو جُلّ اهتمام المنصور، وخصص لها معظم موارد الوقف في حين أنّ المدرسة خصّص لها مبلغًا ضئيلاً لايكاد يكفيها. هذا يشير إلى تضاؤل الدافع الديني لدى المنصور، مقارنة بدوافعه واهتماماته الاجتماعية والسياسية، لاكتساب الشعبية من ناحية، وتدعيم شرعية الحكم من ناحيةٍ أخرى.

إجمالاً فقد انقسمت المستشفى إلى قسمين للرجال والنساء، وبها أطباء متخصصون في مجالات الطب المعروفة الطبائعية (وهي الأمراض الباطنية) والكحالين (أمراض العيون) والجرائحية (الجراحون) والمجبرّين (لعلاج العظام والكسور)، كذلك الأمراض النفسية لعلاج الأمراض العقلية والنفسية، وهيّأت أماكن لإقامة النزلاء بها فراش كامل نظيف، مُخصّص لكل فرد به مياه جارية وأماكن أخرى للطبخ، وإعداد الأطعمة الصحية والأدوية والأشربة والمراهم وغيره من العقاقير. فكان النزيل يتلقّى العلاج والطعام والكسوة والإقامة مجانًا، بصرف النظر عن سنّه أو جنسه، أو حالته الاجتماعية، أو المالية سواء إن كان من القاهرة أو خارجها، ولكن يبدو أنّ العلاج كان قاصرًا على المسلمين فقط، حيث تذكر الوقفية في سطر 215 "الموقوف عنه خلّد الله ملكه بيمارستان لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء

من الأغنياء المثرين والفقراء". ربّما نجد في هذا غضاضة الآن لهذه التفرقة الدينية، ولكن هذا نتيجة لمفهوم الوطن والمواطنة الإسلامي السّائد في العصور الوسطي، القائم على الدين فقط بصرف النظر عن الأصل العرقي أو اللّغة أو المولد.

بالإضافة إلى ما سبق فإنّ البيمارستان كان يقوم بدفن وتغسيل، وتجهيز من يموت به، وكذلك وجود عيادة خارجية لعلاج وصرف الأدوية لغير نزلاء المستشفى. بالإضافة إلى العلاج فإنّ البيمارستان كان أيضًا مدرسةً للطب يقوم بالتدريس به كبير الأطباء وغيره من الأطباء المتخصصين في البيمارستان نفسه، أو في المدرسة الملحقة به، وألحق بالبيمارستان مكتبة بها كتب في الطب وسائر علوم المعرفة الأخرى. ويعتقد أنّ الطبيب الشهير ابن النفيس (المتوفّي في ذي القعدة 687/ 1288) وهو أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى – معارضًا ابن سينا في ذلك، وقبل اكتشافها تشريحيًا في أوروبا بعدة قرون– أنّه أهدى منزله ومكتبته عند وفاته إلى البيمارستان، وأنّه كان يدّرس الطب في البيمارستان أيضًا (Meyerhof-[Schacht], *EI²*, 3, 897). وبالطبع استتبع هذا وجود جهاز إداري كبير؛ لضبط الأمور المالية والتنظيمية وأعمال الصيانة.

أخيرًا هناك دلالات سياسية للظروف التي أُنشئت بها هذه المجموعة منها مثلاً بناء المنصور لتربة يُدفن بها في أعظم شوارع القاهرة، وهو أول من شعر أنّ من حقّه هذا التكريم (قبة ضريح الصالح بُنيت بعد وفاته بواسطة أرملته شجرة الدر) وسلفه بيبرس رفض أن يُدفن في أي من منشآته الدينية، وجعلها خالصة لوجه الله. ربما لأنَّ التوجهات الدينية لقلاوون كانت أقلّ من سلفه.

الدلالة الأخرى تُظهر مدى قوة الرأي العام مُمثّلاً في النُّخبة المدنية من خارج النخبة العسكرية، واهتمام الأمراء بإرضائها، وحرصهم على التقيد بالشريعة والشرعية، فيذكر المقريزي في خُططه أنَّ المنصور قلاوون كلّف وزيره الأمير علم الدين سنجر الشجاعي بشراء أرض وبناء المجموعة. فوقع اختيار علم الدين سنجر على دار تُسمَّى دار القطبية، وأجلى سكّانها منها وهُنّ بعض أميرات البيت الأيوبي، وأعطاهنّ دارًا أخرى قريبة وبعض الأموال، ولكن على غير رغبتهم فيما يبدو. لما كان السلطان في عجلة، فقد أتمّ سنجر إقامة هذه المنشأة الضخمة في أحد عشر شهرًا (وكان جبارًا عسوفًا ولكن ذو قدرة على الإنجاز) وحتى يتم له ذلك، فقد استخدم أساليب من السخرة حيث منع البناء في جميع المنشآت الأخرى،

وأجبر جميع أرباب الصنائع والحرف بالعمل عنده ربّما بأجورٍ مُتدنّية كذلك استعمل أسرى فرنجة الشام، وسخّرهم في أعمال البناء. ويقال إنّه كان يفرض على المارة في الشارع الأعظم – العظيم والحقير – بالمساهمة في أعمال الحفر أو البناء، حتى أمتنع الخلق من المرور بتلك الناحية، كذلك قام بتفكيك أعمدة ورخام وحجارة من قلعة الروضة؛ لاستعمالها توفيرًا للوقت (استعمل بهاء الدين قراقوش الكثير من هذه الأساليب في بناء قلعة الجبل قبله بقرنٍ من الزمان).

لما انتهى بناء المنشأة خرجت فتاوى من بعض العلماء بتحريم الصلاة بها، نظرًا لمخالفة الأعمال السابق ذكرها للشرع الشريف من اغتصابٍ للأرض وأعمالِ السخرة. وأقلق هذا سنجر الشجاعي، ومازال يحاول ويراضي العلماء حتى سُحبت الشكوى وعادوا إلى الصلاة. وأرضى العلماء والأهالي، وطمأنهم من أنّ المنشأة لا تُموّل من مصدرٍ غير شرعي، فقد أُشيع أنّه عند حفر الأساس وُجدت أوعية مغلقة بالرصاص، وعندما فتحها الشجاعي وجد بها الكثير من الجواهر الثمينة والذهب بِيعت بمبالغ كبيرة؛ لتمويل إنشاء البيمارستان وهذا بالطبع أحد الأساليب المعروفة، لإكساب الشرعية عن مصدر الأموال مثل غسيل الأموال، كما نعرفها الآن.

في هذا الصدد للمقريزي تعليق لطيف، فيجد المبرر لقلاوون، وسنجر الشجاعي بأخذهم الدار القطبية من أصحابها الأيوبيين، وهدمه للقلعة الأيوبية وأعمال السّخرة بأن الأيوبيين هم أيضًا غصبوا تلك الأملاك من أصحابها السابقين، فيقول: "وأنت وإن أمعنت النظر، وعرفت ما جرى تبيّن لك أنّ ما القوم إلا سارق من سارق، وغاصب من غاصب وإن كان التحرج من الصلاة لأجل عسف العمال، وتسخير الرجال فشيء آخر، بالله عرفني فإنّي غير عارف من منهم لم يسلك في أعماله هذا السبيل غير أنَّ بعضهم أظلم من بعض" (المقريزي، الخطط، 2: 408).

ملحوظة أخيرة فإنّ المنصور قلاوون كان سلطانًا عظيمًا مثل سلفيه، وعصره امتداد لهما، وهم الذين أنجزوا المهمة الأولى والكبرى بحماية الإسلام، وربما اللغة العربية في محنتها الكبرى. والمهمّة الثانية وهو الطرد النهائي لفرنجة الشام والقضاء على الخطر المغولي، فإنه سيتحقّق في السنوات القليلة بعد وفاة قلاوون، ولكن هذا ما كان يتم لولا هؤلاء الثلاثة العظام المظفّر قطز، والظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، وهم حقًا الآباء المؤسّسون.

الفصل الحادي عشر

السلالة القلاوونية (1) الأشرف خليل ونهاية الحروب الصليبية

1 - الأشرف خليل:

ربما يعجب البعض من أنّ مؤسس العائلة القلاوونية لا يكون جزءًا منها، وأعتقد بأنّ التاريخ المملوكي بعد وفاة قلاوون ينتقل إلى مرحلةٍ جديدة تستمرّ إلى مدة حوالي قرن من الزمان تقسّم أيضًا إلى خمسة أطوار تجمعها خصائصٍ عامة تختلف عن فترة الإنشاء والتدعيم. السلالة القلاوونية - بعد مؤسّسها - تستمر في الحكم من 689/ 1290 إلى 784/ 1382 أي ما يقرب من مائه عام يتعاقب عليها سبعة عشر سلطانًا (بعضهم يعود مرة بعد أخرى إلى عِرش السلطنة بعد عزلة) في ثلاثة أجيال من بعد المنصور قلاوون. خلال تلك الفترة كان السلاطين جميعًا من الأسياد ممَّن لم يمسّهم الرق - باستثناء ثلاثة سلاطين كانت فترة حُكمهم مجتمعين لا تعدو خمس سنوات فقط من خارج السلالة- وهذا اختلاف جذري عن فترة الآباء المؤسسين، وخروج عن مبدأ عدم التوريث، ونتج عن هذا أنّ معظم السلاطين كانوا أطفالاً ودميًا في يد أحد أو بعض أكابر الأمراء، فتميّزت تلك الفترة بالصراع الشديد بين طوائف المماليك بعضهم ببعض، أو مع السلطان فكانت الفترة الأكثر دموية.

أول من تولّى بعد قلاوون ابنة خليل، وتلقّب بالأشرف، و لم يكن طفلاً بل كان رجلاً في أواخر العشرينات، وعلى الرغم من أنّه شارك أباه في السلطنة بعد وفاة أخيه الأكبر الصالح علي، فيبدو أنَّ السلطان قلاوون لم يكن راضيًا عن سلطنته، ورفض مِرارًا حتى وهو على فراش الموت التوقيع على تقليد (أي منشور التعيين) للأشرف سلطانًا، ونظرًا لأنّ الابن الثاني لقلاوون واسمه محمد كان طفلاً صغيرًا، فانتقلت السلطنة بهدوء - ظاهريًا على الأقل - إلى خليل حتى بدون تقليد، وبعد أن حلف له الأمراء والقضاة والجميع استتبت مقاليد الحكم معه على أن يبقى حسام الدين طرنطاي نائبًا للسلطنة كما كان في عصر أبيه، على الرغم من أنّ العلاقة بينه وبين السلطان كانت سيئة للغاية في دولة المنصور - فكان حسام الدين طرنطاي من أنصار أخيه المتوفّى الصالح، و لم يكن يُظهر الاحترام أو المحبة للأشرف، بل كان يَحطّ من قدره، ولا يجيب طلباته، ويضطهد أنصاره وأعوانه، وينكّل بهم مثل المدعو ابن السلعوس التاجر الدمشقي، والذي كان وزيرًا للأشرف قبل سلطنتة، فأوقع به طرنطاي عند المنصور، فقبض عليه وأهانه، وصادره وكاد يفتك به لولا تدخّل وشفاعه خليل، فعفى عنه؛ ولكنه لزم داره وسافر إلى الحجاز. ولذلك حقد عليه كل من خليل وابن السلعوس، وكان طرنطاي مملوك المنصور المخلص والمقّرب له، فلم يجرؤ خليل على التعرض له في حياة والده.

بعد أيام قليلة من ولايته اعتقد السلطان الأشرف - ربما صادقًا - أن طرنطاي يتآمر على قتله، فطلبهُ إلى القلعة وقبض عليه وقتله، وصادر أمواله وأملاكه بواسطة سنجر الشجاعي وكان يكره طرنطاي أيضًا- وكانت مبالغ عظيمة - فرقها كلّها على الأمراء والجند، وذلك في ذي القعدة 689/ 1290 وعاش أولاد طرنطاي في فقرٍ وحاجة. و لم يكافئ الأشرف سنجر الشجاعي - وكان من كبار أمراء أبيه - بنيابة السلطنة، بل جعله يقوم بأعمال النيابة والوزارة بدون تقليد أو تعيين رسمي. ثمّ قام بتعيين بدر الدين بيدرا كنائب للسلطنة - واستمرّ سنجر الشجاعي في ممارسة مهام الوزارة حتى عاد ابن السلعوس السابق ذكره، فعينه الأشرف وزيرًا، وأعطاه صلاحيات ضخمة وفوّض إليه أمور الدولة حتى أوصله إلى درجةٍ عالية من النفوذ لم يسبقه فيها أحد من وزراء القلم. وفوق هذا كان -أي ابن السلعوس- مُتكبرًا مغرورًا، واستخفَّ بالأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة بما فيهم بيدرا النائب معتمدًا في هذا على دعم السلطان له.

2 – سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية:

بعد استقرار السلطان على عرشه وجّه جهده إلى الجهاد، واستكمال الفتوحات المنصورية، فرفض اعتذار رسل عكا عمّا وقع منهم في حقّ المسلمين كما سبق ذكره وبدأ تعبئة جيوشه في مصر وحماة ودمشق وحلب والحصون المختلفة لحصار عكا، وتحرّك هو إلى الشام في ربيع الأول 690/ 1391 ووصل إلى عكا بعد تجمّع كافة الجيوش المملوكية وبدأ الحصار، وكانت عكا وصور هما أمنع مدن فرنجة الشام، واستمرّ الحصار عليها لمدة أربعة وأربعين يومًا، وسقطت عكا بعد هذا في أيدي المسلمين يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخر، ومن مفارقات القدر أنّه هو نفس اليوم الذي سقطت فيه عكّا على يد ريتشارد قلب الأسد قبل مائة وثلاثة أعوام في دولة الناصر صلاح الدين الأيوبي. وقد قام ريتشارد في هذا الوقت بقتل جميع الأسرى المسلمين، بعد أن أعطاهم الأمان فقام الأشرف صلاح الدين خليل بنفس العمل عند فتح عكا، وأعمل في حاميتها السيف بعد أن أعطاهم الأمان، فيقول المؤرخ الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا الحموي الأيوبي، وكان شاهد عيان واشترك في القتال كأمير عشرة ضمن الفيلق الحموي: "ولما هاجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب، وكان داخل البلد عدة (أبراج) عصيّة بمنزلة قلاع داخلها عالم عظيم من الفرنج، وتحصّنوا بها وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئًا يفوق الحصر من كثرته، ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة، ولم يتأخرّ منهم أحد فأمر بهم فضُربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بمدينة عكا فهُدمت إلى الأرض ودُكّت دكًا" (أبو الفدا، المختصر، 4: 35).

استمر الأشرف في سياسة أسلافه في تخريب المدن الساحلية خوفًا من حملات صليبية جديدة – ولا أدري ما السبب في هذا، وقد كان احتمال قيام حملة جديدة ضئيل للغاية في حين أنّ العائد الاقتصادي لبقاء تلك الموانى مفتوحة للتجارة كان كبيرًا، ولكن يبدو أنّ سلاطين المماليك قدّموا عامل الأمن عمّا عداه من عوامل تجارية واقتصادية.

تذكر لنا المصادر الغربية أنّ فرنجة الشام قاوموا الحصار مقاومة شديدة، وخصوصًا فرسان الاسبتارية والمعبد والبنادقة كما أنّ ملك قبرص حضر بنفسه للدفاع عن المدينة على الرغم من صغر سنّه ومرضه، وعرض الصلح على السلطان الذي رفضه بالطبع. ولكن الوقت كان قد تأخرّ فالحصار المملوكي برًا كان شديدًا، ولم تتمكّن الأسوار والأبراج الصليبية من الصّمود في مواجهة المنجانيق المملوكية أو المهندسين والحفارين تحت الأبراج، وهكذا سقطت عكا،

وهرب الملك إلى قبرص بعد ثلاثة أيام فقط من وصوله، وقُتل من الفرنجة أو أُخذ أسيرًا للبيع كرقيق من لم يتمكن من الهرب على المراكب القليلة الباقية إلى قبرص أو باقي المدن الساحلية القليلة التي لم تزل في يد فرنجة الشام (Runciman, *Crusades*, 3: 412 - 421) ولم يستشهد من المسلمين سوى سبعة أمراء وأربعة أو ستة من مقدّمي الحلقة، وثلاثة وخمسين من جنودهم، وثلاثين أو نحوه من الجنود (العيني، عقد الجمان، 3: 64) بالطبع اختلف المؤرخون على تلك الأعداد، ولكن هذا يشير إلى قلة خسائر المسلمين النسبية.

سقوط عكا ومقتل الكثير من الفرنجة بهذا الشكل أثّر في الحالة المعنوية لهم في باقي الحصون الساحلية، فآثروا الاستسلام وعدم المقاومة، وتساقطوا الواحدة تلو الأخرى، فاستسلمت كل من صيدا وبيروت إلى علم الدين سنجر الشجاعي في رجب 690/ 1291. كذلك مدينة صور – وكانت منيعة حتى أنّ الناصر صلاح الدين لم يتمكن من فتحها خلال الفتوحات الصلاحية قبل أقل من قرن من الزمان – استسلمت بدون مقاومة، وكذلك استسلمت عتليت، ثم طرسوس في شهر شعبان من نفس العام، وسبقتها حيفا حتى لم يبق أي من الممتلكات الصليبية بالشام.

هكذا كانت نهاية فرنجة الشام وقدّر للسلطان الملك الأشرف تحقيق ما عجز عنه أعظم ملوك الإسلام، ولم يبق للفرنجة إلا جزيرة صغيرة على بعد مسافة قليلة من طرسوس وطرابلس اسمها جزيرة أرواد امتلكتها مجموعة من فرسان المعبد ولم يُعن بها الأشرف واستمروا بها اثني عشر عامًا حتى 703/ 1303 عندما انسحبوا إلى أوروبا، لتلقى طائفة فرسان المعبد نهايتها بعد أعوام قليلة. ودُمّرت أسوار وحصون وقلاع جميع تلك المدن وأُحرقت مزارعها وضياعها، تحسبًا لقدوم حملات صليبية جديدة والتي لم تأتِ أبدًا خلال الدولة المملوكية.

أمّا السلطان فقد عاد إلى دمشق، ثم دخل القاهرة في احتفالاتٍ ضخمة بالنصر. وبدأت تظهر بوادر الاختلاف – حتى خلال حصار عكا – بين الأشرف ومماليك أبيه الكبار وهو ما سوف يتكررّ مرات عديدة خلال السلالة القلاوونية. فبعد قتله طرنطاي والقبض على كتبغا قام أيضًا بالقبض على سنقر الأشقر – واتهمه بخيانة طرنطاي خشداشه وحاميه في الأيام المنصورية – كذلك قبض على أحد الأمراء الكبار، ويُدعى ركن الدين بيبرس صقطو وزوّج بنته الأمير حسام الدين لاجين. فكان يقبض عليهم حينًا، وعلى غيرهم حينًا آخر، ثم يفرج عنهم وهكذا استمر هذا الصراع مع الأمراء مع وجود ابن السلعوس بنفوذه الكبير مُقدمًا على أمراء المماليك الكبار بما فيهم نائب السلطان بيدرا.

استمرّ السلطان في فتوحاته ففي جُمادى الأول 691/ 1292 خرج بنفسه، وكان معروفًا بالشجاعة والإقدام لحصار قلعة الروم وهي إحدى معاقل الأرمن على الشاطئ الغربي للفرات. فحاصرها ثلاثة وثلاثين يومًا بالمجانيق وأحدث بأسوارها الثقوب حتى تمكن من فتحها عُنوة في رجب 691/ 1292 وكان سنجر الشجاعي هو القائم بهذا العمل، وكالعادة قتل من كان فيها من المقاتلين الأرمن، وأسر الكثير، وغيَّر اسمها من قلعة الروم إلى قلعة المسلمين. وطبقًا لسياسة المماليك في دعم القِلاع الداخلية –عكس الحصون الساحلية– فبعد فتح القلعة عَهِد السلطان إلى سنجر الشجاعي نائب دمشق – وهو له خبره عظيمة بالعمارة والإنشاء كما رأينا – بإعادة إعمار القلعة وكانت خسائر المماليك محدودة لا تتعدّى اثنين من كبار الأمراء، وبعض الجنود بالطبع على الرغم من شدة مقاومتها.

يذكر بدر الدين العيني أنّه بعد حوالي أسبوعين من الحصار، وشدة المقاومة مع سوء الأحوال الجوية وردت الأنباء بتحرّك جيش مغولي عبر الفرات، فأراد السلطان في مجلس حرب مع الأمراء فضّ الحصار أو تأجيله إلى العام المقبل، فرفض الأمراء الكبار وعلى رأسهم سنقر الأشقر الذي سار بجزء من الجيش لمقابلة التتار على الفرات، وترك الأشرف وباقي الجيش في المحاصرة، ولكن ثبت أنّها خدعة من الأرمن فعاودوا المحاصرة حتى تم النصر. ويبدوا أنّ الأشرف حنق على الأمراء لمعارضته في هذا الأمر (العيني، عقد الجُمان، 3: 113 – 115).

كانت تلك آخر انتصارات الأشرف بالمواجهة المباشرة، فبعد فتح قلعة الروم (المسلمين) أراد السلطان إخضاع قاطني القرى الجبلية في جبال كسروان (هي جبل الدروز الآن) وهم قوم طُبعوا على القتال في الجبال كما هو الآن. يصعب غزوهم، فأرسل إليهم قوة قادها النائب بيدرا – بعد تمنّع – فتمكن الجبليّة (الدروز) من هزيمتها جزئيًا، فآثر بيدرا السلامة، وعقد معهم صلحًا، وعاد سالمًا بجنوده، فاتهمه البعض بتلقّي رشوة من الجبليّة الدروز، ووبّخه السلطان عند لقائه به، فمرض مرضًا خطيرًا، ثم عوفي وربما ترك هذا التوبيخ أثرًا في نفس بيدرا.

بعد هذه المواجهات رأى السلطان الأشرف أنّه لابد له من القضاء على كبار الأمراء الصالحية، وكانوا قد تقدموا في السن ولم يغفر السلطان لسنقر الأشقر قوله في مجلس الحرب أمام قلعة الروم عند حصارها مخاطبًا بيدرا النائب "الحرب هي لعب الصغار"

كما دافع عن البحرية الذين تقدّموا في العمر كلّما هاجمهم السلطان الصغير (العيني، عقد الجمان، 3: 131) ففي شوال 691/ 1292 أو بعده بقليل قبض السلطان على سنقر الأشقر ومعه العديد من الأمراء البحرية الكبار مثل بيبرس صقطو، وزوج ابنته لاجين، وقتلهم جميعًا و لم يفلت منهم سوى حسام الدين لاجين حيث إنّ من تولّى خنقة كان قراسنقر أحد المقربين إليه (أى للاجين) فانقطع الوتر –ربما عن عمد– بعد فترة فطلب لاجين العفو من السلطان، وسانده في هذا بيدرا النائب، فعفى السلطان عنه ربّما لعلمه بأنّه سيموت لا محالة، ولكن لاجين لم يمت ليعود مره أخرى إلى مسرح الأحداث –كما سنرى لاحقًا– وذلك في محرم 692/ 1293.

واصل ابن السلعوس الوقيعة بين السلطان ونائبة بيدرا، فعندما زار الأول قوص والوجه القبلي للكشف عليها أبلغ السلطان أنّ ممتلكات بيدرا أكثر من ممتلكات السلطان، كذلك أنّ الشوّن السلطانية خالية، حين أنّ شون بيدرا مملوءة بالغلال، وتكرّر مثل هذا بعد عام في الإسكندرية ممّا أثار السلطان، وجعله غاضبًا على نائبة ناقمًا عليه، وحاول بيدرا النائب مُراضاة السلطان بلا فائدة.

في عامة الأخير في السلطنة استمر الأشرف في فتوحاته، وكان الأرمن مقصده فعزم على غزوهم، وقام بتعبئة جيشه، ولما علم الأرمن بذلك سارعوا إلى استرضائه، وأعادوا إليه قلعة البهنسا وعدة قلاع أخرى تابعة لها في جنوب الأناضول، وكانت في يد الأرمن منذ الأيام الأيوبية، وفي عصر هولاكو وهذه القلاع في شمال حلب وذات أهمية استراتيجية؛ لأنها تحكم الممرّات المؤدية إلى الأناضول، فاستعادها الأشرف بدون مواجهة عسكرية.

ويبدو أنَّ الأشرف كان يُعِدّ العدّة لعبور الفرات، وغزو العراق، واستعادة بغداد، ففي ذي الحجة 692/ 1293 وردت رسل كيختو خان مغول فارس، فألبس الأشرف جنوده وأمراءه في أحسن صورة، ورتّبهم صفوفًا، وعرضهم أمام سفراء كيختو؛ لإبهارهم. فقابله السفراء ونقلوا له شفاهة رسالة معناها أنّ الخان يطلب من السلطان تسليم حلب، لأنّه يرغب في الإقامة بها حيث إنّ جده هولاكو قام بفتحها فهي في ملكه، وإلاّ فإنّه سوف يزحف بجيشه على الشام، فابتسم السلطان وردّ متهكمًا قائلاً– طبقًا للعيني "الحمد الله الذي وافق أخي القان ما كان في نفسي، فكنت تحدثت مع أمراء دولتي أن أسير طالبًا من أخي بغداد، وإن لم يسمح لي بها ركبت ودخلت بعسكري وخربت بلاده، وقتلت رجاله، وفتحتها قهرًا،

وجعلت فيها نائبًا من جهتي، فإن بغداد هي دار السلام، وأرجو أن أُعيدها للإسلام -كما كانت- ولكن إذا وصلتم إليه عرفوه من يسبق إلى بلاد صاحبة يدخل فيها" (العيني، عقد الجُمان، 3: 187 - 188؛ المقريزي، السلوك، 1: 786) ثم أمر جنوده بالتعبئة والاستعداد والتجهيز لعبور الفرات، واستعادة بغداد، ولا ندري إن كان جادًا في هذا أم لا، حيث إنّ القدر لم يمهله؛ كذلك فإنّ الخان المغولي لم يحاول الهجوم على الشام كما ادّعى.

3 - بداية اضطهاد الأقباط في الدولة المملوكية:

من التطورات الهامة في هذا الوقت هو بدء اضطهاد الأقباط، وإجبارهم على التحول إلى الإسلام، وتغيير سياسة التسامح الديني النسبي، والتي اتبعها كل من الفاطميين والأيوبيين، وكان الكثيرون من أهل الذمّة يعملون بالدواوين السلطانية، ولهم علاقات بالأمراء الخاصكية (أو الجوانية وهم الذين يخدمون حول السلطان كحاشية له، ويقيمون وعائلاتهم داخل القلعة وعادة ما يكونون مُقرّبين له) وحدث أنّ أحد كَتَبة الدواوين من الأقباط اختلف مع تاجر مسلم له دَين على الديوان فسبّه وضربه، مما آثار حفيظة الأهالي، فدافعو عن المسلم، وكادوا يفتكون بالكاتب القبطي لولا أن نجده أحد الخاصكية، ووصلت الضجّة إلى السلطان الأشرف ولّما عرف الخبر وبّخ هذا الخاصكي على حمايته للقبطي، وغضب وطلب من العوام أن يُحضروا إليه سائر الأقباط، وأمر أمراءه ومباشريه (أي مدبرى دواوينه) أن يعرضوا على جميع الكتبة الأقباط الإسلام فإن رفضوا أُمر بإعدامهم، فهرب الكثير منهم فنهب العوام بيوتهم، وأهانوا حريمهم وخصوصًا في منطقة قصر الشمع والكنيسة المعلقّة (مصر القديمة حاليًا) حتى شعر السلطان بخطورة الموقف، فمنع العوام من النهب.

ولكنّه أمر سنجر الشجاعي بحرق الكتبة الأقباط لولا تدخل النائب بيدرا بحجّة أنّ العمل بالدواوين سيتوقّف بدون هؤلاء الكتبة ذي الخبرة، وأخيرًا تمكّن من تخفيف حكم السلطان بأن يعفو على من يدخل الإسلام، ويقتل من يُصر على نصرانيته، وبالطبع أسلم الجميع -على الأقل ظاهريًا- خوفًا من الموت (العيني، عقد الجُمان، 3: 180 - 84) وسنعود إلى قضية أسلمة أقباط مصر في المستقبل، حيث إنّ مصر المملوكية شهدت تحول غالبية الأقباط إلى الإسلام.

يبدو أنّ السلطان بعد هذه الفتوحات الباهرة، وتخلّصه من الكثير من الأمراء الصالحية الكبار، بل وشيوخ العرب في الشام والثروة الكبيرة التي آلت له بتدبير وزيره ابن السلعوس شعر بالثقة، وربّما الغرور وأحسّ أنّ الدنيا أقبلت عليه فاستخفّ بالأمراء الكبار، واستكثر من الخاصكية حوله. وفي آخر عام 692/ 1293 وبمناسبة قرب وضع زوجته أقام حفلات ضخمة من غناء ورقص، ومآدب ممتدة بها جميع أنواع المأكولات والمشروبات، ووزّع العطايا والهدايا على الجميع والمصادر المعاصرة تشير إلى إسرافه الشديد حتى وصلت نفقة تلك الاحتفالات إلى ما يقرب من مائتين أو ثلاثمائة ألف دينار، وهو مبلغ ضخم بجميع المقاييس.

في بداية عام 693/ 1293 ساءت العلاقة بين الأشرف ونائبه بيدرا نتيجة لوقيعة ابن السلعوس، فاستدعى السلطان نائبة، ووبّخه وشتمه وهدّده ثم صرفه. فخاف بيدرا على نفسه فاتفق هو وبعض كبار الأمراء الناقمين على السلطان على قتله، وانتهزوا فرصة خروجه إلى الصيد في خارج القاهرة في الطرانة –من أعمال البحيرة– بدون حراسة فهجم بيدرا ومعه حسام الدين لاجين، وقراسنقر، وسيف الدين بهادر وغيرهم من كبار الأمراء، فأحاطوا بالسلطان وبادره بيدرا، وضربه بالسيف فقطع يده، ثم ضربه حسام الدين لاجين وباقي الأمراء حتى مات، وتركوه في العراء، ورجعوا إلى معسكرهم، وأعلنوا قتل السلطان، وقاموا بتنصيب بيدرا سلطانًا ولقّب بالملك القاهر، أو الأوحد وقيل الملك الرحيم، والمعظّم والعادل، وللمرة الثالثة يقتل الأمراء سلطانهم بعد أن حقق نصرًا عسكريًا كبيرًا، ولكن الأمور تختلف هذه المرة. همّ بيدرا ومن معه بالعودة إلى القاهرة للاستيلاء على القلعة ولكن عندما انتشر نبأ مصرع السلطان اجتمع أمراؤه الخاصكية، وعدد من الأمراء الكبار من غير المتآمرين مع بيدرا وعلى رأسهم زين الدين كتبغا مع قواتهم، فلحقوا ببيدرا ومن معه قبل مغادرتهم البحيرة، واقتتل الفريقان قليلاً، وسرعان ما انفضّ الجميع عن بيدرا، ووجد نفسه وحيدًا وقُتل في ساعته ودُفن بالطرانه وهو مغولي الأصل، وقُتل وعمره واحد وأربعون عامًا. إذن للمرة الثالثة يثور أحد كبار الأمراء، ويعلن سلطنته (بعد علم الدين سنجر الحموي في بداية سلطنة بيبرس، وسيف الدين سنقر الأشقر في بداية سلطنة قلاوون) ولكنّه يعجز عن الاستيلاء على قلعة الجبل بالقاهرة؛ ولذلك لا يدخل ضمن قائمة السلاطين.

خلال سلطنة الأشرف قلاوون القصيرة (ثلاثة أعوام وبضعة شهور) استطاع تحقيق نصرٍ

من أعظم انتصارات الإسلام، بالقضاء النهائي وطرد الفرنجة من الشام؛ لتنتهي في عهده مسيرة طويلة من الجهاد لعدة قرون منذ الدولة الفاطمية مرورًا بالدولة الأيوبية، ويحقُق ما عجز عنه بطلا الإسلام العظام الناصر صلاح الدين، والظاهر بيبرس.

كان الأشرف كثير الحركة من القاهرة والشام كأسلافه شجاعًا شجاعة فائقة (ربما هذا ما أدّى إلى قتله) غير أنَّه كان مغرورًا، سيء الرأي في معاملته للمماليك الكبار، كثير الاستهزاء بهم، كثير الاعتماد على مماليكه الصغار وخواصه الذين تنقصهم الحكمة والكياسة والخبرة، ولو طالت به الأيام ربّما لكان من أعظم ملوك الإسلام.

لم تتعرض الدولة لأزمات اقتصادية أو مجاعات في عهده القصير، وأنشأ لنفسه مدرسة وتربة ذات قبة بالقرب من تُربة شجرة الدر بالخليفة (أثر 275، 687/ 1288) ومشهد السيدة نفيسة، والتي بناها قبل تولّيه السلطنة، وأضيفت إليها مدرسة (اندثرت الآن ونعرف عنها من المصادر المعاصرة) (Behrens-Abouseif, *Cairo of the Mamluks*, 142-3) ولم يدفن مع أبيه (القليل من السلاطين دُفنوا مع غيرهم من السلاطين، ومعظمهم من السلاطين الصغار الدمية).

منشآته المعمارية الأخرى قليلة، نظرًا لقصر مدته واهتمامه بالفتوح، وأهمها الانتهاء من تجديد قلعة حلب، وبعض الأعمال والتوسعات في قلعة القاهرة وفي دمشق على يد علم الدين سنجر الشجاعي المتخصّص في أعمال البناء والإنشاء. كما أنه أوقف أملاكه في عكا وصيدا والسواحل الشامية، والتي آلت إليه بحقّ الفتح على تربة والده والبيمارستان المنصورى في بين القصرين بالقاهرة (المقريزى، السلوك، 1: 756 – 793؛ العيني، عقد الجُمان، 3: 23 – 221؛ النويري، نهاية الأرب، 31: 177 – 267؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 8: 3 – 40).

الفصل الثاني عشر

السلالة القلاوونية (2)

الناصر محمّد - كتبغا - لاجين - بيبرس الجاشنكير

1 - سلطنة الناصر محمّد الأولى - الصراع الخارجي والداخلي:

بعد قتل بيدرا اتفق الأمراء الكبار على تقاسم السلطة، فلم يكن بينهم أمير قوي يدين له الجميع بالولاء، فأخرجوا أخا الأشرف خليل الصغير سيدي محمد من دار الحريم وعمره تسع سنوات، حيث إنّ الأشرف لم يكن له ولد ذكر ونصبّوه سلطانًا، ولقّب بالملك الناصر في محرم 693/ 1293 وهو الأول من خمسة من سلاطين المماليك ممّن يحملون لقب الناصر.

أصبح زين الدين كتبغا نائب السلطنة، وحسام الدين لاجين الرومي (هو غير حسام الدين لاجين الصغير الناجي من القتل في دولة الأشرف، والمتآمر عليه مع بيدرا وكان مختفيًا) أتابك العساكر، وعلم الدين سنجر الشجاعي وزيرًا ومدبرًا للمملكة بدلاً من ابن السلعوس، وتمّت مطاردة واعتقال ثم قتل معظم الأمراء المتآمرين مع بيدرا، ولاقى نفس المصير الوزير السابق ابن السلعوس بتحريض من عدّوه اللّدود سنجر الشجاعي بعد تعذيبه عذابًا شديدًا، لاستخلاص أمواله كالعادة.

سرعان ما تدهورت العلاقة بين النائب كتبغا، والوزير علم الدين سنجر، وانقسم الأمراء إلى فريقين، وانتهت الأزمة بمقتل علم الدين سنجر، وبذلك صار زين الدين كتبغا وأنصاره لاجين وبيبرس الجاشنكير هم أصحاب السلطة وليس للناصر سوى الاسم، وأطلق كتبغا سراح عددٍ من الأمراء، وعفى عن حسام الدين لاجين (الصغير) الهارب هو وقراسنقر المنصوري، ومر عام بدون أحداث هامة سوى عدم انتظام مياه النيل، وقصره عن الوفاء (حين يصل ارتفاعه إلى ستة عشر ذراعًا بمقياس النيل في الروضة، والذي ما زال قائمًا حتى الآن) مما يهدّد بمجاعة، كذلك تمرّد بعض المماليك الأشرفية واحدثوا شغبًا لاعتراضهم على العفو عن لاجين الصغير على الرغم من اشتراكه في مؤامرة قتل أستاذهم الأشرف، ولكن تمّ القضاء على التمرد والشغب.

2 – العادل كتبغا:

شعر زين الدين كتبغا بقوّته وأهليته للحكم، فتحجّج بتمرد وشغب المماليك الأشرفية خليل، وبناء على مشورة لاجين (لخوفه من انتقام الناصر والمماليك الأشرفية) طالب بضرورة أن يتولّي الحكم شخصًا راشد وليس طفلاً، فخلعوا الناصر وأقام الأمراء كتبغا سلطانًا في محرم 694/ 1394 على ألاّ يستبدّ بالسلطة، ويشاورهم في الأمور، ولا يولّي مماليكه المناصب الكبرى على حسابهم، ولُقّب بالعادل، وعيّن حسام الدين لاجين الصغير نائبًا للسلطنة، ووُزّعت النفقة (أي منحة على الأجناد) وخرج السلطان في موكب كالعادة، بعد أن حلف له الأمراء وكبار رجال الدولة بالولاء، وقلّده الخليفة بتقليدٍ رسمي.

العادل زين الدين كتبغا كان مغولي الأصل من صغار عسكر هولاكو. أُسِر في معركة حمص الأولى في 659/ 1260 في الدولة الظاهرية بيبرس، وأصبح مملوكًا لسيف الدين قلاوون، فأعتقه فترقّى في المناصب – على الرغم من كونه مغولي الجنس– حتى أصبح سلطانًا لمصر العدو الأول للمغول. لم يفِ كتبغا بوعده للأمراء، فبدأ في تأمير أربعًا من مماليكه تمهيدًا لتصعيدهم إلى المراكز العليا بالدولة، مما أثار ضيق الأمراء الكبار ليكون هذا سبب زوال ملكه، كما سنرى.

في بداية دولة كتبغا حدثت أُولى المجاعات الكبرى في العصر المملوكي والتي استمرت

حوالي عامين بدءًا من عام 694/ 1294 ولها أسباب عديدة. أول هذه الأسباب هو عدم وفاء النيل لسنتين متتاليين، مما يعنى عدم كفاية إنتاج المحاصيل وخصوصًا القمح لإنتاج الخبز، وكانت الأهراء السلطانية (المخزون الاستراتيجي للقمح) خاوية نتيجة لتبذير السلطان الأشرف خليل، وتفريقه الغلال على أمرائه، وتصادف هذا أيضًا مع عدم هبوط الأمطار في برقة (ليبيا حاليًا) وجفّت آبارها الصحراوية مما دفع أعدادًا كبيرة من أهل برقة إلى النزوح إلى مصر في أعداد كبيرة تصل إلى حوالي ثلاثين إلى خمسين ألف، وإن هلك الكثير منهم في الرحلة. كما تأخّر سقوط الأمطار الطبيعية في الشام والقدس والساحل، مما يعني فوات وقت الزرع، فقلّت الأقوات أيضًا.

بالإضافة إلى هذه الكوارث الطبيعية تسبب سوء الإدارة في تفاقم الأزمة، فحدث تضخّم نتيجة لزيادة المعروض من الدراهم، ولأول مرة بيعت الفلوس (جمع فلس) بالوزن، وليس بالعدد الرطل منها بدرهمين فضة. كذلك جشع واستغلال التجار بالمضاربة على سعر الغلال حتى بِيعت بذور القمح المخصّصة لزراعة الموسم الجديد، فارتفعت الأسعار بشدة حتى وصلت إلى مائة وخمسين درهمًا (عام 694) وإلى مائة وثمانين درهمًا (عام 695) لإردب الغَلّة (السعر المعتاد من خمسة وعشرين إلى ثلاثين درهمًا) فكانت النتيجة حدوث مجاعة شديدة، وتصادف هذا مع حدوث الوباء فمرض الناس أيضًا، ومات الألوف يوميًا، وتختلف المصادر المعاصرة على عدد الموتى من مائة ألف إلى مائة وثمانين ألف شهريًا في عام 695/ 1295 وهبّت ريح شديدة محمّلة بالتراب (خماسين) فأتلفت الزرع الصيفي.

أخذ الناس ينهبون الخبز من الأسواق، وعمّت الفوضى، وانتشرت القصص المعتادة عن العجز عن دفن وتغسيل الموتى لكثرتهم، أو أكل جثث الموتى، وأكل القطط والكلاب والحمير وغيره مما هو معتاد في أوقات المجاعة الكبرى. واضطر السلطان أخيرًا إلى التدخّل ففرض على كل أمير من أمرائه عددًا من الفقراء لإطعامهم، فأمير مائة عليه إطعام مائة فقير، وأمير أربعين أربعين فقيرًا، وهكذا حتى خفّت حدة الأزمة، وعادت الأسعار إلى طبيعتها في نهاية عام 695/ 1295 (لتفاصيل المجاعة انظر: النويرى، نهاية الأرب، 30: 286، 293 - 295؛ المقريزى، السلوك، 1: 808، 815؛ العيني، عقد الجُمان، 3: 300 - 303؛ ابن تغري بردى، النجوم، 8: 60؛ Sabra, *Poverty*, 141-144).

الحدث الثاني في دولة كتبغا هو قدوم طائفة الأويراتية من بلاد المغول ولجوؤهم إلى مصر

والشام في ربيع الأول 695/ 1296 والأويراتية هم قبائل مغولية الأصل من شرق آسيا التي انضمّت إلى لواء جنكيز خان، وحاربت مع جيوش هولاكو، واستقرت في شمال العراق وكان زعيمهم ويسمَّى طرغاي (زوج بنت هولاكو أو أرغون ابنه) اشترك في المؤامرة التي أدّت إلى قتل كيختو خان مغول فارس في العام السابق، فأراد الخان الجديد (غازان أو قازان) القبض عليه، والانتقام منه لقتله عمّه، فهرب طرغاي هو وأفراد عشيرته من الأويراتية وعبروا الفرات في حوالي عشرة آلاف وفي مصادر أخرى ثمانية عشر ألف شخص.

كان كتبغا (والأمير سلار أحد كبار الأمراء) من قبيلة الأويرات هذه أيضًا، فلمَّا علما بهذه الهجرة الجماعية أرسل كتبغا إليهما بعضًا من كبار أمرائه، ورتب لكبرائهم وعددهم يتراوح ما بين مائة وثلاثة عشر إلى ثلاثمائة الحضور إلى القاهرة. أما البقية من الرجال والنساء والأطفال، فمنعهم من دخول دمشق أو غيرها من المدن الشامية، وقام بتوطينهم الساحل بالقرب من عتليت وكانت خرابة مهجورة من بعد طرد فرنجة الشام منها. فأقاموا فيها وقام العديد من أمراء المماليك باستخدام أولادهم، أو التزوج من نسائهم، وكانوا مشهورون بالجمال. ودخل الكثير منهم دين الإسلام حتى تفرّقوا في البلاد واختلطوا بباقي العباد.

أما أمراؤهم فقد أحسن كتبغا استقبالهم وأظهر الحفاوة بهم؛ لأنّهم من نفس جنسه، واضطر سائر الأمراء إلى مجاراته في الظاهر على الأقل. كما منح رئيسهم إقطاعًا ورتبة متوسطة (أمير أربعين) ورتبًا وإقطاعات أخرى أقل لباقي أمرائهم. وقد بغضهم باقي الأمراء المصرية في الباطن، لحظوتهم عند السلطان وأيضًا لعدم إسلامهم. فكانوا يأكلون جهرًا في رمضان، ويقتلون الجياد ضربًا على رأسها لأكلها بدون ذبح -كما ينص الشرع- وغيرها من عادات المغول والتي لا تتفق مع الدين الإسلامي. وكان ترحيب السلطان لهم من أسباب نقمة الأمراء عليه، تمّ خلعه بعد مدة قليلة.

يُلاحظ أنّ هذه هي الهجرة الجماعية الثانية للمغول إلى مصر خلال هذا العصر (الأولى في دولة الظاهر بيبرس الذي أحسن أيضًا استقبالهم -مع إنّه لم يكن مغوليًا- ولكن المغول والأتراك يُعتبرون من الأجناس المتشابهة) كذلك أراد المماليك استغلال مهاراتهم القتالية العالية ويُسمَّى هؤلاء بالوافديه وهناك فرق بين المغول الوافدية، والمماليك المغولية. فالوافدية حضروا كبارًا، و لم يتحوّل معظمهم إلى الإسلام. عمد كل من بيبرس، وكتبغا إلى تفريقهم بين الجنود المملوكية، و لم يصلوا إلى الرتب العليا أبدًا؛ وذلك لعدم كمال الثقة فيهم. أما المماليك

المغولية مثل كتبغا وسلار، وبيدرا وغيرهم، فكانوا رقيقًا وتحوّلوا إلى الإسلام صغارًا، ثم أعتقوا وترقّوا في المناصب كغيرهم من المماليك ذوي الأصول التركية أو الشركسية أو الأوروبية. أمّا طائفة الأويرات فقد استمرت في نفوذها إلى نهاية عصر كتبغا وبعد عزله قُبض على قوادهم، وأرسلوا إلى الإسكندرية و لم يُعرف مصيرهم بعد هذا، وتفرّق عامتهم في خدمة الأمراء، وذابوا في المجتمع المصري (Ayalon, *EI²*, 11: 26-27).

تضافرت عدة عوامل لإثارة نقمة الأمراء على العادل كتبغا منها تقديمه لمماليكه رغمًا عن وعده، فأحاطوا به وعزلوه، وتكبّروا على باقي المماليك، واستغلّوا نفوذهم لمكاسب شخصية. لا شك أنّ المجاعة والغلاء السابق الإشارة إليهما، وعدم قدرة السلطان على القضاء عليهما في مهدهما أفقدت السلطان شعبيته، وكذلك نقمة الأمراء على الوافدية المقرّبين منه، وأخيرًا أطماع نائب السلطنة حسام الدين لاجين، والذي كان مُتآمرًا بطبعه على ما يبدو.

توجّه السلطان إلى دمشق على عادته، وعند عودته بجيوشه المصرية عسكر بالقرب من قرية صغيرة في فلسطين، فاتفق حسام الدين لاجين مع جمع من الأمراء على قتل كتبغا، وحاولوا اقتحام خيمته فلم يتمكّنوا، فقتلوا مجموعة من مماليكه الخواص. لما أحسّ كتبغا بالمؤامرة استولى عليه الفزع، وهرب من المعسكر طالبًا النجاة بحياته، و لم يحاول المقاومة وذلك في محرم 696/ 1296 والتجأ إلى دمشق محاولاً استبقاء ملكه ولكن سبق السيف العزل إذ عاد حسام الدين لاجين إلى القاهرة وتسلطن، وتلقب بالملك المنصور، فلمّا علم أمراء وأهل دمشق بذلك تفرّقوا عن كتبغا، وتخلّى عنه الجميع فاضطرّ للإذعان للأمر الواقع، وخلع نفسه في مجلس بدمشق، وطلب الأمان من لاجين الذي عفى عنه، وقلّده ولاية مدينة صرخد الصغيرة. استمر كتبغا بها سنوات، ثم نُقل إلى ولاية حماة، واشترك في الحروب ضد المغول وعومل كغيره من الأمراء، بعد أن كان سلطانًا في سابقةٍ هي الأولى من نوعها حتى توفّي كهلاً في حماة في ذي القعدة 702/ 1303.

فترة حكم كتبغا كانت قصيرة ومعظمها محن من غلاء ووباء وغيره، فلم تُتح له الفرصة للبناء والتشييد، فلم يقم ببناء مدارس أو غيره سِوى تربة صغيرة له في سفح جبل قاسيون، والتي دُفن فيها بدمشق ومشروع آخر بالقاهرة هو ما يُعرف بـحكر الخازن؛ وذلك خلال مجاعة عام 695/ 1395 وهي قطعة أرض بالقرب من الجامع الطولوني، ومجاورة لبركة الفيل (بالقرب من ميدان القلعة حاليًا) كانت إسطبلاً للمماليك السلطانية، فحوّلها إلى ميدان،

فأنشأ الأمراء حوله دورًا وأماكن ومناظر، وبذلك عمّرت تلك المنطقة ونُسبت للخازن؛ لأنّ أول أمير أنشأ فيها كان اسمه سنجر الخازن، فسمِّيت تلك المنطقة بـحكر الخازن (العيني، عقد الجمان، 3: 303) وهذا نموذج سوف يتكرّر كثيرًا في العصر المملوكي، حيث يقوم أحد السلاطين أو الأمراء بتعمير إحدي المناطق الخالية حول مدينة القاهرة، عوضًا عن بناء مدينة جديدة.

3 - المنصور لاجين:

تسلطن حسام الدين لاجين الصغير، وكان من مماليك المنصور قلاوون (لا نعرف من هو حسام الدين الكبير) في محرم 696/ 1296 ولُقّب بالمنصور بشروط كالعادة منها أنّه لا ينفرد برأيه عن الأمراء، ولا يمكّن مماليكه من الأمراء الكبار – كما حدث مع كتبغا من قبل– وحلف الجميع على ذلك، واستقرّ قراسنقر المنصوري نائبًا للسلطنة، وعند بداية سلطنته قرر إخراج السلطان السابق الصغير الناصر محمد من القلعة، وكان مقيمًا فيها مع أمه تحت الحراسة، وأرسله إلى الكرك حتى يتسنّى له الحرية والحركة، ورتب له ما يكفيه من أموال وأعوان، كما أعاد الملك المسعود خضر بن بيبرس ووالدته من المنفى بالقسطنطينية حيث إنّه كان متزوجًا بأخته. وكالعادة أفرج عن الأمراء الكبار المحبوسين وعددهم حوالي خمسة وعشرين أميرًا منهم الأمير بيبرس الجاشنكيز (السلطان فيما بعد) وإن كان ندم على إطلاق سراحهم ففرّقهم بالأقاليم، كما أطلق سراح الخليفة العباسي والذي فُرضت عليه الإقامة في برج من أبراج القلعة، وسُمح له بالنزول إلى القاهرة، ورتّب له سكن بقلعة الكبش (بالقرب من شارع الصليبة حاليًا) وأموال وخدم، وسمح له بالحج هذه السنة.

بالطبع الغرض من كل هذه الأعمال استمالة خواطر الأمراء والرعية، ورتب أمور السلطنة من تعيين نُواب ووزير وقضاه وخلافه. كما خفّت حدة الوباء والغلاء، وعادت الأسعار إلى عادتها. ويُعيد التاريخ نفسه ففي خلال شهور تحديدًا في ذي القعدة 696/ 1297 يعزل السلطان نائبة الأمير شمس الدين قراسنقر، ويقيم مملوكه الأثير منكوتمر نائبًا للسلطنة مرة واحدة على الرغم من صغر سنة، وشخصيته الذميمة والمكروه من غالب الأمراء لحدّته وسوء خُلقه. ولكنّه الواقع المملوكي ونقطة الضعف بين الأستاذ ومملوكه –كما هي العادة– بين الأب والابن الذي لا يرى مساوئ ابنه وعيوبه، ويقدّمه على غيره بدون وجه

حق. قبض السلطان على الكثير من الأمراء الكبار المنصورية مثل بدر الدين البيسرى على الرغم من ولائه له ولكن بوقيعة نائب السلطنة منكوتمر، حيث كان يطمع أن يكون وليًا لعهد السلطان، لأنّ لاجين لم يُنجب أولادًا ذكورًا، و لم يوافق بيسرى على هذا، وتزامن القبض مع الموت المفاجىء لعدة أمراء، فأُشيع أنَّ السلطان دسَّ لهم السم.

ثمّ أقدم السلطان على أهم أحداث دولته في جُمادى الأول عام 697/ 1298 وهو الروك الحسامي. والروك كلمة قبطية من الأصل راك ومعناها الحبل، ويُقصد بالروك مسح وقياس كافة أراضي القُطر المصري، لتحديد خراجها (عائدها)؛ لتوزيعها على السلطان والأمراء والجنود أصحاب الإقطاعات، حيث إنّ الحبل كان هو أداة القياس في هذا الوقت. كانت العادة أن تُقسَّم جميع أراضي القُطر بعد حصرها إلى أربعة وعشرين قيراطًا يخصّص عائد أربعة قراريط منها للسلطان، وعشر قراريط إلى الأمراء، والعشر قراريط الباقية إلى أجناد الحلقة، وتوزّع الأراضي كإقطاع إلى مستحقّيها مقابل خدمتهم للدولة والجيش. فندب السلطان بعض الأمراء ومن لهم خبرة في مسح وقيد الأراضي، فأنجزوا هذا العمل في مدة قصيرة خلال تلك السنة، وبدأ في توزيع المثالات (مستند إسناد الإقطاع إلى صاحبه) على مستحقّيه.

يبدو أنّ السلطان ونائبة استأثرا بأجود الأراضي، وأنَّ ريع الأراضي الأخرى المخصّصة للأمراء والجنود قد نقصت قيمة عائدها عن السابق، مما أثار استياء الأمراء وأظهروا التذمر، فعزم السلطان على إرضائهم غير أنّ النائب منكوتمر منعه من ذلك، وتعامل مع الأمراء بخشونة وقبض على بعض من احتجّ على نصيبه، طبقًا للروك الجديد، وكان هذا التذمّر من أهم أسباب سقوط دولة لاجين وقتله.

أعرض هنا اختصارًا لحادثة تنمّ عن احترام السلطان للشريعة الإسلامية– فقد مات رجلاً ميسورًا، فطلب منكوتمر نائب السلطنة من قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد عن طريق أحد الحجّاب إثبات أنّ الوريث الشرعي الوحيد هو أخو المتوفّي بدون إثباتٍ شرعي، فرفض قاضي القضاة تنفيذ هذا الطلب فاستدعاه منكوتمر لمقابلته، فرفض الحضور إليه وخلع نفسه من ولاية القضاء، والتزم منزله، فلمّا علم السلطان هذا أنكر فعلة منكوتمر –على الرغم من قربه منه – واستدعى قاضي القضاة فصعد إليه بالقلعة بعد ممانعة وأعاده السلطان إلى الولاية بعد ضغط بدون تنفيذ طلب النائب بالطبع، ومثل هذه الأحداث تتكرر كثيرًا.

في أوائل عام 698/ 1298 بدأ منكوتمر مؤامرة للتخلّص من الأمراء الكبار في الشام، بعد أن سبق له التخلّص منهم في مصر وعلى الأخص الأمير قبجق نائب الشام، والأمير بكتمر السلحدار وغيرهم من كبار الأمراء؛ لتعيين مماليكه بدلاً منهم فما كان من هؤلاء الأمراء إلا الهروب عبر الفرات، واللجّوء إلى غازان خان مغول فارس.

وفي ذلك الوقت أصرّ منكوتمر على إخراج أحد كبار الأمراء واسمه طغجي إلى طرابلس كنائبٍ للسلطان (لاحظ أنّ الكثير من أسماء الأمراء التركية فيها خلاف من ناحية الهجاء والنطق، حتى بين المصادر المعاصرة ولكن هذا موضوع طويل لا مجال للخوض فيه هنا) ورفض طغجي، وتحجّج بمرضه وتوسّط للسلطان عن طريق أميرٍ آخر يُسمَّى كرجي (من الملازمين للسلطان في نوبة الحراسة) وكبار الأمراء مثل سلار وبيبرس الجاشنكيز، قبل السلطان واسطتهم، وألغى أمر خروج طغجي ممّا أغضب منكوتمر.

هنا بدأت المؤامرة لقتل السلطان ومنكوتمر نائبه، ففي مساء العاشر من ربيع الآخر 698/ 1299 وكان السلطان يلعب الشطرنج مع بعض إخصائه، وكرجي هذا عليه النوبة في الحراسة بالقلعة، فهجم عليه هو وآخرون متآمرين معه، وقتلوا السّلطان أمام أخصائه وتركوه، وخرجوا لمقابلة طغجي، وتوجهّو إلى منكوتمر بدار النيابة بالقلعة مع عدد من الجند، وقتلوه أيضًا. في الحقيقة أنّ الأمراء لم تكن ترغب في قتل السلطان بل في قتل منكوتمر؛ ولكنَّهم أيقنوا أنَّ السلطان سيعاقبهم لا محالة لو قتلوا منكوتمر، ولذلك عمدوا إلى قتله أولاً. كانت مدة السلطان سنتين وثلاثة شهور، ودفُن بمقبرةٍ له بالقرافة الصّغرى هو ومملوكه منكوتمر، ولا نعرف موضعها حاليًا.

المنصور حسام الدين لاجين هذا يمثّل الشخصية المملوكية بكافة تغيراتها ومتناقضاتها، ففي شبابه -كان أشقر، رشيقًا جميل الشكل- كان معاقرًا للخمر، ومفرطًا في اللّهو والملذات، ومُولعًا بالصيد حتى حين كان نائبًا على دمشق وهي من أجلّ المناصب بعد السلطنة نفسها. وكان أيضًا مُتآمرا اشترك في قتل الأشرف خليل، وخان عهد كتبغا بعد أن أحسن إليه وخلعه؛ ولكنّه لم يقتله وحين تولّى السلطنة تغير تغييرًا جذريًا، فأعرض عن اللهو والشراب وتواضع في زيّه، وصام شهري رجب وشعبان، وتصدّق سرًا بالكثير، وكان حسن العشرة، متواضعًا مع العامة يأكل معهم. شعر بوخز الضمير لقتله الأشرف، وكثيرًا ما ردّد أنّ من قتل يُقتل، ويبدو أنه أراد أن يحتجب عن الحكم، ففوض أمور الدولة إلى نائبة منكوتمر،

وكان الأخير على الرغم من سوء معاملته للمماليك وحدّته وصلفه حازمًا عازمًا قادرًا على تدبير الدولة، أمينًا عازفًا عن المكاسب الشخصية. وهذا الاحتجاب لم يكن مقبولاً من سائر الأمراء، لكراهيتهم لنائبه ومملوكه الأثير فدفع السلطان حياته ثمنًا لهذا العمل.

كانت الدولة الحسامية قصيرة استغرقتها الكثير من الصراعات والمشاكل الداخلية، فشغلتها عن الفتوحات الخارجية التى اقتصرت على حملة واحدة لغزو سيس عاصمة الأرمن في الأناضول. فقد انتهز السلطان الخلافات داخل دولة مغول فارس، فأرسل حملة كبيرة يقودها مجموعة من الأمراء في جُمادى الآخر 697/ 1298 وعلى الرغم من اختلاف أمراء الحملة و لم يكن لهم قائد عام متغلبًا على غيره إلا أنّهم تمكّنوا من الاستيلاء على عددٍ من الحصون الأرمنية يبلغ عددها حوالي أحد عشر حصنًا، وعادوا منتصرين.

كذلك أعمال الإنشاءات الداخلية كانت قليلة لا نعرف حركة بناء في تلك الدولة سوى تجديد الجامع الطولونى في بداية الدولة، وكان هذا الجامع قد أُهمل وخُرِّب وتوقف التدريس به، وتوقفت إقامة الشعائر فاختبأ في خرائبه حسام لاجين عند هروبه بعد مقتل الأشرف خليل، وأقسم بأن يُعمرِّ هذا المسجد إن أصبح سلطانًا. فأوفى بالعهد عند بداية عهده، فجدّد عمارته بالكامل في 696/ 1296 وأضاف إليه الميضأه (الفسقية) في حوش الجامع، وجدّد محرابه الرئيسي بالفسيفساء (الموزايك) المذهب، وأضاف محرابًا جانبيًا، وأضاف قبة فوق مقصورة المحراب. اختلف العلماء على مِئذنة الجامع ذات السُلّم الخارجي - النموذج الوحيد بالقاهرة- إن كانت هي من عمل حسام الدين لاجين، أم من أجزاء الجامع الأصلية كما أنّه أعاد الشعائر إلى الجامع، وأوقف عليه أملاكًا، ونظّم حلقات التدريس به على سابق عهده (حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد المصرية، 32 - 46).

4 - سلطنة الناصر محمّد الثانية وعودة المغول:

بعد قتل السلطان ونائبة استقر رأي الأمراء المتآمرين بزعامة طغجي، وكرجي مع الأمراء الكبار الآخرين المقيمين بالقلعة، ومعظمهم من الأمراء المنصورية خشداشية (زملاء) لاجين على إعادة السلطان السابق الناصر محمّد إلى السلطنة على أن يتولّى طغجي النيابة. غير أنه يبدو أنّ طغجي هذا طمع في السلطنة لنفسه على أن يكون كرجي نائبًا له، وتباطأ في

الإرسال لعودة الناصر محمّد وأبدي شرهًا في المخصّصات السلطانية على الرغم من عدم استقراره في السلطة بعد. عندئذ انقسم الأمراء بين مؤيد لطغجي، وكرجي ومعظمهم من المماليك الأشرفية (مماليك السلطان الأشرف خليل) والذين بالطبع ابتهجوا لمقتل حسام الدين لاجين قاتل أستاذهم الأشرف خليل، والفريق الثاني يريد عودة الناصر محمد. واتفق في هذا الوقت عودة الحملة التي كانت مجرّدة على سيس وبلاد الأرمن، على رأسها سيف الدين بكتاش أمير سلاح (وهو من كبار الأمراء المنصورية). ولما علم باغتيال السلطان غضب غضبًا شديدًا ودعا الأمراء للذهاب إلى لقائه خارج القاهرة –كما جرت العادة– عند عودة القادة المنتصرين، فتردّد طغجي في الخروج، وأخيرًا تحت ضغط باقي الأمراء خرج مع جمهرة الأمراء للقاء بكتاش، وحينئذ نفّذ الأمراء خُطّتهم، وقتلوا طغجي، وعادوا إلى القلعة، وتمكنوا من كرجي ومن معه وقتلوه أيضًا. هكذا وللمرة الثانية لم يتسلطن قاتل السلطان، بل يُقتل انتقامًا لما فعله.

استقر رأي بكتاش وباقي الأمراء المنصورية، ومنهم عز الدين أيبك الخازندار، وسيف الدين سلار، وركن الدين بيبرس الجاشنكيز، وغيرهم على عودة السلطان الناصر من الكرك، وأرسلوا فعلاً إليه على أن يكون عز الدين إيبك الخازندار نائبه، وذلك في اجتماع كبير. وحدث في هذا الاجتماع حادث طريف يُلقي الضوء على تلك الشخصية المملوكية المُعقدة، والمتناقضة في مفاهيمهم الأخلاقية. فخلال هذا الاجتماع الهام – برئاسة أيبك الخازندار النائب – ألحّ النائب في إحضار أحد مماليك طغجي المقتول بدون إبداء أسباب غير أنّه يبدو أنه كان يعشقه من مدة، فلمّا أحضروه لم يتمالك النائب نفسه، وأمسكه من شعره وترك الاجتماع واختلى به في منزلة دون حياء. أثارت تلك الفعلة دهشة واستياء باقي الأمراء، وأدركوا سوء رأي النائب وقلّة خلقه، فعزلوه وعيّنوا الأمير سيف الدين سلار نائبًا بدلاً منه.

ظاهرة عشق الصبيان، والشذوذ الجنسي بين المماليك خارج نطاق هذه الدراسة؛ ولكنّها بالطبع كانت موجودة ومنتشرة كما سيتمّ الإشارة إليها في الفصول القادمة. وكما يبدو من هذه الحادثة المشينة أنّ هذا السلوك غير مقبول بل ومكروه. كما تبين هذه الأحداث أيضًا قوة ونفوذ الأمراء المنصورية (قلاوون) وسيطرتهم الكاملة، والصراع الداخلي فيما بينهم وهو الأمر الذي سيُوجّه الأحداث في العشر سنوات القادمة، بل تتعدّاها. ومن الغريب أيضًا أنّ الأمراء لم تطرح فكرة عودة العادل كتبغا إلى السلطنة مرة أخرى، على الرغم من أنّه كان

مازال نائبًا على صرخد، ربما لعدم رضاهم عن فترة حكمه أو لنفورهم منه، لعدم دفاعه بجدّية عن سلطنتة، بل استسلم بدون مقاومة لإنقاذ حياته وحياة أولاده وأتباعه وأمواله، وطبيعة الأمراء المملوكية تنفر من هذا الخنوع؛ نظرًا لتربيتهم العسكرية التصادميه (النويري، نهاية الأرب، 31: 313 - 370؛ المقريزى، السلوك، 1: 820 - 872؛ العيني، عقد الجُمان، 3: 345 - 449؛ ابن تغري بردي، النجوم، 8: 85 - 114).

أرسل الأمراء في استدعاء الناصر محمد من الكرك، فوصل القلعة بالقاهرة، ونُودي به سلطانًا في الثاني عشر من جُمادى الأولى 698/ 1299 وعمره أصبح الآن أربعة عشر عامًا. قبل قدومه أدار شئون الدولة الأمراء الكبار مجتمعين، وكان يوقِّع على التقاليد أحيانًا ستة منهم أو ثمانية (وسيتكرر هذا كثيرًا في المستقبل، وأحيانًا يُسمَّى مجلس المشورة، ويقابله اليوم مجلس الوصاية، وإن كان الأخير يقتصر على حالة وجود سلطان صغير دون سن الرشد، أمّا الأول فقد يكون أيضًا مع سلطانٍ رشيد السن). ثم استقرت الأوضاع بالنائب سلار، وبيبرس الجاشنكيز استادار. (أي المتحدث على البيوت والقصور السلطانية) وتولّى باقي الأمراء المنصورية الكبار معظم المناصب الكبرى الأخرى.

كانت الأعوام الخمسة الأخيرة فترة قلاقل، وعدم استقرارٍ داخلي مما أطمع فيها القوى الخارجية من أعداء مصر من الفرنجة والمغول. أما الفرنجة فكما ذكرنا لم يعد لهم قواعد في الشرق الإسلامي -كما في السابق- وأيّ حملة صليبية جديدة تحتاج إلى جهدٍ ومالٍ كثير، و لم يكنٍ لهم رغبة بذلك بالإضافة إلى الانشغال بمشاكلهم الداخلية، ومنازعاتهم الأوروبية، فلم يشكلوا خطورة حقيقية سوى قيامهم بغارة بحرية في شعبان 698/ 1299 على بيروت قضت عليها الرياح، فلم تتمكن قواتهم من النزول أساسًا إلى البر.

أما المغول فكان لهم شأن آخر شديد الخطورة حيث إنّهم لم يتخلّوا عن أطماعهم في القضاء على مصر المملوكية على الرغم من هزائمهم. نعرض اختصارًا لشئونهم الداخلية من بعد وفاة الخان أباقا بشهورٍ قليلة من هزيمته في حمص الكبرى على يد المنصور قلاوون عام 1282 ودخلت الدولة الأُليخانية (مغول فارس) في مرحلة صراع وتمزّق داخليّ، وحروبٍ خارجية في الشمال مع مغول القبجاق -كما تسميّهم المصادر المَملوكية المعاصرة (أو القطيع الذهبي بجنوب روسيا) خفّفت من حدّة ضغوطهم على مصر المملوكية، مما أتاح لها فرصة توجيه ضربات نهائية لفرنجة الشام. خليفة أباقا الأيلخان أحمد على الرغم من تحوّله إلى

الإسلام لم يتمكّن من عقد تحالف مع مصر -كما عرضنا سابقًا، وقُتل سريعًا وحلّ محلّه الأيلخان الجديد أرغون عام 1284، ولكن سياسة وزيره اليهودي سعد الدولة أوقعت الدولة في أزمة مالية شديدة مع قلاقل داخلية كذلك لم يتمكن أرغون من عقد أيّ تحالفات مع فرنجة الشام أو أوروبا، رغم محاولاته العديدة خلال هذه الفترة الحاسمة من تاريخ المغول.

عند وفاة أرغون عام 1291 أصبح أخوه جيكتو خانًا جديدًا، وتزامن هذا مع سلطنة الأشرف خليل، ودخل معه في حرب كلاميه بالرسائل بدون نتائج، و لم يتمكّن جيكتو من التغلّب على الأزمة المالية، بل زادت سوءًا نظرًا لإدخاله العملة الورقية -على النظام الصيني- لأول مرة في الشرق الإسلامي، ولكنّه اضطر إلى إلغائها بعد شهور قليلة. و لم يكن الخان جيكتو سيء التدبير فقط، بل كان فاسقًا أيضًا فتعدّى جنسيًا، واستباح أبناء وبنات رعاياه من المغول؛ فلذلك سرعان ما قُتل وخلفه في الحكم الأيلخان بيدو لشهورٍ قليلة.

الأزمة الاقتصادية والمالية كانت قد استحكمت مما أدّى إلى انهيار الزراعة ونظام البريد المغولي المميز، واستفشى التضخّم المالي مع انهيار الأمن الداخلي وتوقّف التجارة. تزامن هذا – أو بسببه – ظهور التهديد الخارجي من القطيع الذهبي شمالاً ومصر غربًا. بعد شهورٍ قليلة من تلك الفوضى قُتل بيدو أيضًا، وأصبح غازان بن أرغون الأيلخان الجديد في نوفمبر 1295 (نهاية 695) ليبدأ حركة إصلاح جديدة بمساعدة وزيره النابه المؤرّخ رشيد الدين الهمذاني (645/ 1247 - 718/ 1318) والذي تمكّن من إعادة النظام والقانون مرة أخرى بإعادة بناء النظام الإداري والزراعي والتجاري للدولة (Spuler, *EI*², 3: 1122).

كان غازان خان بوذي الديانة، ولكنّه تحول إلى الإسلام قبل توليّه العرش، وأطلق على نفسه اسم محمود – ربما تحت تأثير قائده المسلم فيروز – ويبدو أنّ تحوّله للإسلام كان جادًا عن إيمانٍ وبإخلاص، فلمّا تولّى العرش أطلق على نفسه لقب بادي شاه الإسلام (أي سلطان الإسلام بالفارسية) وأعلن الإسلام دينًا رئيسيًا لدولة مغول فارس (الدولة الأيلخانية). وصبغ مؤسّساتها بالصبغة الإسلامية ولأول مرة تُصبح الدولة الأيلخانية على دين مواطنيها، فغيّر من بعض قواعد الياسا؛ لتتماشى مع الدين الإسلامي. كما أغلق المعابد البوذية، وحطّم تماثيلها كذلك المعابد المجوسية لعبدة النار. كذلك أكثر من بناء الجوامع والمدارس والحمّامات، ومنع الناس من احتساء الخمر علنًا، وقبض على السكارى وإن استمرّ هو نفسه في شرب الخمر لدرجة السّكر.

هذه الإصلاحات الجذرية أدّت إلى إنعاش اقتصاد وزراعة الدولة الإيلخانية، وزيادة مواردها وامتدت يد الإصلاح إلى الجيش أيضًا، فطور قوة فرسانه بالتدريب المستمر. وزودهم بالأسلحة على نفقة الدولة - كان كل جندي مسئولاً عن تسليح نفسه في السابق - فأصبح الجميع مزودًا بآلات الحرب المعروفة مثل: السيف والرمح والقوس والخنجر من أجود الأنواع. كما طوّر الزيّ العسكري ليصبح مدرعًا؛ لتوفير حماية أكبر للجنود في وقت المعركة. كذلك أكثر من إنتاج الأسلحة بحيث يستطيع تسليح عشرة آلاف فارس من الصناعة المحلية، واهتمّ بجودتها واستيراد ما ينقص الجيش من الخارج. واهتمَّ بتقوية جياده ليقلّ عددهم في المعركة عن طريق توفير العلف للتغذية، بدلاً من إطلاقهم بالمراعي للبحث عن الغذاء كما كانت العادة في السابق (Waterson, *Knights of Islam*, 202-205; Barthold- [Boyle], *EI²*, 2: 1043).

مرة أخرى أصبحت دولة مغول فارس مُهَيَّأة للمواجهة مع مصر المملوكية من الناحية الاقتصادية والعسكرية والسياسية. تزامن هذا مع فترة قلاقل في الدولة المملوكية نتيجة لقتل لاجين، وعودة السلطان الصغير الناصر محمد؛ كذلك لجوء بعض كبار الأمراء المماليك مثل قبجق (كان تركي الجنس، وليس مغوليًا) نائب الشام وبكتمر السلحدار وأمراء آخرين يصل عددهم إلى ثلاثمائة - كما أشرنا سابقًا خوفًا من لاجين ونائبه - إلى غازان ودعوتهم إياه إلى غزو مصر وتهوين الأمر عليه. بالإضافة إلى استفزاز المماليك للمغول في حملات لاجين على الأناضول الخاضعة لنفوذ المغول، ومساعدتهم لبعض الأمراء المتمردين ضد غازان مثل سلامش الذي لجأ إلى مصر، فساعده السلطان بعسكرٍ نهب به سلامش بعض مدن الأناضول، وماردين على الأخص مما أثار غضب غازان.

هذه الأسباب مجتمعة دفعت غازان إلى تجديد محاولات المغول لغزو الشام، فقُدّر للناصر محمد في بداية عهده الثاني إلى الدخول في مواجهة مصيرية مع المغول تعرّض خلالها إلى ثلاث حملات شرسة في ظرف عامين. لحسن الحظ فإنَّ سنوات الصراع الأخيرة بعد قتل الأشرف، وإن كانت أسفرت عن فترة ارتباك شديد مع فقد بعض الأمراء بالقتل، أو الهروب، ولكن هذا الصراع الداخلي لم يتطور إلى حربٍ أهلية، وبذلك ظلّت القوة العسكرية وآلة الحرب التي أنشأها بيبرس وخلفاؤه كما هي، وعلى درجةٍ عالية من الاستعداد.

بدأت حملة غازان الأولى تحت قيادته، فتحرّك من تبريز (في شمال غرب إيران الآن) في المحرم 699/ 1299 وهنا تحدث مفارقة تاريخية للمرة الأولى في المواجهة المغولية

المملوكية، لأنّ غازان كان مسلمًا، والناصر محمد مسلمًا أيضًا، فكيف يحارب المسلم أخاه المسلم؟ فلجأ كلّ منهم إلى فقهاء الإسلام، لتبرير هذه الحرب وحصل كل منهم بالطبع على الفتوى المطلوبة لها باسم الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

أرسل غازان مقدمة جيشه تحت قيادة أبرع قواده قتلج شاه، وعبر هو الفرات مع باقي جيشه حتى وصل قرب حمص، وتحاشى موقع معركة حمص الكبرى، وانتظر المصريون في مكانٍ من اختياره قريبًا من مصدر المياه، وذلك في منتصف ربيع الأول 699/ 1299.

أما المصريون فلمّا علموا بخروج غازان إلى الشام خرج الناصر محمد بالجيوش المصرية وأمراؤه في محرم 699/ 1299 مُتوجهًا إلى الشام، وفي غزة حدثت فتنة بين الجنود نتيجة لتآمر بعض الأمراء الأويراتية، ومحاولتهم قتل كل من سلار نائب السلطنة، وبيبرس الجاشنكيز الاستادار وهما مدبّرا الدولة، وكان هدفهم خلع السلطان، وعودة العادل كتبغا للسلطنة، وفشلت المؤامرة وقبُض على حوالي خمسين من الأويراتية وشُنقوا، ولكن هذه الأحداث أبرزت جو الشك والانقسام، حيث ظنّ السلطان وأمراؤه الخاصكية أنّها مؤامرة لقتله؛ وظنّ الأمراء البرجية وسلار أنها مؤامرة من قبل أمراء السلطان ولكنّ الجميع تدارك الأمر، وتوجهوا إلى دمشق ببطء شديد، فوصلوا إليها بعد حوالي شهرين في ربيع الأول 699/ 1299 ثم رحلوا عنها في اتجاه حمص حيث كانت الجيوش المغولية تنتظرهم.

في يوم الأربعاء الموافق الثامن والعشرين من ربيع الآخر 699/ 1300 ظهرت طلائع المغول، فأسرعت الجيوش المملوكية للقائها بدون راحة في موقع يُسمّى مجمع البروج، أو وادي الخازندار، ثم بدأت في ترتيب نفسها ميمنة وميسرة وقلب به كل من السلطان وسلار، وبيبرس (أُصيبَ بوعكة إسهال فاعتزل المعركة) ويذكر المقريزي أنّ الجيش المملوكي كان عشرين ألف مقاتل مقابل مائة ألف مغولي، وبدأت المعركة في منتصف النهار، فهجمت ميسرة المسلمين على ميمنة المغول، وألحقت بها الهزيمة، وقتلت منهم خمسة آلاف جندي -على ما يقال في المصادر المملوكية- فانضمّ ما بقي منهم إلى القلب غير أنّ ميسرة المغول ظلّت ثابتة، واستطاعت قتل العديد من خيول ميمنة الجيش المملوكي ودحره، وهزيمة العربان المحاربة في صف الجيش المملوكي وتفرقتهم.

أما غازان في القلب المغولي كان قد أوشك على الهرب لولا أنّ قبجق (الأمير المملوكي الهارب إلى المغول) طلب منه الثبات حتى التفَّ حوله العديد من جنوده، فعاد بقوة إلى

المعركة، واستطاع هزيمة قلب الجيش المملوكي الذي سارع بالفرار. وكان الناصر محمد يراقب المعركة عن بُعد فلمّا عاين الهزيمة انسحب من ميدان المعركة مع جمع قليل من أمرائه ثم حل الظلام وتوقّفت المعركة بعد هزيمة المصريين وهربهم. ولكن المغولَ كابدوا خسائر فادحة تفوق خسائر المماليك المصرية كثيرًا، ولم يقم غازان بمطاردة فلول الجيش المهزومة بجدية (ربما لكثرة قتلاه أو لظنّه أنّ الانسحاب خدعه) واكتفى بما حصل عليه من غنائم وأسلحة والخزائن السلطانية، وسار إلى دمشق.

لمّا وصل غازان إلى دمشق طلبت الأمان منه عن طريق وفدٍ من الفقهاء بينهم الإمام الشهير تقي الدين بن تيمية الذين التقوا بـغازان، فأعطاهم الأمانَ على أرواحهم وأموالهم، وكان صادقًا في أمانه هذه المرة، ولكن بالطبع لم يخلُ الأمر من الكثير من التجاوزات من نهبٍ وسلبٍ، وقتلٍ لبعض الأهالي، واحتلّ المغول دمشق مرةً أخرى وولّوا عليها الأمير قبجق كنائبٍ لـغازانَ مع وجود حامية وقائد مغولي بها. أما غازان فظلّ يقيم خارج دمشق وفي ربيع الثاني 699/ 1300 أصدر فرمان – بيان – الأمان أكّد فيه إسلامه، وهاجم حُكّام مصر والشام، واتهّمهم بالخروج عن الدين، وأكّد على حماية غير المسلمين ويُظهر هذا البيان الغير متغطرس كذلك المعاملة الحسنة النسبية لأهل دمشق تغيرًا كبيرًا في أسلوب المغول الدموي السابق، ويبدو أنّ هذا كان نتيجة لاعتناق غازان الدين الإسلامي. أما قلعة دمشق فلم تستسلم، وقاومت المغول ببسالة على الرغم من محاولات المغول المتعدّدة، وسقطت أيضًا معظم مدن الشام ولكن قاومت بعض الحصون والقلاع قدوة بقلعة دمشق.

على الرغم من إسلام غازان فإنّه ظلّ على الاعتقاد المغولي بأنّ العائلة الجنكيزية لها حقّ حكم العالم، وأنّ المماليك ما هم إلا عبيد مغتصبون، وليس لهم حق الحكم. فيقول رشيد الدين الهمذاني في كتابة جامع التواريخ، وذلك عند مخاطبة غازان لأهل دمشق:

"وبادر سكان دمشق بالخضوع والطاعة لـغازان، واستظلّوا بظلّ دولة تلك الحضرة، وعندئذ سألهم سلطان الإسلام: من أنا فأجابوا جميعًا: أنت السلطان غازان بن أرغون خان بن أباقاً خان بن هولاكو خان بن تولوي خان بن جنكيز خان، بعد ذلك سألهم من هو والد الناصر، فأجابوا: الألفي. فسألهم من كان والد الألفي، فعجزوا جميعًا عن الإجابة. ومن المعروف للجميع أنَّ حكم هؤلاء القوم آل إليهم اتفاقًا وليس استحقاقًا، فكلّهم كانوا عبيدًا لأسرة جد سلطان الإسلام المشهور". (رشيد الدين، جامع التواريخ، 163 – 164) هذه

الفقرة المنقولة عن رشيد الدين هي جوهر المبرّر الفكري والأخلاقي لغزو المغول، وحروبهم ضد المماليك حتى بعد دخولهم الإسلام.

في جمادى الأول غادر غازان دمشق، وعاد إلى بلاده وبعدها بفترة أيضًا انسحبت باقي القوّات المغولية عبر الفرات، وأخلت دمشق. وأمّا السلطان الناصر محمد ما إن عاد إلى مصر في ربيع الآخر 699/ 1300 حتى بدأ في إعادة تجهيز جيشه، وأظهر همَّة في ذلك على الرغم من صغر سنّه حتى رجب 699/ 1300 فخرج يريد لقاء المغول، فعلم عند خروجه بانسحاب القوات المغولية من دمشق والشام، فعاد إلى القاهرة وأرسل سلار، وبيبرس وعددًا من أمرائه لاستلام دمشق وباقي مدن الشام، وعفى عن قبجق، وبكتمر، والأمراء اللاجئين لغازان، بعد أن اعتذروا بأنهّم فعلوا هذا؛ لخوفهم على حياتهم من السّلطان السابق لاجين (المقريزى، السلوك، 1: 882 – 902؛ النويرى، نهاية الأرب، 31: 384 – 406؛ العينى، عقد الجُمان، 4: 9 – 80؛ ابن تغري بردي، النجوم، 8: 116 – 132؛ رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، 159 – 166).

تل الخازندار هي المعركة الوحيدة التي هُزم فيها المماليك في لقاءٍ مع المغول؛ ولكنّها لم تسفر عن نتائج كارثية. فخسائر الجيش المملوكي كانت محدودة و لم يستمر الاحتلال سوى مائة يوم، كما لم يتبع غازان سياسة أسلافه من الدمار الشامل والقتل بدون تمييز مما خفَّف من أضرار الاحتلال، واكتفى بالاستيلاء على الخزائن السلطانية وغرامة فادحة دفعها أهل دمشق. ولا ندري حقيقةً لماذا انسحب غازان بعد هذا النصر العزيز، فلم تستجدّ أيّ أحداث طارئه تستدعي عودته إلى فارس –كما حدث مع جده الأكبر– هولاكو خان منذ حوالي أربعين عامًا؟ لماذا أيضًا لم يتتبع المغول الجيش المملوكي المهزوم إلى القاهره لإسقاط دولة المماليك؟ لا يُعقل أنَّ الخسائر في صفوف الجيش المغولي المنتصر قد تعوقه عن مواصلة الحرب، كما أنَّ الجو كان شتاءًا وهو أكثر ملاءمة للمغول المعتادين على الطقس البارد في بلادهم الأصلية. هل طبيعة البيئة الشامية المكونة من جبال وأرض صحراوية، وقلّة السهول بها مما لا يتيح مراعي كافية للجيش المغولي وجياده العديدة مما لايسمح لهم بالاستقرار؟ أم حالة المغول النفسية بعد هزائم لمدة أربعين عامًا على يد المماليك التي أوحت إليهم بالانسحاب والعودة للاستعداد مرةً أخرى للمواجهة النهائية؟ وهذا ما حدث بالفعل.

لم تستقر الأمور بعد عودة غازان والمغول إلى ديارهم، فعودتهم إلى الشام كانت منتظرة

حيث إنّه كان حانقًا بسبب عودة ولاء الأمراء قبجق وغيره إلى القاهرة. ولذلك تمَّ التنبيه على أهل دمشق من جانب السلطات المملوكية بالاحتفاظ بالسلاح والتدريب على رمى بالسهام، وذلك كنوع من المقاومة الشعبية، وقاموا بجمع الأموال من أهل دمشق مما أثار غضبهم فاستهزؤوا بالأمراء والأجناد، وعايروهم بهزيمتهم وشمتوا فيهم، ثم جاءت الأخبار بتحرك غازان في محرم 700/ 1300 قاصدًا الشام، وأرسل جنوده في المقدّمة وعبر هو الفرات في صفر 700/ 1300 حتى اقتربوا من حلب، فتوقّفوا نتيجة لهطول الأمطار وسوء الحالة الجوية في هذا الشتاء، حتى أنّ أميرًا من أمراء المغول القادمين من الأناضول شمالاً لم يتمكّن من المسير؛ نظرًا لكثرة الوحل والأمطار واضطر غازان إلى إرسال عشرة آلاف جندي لنجدته، وأخيرًا رأى غازان خان صعوبة الموقف، فقرّر العودة مرةً أخرى في جُمادى الآخر 700/ 1300 إلى بلاده عبر الفرات، دون أيٍ مواجهة (رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، 169 - 176).

هكذا انتهت المحاولة الثانية لغازان والسادسة للمغول بدون مواجهة مع الجيش المصري. وكان السلطان عندما وصلته أنباء الغزو المغولي قد جهّز الجيوش المصرية، وأرسلها تحت قيادة مجموعة من كبار الأمراء على رأسهم سلار، وبيبرس إلى الشام، وخرج هو بنفسه مع مماليكه غير أنّه عاد إلى القاهرة في ربيع الآخر 700/ 1300 لما علم بانسحاب غازان خان لصعوبة تحرك الجيوش المصرية، نتيجة لسوء الأحوال الجوية غير أن بات واضحًا عزم غازان على غزو الشام في أول فرصة سانحة، وتوتر علاقته مع مصر.

انعكس هذا التوتر والتخوّف من الغزو أو من هزيمة جديدة تُطيح بالدولة المملوكية على الأحوال الداخلية في أمرين؛ الأوْل مع أهل الذّمة منَ الأقباط واليهود، والثاني مع عربان الصعيد. كما هي العادة في وقت الأزمات والهزيمة تثور الخواطر على الأقليات، فتعرّض الأقباط لثاني محنه كبرى في دولة المماليك. كانت الأمور مُستقرّة للأقباط، فهم يتقلّدون الكثير من المناصب العُليا؛ نظرًا لكفاءتهم في إدارة الشئون المالية، وكان الكثير منهم ميسور الحال وصاحب ثروةٍ وجاه، فتصادف في رجب 700/ 1300 وصول أحد الوزراء المغاربة إلى القاهرة، فلمّا عاينَ الأحوال الطيبة ورغد عيش أهل الذمة أثار هذا الوضع استياءه، فقابل القضاة والأمراء وندّد بهذا الوضع، وأشار إلى وضعهم المتدنِّي في المغرب، وأنّه لا يمكن النصر للإسلام في تلك الظروف. كما ذكرنا فإنّ النفوس والخواطر كانت مُضطربة فتلقّف بعض

الشيوخ والفقهاء والأمراء هذه الملحوظة وتداولوها، وضغطوا على سلار وبيبرس رجلي الدولة ومدبريْها -السلطان كان محجورًا عليه تقريبًا- فعقدوا مجلسًا ودعوا بطرك الأقباط ورئيس اليهود، وطالبوهم بتجديد ما يعتقدوا أنّه عهد عمر بن الخطاب، وبعد مشاورات تعهّد الأقباط واليهود بالتنازل عن الكثير من حقوقهم كمواطنين، والتقيّد بسلسلةٍ من القيود التمييزية المهينة يُجملها النوّيري في التالي:

"فاقتضت المباحث الشريفة بين العلماء أن يُميّز النصارى بلبس العمائم الزرق غير الشعري (كذا) واليهود بلبس العمائم الصفر، وتُميز نساء أهل ملة كذلك بعلامةٍ تظهر، ولا يركبون الخيول، ولا يحملون سلاحًا، ويركبون الخيول الحمر بالأكف (البردعة) عرضًا من غير تزيينٍ لها ولا قيمة، ويتجنبّون أوساط الطرق للمسلمين في مجالسهم، ويتنازلون عن مراتبهم ولا يرفعون أصواتهم على أصوات المسلمين، ولا يعلو بناؤهم على بناء المسلمين ولا يُظهروا شعانينهم (سعف النخيل)، ولا يضربون بالنواقيس ولا يُنصّرون مسلمًا ولا يُهوّدونه، ولا يشترون من الرقيق مسلمًا، ولا من سباء مسلمًا ولا من جرت عليه سهام المسلمين، ومن دخل منهم الحمام يميّز نفسه بعلامةٍ عن المسلمين بجرس (يعلّق) في حلقة (رقبته)، ولا ينقشون فصوص خواتيمهم بالعربية، ولا يعلّمون أولادهم القرآن، ولا يستخدمون في أعمالهم الشاقّة مسلمًا، ولا يرفعون النيران. ومن زنى منهم بمسلمة قُتل" (النويرى، نهاية الأرب، 31: 417 – 419).

بالإضافة إلى هذا أُغلقت معظم الكنائس، وطرد جميع الأقباط المستخدمين في دووابن السلطان والدولة والأمراء، ثمّ عُمّمت هذه الأوامر في أنحاء السلطنة. وبالطبع دفعت تلك الإجراءات الكثير من الأقباط، وخصوصًا أعيانهم إلى التحول إلى الإسلام؛ للمحافظة على ثروتهم وأسلوب حياتهم. أعتقد أنَّ هذا الأمر لم يُنفَّذ بحذافيره نظرًا لتكرار فرض مثل تلك الإجراءات في المستقبل كما أنّه سرعان ما أُعيد فتح عدد كبير من الكنائس بعد سنة بوساطة الإمبراطور البيزنطي وغيره من الملوك المسيحيين.

أما العربان في الصعيد فانتهزوا فرصة الهزيمة وما يتبعها عادةً من فوضى وانشغال الدولة، فعاثوا في الأرض فسادًا وقطعوا الطرق، وفرضوا الإتاوات على التجار، ومنعوا إرسال الخراج (الضرائب المفروضة على الأرض الزراعية) إلى القاهرة وكونوا عصابات مُسلَّحة ومن الطريف أنهم تسمّوا بأسماء الأمراء المماليك فأطلقوا على زعيم منهم سلار وآخر

بيبرس كأنّهم ورثوا الدولة، فلمّا تزايدت شرورهم قرر السلطان والأمراء تأديبهم فأعدّوا حملةً عسكرية ضخمة من أربعة أقسام. كل قسم تحت قيادة أمير من كبار الأمراء وادّعوا أنّها موجّهه ضد المغول شمالاً، ولكنها اتجهت جنوبًا سرًا، وفاجأت العربان فحاربتهم وقتلت الكثير منهم، وفرّ الباقون وأخذوا الكثير من الأسرى والغنائم، ونجحت الحملة في إعادة الطُمأنينة والاستقرار بالصعيد؛ ثم عادت إلى القاهرة في شعبان 701/ 1302.

على الرغم من عدم قيام غازان بالإعداد لحملة جديدة إلا أنّه لجأ إلى الدبلوماسية، فأرسل عددًا من السفراء برسالة وقحة إلى الناصر محمد في محرم 701/ 1301 وفيها يلوم غازان الناصر محمد على الأعمال التي ارتكبها جنوده في ماردين في رمضان 699/ 1300 بجنوب الأناضول، وأنّه جاء إلى الشام لحماية أهلها المسلمين من السلطان وجنوده ويعايره، ويذكّره بالهزيمة في العام الماضي في تل الخازندار، وأنّه انسحب فقط تخفيفًا عن أحوال المسلمين المعيشية في الشام ويطلب منه هدية. هذه الرسالة أيضًا وإن كانت هجومية اللهجة، ولكنها أقلّ وقاحة وصلفًا عما اعتاد عليه المغول في السابق وطلب الهدية له مغزى أذ تعني نوعًا من أنواع الجزية والخضوع. استشار السلطان الأمراء، وكتبوا لغازان ردًا على رسالته ترفض ادعاءاته عن سوء معاملة الجند في ماردين، وأنّها إنما ذهبت هناك لمعاقبة الباغين، وتستخفّ بانتصار المغول في المعركة الأخيرة، وتُذكّره بهزائم المغول السابقة على يد الجيوش المملوكية، وترفض إرسال هدية وأيضًا تطلب إرسال رسولٍ من المغول له مكانة عنده يكون أكثر قربًا منه (أي من الخان غازان).

هذه الرسائل كانت في نطاق الحرب النفسية وكسب الوقت، واستمر كلّ فريق في استعداداته العسكرية انتظارًا للمواجهة الحاسمة، وقام المماليك باستفزاز المغول بحملة على سيس في بلاد الأرمن (حلفاء غازان) في رمضان 701/ 1302 ثم عادوا إلى حلب بعد قتل ونهب، وتدمير ضواحي مدينة سيس والأرض المحيطة بها. وأخيرًا جاء الغزو وجاءت الأخبار بعبور غازان في جيشٍ ضخم حوالي ثمانين ألف جندي، وعبوره الفرات عند رحبة الشام في رجب 702/ 1303 وحاصروا قلعتها وادّعوا أنّهم جاؤوا لتأديب المصريين، ولا يقصدون إيذاء أهل الشام مع التهديدات المعتادة وأظهرت القلعة الولاء لغازان؛ ولكنّها لم تستسلم وعندئذ يبدو أنّ غازان قد اعتراه الملل أو لقرب دخول فصل الصيف، فقرر العودة إلى بلاده واللّحاق بحريمة، ورتب إرسال عسكره تحت قيادة كبار قادته قطلوشاه وجوبان،

ومولاي عبر الفرات غربًا نحو حلب لغزو الشام، ثم عبر هو الفرات شرقًا عائدًا إلى الجزيرة. (رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، 177– 183) ولا تذكر المصادر المغولية عدد هذا الجيش، وتقدّره المصادر المملوكية من خمسين إلى ثمانين ألف.

عند علم السلطان الناصر بقدوم المغول أمر بإرسال حملة على الشام بقيادة بيبرس الجاشنكيز وعددٍ آخر من الأمراء، وذلك في نفس الوقت تقريبًا أي في رجب 702/ 1303 ودخلوا دمشق في شعبان من نفس العام، كما خرج السلطان بنفسه ومعه الخليفة وباقي العساكر المصرية.

أراد قطلوشاه إيقاع الرعب في قلوب الأهالي، لتأكيد هيبته بالإرهاب على الطريقة المغولية وأرسل سرية من جنده تبلغ حوالي أربعة آلاف مقاتل وفي مصادر أخرى عشرة آلاف، فأغارت على قرية تُسمَّى القريتين وهي قرية صغيرة في بادية الشام بين حمص وتُدمر يُقيم بها بعض التركمانِ والعربان، فنهبت مساكنهم وأسروا أولادهم وقطعناهم، فلمّا علم نائب السلطنة بدمشق بذلك أرسل لهم سرية صغيرة من المماليك الشامية حوالي ألف وخمسمائة فارس في شعبان 702/ 1303 فقاتلت المغول بحمية شديدة، واستطاعوا النصر عليهم وقتل وأسر الكثير منهم، واستعادة أسرى المسلمين وقطعانهم.

أود هنا أن أشير إلى ظاهرة تَميز بها أجناد المماليك وهي عدم الرهبة من الموت عملاً بمبدأ إما النصر وإمّا الشهادة، فأذكر بعض التفاصيل نقلاً عن بدر الدين العيني عند لقاء السرية المملوكية المذكورة مع سرية المغول، وعلمهم بالتفوق العددي الكبير للمغول لما واجهوا العدو، فيقول: "ثم إنّ الأمراء نزلوا واستراحوا وتوضؤوا لصلاة الفرض، ثم بعدها صلاة الموت، وودّع بعضهم بعضًا، ثم ساقوا على نفس واحد ثم قال أحدهم كل زوجة لي طالق، كل جارية ومملوك لي حر إن ولّيت ظهري حتى أبلغ قصدي، وإن متّ فما يكون لي موتة أكرم منها" (العيني، عقد الجمان، 4: 221) وتحدّث الآخرون بمثل هذا.

تفاءل المماليك بهذا النصر، وعادت فلول السرية المغولية المنهزمة إلى قطلوشاه وأخبرته بأنَّ السلطان والعسكر المصري غير موجودين بالشام، وأنّ العسكر الشامي فقط يدافع عنها فجدّ قطلوشاه في السير للقائهم قبل وصول المدد حتى وصل إلى القرب من حماة، وكان العسكر الشامي في دمشق يعلمون أنَّ السلطان قادم ومعه العسكر المصري خلال أيام. اختلف الأمراء على الإستراتيجية فلم يكن يسعهم البقاء في دمشق، وعليهم إمّا الاتجاه شمالاً للقاء المغول

وحدهم -وكان هذا رأي معظم الأمراء- غير أنَّ أحدهم وهو حسام الدين لاجين أستادار الملك المنصور قلاوون -وكان طاعنًا في السن- أشار عليهم بالانسحاب من دمشق، وملاقاة السلطان جنوبًا لمواجهة غازان وأنَّ الأخير لن يدخل دمشق طالما الجيش الشامي والمصري لم يُهزم بعد، فاتهمه بعض الأمراء بالجبن مما جعله يبكي، ولكن في النهاية وافقوه على رأيه- وقد حارب بضراوةٍ في المعركة حتى استُشهد- وعليه خرج الأمراء بجيوشهم من دمشق ودبَّ الفزع بين أهليها؛ خوفًا من دخول المغول وما يُحدثوه عادة من خراب، فطمأنهم الفقهاء وعلى رأسهم تقي الدين بن تيمية الحنبلي - سنعرض له قريبًا - ووعدهم بالنصر.

تلاقت الجيوش المملوكية المصرية والشامية مع السلطان والخليفة في موقع جنوب دمشق اسمه مرج الصفر عند قريةٍ اسمها شقحب في أول رمضان 702/ 1303 وتصادف هذا مع وصول قطلوشاه وقواتهِ والذي لم يدخل دمشق خوفًا من تفرّق جنوده فيها، وانشغالهم بالنهب فتهاجمهم الجيوش المصرية. استعدت الجيوش المملوكية للمعركة، ورتّب السلطان عساكره فبقي هو ومماليكه والخليفة وبيبرس وسلار وعدد آخر من كبار الأمراء بمماليكهم في القلب، والميمنة بها حسام الدين لاجين الأستادار (الذي أشار بانسحاب المماليك من دمشق) وعددٍ آخر من الأمراء ومعهم الأمير قبجق (السابق لجوؤه إلى غازان هاربًا من السلطان لاجين) والعربان. أما الميسرة فرتّب فيها الكثير من الأمراء المنصورية الكبار مثل بكتاش الفخري أمير سلاح، وقراسنقر المنصوري نائب حلب، وبيبرس المنصوري المؤرّخ وغيرهم. كما شهد هذه الموقعة عددٌ كبير من الفقهاء والعلماء مثل ابن تيمية، والمؤرخ النويري وغيرهم، وقد أفتى ابن تيمية بجواز عدم صوم رمضان، وكان قد بدأ في يوم وصول السلطان.

كالعادة -باستثناء موقعة مرج الخازندار وهى الهزيمة الوحيدة للمماليك على يد المغول- ترك المماليك للمغول المبادرة، فهاجم قطلوشاه ومن معه في 2 رمضان 702/ 1303 ميمنة الجيش المملوكي هجمة قوية فانهزمت، وقتل فيها كثير من الأمراء - مثل الأمير حسام الدين الأستادار - وعدد كبير من الجند يبلغ حوالي ألف فارس عند ذلك قام بيبرس، وسلار وعدد آخر من أمراء الميمنة والميسرة بمهاجمة قطلوشاه، وأبلوا بلاءً حسنًا حتى تأخذ الميمنة المنهزمة راحة، وفعلاً تمكّنت الميمنة والقلب من هزيمة قطلوشاه الذي لجأ إلى تلٍ مرتفع في أرض المعركة، وانضمَّ إليه باقي المغول المنهزمين وهو يظن أنَّ القواد الآخرين مثل مولاى

منتصرون وهم في الحقيقة كانوا قد غادروا أرض المعركة. وعلم وهو هناك فوق التل لأول مرة بوجود السلطان والعساكر المصرية من بعض أسرى المماليك. هبط الليل وقطلوشاه فوق التل وعسكر المماليك يحاصرونه، وأصبحوا في اليوم التالي والمماليك تحاصرهم وتهاجمهم بالسّهام وغيره، ولم يتمكّن المغول من فكّ الحصار وقُتل منهم عدد كبير، وتوقّف القتال في نهاية النهار وقد اشتد بهم العطش لعدم وجود ماء بالتل. فأيقن السلطان أنّهم عازمون على النزول من الجبل في اليوم الثالث بكامل هيأتهم تحت وطأة العطش. فاتفق الأمراء على السماح لهم بالهروب من الحصار، ثم مهاجمتهم بعد ذلك من الخلف. وهذا ما حدث في اليوم الثالث حيث طارد المماليك فلول الجيش المغولي المنسحب إلى النهر، وبذلك تحقّق النصر الكامل للمماليك مرةً أخرى (المقريزي، السلوك، 1: 930 – 939؛ النويري، نهاية الأرب، 32: 26 – 33؛ العيني، عقد الجُمان، 4: 218 – 253؛ ابن تغري بردي، 8: 157 – 163).

بلغ قتلى المغول –طبقًا للمصادر المغولية– عشرة آلاف، وأسراهم عشرين ألف (رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، 44) وعاد قطلوشاه إلى بلاده ومعه أقلّ من عشرة بالمائة من جيوشه، وقابل غازان في رمضان 702/ 1303 في شمال العراق بالقرب من أربيل، والذي حزن حزنًا شديدًا حتى أنه أخذ ينزف دمًا من أنفه، وأمر بعمل تحقيق فوري لأسباب هذه الهزيمة، فألقى كل من قواده الناجين اللوم على الآخر، وتمت معاقبتهم ثم مات غازان بعد هذه الواقعة بشهور قليلة، نتيجة لمرضٍ مفاجىء في شوال 703/ 1303.

بهذه الهزيمة انتهى التهديد الحقيقي المغولي للشام، وتأكّد التفوق العسكري المملوكي على المغول، ولم يعاود المغول محاولاتهم إلا بعد عشر سنوات كاملة شهدت أحداثًا كثيرة في مصر. بعيدًا عن الأحداث السياسية فإنّ تلك المواجهة أفرزت نتائج كان لها أثر كبير على المنهج الفكري الإسلامي حتى يومنا هذا، وأعني به فكر وفتاوى شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (المتوفى في ذي القعدة 728/ 1328) وخاصةً فتاوى الجهاد. فبعد تحوّل غازان والكثير من جنوده إلى الإسلام تغيّرت الكثير من معطيات المحتوى الفكري للمواجهة المغولية المملوكية، فلم تُصبح معركة بين طرفٍ مسلم وآخر غير مسلم، وقوانين الجهاد فيها واضحة المعالم، ولكن بين طرفين مسلمينِ فكيف يبدأ أحدهم قتال الآخر وكلاهما مسلم؟! فأصدر ابن تيمية عدة فتاوى تبيح قتال المغول، وصنّفهم ضمن الفئات التي يجوز

قتالها لأنهم بغاة خارجون عن الحق على الرغم من إسلامهم وضرب أمثالاً تاريخية مثل واقعة الجمل وصفين خلال الفتنة الكبرى في القرن الأول الهجري، واتّهمهم بالتمسك بعقيدة جنكيز خان وشريعته الياسا، واتّهمهم بأنّهم لا يحاربون من أجل الإسلام بل من أجل الهيمنة، فكلّ من يدخل في طاعتهم يتركوه حتى لو كان من أهل الجاهلية والكفر أو مسيحي أو يهودي، وكلّ من لا يدخل في طاعتهم يحاربونه حتى لو كان من المسلمين. كما أباح قتال من يتعاون مع المغول من المماليك الفارين، أو من الطوائف المسيحية الأخرى كالأرمن، وبالطبع فإنّ هذه الفتوى والحث على الجهاد تجد لها ما يبررها في ظلّ الخطر الكامن من الغزو المغولي الخارجي للدفاع عن البلاد، ولكن يبدو أنّ ابن تميميه قد وسّع من تعريف الفئات التي يجب محاربتها، بحيث شملت أيضًا هؤلاء الذين لا يؤدّون الفرائض الخمس من صلاةٍ وصومٍ وزكاةٍ وشهادة وحج، ومن يمارس الزنا وشرب الخمر ومخالفة حدود الله، ومنْ لا يأمرً بالمعروفً وينهي عن المنكر، ثمّ أضاف أيضًا من ينكر قضاء الله والقدر وأصحاب البدع وغيرهم مِمّن يخرج عن سنّة السلف. الكثير من اتهامات هذه الفئات تدخل في نطاق الضمير ويصعب إثباتها، وكانت ولا تزال تُثير الكثير من الجدل حول معنى الجهاد (Aigle, *MSR* 11 (2) 2007, 95 - 106).

بعد هذا النصر المبين أُقيمت احتفالات ضخمة بالقاهرة وأُقيمت أقواس النصر المتعددة، وبالطبع خرجت بعض هذا الاحتفالات عن التقاليد من شرب خمرٍ ورقصٍ وخلافه، وحدث في عام 703/ 1303 زلزال ضخم وهو من أكثر الزلازل قوة التي شاهدتّها القاهرة. هُدّمت وخُرِّبت الكثير من المباني والمدارس والجوامع، وعلى الأخص المآذن وهدمت فيه منارة الإسكندرية (الفاروس) وهو يشبه الزلزال الضخم عام 1992، وهدمت مآذن الجوامع الكبرى في القاهرة وخارجها، فتعهّد بإصلاحها السلطان وبيبرس، وسلار، وغيرهم من الأمراء.

على الصّعيد السياسي استمرّ كل من سلار وهو مغولي الجنس، وبيبرس (الاحتمال الأقرب أنّه شركسي كمعظم مماليك قلاوون البرجية) في السيطرة على مقاليد الحكم والحجر على السلطان، وجرى أيضًا التنافس فيما بينهم في الباطن وكان لكلٍ أتباعه، وإن حرصا على الاتحاد ضدّ السلطان حتى لا يستغلّ أحدهما في التخلّص منَ الآخر، ثم يتخلّص هو منه ويصبح حرًا. ووقعت أزمة عنيفة في بداية عام 707/ 1307 حين اشتكى السلطان

من معاملة الأميرين له، ومنعهما الأموال عنه وضيق ذات يده، فاتفق مع أحد الأمراء وهو بكتمر الجوكندار على تجهيز المماليك السلطانية في القلعة، ثم القبض على الأميرين سلار وبيبرس غير أنّ جواسيس الأميرين المذكورين علموا بالمؤامرة واستعدًّا لها، ثم قاما باستدعاء بكتمر الجوكندار، وأقام عندهما في دورهما بالقلعة، ووقف مماليك الأميرين بكامل هيأتهم الحربية، وأشيع بالقاهرة أنَّ الأمراء سوف يقتلون السلطان أو ينفونه إلى الكرك، فأغلقت الأسواق وتجمَّع الكثير من الجنود والعامّة تحت القلعة يهتفون للناصر حيث إنّه كان ذي شعبية كبيرة بين الأهالي، وتصاعدت المواجهة داخل القلعة، ومنع السلطان مماليكه من الهجوم على مماليك الأمراء، وبدأ في مفاوضتهم وأعلن استعداده للنزول عن السلطنة. غير أنَّ جموع العامة تحت القلعة ظلت على موقفها تهتف للسلطان، وخشي الأميران من استعمال القوة لتفريقهم فتفاهموا مع السلطان على أن يقوم بتسليمهم بعضًا من خواصه المماليك؛ لأنَّهم سبب الفتنة لنفيهم خارج القاهرة إلى القدس كذلك أبعد بكتمر الجوكندار من منصبه وأرسل خارج القاهرة، فنامت الفتنة والجميع غير راض؛ فالسلطان لم يرضَ على نفي مماليكه وتحكم الأميرين فيه، والأميران يخشيا من ثورة الجنود والأهالي فأبقيا السلطان في موقعه على مضض منهما.

5 – المظفّر بيبرس الجاشنكير – المُلك عقيم:

وضع مثل هذا لا يستمر طويلاً، ففي بداية عام 708/ 1308 أبدى السّلطان رغبته في أداء فريضة الحج، فوافق الأمراء وجهّزوه بما يلزم، فحرج هو وحريمه ومماليكه والأمراء في وداعه؛ ولكن بدلاً من التوجه إلى الحجاز توجه إلى مدينة الكرك فوصلها في العاشر من شوال 708/ 1309 وتوجّه إلى قلعتها ودخل إلى القلعة عن طريق جسرها الخشبي فانهار لثقل موكبه، ولكنّ السلطان لم يُصب بأذى. بعد أن استقر بالكرك واستولى على الأموال التي بها أعلن ما كان يضمره، وتنازل عن السّلطنة لسوء معاملة الأميرين بيبرس وسلار، وأعاد شعائر السلطنة والأموال التي كان قد أخذها إلى قلعة القاهرة، ثمّ أخلي قلعة الكرك من جميع قاطنيها سوى أتباعه، وأرسل نائبها للقاهرة، وكتب إلى الأقاليم بذلك، وطلب منهم اختيار سلطان جديد بدلاً منه، فلما وصلت تلك الأنباء إلى القلعة اجتمع الأمراء لاختيار السلطان الجديد، فعرضوا الأمر على سيف الدين سلار نائب السلطنة وكان حكيمًا حصيفًا فرفضها

لعلمه بخطورة الموقف، وأنَّ الأمر لن يستقر له أو لغيره، فلذلك أشار إلى ركن الدين بيبرس الجاشنكير وطالب يسلطنته فبايعه جميع الأمراء وحلفوا له وُلقّب بـالمظفّر، وكتب بذلك إلى الأقاليم، وعيّن سلار نائبًا له كالعادة، وذلك في نهاية شوال 708/ 1309 وقد ساعد بيبرس في هذا الأمرخشداشيته البرجيه، وبذلك يصبح أول سلطان شركسي الجنس (إن صح أنّه شركسي) وحلف للمظفّر نائب دمشق جمال الدين أقوش الأفرم (وهو شركسي من البرجية) أما أمراء حلب قراسنقر المنصوري، ونائب حماة سيف الدين قفجق، وطرابلس شمس الدين استدمر الكرجي (من جورجيا) فحلفوا بعد تردد كبير. بذلك استقر ملكه ولكن بدون إجماع، و لم يُخلص له حقًا من نواب الشام سوى الأفرم.

ظل الناصر محمد بالكرك مُتربصًا بالمظفّر بيبرس، وتصادف في هذا العام عدم وفاء النيل في موعده، فارتفعت الأسعار حتى وفي النيل، فعادت الأمور إلى طبيعتها غير أنَّ الأهالي تذكّروا محنة ومجاعة العادل منذ حوالي خمسة عشر عامًا، وتشاءموا من سلطنة المظفّر. توترت أيضًا العلاقة بين المظفّر بيبرس، والسلطان السابق في الكرك، فأخذ يطالب الناصر بإرسال الأموال والمماليك والجياد التي في حوزته، ويلحّ في المطالبة حتى ضاق الناصر وأخذ يرسل رسائل لطيفة إلى كافة النواب في الشام، وكذلك كبار أمراء مماليك أبيه يشكو لهم أحواله وسوء معاملة بيبرس له، ويهدّدهم باللجوء إلى المغول في حاله استمرار هذه المعاملة، وفي نفس الوقت كان سلار يكيد للسلطان في الخفاء، وأوقع بينه وبين عدد من مماليكه، فهربوا من القاهرة بخيلهم وسلاحهم في عدة كبيرة، وانضمُّوا للناصر في الكرك كأنّه بهذا يحفر قبره بنفسه.

بعث الناصر رسلاً إلى أمراء الشام، واستطاع أن يضمن ولاء نواب حلب (قراسنقر المنصوري) وحماة (قفجق المنصورى) وطرابلس (استدمر) وغيرهم من أمراء المماليك بالشام. في نفس الوقت أنفق بيبرس الكثير من الأموال خصوصًا لطائفة البرجية خشداشيته لإرسال حملة إلى الكرك، ولمنع تسرّب الجنود من القاهرة وتوجّههم إلى الناصر بلا طائل. وفي محاولة أخيرة لحفظ عرشه طلب تجديد البيعة له من الأمراء، وكتب له الخليفة أبو الربيع سليمان حلفًا وبيعةً جديدة، والتي ذكر فيها مبدأ عدم التوريث، فقال: "واعلموا -رحمكم الله- أنَّ المُلك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن سالف، ولا كابر عن كابر" (المقريزي، السلوك، 2: 65) واتهم الخليفة الناصر محمدً بشقّ عصى الطاعة، وأنّه خارجي وجب

مقاتلته. ذلك على الرغم من أنَّ الخليفة كان من عمر الناصر محمد، ونشآ وتعلّما سويًا في طفولتيهما وصباهما، ربما أنّ الخليفة آمن حقًا بأن الملْك عقيم وهذا المبدأ كان سائدًا على الدوام طوال العصر المملوكي إلاّ في حالاتٍ قليلة من ناحية الجوهر إن لم يكن المظهر وقد دفع الخليفة ثمنًا غاليًا لبيانه هذا.

لم يفد بيبرس كل هذا التأييد، فتحرك الناصر أخيرًا من الكرك أول شعبان 709/ 1310 إلى دمشق فخضعت له دون قتال، وعفى عن نائبها أقوش الأفرم (كان من أكبر أنصار المظفّر) وخطب له في الجمعة 22 شعبان 709/ 1310 وحضر إلى دمشق باقي أمراء الشام للانضمام إليه، ولمّا علم المظفّر بهذه الأحداث أسقط في يده، فطلب منه مماليكه الخروج، وقتال الناصر، والقبض على سلار فرفض ذلك حقنًا للدماء، ولم يبق معه إلا مماليكه وبعض خشداشيتة من البرجية، وأشار عليه الأمراء في رمضان 709/ 1310 بالنزول عن السلطة إلى الناصر، وأن يطلب منه توليته الكرك أو حماة أو صهيون –كما حدث مع العادل كتبغا، والناصر نفسه من قبل– فوافق وبعث إلى الناصر في دمشق بهذا الطلب، غير أنّه اضطرب وغيَّر رأيه، واستولى على الكثير من أموال الخزانة السلطانية والخيل والأسلحة الموجودة بالقلعة، وخرج مع سبعمائة من مماليكه وبعض الأمراء هربًا إلى الصعيد والعامّة تطارده وتسبّه، فلم يكن محبوبًا منهم على عكس الناصر، وبذلك انتهت سلطنته والتي استمرت حوالي أحد عشر شهرًا فقط.

بسقوط المظفّر انتهت المرحلة الأولى من الأسرة القلاوونية، وتميّزت بعدّة سمات أهمّها تحقيق النصر الحاسم والنهائي على كلٍ من فرنجة الشام، والقضاء على الخطر المغولي القادم من الشرق، على الرغم من الاضطراباتُ الداخلية وعدم استقرار السلطنة، فتغيّر السلطان ست مرات في خلال عشرين عامًا. وهذا النصر العسكري الحاسم رغمًا عن القلاقل الداخلية (إن لم تصل إلى مرحلة الحرب الأهلية) دليل على القاعدة القوية التي أسّسها السلاطين قطز، وبيبرس، وقلاوون.

السّمة الثانية هي عدم بروز أمير مملوكي قوي لدرجة تُمكّنه من الانفراد بالحكم، فحتّى مع وجود سلاطين مِمَّن مسّهم الرق فإنّهم لم يتمكنوا من القضاء على معارضيهم ومنافسيهم من كبار الأمراء حتى فقدوا عرشهم، ولم يتمكّنوا من المحافظة عليها مثل الآباء المؤسسين بيبرس – قلاوون. وقد حاول أمراء تلك المرحلة تدعيم قوتهم بترقية مماليكهم الصغار وتوليتهم المناصب العُليا على حساب خشداشيتهم والأمراء الكبار، وفشلت تلك السياسة

بل كانت أحد أقوى أسباب سقوطهم. كما ظهرت قوة الرأي العام في تحديد من يتولّى كرسي السلطنة، وللغرابة الشديدة متمثّلة في العامة والبسطاء وليس في الخاصة، ولعبوا دورًا كبيرًا - وإن لم يكن حاسمًا - في عودة الناصر إلى سلطنته الثالثة والأخيرة (المقريزي، السلوك، 1: 938 - 957، 2: 2 - 73، النويري، نهاية الأرب، 32: 42 - 149؛ ابن تغري بردي، النجوم، 8: 166 - 282).

لم تخلُ تلك الفترة من أعمال التشييد على الرغم ممّا اتسمت به من انشغالٍ شديد بالجهاد الخارجي والصراع الداخلي، وقد سبق وأن ذكرنا أعمال الأشرف خليل، وحسام الدين لاجين، ويوجد حتّى الآن الكثير من منشآت هذه الفترة أهمها أربعًا اثنتان منها سلطانية أقدمها هي زاوية زين الدين يوسف (أثر 172، 697/ 1298) وهي الزاوية الوحيدة المعروفة لنا - طبقًا لنصّها التأسيسي - قبل القرن التاسع/ الخامس عشر، وتقع في القرافة الكبرى، وارتبطت بالطريقة الصوفية القدرية، ومؤسّسها عبد القادر الجيلاني، ولا ندري من هو مؤسسها (أي الزاوية).

أنشأ الناصر محمد في سلطنته الثانية مدرسة في بين القصرين (أثر 44، 695 - 703/ 1295 - 1304) مُلاصقة للمدرسة واليمارستان المنصوري، وقد بدأ البناء فيها العادل كتبغا، فأقام القبة وإيوان الصلاة بها، ثم توقّف العمل بها عند عزله، وأكمل النّاصر محمد باقي إيوانات المدرسة، وأضاف المأذنة ومدخل المدرسة من الرخام على شكل قوسٍ ثلاثي، وكان في الأصل باب أحد كنائس مدينه عكّا استولى عليه كتبغا حين فتحها في دولة الأشرف خليل، ومئذنتها مكسوة بالجصّ المزخرف.

مدرسة سنجر الجاولي بشارع الصليبة (أثر 221، 709/ 1303 - 1304) أنشأها سنجر الجاولي بجانب منزله، وتتكوّن أساسًا من قبتين متلاصقتين أكبرهما مدفون بها الأمير سلار المتوفّى في 710/ 1310 وكان يجمعه بالمنشئ سنجر صداقه حميمة، وهذه مُنشأة جنائزية ومُلحق بها إيوانات استعملت في الغالب؛ لإلقاء الدروس أو لممارسة الشعائر الصوفية. والمنشأة الأخيرة هي خانقاه بيبرس الجاشنكيز بالجمالية (أثر 32، 706 - 709/ 1307 - 1310) بدأها بيبرس وهو أمير، وانتهت في سلطنته القصيرة و لم يقم بها الشعائر لمدة طويلة وهي عبارة عن قبة جنائزية على الطريق، وخلفها أربعة دووابن ومنازل لإقامة الصوفية (Beherens–Abouseif, *Cairo of the Mamluks*, 149 - 166).

الفصل الثالث عشر

السلالة القلاوونية (3)
سلطنة الناصر محمد الثالثة

1 - العودة - الانتقام - الاستقرار:

لما عاد الناصر للسلطنة هذه المرة كان عمره حوالي خمسة وعشرين عامًا حنكّته السنون فكان عازمًا على البقاء والانتقام، والتخلّص من أي أمير يُشكّل أيَّ خطرٍ عليه حقيقيًا كان، أو وهمًا فامتدّت هذه السلطنة سنواتٍ طويلة. جلس على عرش السلطنة في الثاني من شوال 709/ 1310 وقام بتعيين نائبٍ له وهو سيف الدين بكتمر الجوكندار ووزيرًا كذلك كافّة نُواب السلطنة بالشام، ثم قام بالقبض على اثنين وعشرين من كبار الأمراء، وأمّر اثنان وثلاثين من مماليكه مرة واحدة. وهذا إعلان مُبكّر عن نيّته على التخلّص من الأمراء الكبار والانفراد بالسلطة. أما الملك المظفّر فإنه أرسل له الأمان في الصعيد على أن يُقلّده نيابة صهيون في الشام، فأعاد المظفّر الأموال والخيول والسلاح الذي استولي عليها من الخزائن السلطانية، غير أنَّ السلطان لم يكترث بهذا الأمان، وأمر بالقبض على المظفّر، وأحضره مُقيدًا فوبخّه وعنّفه عن سلوكه، ثم أمر باعتقاله وخنقه في ذي القعدة 709/ 1310 ثم صادر جميع أمواله هو وسلار، بعد أن أفتى القضاة بأنَّ مصدرها دار المال.

أُسقط من يد باقي الأمراء الكبار، وخافوا على أنفسهم من انتقام السلطان، وامتنعوا من مقابلته عند استدعائهم. وفي محرم 710/ 1310 قبض على المزيد من الأمراء، وصار متوجسًا من سلار، وكان بالشوبك في فلسطين فأرسل يستدعيه خوفًا من هروبه إلى المغول، بعد أن قبض على إخوته، وأعطاه الأمان، وذكر أنّه يريد الاستفادة من خبرته في إدارة شئون الدولة، فذهب إليه سلار بعد تردّد، فقبض عليه وسجنه، ومنع عنه الطعام حتى مات جوعًا في جمادى الأولى 710/ 1310 وبالطبع صادر باقي أمواله وكانت جمّة عدّدها المؤرخون في صفحات طُوال. كما كانت هناك مُؤامرة دبرّها نائبة بكتمر الجوكندار للتخلّص منه وسلطنة ابنٍ أخيه مظفّر الدين موسى ابن الملك الصالح على بن قلاوون فقبض عليه بعد محاولته الهرب، وكان آخر العهد به إلى أن توفّي أو قتل في 711/ 1311. كذلك قبض على باقي الأمراء المتآمرين ومنهم الكثير من المماليك المظفرية بيبرس المخلوع، ولكن لم يقتل أحدًا منهم رحمة بأهلهم، واكتفى بسجنهم. وعيّن بيبرس الداودار المؤرّخ نائبًا للسلطنة، واستمرّ في سياسة القبض على الأمراء الكبار المنصورية والبرجية مماليك والده، وخصوصًا من ساعدوه على استعادة سلطنته إمعانًا في الانفراد بالحكم، فمات قبجق المنصوري في 710/ 1310 وقبض على استدمر كرجي (نائب حماة) في نفس العام، وقبض أيضًا على نواب الشام وصفد؛ لأنّهم من خشداشية بكتمر الجوكندار، وأرسل الجميع إلى السجن بقلعة الكرك حيث بقوا هناك سنواتٍ طوال.

2 – الغزو المغولي الأخير، ونهاية المواجهة:

في أول عام 712/ 1312 لجأ كل من قراسنقر المنصوري، وأقوش الأفرم وعدد كبير من المماليك إلى المغول تاركين أموالهم وعائلاتهم في مصر، فأحسن الخان خربندا (أولجيتو) استقبالهم، وأنعم عليهم بالأموال والرواتب، وأقطع مدينة فرغانة لقراسنقر، وهمذان للأفرم، واجتمع بهما فحرضاه على غزو الشام. فما كان من السلطان إلا أن قبض على مزيد من الأمراء الكبار المنصورية لشكّة في ولائهم، ومنهم بيبرس المنصوري نائب السلطنة، وعزلَ سليمان ابن مهنا أمير عربان الشام (وكان لسليمان علاقة قوية بقراسنقر منذ أن كان نائب الشام لسنوات طويلة) وأمّر بدلاً منه أخاه فضل بن مهنا، وأصبح من أخصّاء السلطان، فلحق سليمان بقراسنقر، ولجأ إلى خان المغول خربندا. بعد هذه الحركة أمّر الناصر ستة وأربعين من

مماليكه دفعة واحدة، كذلك عين مملوكه سيف الدين أرغون الداودار نائبًا للسلطنة ومملوكه تنكز الناصري نائبًا للشام (أحيانًا كثيرة تُسمَّى دمشق الشام حتى يومنا هذا) وجعله مشرفًا على سائر النيابات الشامية الأخرى مثل حلب وحماه وحمص وطرابلس، وأمر النوّاب أن يخاطبوه عن طريق تنكّر فقط وذلك في 714/ 1314.

نتيجة لتشجيع سليمان بن مهنا وغيره من المماليك الفارين إليه قرر الخان خربندا (أولجيتو (703/ 1304 – 716/ 1316) غزو الشام فجمع قواتة وعبر الفرات إلى الرحبة. فلما وصلت الأنباء إلى الناصر بدأ في جمع قواته وعرض العسكر، وأنفق عليهم الأموال في ربيع الآخر 712/ 1312 ويذكر المقريزي أنّ السلطان كان يعرض يوميًا أميرين من مقدّمي الألوف من الخامس عشر من ربيع الآخر، وكمل العرض في أول جمادى أي في حوالي خمسة عشر يومًا أي حوالي ثلاثينً أميرًا مائة ومقدّم ألف (بأجنادهم وجنود الحلقة) أي أنَّ الجيش المملوكي كان يُقدَّر بحوالي ثلاثين ألف على أقصي تقدير (ابن تغري بردي، النجوم، 9: 35).

رحل السّلطان بجنوده في شوال 712/ 1313 ولكن وردت الأنباء برحيل المغول عن الرحبة، وعودتهم إلى بلادهم، وذلك في السادس والعشرين من رمضان 712/ 1313 بعد قضائهم مدة خمسة وعشرين يومًا في الرحبة ولا تذكر المصادر المملوكية المتاحة لي سبب رحيلهم، وكانت تلك المحاولة المجهضة هي الأخيرة من سلسلة المواجهات بين المغول والمماليك المصرية.

كان السلطان خارج القاهرة فلمّا علم من نائب بالشام بعودة المغول قرّر أداء فريضة الحج فذهب إلى دمشق، ومنها سار إلى الحجاز للحج وزيارة المدينة، ثم عاد إلى دمشق ثم القاهرة فدخلها في صفر 713/ 1314. من هذه الحركة يبدو أنَّ السلطان قد شعر بالأمان والاستقرار بعد تخلّصه من الأمراء الكبار بالسجن والنفي والقتل، والهروب كذلك من الخطر الخارجي من المغول، حيث لم يتمكّن من تأدية فريضة الحج من السلاطين قبله سوي الظاهر بيبرس. إلا أنّ الصلح النهائي مع المغول لم يبرم إلا بعد ذلك بحوالي عشرة أعوام. فقد أرسل الناصر محمد الأمير سيف الدين أيتمش المحمدي للإيلخان أبوسعيد (آخر الإيلخانات الأقوياء حكم 716/ 1316 – 736/ 1335) في رجب 722/ 1322 لعقد الصلح مع مغول فارس. أجتمع أيتمش مع الإيلخان وتم عقد الصلح النهائي، وأعلن هذا الصلح في خطبة الجمعة في

تبريز في أوائل العام التالي 723/ 1323. عاد أيتمش بنسخة الصلح التي حلف عليها كل من الإيلخان أبوسعيد ونائبه جوبان ثم وصلت رسل أبوسعيد للقاهرة لتحليف الناصر محمد عليها وتم ذلك في الرابع عشر من جمادى الآخر 723/ 1323. وبذلك يسدل الستار نهائيًا عن أشرس صراع خاضته مصر المملوكية بل ومصر الإسلامية في تاريخها الطويل بعد سبعون عامًا من الحروب تخللها سبع مواجهات ميدانية ضخمة وعدد لا يحصى من المناوشات العسكرية خرجت منها مصر المملوكية منتصرة على المغول أقوى قوة عسكرية في حينها وأصحاب أكبر أمبراطورية عرفها تاريخ الأنسانية ليومنا هذا.

لم تتعرض دولة الناصر الثالثة لأيِّ هجوم خارجي بعد هذا، واقتصرت غزوات وحروب الناصر على مناوشات ومعارك محدودة في الشمال والجنوب، فقد غزا ملطية في الشمال في نهاية 714/ 1315 ولم يمكث بها طويلاً كما هاجم الأرمن، وأغار على عاصمتهم سيس ثلاث مرات، وفرض عليهم دفع الجزية واستولى على جزيرة أرواد في محرم 702/ 1302 (جزيرة صغيرة في البحر الأبيض قباله طرابلس) وكانت آخر معاقل الصليبيين والباقي كان حملات تأديبية للعرب باليمن والحجاز أو جنوبًا، فإنّه غزا بلاد النوبة في 716/ 1516 وذلك لتغيير ملكها (المقريزي، السلوك، 2: 72 – 122؛ النويرى، نهاية الأرب، 32: 150 – 203؛ ابن تغري بردي، 9: 3– 36، ابن حبيب، تذكرة النبيه، 2: 19 – 53).

3 – الاسترخاء العسكري:

بزوال الخطر الخارجي، ومع الاستقرار الداخلي بدأت مرحلة جديدة من الاسترخاء العسكري تتمثل في عدة مظاهر سوف نعرضها لاحقًا، ثم بدأت مرحلة الرخاء الاقتصادي نتيجة للسياسة المالية للسلطان الناصر. أبرز مظاهر هذا الاسترخاء هو عناصر القيادة، ومقومات الترقّي في الخدمة وأساليب التدريب. علمًا بأنَّ الجيش المملوكي لن يواجه مخاطر خارجية – باستثناء أعمال القرصنة والغارات الساحلية – لمدة تصل إلى قرنٍ من الزمان بعد النصر النهائي في موقعة قشحب. وكذلك من مظاهر هذا الاسترخاء هو الاهتمامات الشخصية للسلطان مُقارنةً بالسلاطين السابقين من الآباء المؤسسين للدولة وهذه العوامل كان لها آثار طويلة المدى على الدولة.

من مظاهر الاسترخاء أيضًا هي علاقة الناصر بجيشه، فلم يكن للسلطان خلفية عسكرية،

و لم تذكر لنا المصادر أنّه كان يقوم بعرض جيوشه والتفتيش عليهم مثلما كانت الأحوال في الدولتين الركنية بيبرس، والسيفية قلاوون. خلال دولته الثالثة لم يخرج الناصر إلى الشام إلا مرةً واحدة في جُمادى الأولى 717/ 1317 فخرج سرًا إلى غزة، وزار القدس والخليل، ثم الشوبك للصيد، وعاد إلى القاهرة مرةً أخرى دون دخول دمشق أو شمال سوريا على عكس أسلافه الذين قضوا أكثر من نصف وقتهم في الشام، حيث كان الاستنفار العسكري وخطر مواجهة العدو الخارجي وترك إدارة الشام إلى نائبة بدمشق تنكز الحسامي، وكانت أسفاره خارج مصر بغرض الحج، فقد أدّى فريضة الحج ثلاث مرات وهو ما لم يفعله أيّ سلطان مملوكي غيره نتيجة لحالة الاسترخاء والاستقرار. كان أيضًا يمارس لعبة الكرة أو البولو، ولكنْ بدرجةٍ أقل من أسلافه، وقام بإلغاء الكثير من الميادين العسكرية المخصّصة لعرض العسكر، أو ممارسة التمارين العسكرية مثل ميدان جزيرة الفيل (شبرا حاليًا) والذي حوّله إلى بساتين، وميدان القبق الذي تحوّل إلى جبانة، وميدان السباق خارج باب القرافة الذي تحوّل إلى جبانة هو الآخر. كما أنشأ ميادين أخرى في الرميله تحت القلعة وسرياقوس.

في حين كان الظاهر بيبرس وخليفته قلاوون يشجعا الأمراء والأجناد على ممارسة التمارين العسكرية كرمي السهام والرمي بالرمح، وشاركوهم بصفة شبه يومية (كان الظاهر بيبرس يقوم بتصنيع السهام في أوقات فراغة كهواية) فإن الناصر – لتشككه في ولاء جنوده وخوفه المرّضي على سلطنته – منع المماليك والأجناد من الاجتماع مع بعضهم في نزهة أو غيره، ومنعهم من رمي السهام أو حتى حملها، و لم يجرؤ أحد على مخالفته. (المقريزي، السلوك، 2: 532). بدلاً من هذا مارس السلطان هوايات غير عسكرية كصيد الجوارح والصقور وجمع الجواهر، واقتناء الجياد والهجن، وشراء الجوارى والمماليك ذوي الجمال والصوت الحسن والاحتفالات المختلفة، وكلّها من مظاهر الاسترخاء.

على عكس الآباء المؤسسين اتسّمت إدارة الناصر بكثرة التغيير، والانفراد بالحكم، والانقلاب على مماليكه والتنكيل بهم. فعند عودته للسلطنة كان أكبر منصب بعد السلطان هو منصب نائب السلطان، وكان سلار هو أول نائب، ثم بيبرس الداودار لمدة قليلة حتى نصّب مملوك أبيه وصديقه الذي صاحبة في منفاة مرتين صغيرًا بالكرك والذي تربّي وتعلّم معه أرغون الدوادار في منصب النائب في بداية سلطنته في جمادي الأولي 712/ 1312. واستمر في هذا المنصب حتى انقلب عليه بدون سببٍ واضح وقبض عليه، ثم نفاه كنائب في

حلب في مُحرّم 727/ 1326 ورقَّ له فلم يقتله، و لم يعين نائبًا له بعده حتى النهاية، وأبطل هذا المنصب الرفيع لينفرد بالسلطة. ولعلّ أبرز أمثلة انقلابه على أمرائه ومماليكه هو تنكز الحسامي وهو أيضًا من أخصّ مماليكه جعله نائبًا لدمشق في ربيع الثاني 712/ 1312 ثمّ جعله مشرفًا على جميع نواب الشام الآخرين مثل حلب وحمص وحماة وغيرها، بحيث لا يمكنهم مخاطبة السلطان إلا عن طريقه، وتزوّج ابنته، وأنعم عليه أموال وهدايا وتشريف فوق الحصر والخيال، وظلّ في هذا المركز زهاء ثمانية وعشرين عامًا حتى بدت مظاهر الخلاف بينهم في 740/ 1340 في أمورٍ بعضها بسيط مثل رفض تنكز وساطة الناصر للعفو عن أحد مماليكه (عُرف تنكز بحدة الخلق وسوء الانتقام) وتجاهل بعض أوامر السلطان وقام بمعاقبة بعض مسيحي الشام بدون الرجوع إلى السلطان، مما يُعتبر أستفزازًا لإمبراطور القسطنطينية، وتعريض تجار المسلمين بها للأذى وربما أيضًا أسباب أخرى منها مُماطلته في تجهيز بنتين له للعقد على أثنين من أبناء السلطان، ويبدو أنَّ تنكز شعر بتغير السلطان عليه، فاستعدَّ للهرب إلى بلاد فارس؛ ولكنّ السلطان بادر بالقبض عليه وإرساله إلى القاهرة حيث تمَّ قتله أخيرًا في محرم 741/ 1340 بالإسكندرية، وصادر أمواله، و لم يغفر له طول خدمته أو قرابته أو ضعف صحته وتقدم عمره، وسوف يأتي ذكر تخلّص الناصر من ملكتمر الساقي أخصّ أمرائه الخاصكية هو وولده عند عودته من الحجاز بعد أداء حجته الثالثة في 733/ 1333.

بالإضافة إلى إلغاء منصب النائب، فقد قام الناصر بتعيين العديد من الشخصيات في منصب الوزارة – وكانت أجلّ المناصب الإدارية الغير عسكرية يتقلّدها قضاه من أهل القلم أو أمراء من أهل السيف، فأضعف أولاً السلطان ذلك المنصب باستحداثه منصب ناظر الخاص، ونقل إليه الكثير من المسئوليات المالية للوزير، وتعاقب على منصب الوزير العديدون حتى قام في النهاية بإلغائة تمامًا، وكان آخرهم الجمالي مغلطاي في رجب 729/ 1329. وبذلك استبدَّ السلطان بالإدارة المدنية بشكلٍ كامل. وبإلغاء منصب الوزير برز منصب آخر هو منصب حاجب الحجاب وتولاّه الماسُ الحاجب، وأصبح من أكبر الأمراء حتى عزله الناصر وقبض عليه في ذي الحجة 733/ 1333 لشكّه في ولائه نظرًا لعلاقته القوية مع بكتمر الساقي، ثم قُتل بعدها في مدينة الإسكندرية.

بالنسبة لعناصر القيادة فإن الناصر محمد بعد تخلّصه من أمراء أبيه وأخيه اتجه كالعادة إلى ترقية مماليكه، وتوليتهم المناصب العليا، ولكن شتّان بين هؤلاء المماليك وسابقيهم من

المماليك المخضرمين المحنّكين الذين ترقّوا في الخدمة عن طريق إنجازاتهم وقدراتهم بعد مدة طويلة في التدريب، وحصلوا على الثروة والنفوذ ببطء وعن استحقاق، وهم الذين تحمّلوا عبء المعارك الكبرى في نصف قرن من الصراع.

لتوضيح تلك الفكرة سنعرض لنماذج من كبار أمراء دولة الناصر محمد الثالثة، وكيفية نشأتهم وأسباب رقيهم وسياسة الناصر معهم. ومن المعروف أنّ كل سلطان مملوكي كان يحاول جاهدًا شراء أكبر عدد من المماليك السلطانية، حيث إنهّم يُشكّلون قاعدة ملكه، وقوته الضاربة الرئيسية. و لم يختلف الناصر محمد عن هذا، ولكنه ربما لسرعة حاجته إلى مماليك جدد ليحلّوا محلّ كوادر المماليك الذين تخلّص منهم، وفي مواجهة صعوبة العثور على خامة صالحة في البلاد المصّدرة للمماليك مثل القبجاق وبراري آسيا الوسطى والقوقاز وجورجيا، فإنّه غضّ النظر عن نوعية المماليك أو سنهم أو فترة تدريبهم. ولكسب ولائهم في فترة وجيزة أغدق عليهم الأموال، وأكثر في الإطراء بهم بدون سبب حقيقي، والتغاضي عن هفواتهم. كما أنه لم يتوانَ عن إدخال عناصر جديدة إلى زمرة المماليك بعضهم ممَّن لم يمسهم الرق، وبعضهم من أبناء الجيل الثاني، وبعضهم من أسرى الحرب. هذا يشكل تغييرًا جذريًا عن سياسة الآباء المؤسسين.

من أهم أمراء وخواص دولة الناصر الثالثة قوصون الساقي، وبكتمر الساقي، وبشتك، وأقبغا عبد الواحد، وبهادر الدمرداشي، والطنبغا المارديني، وتنكز الحسامي وآخرون سوف تتكرر أسماؤهم لدورهم الهام في أحداث وتطور الدولة في الثلاثين عامًا القادمة. سنعرض اختصارًا فقط خلفيات هؤلاء الأمراء لبيان ظروف نشأتهم، وترقيتهم المخالفة لسابقيهم أمّا تطورهم الوظيفي بعد هذا فسيكون ضمن أحداث السلالة القلاوونية.

نبدأ بقوصون الساقي؛ لأنه نموذج صارخ لهذه الظاهرة فهو لم يكن مملوكًا ممَّن مسهم الرق، بل كان تاجرًا في بلاده الأصلية بالقبجاق حضر إلى مصر في 720/ 1320 ضمن حاشية أميرة من القطيع الذهبي كانت عروسًا للناصر محمد، وكان قوصون في سن حوالي ثمانية عشر عامًا طويلاً وسيمًا جميل الشكل، رآه الناصر محمد، وأعجب به وطلب شراءه، و لم يكن رقيقًا قابلاً للبيع إلا أنَّ الناصر أصر على شرائه ودفع إلى أخيه صوصون (كان أحد أمراء المماليك بمصر) مبلغًا من المال فأصبح مملوكه، ثم أعتقه وجعله ساقيًا ضمن حاشيته، ثم سرعان ما جعله أميرًا، ثم مقدم ألف، وأغدق عليه بالأموال والهدايا، وزوّجة ابنته في 727/ 1327

حتى صار من كبار الأمراء دون أن يمرّ بمرحلة التدريب، أو التعليم أو الخدمة العسكرية (ابن حجر العسقلاني، الدرر، 3: 257؛ ابن تغري بردي، المنهل، 9: 107 – 108).

كان المنافس الأول لقوصون هو بكتمر الساقي، وكان مملوكًا للمظفّر بيبرس مِمَّن مسهم الرق انتقل إلى خدمة الناصر، وكان جميل الشكل حسن القوام، فأُعجب به وجعله ساقيًا أي من حاشية السلطان (الخاصكية) و لم يل أيًا من الوظائف الكبرى، ولكنّ السلطان كان قريبًا منه جدًا ومن ابنه أحمد وزوجته، يبيت عند بكتمر، ويأكل عنده. ولذلك اتسع نفوذه للغاية، وزادت أمواله، واقتنى القصور والجياد والملابس والمجوهرات والأسلحة؛ ولكنّه كان حكيمًا عاقلاً عادلاً، ثم ذهب للحج مع السلطان في 733/ 1332 وفي أثناء العودة توفي أحمد بن بكتمر فجأة، ثم توفّي بكتمر نفسه بعده بثلاثة أيام ويبدوا أنَّه حدث بينهم شقاق خلال فترة الحج، وبالطبع اعتقد الجميع بمن فيهم زوجة بكتمر أنّ السلطان قتله هو وابنه، وواجهته بهذه التهمة، وأظهر الناصر الندم بعد هذا، وهذه صورة أخرى لصور الأمراء الذين يترقّون إلى الخدمة، ويجمعون السلطة والثروة نتيجة لحظوتهم عند السلطان بدون سببٍ واضح (ابن حجر العسقلاني، الدرر، 1: 486 – 487؛ ابن تغري بردي، المنهل، 3: 390 – 397).

بشتك الناصري لم يكن مملوكًا أيضًا جاء إلى مصر لسبب طريف وهو أنَّ السلطان طلب من مجد السلامي (تاجر المماليك الخاص بالسلطان) مملوكًا يشبه أبا سعيد خان مغول فارس (716/ 1316 – 736/ 1335) وكان معاصرًا للناصر محمد، فوجد المجد بُغيته في بلاد مغول-القبجاق (القطيع الذهبي) في بشتك هذا وكان شابًا يبيع الخمر ولكن شديد الشبه بالخان أبي سعيد فأحضره إلى القاهرة، فاشتراه الناصر وعهد بتدريبه إلى قوصون الناصري (وهو غير متدرّب أصلاً) ثم أعتقه وقرّبه منه، وأنعم عليه بثروة بكتمر الساقي عند وفاته، وزوّجة بأرملته، ثم جعله أميرًا كبيرًا وأصبح المشار إليه في الدولة على الرغم من أصله الوضيع، وغروره وتيهه بنفسه، وفساد أخلاقه لملاحقته الدائمة للنساء العزيزة منهنَّ والوضيعة (ابن حجر العسقلاني، الدرر، 1: 477 – 479؛ ابن تغري بردي، المنهل، 3: 367 – 373).

الطنبغا بن عبد الله المارديني الناصري أيضًا مثل صارخ لسياسة الناصر محمد في سرعة ترقية أمرائه والإغداق عليهم بالأموال منذ أن اشتراه صغيرًا من بلدة ماردين، وشغف به وأحبّه فجعله ساقيًا وزوّجه ابنته، وأصبح غنيًا جدًا على سبيل المثال منحه السلطان مائة ألف دينار في

إحدى المناسبات حتى أنّه بنى جامعه الشهير (اثر 120، 739 – 40 / 1339 – 40) والذي مازال قائمًا إلى الآن بالدرب الأحمر بالقاهرة قبل أن يلي الإمارة، وفي نفس الوقت رقاه الناصر حتى أصبح أمير مائة مقدّم ألف في عام 735/ 1334 وتوفي في عام 744/ 1343 وعمره خمسة وعشرون عامًا أي أنّه أصبح أمير مائة وعمره ستة عشر عامًا، وهو بالطبع لم يتلقَّ التدريب الديني أو العسكري الكاف لمثل هذه الإمارة (ابن حجر العسقلاني، الدرر، 1: 409؛ ابن تغري بردي، المنهل، 3: 67 – 70).

ملك تمر الحجازي مثل آخر على الطريقة الغير التقليدية – أي خلاف طريقة الآباء المؤسسين– التي يختار بها الناصر مماليكه وأمراءه فهو كان عراقيًا من بغداد في خدمة أحد علمائها، وكان حسن الوجه طويلاً معروفًا بالجمال والوسامة، حتى أنه لُقّب ملكتمر البديع الجمال فسمع عنه الناصر، فكلّف تاجره المجد السلامي باقتنائه رغم أنّه كان حرًا لا يُباع، غير أنّ الأخير تمكّن من اقتنائه وبيعه للناصر الذي شغف به شغفًا زائدًا، وجعله أمير مائة مقدم ألف، وزوّجه من ابنة له أيضًا، فأصبح صهره وكان جوادًا حسن الخلق على الرغم من تهتّكه وحبِّه للهو والشّراب والنساء، فغفر له السلطان تلك الهفوات وإن أبعده عن مجالسه (ابن حجر العسقلاني، الدرر، 4: 358 – 359؛ ابن تغري بردي، المنهل، 11: 369 – 271).

هؤلاء كانوا أكبر أمراء الناصر في دولته الثالثة، وأغناهم وخاصكيته والقاسم المشترك بينهم هو الجمال والوسامة، و لم يتلقّوا التدريب التقليدي مثل أسلافهم أمراء الدولة الأُوّل، و لم يخوضوا مثلهم غمار المعارك، أو ذاقوا ضنك العيش وقلة الموارد، وشتّان الفرق بينهم وبين الأمراء الذين قدموا إلى مصر صغارًا، ومكثوا سنوات في الطباق للتعلم، وإتقان فنون الحرب، وتقاضوا مرتبات ضئيلة، وصعدوا في الخدمة ببطء حتى وصلوا إلى الثروة والسلطة عن طريق الكفاءة والإخلاص، وليس عن طريق الجمال والوسامة والتقرّب من السلطان. ولعلّ هذا يعود إلى معاناة الناصر في سلطنتيه الأولى والثانية من هؤلاء الأمراء الكبار القدامى لقوة شخصيتهم وطموحهم إلى السلطة والسلطنة، فتخلّص منهم جميعًا وأحل محلّهم أمراء من نوع جديد. ولا ندري طبيعة شغف الناصر بهؤلاء الأمراء المتميزين بالجمال والوسامة، فهل كأن نوعًا من الغرام الجنسي؟ أم أنَّ المدلول اللّغوي المستعمل له معان أخرى؟ المصادر المعاصرة لا تلقي الضوء على طبيعة مثل هذه العلاقة، وكان الشذوذ الجنسي معروفًا شائعًا؛

ولكن معظمه كان بين الأمراء والصّبية الصغار، وليس ما بين الأمراء وبعضهم البعض أو السلطان وأمرائه، وخصوصًا أنّهم كانوا أعمدة دولته، وزوّج الكثيرين منهم إلى بناته، ولذلك أميل إلى أنَّ هذا الشغف كان غالبًا لحب الناصر للجمال وللوجاهة، خصوصًا أنّ الناصر لم يكن متهتكًا أو ميّالاً للهو، و لم يُعرف عنه شرب الخمر مثلاً. وإن كان هذا الموضوع (أى الجنس المثلى) يحتاج إلى دراسة مُتخصِّصة بعيدة عن أغراض هذا المتن.

بالإضافة إلى هذا فإن الناصر كان يتميز بالمحسوبية، وتأمير أقاربه بدون سبب أو كفاءة واضحة، فالأمير أقبغا عبد الواحد كان أخو زوجته المفضّلة طغاي (أم أنوك). كما أغدق الإقطاعات والمناصب على بعض أبنائه وهم صغار دون سنّ الحُلم كذلك أكثر من إسباغ الإمرة على أولاد الناس أي أبناء المماليك، وهم من لم يمسّهم الرق على خلاف العادة القديمة (Levanoni, *Turning Point*, 28-72).

4 – سياسة الناصر الخارجية:

الناصر كان على اتصال بملوك الدولة الأخرى أيضًا، فعلي سبيل المثال لا الحصر (مازال النويري مرجعنا الأساسي) أرسل سفراء إلى أزبك خان القطيع الذهبي، والذين عادوا ومعهم سفراءه في ذي القعدة 720/ 1321. وبعدها بسنوات في رجب 728/ 1328 جاءت رسل السلطان إلى أزبك خان القطيع الذهبي ومعهم مندوبين منه، وتمّ تبادل الهدايا كالعادة، وعمومًا فقد استمرّت الصداقة التقليدية بين القطيع الذهبي والبلاط المملوكي كالعادة القديمة.

أعتمد الناصر على الدبلوماسية في علاقاته الخارجية أكثر من أعتماده على القوة العسكرية فتبادل السفراء مع أيلخانات فارس وخصوصًا أبو سعيد آخر الإيلخانات الأقوياء والذي حكم المغول معظم فترة سلطنة الناصر الثالثة ومعه عقدت مصر الصلح النهائي مع الدولة الإيلخانية كما رأينا (وإن لم يمتد هذا الصلح مع خلفائها حيث أن الدولة الإيلخانية إنتهت بعد وفاة أبو سعيد بشكل عملي). كانت بدايات هذه الدبلوماسية أن أرسل له أبو سعيد هدايا قيمة مع سفراء في محرم 720/ 1320 ثم ربيع الأول 721/ 1321 مره أخرى وفي العام الثاني في 723/ 1323 أرسل أبو سعيد بعثة كبيرة وطلب يد بنت السلطان لابن جوبان نائب الخان ولكن السلطان أعتذر بصغر سنها. ثم أرسل السلطان سيف الدين أيتمش

المحمدي أحد كبار أمراءه في جمادي الأول 726/ 1326 ومعه هدايا جليلة إلى أبو سعيد في رحلة أستغرقت أربعة شهور وفي نفس العام وصلت رسل جوبان نائب أبو سعيد ومعه أقارب الناصر (كانت والدته مغولية) فأنعم عليهم –بعد التأكد من نسبهم– بعدة امارات. ثم وصلت رسل أخرى باعادة الطلب في خطبة أبنه الناصر لابن جوبان و لم يوافقهم الناصر مرة أخرى ثم عادوا مرة أخرى لنفس السبب في رجب 727/ 1327 فوافقهم السلطان هذه المرة على أن يحضر الأمير وأسمه دمشق بن جوبان بنفسه وفي محرم 728/ 1327 وصلت رسل أبو سعيد مرة أخرى فأستقبلهم بحفاوه في منطقة الهرم واغدق عليهم بالهدايا كالعادة غير أنه وقع خلاف وصراع بين الملك أبو سعيد ونائبة جوبان أنتهت بقتل جوبان في هراه (بأفغانستان الآن) هو وولدين له منهم دمشق في منتصف عام 728/ 1328 وانفرد بذلك أبو سعيد بالسلطه.

أستمر أبو سعيد على مصانعة الناصر والإبقاء على علاقة الود والصداقة معه حتى كانت واقعة دمرداش (أوتمرتاش) ابن جوبان وكان نائبا للإيلخان أبو سعيد في بلاد الروم وكان على علاقة سيئة مع الناصر لمنعه المماليك الرقيق من المرور بأرضه فلما قُتل جوبان خشي دمرداش على نفسه ولجأ إلى السلطان في القاهرة أو دعاه الناصر إليه وأستقبله بحفاوة وأنعم عليه وعلى رفاقه وأرسل يطلب من أبو سعيد الصفح عنه. غير أنه سرعان ما تغير خاطر السلطان على دمرداش لعدة أسباب منها أنه كان كريما على أمرائه الكبار وغيرهم لكسب ودهم (الكرم المبالغ والغير مبرر من جانب الأمراء أو رجال الدولة كان دائمًا يثير شكوك وريبة السلطان) كما نما إلى علمه أنه (أي دمرداش) سيء النيه يطمع في السلطنة لنفسه وكان الناصر شكوكًا بطبعة فقبض عليه. ثم وصلت رسل من أبوسعيد تطلب تسليم دمرداش فوافق الناصر أولا ثم غيّر رأية وقتل دمرداش في محبسه وبعث برأسه مع سفراء أبوسعيد وسفيره أيتمش وذلك في شوال عام 728/ 1328 مما كان له أثرًا في تحسن العلاقات بين العدوين اللدودين ثم أرسل أبوسعيد في جمادي الآخر 729/ 1329 سفراء من كبار أمرائه المقدمين (الطومات) يطلب يد بنت السلطان لنفسه هذه المرة ومعهم هدايا كثيرة للسلطان والأمراء فأعتذر السلطان مرة أخرى وطلب الانتظار لمدة ثلاث سنوات على الأقل لصغر سنها.

كان المغول حريصون على صداقة الناصر وهو يشتري ودهم بالهدايا الفخمة والانعامات حتى أن الشيخ حسن الجلايرى وهو الذي أصبح نائب أبي بوسعيد بعد مقتل جوبان أرسل مندوبين إلى الناصر فور توليه المنصب ولا نعلم محتوى تلك الرسالة والشيخ حسن الجلايري

سيصبح الشخصية المسيطرة على الدولة الإيلخانية وهو مؤسس السلالة الجلايرلية التي حكمت من بغداد بعد وفاة الإيلخان أبوسعيد في 736/ 1335 (المقريزي، السلوك، 2: 310) وقد عرضنا لعلاقة الناصر بالدولة الإيليخانية -مرجعنا ألأساسي هونهاية الآرب للنويري وكان معاصرا للناصر محمد- بشيء من التفصيل لأهميتها ولعب تاجر المماليك الشهير المجد السلامي (توفى في 743/ 1342) دورًا كبير كوسيط بين الإيلخان أبوسعيد، والناصر حيث كان مقربًا من الإثنين، وربما كان جاسوسًا مزدوجًا لهما.

في جُمادي الآخر 723/ 1323 استقبل سفراء ملك الأرمن يطلبون تخفيض الجزية السنوية، والسماح لهم بإعادة إعمار أحد ثغورهم، فرفض السلطان طلباتهم بالرغم من تزكيتها من قبل رسل الإيلخان أبي سعيد (وكان عقد الصلح النهائي مع المغول حديثًا) حلفاء الأرمن التقليديين.

في محرم 726/ 1326 وصل سفراء ملك الحبشة ومضمون رسالتهم الطلب بإعادة فتح الكنائس المصرية التي خُربت كذلك حسن معاملة أقباط مصر، وهدّد الملك في الرسالة بأنّه إن لم يُستجاب لطلبه فإنّه سوف يسيء معاملة المسلمين بأرض الحبشة، ويمنع جريان النيل إلى مصر فاستهزأ بهم السلطان، وضحك من كلامهم، وأهانهم وطردهم (هل يعيد التاريخ نفسه اليوم من التعالي، وعدم الاكتراث بجذور مصر الأفريقية، وإهمال مصالحنا المائية الحيوية مع دول منابع النيل؟). لابد أنَّ هذه السفارة كانت كردّ فعل لمحنة الأقباط عام 721/ 1321 والتي هدمت فيها عشرات الكنائس في شتّى أنحاء مصر، وما أعقبها من حرائق ضخمة في عدة أماكن في القاهرة في وقت واحد، فألصقت التهمة بالأقباط وأتبع هذا إجراءات انتقامية عنيفة ضدّهم في واحدة من أبشع الفتن الطائفية في تاريخ مصر، والتي سنعرض لها بعد قليل. استغرق وصول هذه الأنباء إلى الحبشة وقدوم البعثة مدة أربعة أو خمسة أعوام.

وردت رسل ملك اليمن بعدها في ربيع الأول 726/ 1326 ومعهم هدايا جليلة، فأحسن الناصر استقبالهم وحملّهم بالهدايا أيضًا، وفي ربيع الأول 730/ 1330 وصلت رسالة عجيبة من فيليب ملك فرنسا (وتُسمِّيه المراجع الريدفرانس) عن طريق عكا يطلب فيها إعادة بيت المقدس والساحل الشامي إلى الفرنجة فاستنكر السلطان هذا، وأهانهم وطردهم بالطبع.

من السابق يبدو لنا هيبة وسطوة الدولة المصرية في هذا الحين، فالكلّ وخصوصًا الإيلخان

يتودّد إلى البلاط المملوكي والرسائل مُهذّبة لكسب الود والصداقة، أو تهديدات جوفاء مثل ملوك الحبشة وفرنسا قُوبلت بالاستهزاء والإهانة، وكانت السياسة العامّة هي المُهادنة والسِّلم، والبعد عن القيام بمغامراتٍ عسكرية ببذل المال في الهدايا والمساعدات، أو في أعمال الاغتيال السياسي عن طريق بقايا الطائفة الإسماعيلية، خصوصًا مع أعداء الناصر من أمراء المماليك الفارين إلى فارس مثل قراسنقر، وأجمل ابن تغري بردي هذه السياسة في قوله:

"وكان الملك الناصر كثير الدهاء مع ملوك الأطراف يهاديهم، ويستجلبهم إلى طاعته بالهدايا والتحف حتى يُذعنوا له، فيستعملهم في حوائجه، ويأخذ بعضهم ببعض وكان يصل إلى قتل من يريد قتله بالفداوية (الإسماعيلية) لكثرة بذله لهم الأموال" (ابن تغري بردي، النجوم، 9: 176).

5 – الرخاء – السياسة الاقتصادية والروك الناصري:

أمّا سياساته الاقتصادية والإدارية فتشكّل الدعامة الثانية لدولة الناصر الثالثة، لتثبيت ملكه وهي أيضًا أحدثت تغيرًا جذريًا وخروجًا عن العادة القديمة للآباء المؤسسين. وتتمثّل تلك السياسة في محورين الأول هو الروك الناصري، والثاني هو استحداثه لمنصب ناظر الخاص وهو المسئول الأول عن تنفيذ السياسة المالية للسلطان، وواكب هذا تغييرات إدارية أحدثت تغييرًا جذريًا بإلغائه أهم منصبين في الدولة بعد السلطان، وهم نائب السلطنة والوزير، وأحلّ محلّهما وظائف أخرى لإحكام سيطرته على كافّة أجهزة الدولة العسكرية والمالية والإدارية.

الركن الأساسي في السياسة الجديدة كان هو عملية قياس ومسح جميع الأراضي المصرية المقطّعة، وحصرها وتحديد عبرتها (أي دخلها) بالإضافة إلى الإيرادات الأخرى الملحقة بها، وإعادة توزيعها على السلطان والمماليك والجنود فيما يُعرف بالروك الناصري. سبق لنا أنّ ذكرنا أن السلطان حسام الدين لاجين في فترة سلطنته القصيرة قد قام بعمل روك مماثل يُسمّى بالرّوك الحسامي، والذي أثار الأمراء والمماليك والجنود ضدّه، وكان أحد الأسباب القوية التي أدت إلى خلعه وقتله بعد هذا.

هذا هو الروك السابع منذ دخول الإسلام مصر في القرن السابع الميلادي إلى نهاية العصور الوسطى في القرن السادس عشر الميلادي. أوّلها كان في الدولة الأموية حوالي عام 97/ 715 والثاني في نهاية الدولة الأموية أيضًا في 125/ 743 والثالث في الدولة العباسية قبل تقلّد ابن طولون حكم مصر في 253/ 867 والرابع هو الروك الأفضلي نسبة إلى الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمّال في الدولة الفاطمية في 501/ 1107 – 1108 والخامس هو الروك الصّلاحي في دولة الناصر صلاح الدين الأيوبي 572/ 1176 والسّادس هو الروك الحسامي في دولة حسام الدين لاجين (709/ 1309) (المقريزي، السلوك، 2: حاشية 1، 146).

الدافع المباشر لهذا الروك هو أنَّ السلطان أراد أن يحرم الأمراء الكبار أمراء والده المنصورية والبرجية، والذين كانوا أصحاب إقطاعات كبيرة من دخلها، فيفقدهم القدرات المالية وقاعدة قوتهم السياسية. ولكنَّه خشي من الفتنة إنْ أقدم على هذا العمل ومصادرتهم بشكلٍ مباشر، فاتفق هو وناظر الجيش فخر الدين محمّد بن فضل الله (توفي في 732/ 1332) (المسئول عن الشئون المالية والإدارية للجيش) على إعادة توزيع هذه الإقطاعات. ففي شعبان 715/ 1315 قام السلطان بإرسال عددٍ من أمراء المماليك مع مساعديهم إلى كافّة أنحاء القطر المصري في الدلتا والصعيد، وعند نزولهم في كلّ بلد يجتمعون مع شيخ البلد ودليلها، وهو الشَّخص العليم بأسماء المزارعين بتلك المنطقة وأعيانها كذلك المساحين لقياس مساحة الناحية والاطّلاع على سجلاّتها، لتحديد إيرادات المنطقة بالكامل تحديدًا دقيقًا ويسجّل هذا في أوراق خاصة من عدة نسخ، وانتهى الأمراء من مسح وتقدير إيرادات جميع نواحي القطر المصري في مدة خمسة وسبعين يومًا، ثم قدمّوا نتائج عملهم إلى السلطان. وكما هي العادة قُسِّمت تلك الإقطاعات إلى أربعة وعشرين قيراطًا قام السلطان بتجنيب عشرة قراريط منها تحتوي أجود الأراضي الزراعية في مصر، وأكثرها إيرادًا لنفسه مما يسمَّي الخاص السلطانية؛ وذلك بدلاً من أربعة قراريط كما كان الوضع سابقًا في الروك الحسامي. بعد انتهاء أعمال المسح قام بإعداد مثالات (وهي صكوك كل منها تشمل منطقة معينة أو إقطاع حُدِّد فيه مساحته وإيراداته وغيره من حقوق صاحب المثال) لباقي الأراضي، وكانت بالطبع غير متساوية فبعضها ذات إيراد مرتفع وأخرى منخفض. ولكسب ولاء الأهالي قبل قيامه بتوزيع المثالات (الإقطاعات الجديدة) قام السلطان بإلغاء العديد من الضرائب والمكوس التي كانت سائدة في هذا الوقت تحسبًا لأية قلائل قد يثيرها الأمراء أو الأجناد الذين قد لا يرضون بنصيبهم كما حدث خلال الروك الحسامي.

أهم ما أُلغي على سبيل المثال لا الحصر هو ضريبة الغّلة، وكانت ضريبة مفروضة على سائر الغلال من قمح وذرة وشعير الواردة إلى ساحل الغلال على النيل في بولاق (امتداد شارع ماسبيرو في بولّاق حاليًا) كذلك ما يُعرف بنصف السمسرة وهي ضريبة أو عمولة تُفرض على جميع أعمال البيع والشراء، وضريبة على بيوت الدعارة والفواحش من النساء، وضريبة تُفرض على شراء البيض والدجاج، وضريبة تُفرض على كلّ من دخل السجن، وضريبة على مُزارعي القصب ومعاصرها، وضريبة على الأفراح ورسوم مفروضة على أصحاب المراكب والبحارة وغيره من الضرائب مما كان له أثر كبير في زيادة شعبية السلطان في نظر رعاياه.

أحدث أيضًا تغييرًا آخر كبيرًا في الجزية المفروضة على أهل الذمة أو الجوالي (جمع جالية) وهي ضريبة مفروضة على كلّ قبطي أو يهودي، وكان لها ديوان مركزي بالقاهرة يُسمَّى ديوان الجوالي ويخصّص دخله للسلطان، فألغى السلطان هذا الديوان، وأصبح إيراد الجوالي ضمن إيرادات الإقطاعات طبقًا لمكان أقامة أي من أهل الذمة. كما قام بالمسامحة على، وإلغاء الضرائب الغير محصّلة حتى تاريخه في نهاية محرم 716/ 1316.

بعد هذا بدأ السلطان في توزيع الصكوك (المثالات) للإقطاعات بنفسه فيقوم يوميًا باستقبال الأمراء والمماليك والأجناد في مقر إقامته بالقلعة، ويسأل كل منهم على اسمه وأصله، والمعارك التي خاضها وغيرها من المعلومات، ثمّ يقوم بتسليمه مثال أوصك الإقطاع بطريقة عشوائية وكان حازمًا في ذلك حزمًا شديدًا فلا يغيّر نصيب أي من أصحاب الإقطاعات مهما كان السبب، ولم يقبل نصيحة أو واسطة من أي من أمرائه – على الرغم من حضورهم عملية التوزيع – وخيَّر كبار السن من المماليك المعتزلين الخدمة بين أن يحصلوا على إقطاع أو مرتب (جامكية) حتى انتهى تمامًا من توزيع الإقطاعات على الجميع، وفاض معه حوالي مائتي صك (المقريزي، السلوك، 2: 146 - 157؛ الخطط، 1: 87 - 91؛ النويري، نهاية الأرب، 32: 227 - 231؛ ابن تغري بردي، النجوم، 9: 42 - 55؛ Levanoni, *Turning Point*, 142 - 146).

بذلك حقّق السلطان أهدافه من حيث زيادة موارده الخاصة (الخاص السلطاني) زيادة ضخمة، وحرمان معارضية من مواردهم المالية الضخمة، وزيادة شعبيته بإلغائه الكثير من الضرائب والمكوس، وإضعاف سلطة الأمراء ونفوذهم، وذلك بتخصيص إقطاعاتهم مقسّمة على عدة مناطق من القطر المصري، وزيادة سطوته وهيبته؛ لأنّه تمكّن من فرض إرادته في

توزيع الإقطاعات والمخصّصات المالية منفردًا بدون تدخل أيٍ من الأمراء أو كبار رجال الدولة، ليؤكّد استبداده وانفراده بالحكم.

من المناصب الهامة التي استحدثها الناصر محمد هي منصب ناظر الخاص بدلاً من وكيل السلطان، وصاحب هذا المنصب يختصّ بالإدارة المالية الخاصة بالسلطان من حيث تدبير الموارد، وضبط النفقات، وأول من تولّى هذا المنصب هو أكرم بن هبة الله القبطي المعروف بكريم الدين الكبير في 709/ 1309 وهو مسلماني أي أنّه كان قبطيًا ثم تحول إلى الإسلام، وكان مسئولاً عن ديوان المظفّر بيبرس عند خلعه، وهو الذي أعاد أموال الخزانة وممتلكاتها التي استولى عليها المظفّر إلى الناصر في بداية حكمه، وكلّفه الناصر بعد ذلك بتحصيل أموال المظفّر فأدى عمله بإتقان وجمع أموالاً كثيرة تقاسمها السّلطان مع ابنه المظفّر ووريثته الوحيدة، وبذلك استحوذ على ثقة الناصر فعينه ناظر الخاص، وتمكّن من الناصر حتى أنّه أقنعه بإلغاء منصب الوزارة، وانفرد هو بالشئون المالية، وترك الشئون الإدارية للوزارة إلى ابن أخته كريم الدين الصغير، وسُمِّي ناظر الدولة أو ناظر الدواوين.

استمر كريم الدين الكبير في سياسة جمع الأموال، وإنفاقها لتنفيذ طلبات الناصر وعلى أسلوب حياته المرفّهة، وتوزيع العطايا والهبات على الأمراء وكبار رجال الدولة، لكسب ودّهم وولاءهم. وكان مقربًا للسلطان حتى أنّه بنى له بيتًا ببركة الفيل، وأرسله للحجّ مع زوجته المفضّلة خوند طغاي، وبالطبع جمع كريم الدين هذا أموالاً جمّة لنفسه إلى جانب تنامي نفوذه، حتى أنه توسّط في الصلح بين الناصر محمد، وإيلخان المغول أبي سعيد. غير أنَّ السلطان تغير عليه لأنّه كان كثير العطاء على الأمراء والحاشية بدون مشورة السلطان، ممّا أثار ريبته وغضبه فقبض عليه، فنفاه إلى الشوبك ثم القدس، ثم صادر أمواله وقبض عليه، وأعاده إلى مصر، ثم نفي إلى أسوان حيث وُجد مشنوقًا في 724/ 1324 (ابن حجر العسقلاني، الدرر، 1: 401 – 404).

يبدو أنّه بعد عزل ووفاة كريم الدين – وكان حسن التدبير حتى أنّه كان يمتنع عن صرف الأموال للسلطان نفسه بحجة خواء الخزانة – ومع تزايد نفقات ومتطلّبات السلطان تفاقمت الأزمة المالية، ورغم الزيادة المضطردة في الموارد المالية، فإنّها عجزت عن الوفاء بالمطلوب وتوالى عدد من الشخصيات على منصب ناظر الخاص؛ ولكنّهم لم يتمكّنوا من القضاء على عجز الموازنة، وهنا تظهر شخصية من أكثر الشخصيات المثيرة للجدل في دولة الناصر محمد

الثالثة، وهو شرف الدين عبد الوهاب ابن فضل الله المعروف بالنشو. ففي صفر 732/ 1331 عيّنه السلطان في ديوان ولده المفّضل أنوك لإعجابه بطريقة كلامه كمستوفي أيّ محاسب وهو مسلماني أيضًا كان قبطيًا، وتحوّل إلى الإسلام وكان النشو بشوشًا طويلاً حسن الشكل، فأصبح يجالس السلطان ويتكلّم معه كلامًا كثيرًا عن إدارة الدووابن، وعن قدرته على زيادة موارد السلطان المالية الخاصة، فأُعجب به الناصر، وعندما خلا منصب ناظر الخاص قام بتعيينه في هذا المنصب في رجب 732/ 1332.

نظرًا لزيادة نفقات السلطان الشخصية لكثرة شرائه المماليك والجياد وأعمال الإنشاءات والنفقات الضخمه عند تزويجة بناته، وكثرة هباته وعطاياه، فكان على النشو تدبير الموارد المالية لمقابلة هذه النفقات، وابتكر في هذا المضمار أساليب عديدة من المصادرات للأمراء والأغنياء، واستعمل أساليب التعذيب والتنكيل لاستخراج الأموال، حتى أنّه صادر أموال المواريث اليتامى مما أكسبه كراهية الجميع ولكن السلطان – على الرغم من علمه من أساليب النشو، وكراهية الجميع له – سكت عنه طالما كان يقوم بجمع الأموال اللازمة، فقام هو وأخوه المخلص بإغراء السلطان ضد مباشريه (موظفيه) في الوجه القبلي، فأمر السلطان بالقبض عليهم جميعًا وسَجْنهم ومصادرتهم ومن أساليبه أيضًا أن ألزم بشراء بضائع من السلطان بثلاثة أضعاف ثمنها الحقيقي وكان يقوم بابتزازهم التجار وتهديدهم بالسجن مقابل التنازل عن مستحقّاتهم، والأمراء الكبار ساكتون عنه طالما لم يمسّ مصالحهم.

ولحاجة النشو لمصادر مالية جديدة غيّر تلك السياسة، وبدأ في مُلاحقة كبار الأمراء مثل قوصون، وبشتاك، وأقبغا عبد الواحد ومساعديهم، ووجه لهم تُهم التهرّب من الضرائب والإتجار في الخمور، ومخالفات في صناعة الزجاج وغيره وهنا بدأ الأمراء في الانقلاب عليه، وطالبوا الناصر مرارًا بالتخلّص منه وهو يرفض اقتناعًا منه بإخلاص النشو له وعِفّة يده –حيث كان النشو دائم الادّعاء بالفقر والفلس، حتى أنّه كان يقترض الدراهم القليلة من السلطان– ويتحجّج السلطان بأنّ أمواله سوف تضيع في حالة قتله النشو فجأة، ولكنّ الأمراء تمكّنوا في النهاية من إقناع السلطان ومن فرض رأيهم عليه فتمَّ القبض على النشو وأخيه وأمه وعائلته، وعذّبوه فمات أخوه وأمه تحت العقوبة؛ وذلك لاستخلاص أموال النشو. وبالبحث وجد عنده وعند إخوته أموالاً ومنقولات ضخمة للغاية مع أنه كان يدَّعي الفقر، ومع هذا لم يلبِّ السلطان طلب الأمراء بقتل النشو مباشرة مع استمرار اعتقاله، ووقع خلاف ووحشة بينه وبين

كبراء أمرائه بسبب النشو حتى اجتمعوا به أخيرًا في مجلس المشورة، وقرروا قتل النشو وفعلاً قُتل تحت العقوبة في ربيع الآخر 740/ 1339 (ابن حجر العسقلاني، الدرر، 2: 429 - 430؛ ابن تغري بردي، المنهل، 7: 390 - 393؛ Levanoni, *Turning Point*, 73-80).

من سياسات الناصر الاقتصادية الأخرى أنه اعتنى بالزراعة وأولاها اهتمامًا كبيرًا، وخصوصًا في منطقة الجيزة (ضمن الإقطاعات السلطانية)، وأمر بشقّ الترع وتطهيرها وبناء الجسور في الكثير من الأراضي حتى خارج إقطاعه لتنمية الزراعة، كما استصلح الكثير من الأراضي في الشرقية وفوة وغيرها، بعد أن كانت خرابًا كما أقام الكثير من السدود والبساتين خارج مدينة القاهرة، حتى أنَّ الأراضي الزراعية في عهده زادت بمقدار النصف (ابن تغري بردي، النجوم، 9: 190– 198) كذلك اهتمَّ بالصناعة وتطويرها، وخصوصًا صناعة السكر والنسيج، واستثمر الكثير من الأموال بها.

يبدو أنّ عزل النشو لم يغير كثيرًا من السياسة النقدية والاقتصادية فإنَّ خليفته كناظر الخاص ويُدعى جمال الكفات اتبع نفس السياسة والأساليب نفسها، فأولاً خفّضت قيمة العملة فأصبح الدينار الذهب يساوي خمسة وعشرين درهمًا (عملة السوق) بدلاً من عشرين وهو تخفيض يساوي الربع تقريبًا، وامتنع الكفات أيضًا من دفع كثير من ديون التجار، أو دفع بعضها على أساس السّعر الجديد للعملة مما سبّب لهم خسائر فادحة، ويبدو أنّه لم يكن هناك فصل واضح بين الخزانة العامة للدولة وأموال السلطان الخاصة، ولكن دراسة الاقتصاد والمالية المملوكية بصورةٍ تفصيلية خارج نطاق هذا الكتاب.

تدهورت الأحوال المالية في نهاية دولة الناصر حتى أنّه اضطر لإدارة أموره المالية بنفسه أحيانًا، وأمر بخفض النفقات السلطانية. على الرغم من الزيادة الضخمة لموارده المالية فإنَّ نفقاته فاقتها وخصوصًا في ثلاث نواحٍ أوّلها العمائر والمنشآت العديدة التي أقامها لنفسه ولأمرائه وللدولة، وسنعود إليها بصورةٍ أكثر تفصيلاً فيما بعد، وثانيها هو سياسته في الاستكثار في شراء المماليك وترقيتهم وضمانٍ ولائهم، وأخيرًا إسرافه الشديد على أسلوب ونمط حياته وهواياته وحريمه.

فمثلاً كان الناصر قد اعتاد على دفع مبالغ ضخمة لشراء المماليك والجواري حتى تنافس التجار في جلبهم، فكان تكلفة المملوك على التاجر نحو عشرين إلى ثلاثين ألف درهم، ويبيعه للناصر بمائة ألف حتى اشترى في مدة الخمس سنوات التالية لشعبان 732/ 1332

مماليك بما قيمته أربعمائة وسبعون ألف دينار كما أنّه غيَّر من سياسة الآباء المؤسسين من حيث معاملتهم، فكان إذا حضر مملوك عنده أغدق عليه بالمال والثياب الفاخرة والذهب والخيول دفعة واحدة، وذلك حتى يملأ عينيه بالسعادة، فينسى وطنه الأصلي ويدين بالولاء لأستاذه.

شغف السلطان أيضًا بالخيل، وخصوصًا خيول عرب الشام من آل مهنا وفضّلها على غيرها من خيول برقة، وكان يبذل الأموال الضخمة لاقتناء أجود أنواع الجياد وبعدد وافر حتى أنّه دفع مبلغ ستمائة ألف دينار في فرس نادر سُمِّي بنت الكرت، أو الكرتا وهي ذات سيقان دقيقة (المقريزي، السلوك، 2: 148) وفي هذا خروج عن سيرة والده الذي كان يُفضِّل جياد برقة لقلَّة ثمنها، و لم يكن الغرض الأساسي في هذا هو تزويد الجيش بأجود أنواع الجياد، ولكنها كانت رغبة الناصر في الاقتناء، وحبّه لجياد السباق الضامرة، وكان يهدي أمراءه ومماليكه الجياد الأصيلة، ويعرف جياده بالاسم والشكل والنسب، واستحدث في هذا ديوانًا للإسطبل له ناظر وموظفون وكتبه لقيد وتسجيل الجياد وأسمائها وأنواعها وأصلها وخلافه، وعند وفاته وُجد عنده أربعة آلاف وثمانمائة فرس غير الهجن من الجمال والنياق نحو خمسة آلاف غير ما أهداه في حياته لمماليكه وأمرائه.

علي الرغم من ثمن شراء تلك الجياد ومصروفها الجاري كان يشكل عبئًا ماليًا ضخمًا إلاّ أنّ هذا يتضاءل بالنسبة إلى ما أنفقه السلطان من إقطاعات وعطايا ومنح على العربان من أولاد مهنا، وفضل وهم الموردون الرئيسون للخيل والهجن. وقد بدأت تلك العلاقة الخاصة بينهم منذ أن كان الناصر لاجئًا بالكرك قبل سلطنته الثالثة، ولعب هؤلاء دورًا بارزًا في إعادته للسلطنة، فبالإضافة إلى دفع أثمان كبيرة في ثمن الخيل، فإنه منح أمراء العرب الإقطاعات الكبيرة والضياع حتى اتسعت أحوالهم، وعاشوا في رفاهية وبذخ هم وحريمهم يلبسون أفخر الثياب من حرير وأطلس مُطرز وأزدانت نساؤهم بالذهب والأحجار الكريمة، وتركوا ما كانوا فيه من خشونة العيش التي اعتاد عليها العربان، وفي هذا أيضًا خروج عن سياسة الآباء المؤسسين مثل بيبرس وقلاوون اللذين استعانا بالعرب دائمًا في جميع حروبهم، ولكنَّهما لم يبالغا في إكرمهم أوالإغداق عليهم ببذخ، و لم يعطوهما سوى الإقطاعات الصغيرة.

أخيرًا فإنّ نمط الحياة الخاصة بالناصر تميز بالرفاهية والبذخ الشديد، فكان مُغرمًا بالصيد والقنص، واعتاد اقتناء الصقور والشاهين، وغيره من الطيور الجوارح المستعملة في الصيد، واعتاد إرسال الصيادين إلى جميع المناطق المعروفة بالصيد في مواسمها كذلك كلاب الصيد،

وجعل عنده الكثير من البازدارية (البزة نوع شهير من أنواع الطيور الجوارح، والبازدار هو الشخص المسئول عن البزة أي الطيور الجوارح من صقور وشاهين وغيره) وغيرهم ورتّب لهم الإقطاعات والمرتّبات والنفقات، واعتاد السلطان الخروج للصيد في بذخ شديد في حاشيته لمدد طويلة، وفي هذا خروج عن سياسة أسلافه الذين اعتادوا الصيد بمفردهم، أو القليل من أتباعهم كأحد التدريبات العسكرية. ومن المعروف أنَّ الظاهر بيبرس كان كثير الخروج إلى الصيد سرًا في أرض العدو، وفي الحقيقة كان يقوم بأعمال الاستطلاع لمعرفة وتحديد مواقع العدو من المغول أو الفرنجة بالشام. ومثال آخر لبذخ السلطان هو أنّه وُجد عند وفاته مائة وعشرون سنقرًا، وعند كل من أمرائه حوالي عشرة سناقر في حين أنَّ والده المنصور لم يكن يملك سوى سنقر واحد يعرضه أمامه في المواكب والاحتفالات الرسمية، ويستعيره منه أمراؤه الاخصاء للتجمّل به.

كذلك أحب اقتناء الأغنام من شتّي أنحاء القطر، وأقام لهم حوشًا كبيرًا بالقلعة مساحته حوالي أربعة أفدنة بالإضافة إلى الأوز وغيره من أنواع المواشي، حتى أنّه ترك عند موته حوالي ثلاثين ألف رأس من الأغنام فقط.

حياته الشخصية تتميّز بالبذخ الشديد – على الرغم من تواضعه في ملبسه ومظهره، وعدم شربه الخمر – فكان محبًا لاقتناء الجواهر واللؤلؤ يدفع فيها المبالغ الطائلة، وكان مُغرمًا بالنسّاء حتى أنّ عدد محظياته وحريمه بلغ ألفًا ومائتين امرأة، وكان يرسل في شراء أي جارية يسمع عن حُسنها أو جمال صوتها غير زوجاته بالطبع. كان له إحدى عشرة ابنه زوجهنَّ جميعًا وجهزهنَّ بمبالغ ضخمة أقلّها ثمانمائة ألف دينار للواحدة، ومعظمهنَّ زوجهنَّ مماليكه، وخواصه وفعل مثل هذا بجواريه وسراريه في حالة زواجهنَّ، وبالغ في زينة حريمه للغاية فكان غطاء رأس المرأة منهم وطرحتها ما قيمته عشرة آلاف دينار، كما عرفت الخلاخيل الذهب والأطواق (عقود) مُرصّعة بالجواهر الثمينة والقباقيب الذهب والجواهر وغيره من أدوات الزينة، بالإضافة إلى هذا كانت نفقات قصوره ومطابخه تزيد عن خمسة عشر طنًا من اللّحم يوميًا، وربما تكون هذه الأرقام مبالغًا فيها كعادة مؤرخي القرون الوسطى. ولكنها تدل على السّفه والبذخ في الإنفاق.

6 - الأزمات الداخلية:

كانت سنوات دولة الناصر الثالثة سنوات رخاء واستقرار، فلم يحدث ما يُكرّر الصفو الاقتصادي والاجتماعي - بعيدًا عن الصراعات السياسية للصفوة الحاكمة إلا حادثان الأول هو الغلاء في عام 736/ 1336 والحريق الكبير بالقاهرة، وما استتبعه بمحنة للأقباط في جُمادى الآخر 721/ 1320. نبدأ بالغلاء نظرًا لتأثيره على القطاع الأعظم من المجتمع، ويُظهر مقدرة الناصر ودولته على إدارة الأزمات ففي جُمادى الآخر 736/ 1336 ارتفعت أسعار القمح فجأة وبدون سببٍ واضح، أو ظروف غير طبيعية حيث إنَّ مستوى النيل كان مرتفعًا، وقفز سعر أردب القمح من السّعر المعتاد وهو خمسة عشر درهمًا إلى ستين ثم سبعين درهمًا، فاضطربت أحوال العامة، وامتنع التجار عن بيع القمح، و لم يجد الخبازون دقيقًا أو قمحًا، ويبدو أنَّ السبب الرئيسي كان رغبة الأمراء في المضاربة برفع سعر القمح، ثم بيعه من شونهم الخاصّة. لما تفاقمت الأزمة تدخّل الناصر بحزم. أولاً حاول استعمال القوة بواسطة المحتسب والوالي، فلم يفلح ذلك في القضاء على الأزمة، فأمر السلطان باستيراد القمح من غزة والكرك وبلاد الشام، ثمّ حدد سعر البيع بثلاثين درهمًا، وأمر أمراءه ببيع القمح المخزون في شونهم، فتقاعصوا عن تنفيذ أوامره واشتدت الأزمة. عندئذ قام السلطان بتعيين أحد موظفيه وكان معروفًا بالحزم والكفاية والأمانة اسمه الضياء بن خطيب الآبار الشامية كمحتسبٍ للقاهرة، فقام بجرد شون الأمراء، وأعطاهم حاجتهم هم وأتباعهم فقط، والباقي قام ببيعه بِالسعر المحدد ثلاثين درهمًا و لم يأبه لسطوتهم أو قوتهم حتى لما علم أنَّ مستخدمي الأميرين الُكبيرين قوصون، وبشتاك يقوما ببيع الغلال عن غير طريقه اشتكى للسلطان الذي غضب غضبًا شديدًا وأستدعي قوصون، ووبّخه وأهانه، بل وضربه وعاقب مستخدميه، وبذلك أخاف باقي الأمراء، والتزموا بفتح الشون طبقًا لأوامر المحتسب.

واشتدّ السلطان في المراقبة حتى بدأ وصول الغلال المستوردة من الصعيد والشام في رجب 736/ 1336، كما بدأ ظهور المحصول الجديد في رمضان، فانخفضت الأسعار وانفرجت الأزمة، بعد أن تسبّبت في إثارة القلق وفزع الجميع خوفًا من تكرار المجاعة التي حدثت في دولة كتبغا، وهكذا كان لحسن إدارة الناصر وحزمه دور كبير في انتهاء الأزمة، فلم تحدث أي مجاعة ومن حسن الحظ أنَّ الغلاء لم يواكبه انتشار أمراض أو أوبئة كالمعتاد (المقريزي، السلوك، 2 : 394 – 396؛ Sabra, *Poverty*, 140 - 144).

الأزمة الثانية هي محنة هَدْم الكثير من كنائس الأقباط في جميع أنحاء القطر المصري وحريق القاهرة الكبير، وبدأت هذه الأحداث يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الآخر 721/ 1321 في أثناء صلاة الجمعة بأن هدمت العامة كنيستين كبيرتين بالقرب من قناطر السّباع (غربي باب اللّوق حاليًا) ونهبوا ما بها من أموال ونفائس، وقتلوا من كان بها من الأقباط، واستولوا على الخمور التي بها. ويقال إنّ السبب في هذا أنّ السلطان أراد إنشاء زريبة على النيل بالقرب من السبع سواقي (مجرى العيون حاليًا) في الشهر السابق، فأخذ في حفر قطعة الأرض قرب كنيسة للأقباط هناك، لأخذ الطين وعمل بركة في الحفرة الناتجة، ولما كان موقع الكنيسة يعوقه عن إتمام هذا العمل اتفق مع الأمراء على الحفر حولها حتى تهدّم ويبدو أنَّ السلطان أراد هدمها بهذه الطريقة ليبدو الأمر على أنّه حادثة غير متعمّدة، ولكن الأمور تطورت، وخرجت عن سيطرة الأمراء فحدث ما حدث لأنّ الأهالى قلدوا السلطان في هدم الكنائس.

امتدت أعمال الهدم والتخريب والقتل إلى باقي الكنائس بالقاهرة حتى وصلت إلى الكنيسة المعلّقة (مصر القديمة الآن) مقر بطرك الأقباط، وكادت تلقي نفس المصير لولا تدخّل السلطان وإرساله والي القاهرة وبعض كبراء أمرائه لحماية الكنائس وردع العامة الذين ادعّوا كذبًا أنّ السلطان هو من أمر بخراب الكنائس مما أغضب السلطان غضبًا شديدًا، وهمَّ بالنزول على العامة بنفسه، ولكنَّ الأمراء طيبوا خاطرة حتى تمّت السيطرة على الأمور بنزول المماليك بالسيوف، لمطاردة العامة كما أخرجوا عددًا من المحكوم عليهم بالإعدام من السجون وقتلوهم وسط العامة لتخويفهم.

جاءت الأخبار بعد هذا من الوجه القبلي والبحري بأنَّ العامة بعد صلاة الجمعة في نفس اليوم قامت بمهاجمة، ونهب الكنائس في الإسكندرية ودمياط ودمنهور والغربية والشرقية وأسيوط ومنفلوط وأسوان وقوص بالصعيد وغيرها من البلدان، حتى بلغت الكنائس المخرّبة -طبقًا للمقريزي- ستين كنيسة في وقتٍ واحد، وهذا أمر غريب يصعب تصديقه، لصعوبة تنسيق مثل هذا العمل في نفس الوقت بوسائل الاتصال البدائية المتاحة في هذا العصر. لم تمضِ أسابيع قليلة على هذه المحنة حتى وقع حريق كبير بالقاهرة، فبدأ يوم السبت الخامس عشر من جمادى الأول 721/ 1321 واستمر إلى نهايته، وقد بدأت الحرائق بالقرب من البيمارستان المنصوري في قلب القاهرة، ثم امتدت إلى مناطق أخرى، واحترقت العديد

من الدور وخصوصًا الأدوار العليا منها، و لم يتمكّن الأهالي من السيطرة عليها، ولكنّهم احتاطوا على منازلهم وحوانيتهم وأسواقهم، و لم يعرفو لهذه الحرائق سببًا واضحًا، واهتم الجميع بنقل الماء وتخزينها في جميع أنحاء القاهرة تحسبًا لانتشار الحرائق حتى غلت أثمانها. وفي تلك الأثناء قبض على عددٍ من الرهبان (يقال إنّهم من المسيحيين الروم الملكيين، وليس من الأقباط اليعاقبة المصريين وهم الأغلبية) اعترفوا بأنّهم قاموا بإشعال تلك الحرائق انتقامًا لهدم كنائسهم فأمر السلطان بحرقهم في شارع الصليبة بدون إجراء تحقيق كاف، ربما بناء على نصيحة البعض من أنصار الأقباط حتى لا يعترفوا على غيرهم من الأقباط اليعاقبة، فثارت العامة وهاجموا كريم الدين الكبير ناظر الخاص ووكيل السلطان - كان من أصل قبطي - ورجموه بالحجارة، واتهموه بالتستّر على الأقباط. كذلك تظاهروا بالميدان تحت القلعة فغضب السلطان غضبًا شديدًا، واراد الإخراق بهم لولا توسّط الأمراء فاكتفى بطرد العامة من الميدان تحت القلعة، ومعاقبة بعضهم فقط.

بعد ذلك قبضت الشرطة على عددٍ من النصارى في زي مسلمين وبأيديهم النفط، وهم يهمّون بحرق جامع الظاهر بيبرس بالحسينية، فاعترف بعضهم وقدّم الدليل على ذلك، ولمّا علم السلطان بهذا أجرى تحقيقًا معهم أقروا فيه بأنّهم ضمن جماعة كبيرة بعضهم لحرق القاهرة، وبعضهم إحداث حرائق بالمزارع خارجها. وعندئذ تأكّد السلطان من أنَّ الحرائق من فعل الأقباط اليعاقبة فاجتمع السلطان مع أمرائه وقضاته، وقرّر عقاب الأقباط بمضاعفة قيمة الجزية (القيمة الأصلية للمُقطع طبقًا للروك الناصري والأخرى الجديدة للخاص السلطاني) وفرض عليهم ارتداء العمائم والثياب الزرق، وأن يشدّوا الزنانير (رباط الوسط) فوق ثيابهم، وأن يُعلّقوا الأجراس بأعناقهم عند دخولهم الحمام، وألاّ يُستخدموا في الدواوين السلطانية أو دواوين الأمراء، وأصدر المراسيم الخاصة بذلك لتجديد العهود العمرية، وأحكامها وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأول 721/ 1321 وبذلك انتهت تلك المحنة فكفّت العامة عن مطاردة الأقباط، وسارت الأمور كعادتها (النويري، نهاية الأرب، 33: 16 - 29؛ المقريزي، السلوك، 2 : 206 - 228؛ الخطط، 2: 512 - 517).

في مثل تلك الأحوال يتحوّل كثير من الأقباط إلى الإسلام منعًا للاضطهاد والمهانة وللاحتفاظ بمناصبهم، وهذه المحنة واحدة من سلسلة المحن التي تعرض لها الأقباط، وأدّت في النهاية إلى تحولهم من غالبية إلى أقلية سكانية. والناصر وإن كان أظهر الكثير من ضبط

النفس في تعامله مع هذه المحنة خصوصًا مع الأقباط، ورغبته الصادقة في حمايتهم، وحرصه على عدم تكدير الأمن العام؛ لكنّها أيضًا تظهر التناقض الشديد في شخصية الناصر - بل التناقض في الشخصية المملوكية بوجه عام - فهذا الحرص لم يمنعه من التحريض على هدم كنيسة؛ لتحقيق منفعة شخصية له - وهو بداية الأزمة كما ذكرنا أو من الاستفادة الشخصية من تلك الأزمة بمضاعفة الجزية، والاستيلاء على القيمة المضافة الجديدة لنفسه.

7 - نهاية دولة الناصر الثالثة:

بحلول عام 741/ 1342 كان السلطان قد تخلّص من تنكز الحسامي نائب الشام خوفًا منه على نفسه والنشو تحت ضغط أمرائه، ولم يكن قد حسم أمر خلافته بعد، فلم يعين أيًا من أبنائه سلطانًا معه، كما فعل بيبرس، وقلاوون من قبله إذ إنّ أنوك ولده المفضل قد توفي بعد مرض طويل في العشرين من ربيع الآخر 741/ 1341 وكانت الأمراء - كما سنعرض تفصيلاً فيما يلي منقسمة على نفسها، ولا يوجد بينهم من يستطيع الانفراد بالسلطنة بعده.

في هذه الأثناء كانت بلاد فارس والعراق تمرّ بحالة عدم استقرار، بعد وفاة آخر أيلخان مستقل أبي سعيد في 736/ 1335 وحدث بها أيضًا مجاعة فبعث القائمون بأمرها إلى السلطان يدعونه إلى إرسال حملة للاستيلاء على بلاد الشرق ونسخة إيمان بالطاعة له، وبأن يخطب باسمه في بغداد وديار بكر والموصل، فأمر السلطان بإعداد حملة إلى تبريز، وبدأ التجهيز لها، ولعلّه كان يحلُم باتساع أملاكه بشرق الفرات، ليحقق بهذا ما عجز عنه جميع أسلافه العظام. وبينما هو مستغرق في هذا الإعداد فاجأه مرض الموت وإسهال شديد حتى أنّه لم يتمكّن من استكمال صلاة العيد، فلمّا أحسن الأمراء بدنو أجله طالبه كبارهم بتعيين خليفة له من بين أولاده؛ فاختار ابنه أبا بكر، وأوصى الأمراء به وحذّرهم من ابنه الأكبر أحمد، وضرورة عدم خروجه من الكرك، وأخذ الأمراء المتنافسون لا سيما قوصون، وبشتك في الاستعداد والاحتراز كل من الآخر، ونقلوا عائلاتهم وأموالهم خارج القلعة، كما قاموا بتزويد القلعة بالمؤن والماء والأسلحة توقعًا لصراعٍ مُحتمل عند وفاة الناصر.

اشتد المرض على الناصر فجعل كلاً من بشتاك، وقوصون وصيين على ابنه أبي بكر، وعهد إليهما بتدبير المملكة وحلّفهما هما وباقي الأمراء، ثم وافته المنية في الواحد والعشرين من ذي الحجة 741/ 1341 عن عمر حوالي ثمانية وخمسين عامًا، وكانت مدة سلطنته

الأخيرة اثنين وثلاثين عامًا، وحوالي ثلاثة شهور، ومع سلطنته الأولى والثانية يكون جلس على عرش مصر حوالي ثلاثة وأربعين عامًا، وهي ثاني أطول فترة لحاكم لمصر في العصر الإسلامي بعد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله.

لا شكّ أنَّ الناصر من أكثر السلاطين تأثيرًا على مستقبل السلطنة، فقد ترك عند وفاته أربعة عشر ولدًا وسبع بنات، حيث تولّى ثمانية من أولاده السلطنة بعده، وثلاثة من أحفاده، في خلال فترة الأربعين سنة التالية على وفاته. وبذلك انتهت المرحلة الثانية من السّلالة القلاوونية والتي اختلفت كثيرًا من سابقتها، وتتعدّد الآراء في تقييم سلطنة الناصر محمد الثالثة، فكثير من المؤرخين المعاصرين حتى نهاية العصر المملوكي يعتبرونه من أعظم ملوك الترك، وإنجازاته المعمارية هو وأمراؤه شاهدة على عظمة هذا العصر إلى اليوم. ولا شكّ أنَّ الناصر أحدث اختلافات جوهرية على نُظم الدولة الإدارية والاقتصادية والسياسية عمّن سبقوه، وتميّز عصره بالرخاء – حقيقيًا كان أو وهميًا – والاسترخاء أيضًا لعوامل فصّلناها في حينها. وعلى الرغم من أنّ الاستبداد والشمولية كان سمةً من سمات الحكم في هذا العصر فإنّ الناصر فاق غيره في هذه السّمة نتيجة لمعاناته في سلطنتيه الأولي والثانية، فانفرد انفرادًا كاملاً بالحكم، وتخلّص من جميع منافسيه بصورة لم يسبق لها مثيل، فكما رأينا فإنّه تخلّص من حوالي مائة وخمسين أميرًا بالقتل والسجن لمددٍ تربُو على عشرين عامًا ولن ينجو مماليكه أيضًا من هذا المصير لو شكلوا أيّ خطرٍ عليه حقيقيًا كان أو وهميًا، كما أنّه ألغى كبرى الوظائف، حتى لا يشاركه أحد في الحكم.

بعض المؤرخين المحدثين مثل أميليا ليفانوني تصف هذه الحقبة بأنّها كانت نقطة تحول -وهي فعلاً- وبداية النهاية وهو ما أشكّ فيه، فالدولة استمرّت سنوات عديدة بعد هذا، ومرّت بأزمات طاحنة، والأسباب التي أدّت إلى سقوطها في النهاية لا تمتدّ جذورها إلى فترة الناصر محمد إلاّ بشكلٍ طفيف.

8 – المنشآت المعمارية:

أخيرًا نتطرق لمنشآته المعمارية والعمرانية باختصارٍ شديد حيث إنّها قد تستغرق عدّة مجلّدات لمناقشتها، والناصر بلا شك أعظم سلاطين المماليك من حيث إقامة المنشآت لنفسه وأمرائه، والعديد منها مازال قائمًا إلى اليوم شاهدًا على هذا العصر. أنفق عليها الأموال

الجمّة و لم يبخل عليها بشيء. لنبدأ بالمشاريع العامة منها حفر العديد من الخلجان منها خليج الإسكندرية من فوة إلى البحر الأبيض في أربعين يومًا، فزرعت الأرض والبساتين حوله والخليج الناصري بالقاهرة. وسبق لنا ذكر أعماله الخاصة بزيادة الرقعة الزراعية. واختص القلعة بأعمال البناء فأنشأ ميدانًا تحت القلعة أجري له الماء، وغرس به الأشجار والبساتين وخصّصه للعبة الكرة (البولو)، وأقام بالقلعة القصر الأبلق وعددًا من الأبراج، وجدّد الإيوان مرتين، وأنشأ طباق (منزل) أمامه لإقامة الأمراء والخاصكية، وكذلك كثير من الأبنية لأمرائه ومسجد الناصر (أثر 143، 735/ 1335) وقد اندثرت جميع أعماله بالقلعة، وآخرها القصر الأبلق، والإيوان اللذين أزالهما محمد علي الكبير في أوائل القرن التاسع عشر لبناء جامعة و لم يبق لنا سوى مسجد الناصر. وامتدّ الخليج الناصري من القاهرة إلى سرياقوس، حيث أقام خانقاه كبيرة باسمة هناك (لازالت بقاياها قائمة إلى الآن)، وأقام عليها العديد من القناطر، فزرعت الأراضي على جانبيها.

من المعروف أنَّ الناصر والمماليك عمومًا لم يقوموا بإنشاء مدن جديدة على غرار أسلافهم من حكام مصر السابقين، ولكنّهم أضافوا مساحات عمرانية للقاهرة، فقام الناصر بتعمير جزيرة الفيل (شبرا الآن) وبولاق، وكانتا أرض فضاء لتدريب المماليك على رمي السهام، فأصبحت دورًا وأسواقًا وبساتينًا، وامتدت العمارة على ساحل النيل حتى وصلت إلى بركة الحبش جنوبًا (بالقرب من البساتين حاليًا) كذلك عُمّرت المساحات الخالية بجانب سور القاهرة منها قطعة الأرض عند باب القرافة (ميدان السيد نفيسة الآن) إلى قبة الإمام الشافعي، وصارت مقابر وحدائق وتربًا ضخمة، وكانت فضاءً لسباق الأمراء والمماليك. كذلك عمّرت الصحراء خارج القاهرة شرقي سورها والتي كانت ميدانًا للعبه القبق العسكرية وسباق الخيل، فأصبحت الآن جبانة بها الكثير من المقابر والترب والخانقاوات مازال يُوجد منها الكثير حاليًا، وتعرف الآن بالجبانة الشمالية لمدينة القاهرة.

عمّر السلطان لمماليكه وأمرائه القصور الفاخرة مثل قصر قوصون بالقرب من ميدان القلعة، وقصر بشتاك في بين القصرين، وهو قائم حتى الآن، وأنشأ قصورًا أخرى لأمرائه الكبار الآخرين لا نُعدّدها لكثرتها، كما أقام أيضًا مماليكه دورًا وقصورًا وبساتينًا، داخل وخارج القاهرة ما لا حصر له. كذلك أقاموا الوكالات والخانات للتجارة داخل وخارج القاهرة.

أُنشأ في دولته العديد من الجوامع تربو على الثلاثين له ولأمرائه، مازال الكثير منها قائمًا بحالةٍ جيدة، وبعضه يُقام به الشعائر، على سبيل المثال لا الحصر مسجد آل ملك الجوكندار بجانب المشهد الحسيني (أثر 24، 709/ 1309) وجامع الأمير حسين بالقرب من شارع بورسعيد في باب الخلق (أثر 233، 719/ 1319) ومسجد المهمندار بالدرب الأحمر (أثر 115، 725/ 1324 – 25) ومسجد ألماس الحاجب بالقرب من شارع القلعة (أثر 130، 730/ 1329 – 30) وقبة طشتمر (حمص أخضر) بالجبانة الشمالية (أثر 92، 735/ 1334) ومسجد الطنبغا المارداني بالدرب الأحمر (أثر 120، 739 – 40/ 1339 – 1340) والمدرسة الأقبغاوية عبد الواحد بالأزهر (أثر 97، 740/ 1340) غيّر أعماله بدمشق والشام (المقريزي، السلوك، 2: 524 - 546؛ ابن تغري بردي، النجوم، 9: 166 - 212؛ Levanoni, *Turning Point*, 155-196).

الدليل على عظمة وكثرة منشآته المعمارية أنّ من إجمالي تسعة وتسعين أثرًا مُسجلاً بالقاهرة في سجل هيئة الآثار خلال ما يُسمَّى بالعصر المملوكي البحري أو التركي أي مدة حوالي مائة وتسعين عامًا يوجد بينها أربعون أثر ما زال قائمًا من دوله الناصر محمد الثالثة وحدها، وهي حوالي واحد وثلاثون عامًا. هكذا عرضنا لأهم مظاهر الرخاء في دولة الناصر، وقد نتج عن هذا أو ربّما بسببه الاسترخاء.

تخلص ليفانوني بعد عرضها لمظاهر الرخاء هذه أنّه كان رخاءً وهميًا وليس حقيقيًا، ولم يكن ظاهرةً مؤسسية، ولكنه ظاهرة عابرة وتدلّل على ذلك بسرعة انهياره فور وفاة الناصر محمد وبداية المرحلتين الرابعة والخامسة من السلالة القلاوونية. أي أنّ دولة الناصر كانت المنعطف الذي بدأت بعده الدولة المملوكية في الانهيار. فالرخاء الظاهري ترك بذور الاضمحلال للمجتمع والدولة في علاقةٍ جدلية واضحة. وهناك تشابه تاريخي (على الرغم من الاختلاف الجذري) بين دولة الناصر ودولة الخديوي إسماعيل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من حيث مظاهر الرخاء والتقدم، والتشييد والبناء، والخروج على تقاليد الآباء المؤسسين، والتي سرعان ما انهارت وأدّت إلى عواقب وخيمة غير أنَّ الانهيار استغرق زمنًا طويلاً في دولة المماليك.

الفصل الرابع عشر

السلالة القلاوونية (4)
الناصر حسن وإخوته السبع

1 - أمراء الناصر الكبار عند وفاته:

ترك الناصر محمد عند وفاته أحد عشر ولدًا ذكرًا من الأسياد (أي أولاد السلاطين الحاليين أو السابقين وهم أعلى طبقة من أولاد الناس والوحيدين الذين لهم حق تولي السلطنة من خارج طبقة المماليك ممن مسّهم الرق) تعاقب ثمانية منهم على السلطنة، وهم: أبو بكر وأحمد، وكجك، وشعبان، وإسماعيل، وحاجي، وحسن، وصالح، وذلك في فترة العشرين عامًا التالية على وفاته، وثلاثة منهم لم يتولّوا السلطنة وهم: رمضان وحسين ويوسف بالطبع خلاف من مات في حياته، وأهمّهم أنوك أقربهم إلى السلطان، وابراهيم أحد كبار أبنائه أيضًا.

لكي نتفهّم طبيعة وأهم خصائص الطور الثالث من السلالة القلاوونية يجب أن نحلّل، ونتفهّم طبيعة القُوى السائدة والصراعات بينها، والتي طفت على السطح، وحرّكت الأحداث بعد وفاة الناصر. العلاقة التقليدية التي نظّمت وحرّكت العلاقات بين القُوى المختلفة في مراحل الدولة الأولى، والتي تقوم على ولاء المملوك لأستاذه وخشداشه داخل البيت المملوكي الواحد في علاقةٍ شبه عائلية تغيّرت إلى حدٍ كبير في دولة الناصر الثالثة،

حيث قضي الناصر على معظم المماليك الكبار وخصوصًا مماليك أبيه البرجية، وأحلّ محلّهم مماليكه، ومعظمهم لم يكبر ويترقّى من الطباق إلى القصور مع رفاقه، بل كانت علاقته مباشرة مع السلطان لأسباب عديدة ذكرت سابقًا منها حسن الشكل والوسامة، ومنها القرابة، ومنها المصاهرة، وأقلّها الكفاءة. كذلك كسب الناصر ولاء أمرائه بالعطايا السخية الغير مبررة في كثيرٍ من الأحيان، والإطراء. كذلك فإن الكثير من تلك النخّبة لم يشتريهم السلطان صغارًا، بل أُهدوا إليه كبارًا. نظرًا لطول مدة دولة الناصر الثالثة، فإن بعض الأمراء استمروا في المراكز العليا لمدة طويلة وبعضهم كان حديث العهد بالمراكز العليا عند وفاته، وبذلك كانت هناك أجيال مختلفة من الأمراء صعودهم إلى أعلى المراكز اعتمد كليًا على رأي السلطان، بل ونزواته لهذا تميّز هذا الطور بالصّراع الداخلي بين الأمراء، وعدم قدرة أيٍ منهم على الانفراد بالحكم، واستعمال كل مجموعة منهم أحد أبناء الناصر كواجهة لممارستهً الحكم فعليًا.

لهذا سنبدأ باستعراض القُوى الرئيسية الموجودة على الساحة عند وفاة الناصر، وعلاقاتهم المتشابكة وسنعتمد في هذا على تحليل جوفان ستينبرجن نقلاً عن المؤرّخ المعاصر شمس الدين الشجاعي (توفي في 745/ 1345). طبقًا للروك الناصري فإنّه يوجد بمصر أربعة وعشرون أمير مائة مُقدّم ألف (أعلى الرتب العسكرية) أضاف إليهم الناصر ولده أبا بكر، وبذلك أصبحوا خمسة وعشرين عند وفاته سوف نورد أسماءهم نظرًا لدورهم في الأحداث التالية، ونشير اختصارًا إلى علاقاتهم بعضهم ببعض، وانتماءاتهم حيث يمكن تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات.

وهي أولاً الأمراء البرانية الكبار (أي أنَّهم ليسو من حاشية السلطان ولا يقيمون بالقلعة) كما أنّهم لا يحملون النّسبة الناصرية أي أنَّهم ليسو من مُشتروات السلطان، وهذه المجموعة تتكون من ستة أمراء هم بدر الدين جنكلي بن البابا (توفي في 746/ 1346) وكان أصله من بلاد الروم (الأناضول) وفد إلى مصر في سن متأخرة نسبيًا حوالي ثلاثين عامًا في 704/ 1304 – 1305 وكان صهرًا للناصر حيث إنّ سيدي إبراهيم بن الناصر كان مُتزوجًا من ابنته. والأمير الثاني سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار (مسئول عن لعب بالكره أي البولو) قتل في 746/ 1346 أصله أيضًا من بلاد الروم أُسر في معركة الأبلستين في الدولة الظاهرية بيبرس، و لم يكن من المماليك الناصرية وكان متقدمًا في السن، والثالث ركن الدين بيبرس الأحمدي أمير جاندار (الأمير المسئول عن حماية السلطان وتنفيذ أحكامه) وكان جركسيًا يمتاز بالشجاعة والفروسية وركوب الخيل تُوفّي في أوائل 746/ 1345 عن سبعين

عامًا وهو من مماليك المنصور قلاوون البرجية. الرابع علم الدين سنجر الجاولي توفّي عام 745/ 1344 وعمره حوالي تسعين عامًا وأصله من مماليك الظاهر بيبرس، وكان صديقًا حميمًا لسلار النائب، ودفن معه في مسجده بشارع الصليبية (أثر 221، 703/ 1303 – 1304). الخامس سيف الدين كوكاي السلاحدار توفّي في 749/ 1348 والسادس والأخير نجم الدين محمود وزير بغداد قتل في 748/ 1347 و لم يكن مملوكًا؛ ولكنه كان وزيرًا في بغداد، ثم هاجر إلى مصر حيث عينه الناصر أمير أربعين مرة واحدة، بعد أن أهداه محمود حجرًأ كريمًا نادرًا. وهؤلاء الأمراء كانوا كبارًا في السن نسبيًا و لم ينتمو إلى الناصر، ولكنّهم حافظوا على الولاء له حتى النهاية.

المجموعة الثانية تتكوّن من سبعة أمراء خاصكية (جوانية) يُنسبون للناصر ومقربين منه عرضنا لمعظمهم بالتفصيل في السابق، وسنذكر أسماءهم وتاريخ وفاتهم هنا فقط وهم. قوصون الناصري، وكان زوج بنت الناصر قُتل في شوال 742/ 1342 وعمره حوالي اثنين وأربعين عامًا وبشتك الناصري وقتل في 742/ 1342 وكان هو وقوصون أكثر الأمراء قربًا من الناصر واقسنقر الناصري، وكان أيضًا زوجًا لأحدى بنات الناصر، وقُتل في ربيع الآخر 748/ 1348 وملكتمر الحجازي، وكان أيضًا زوجًا لأحد بنات الناصر، وقُتل في ربيع الآخر 748/ 1348 وعمره حوالي سبعة وثلاثين عامًا مع الأمير أقسنقر. وخامسهم قماري أمير شكار (المسئول عن الصيد والقنص للسلطان) وكان أيضًا زوج إحدى بناته وتوفّي في جُمادى الآخر 743/ 1342 والطنبغا المارداني، وكان أيضًا زوجًا لإحدى بنات الناصر توفّي في 744/ 1343 وكان عمره خمسة وعشرين عامًا، وسابعهم يلبغا اليحياوي وقد قُتل في 748/ 1347 وعمره حوالي ثمانية وعشرين عامًا. هؤلاء الأمراء الأقربون السّبع تميّزوا جميعًا بصغر السّن، وقد شغف بهم السلطان نظرًا لجمالهم ووسامتهم، وتزوّج خمسة منهم بنات للناصر محمد أي كانوا أصهارًا له، وانتهت حياة خمسة منهم بالقتل في سنٍ صغيرة.

وباقي الأمراء المقدمين وعددهم أحد عشر وهم طقزدمر الحموي الناصري، و لم يكن من مماليك الناصر وإن نُسب إليه، وكان من مماليك أبي الفدا صاحب حماة، وكان صهرًا للسلطان حيث إنّه زوّج ابنتيه إلى ولدين من أولاد الناصر تسلطنوا فيما بعد وهم المنصور أبو بكر، وإسماعيل، ومات في جُمادى الآخر 746/ 1345 وأقبغا عبد الواحد، وكان مسئولاً عن المنشآت السلطانيه (شاد العمائر) وتزوّج الناصر من أخته طغاي، ثم قُتل في 744/ 1344 ويقال إنّه كان ظالمًا سيء السّمعه (يبدو لي أي معظم من تولّي الإشراف على المنشآت

السلطانية كان يُوصف بالظلم). وثالثهم أيدغمش أمير آخور (المسئول عن الإسطبلات السلطانية) استمرّ في هذا المركز عشرين عامًا حتى مات فجأة في دمشق في 743/ 1342.

قطلوبغا الفخري تأمّر وعمره ستة عشر عامًا، وكان ذي دلالة على الناصر يخاطبه مما لا يجسر غيره عليه حتى أنّه كان يقول للناصر أنت مجنون فيتقبّل الناصر هذا منه، وقُتل في محرم 744/ 1343. وخامسهم بهادر الدمرداشي، وكان من مماليك دمرداش بن جوبان المغولي، وكان قريبًا من السلطان حتى أنّه يبيت عنده وزوّجه إحدى بناته وتُوفّي في شوال 743/ 1434 وقماري الكبير (غير أمير شكار) وكان أخو بكتمر الساقي أمّره الناصر، ورقّاه بعد وفاة أخيه حتى قتل في 747/ 1346 – 47. وسابعهم طورغاي الناصري الطباخي الجاشنكيز (مسئول عن طعام السلطان) وتوفي في 744/ 1343. وأرانبغا أمير جاندار (مسئول عن حماية السلطان في المجلس، وتنفيذ أحكامه) وبرسبغا الحاجب الناصري، وكان يتولّى عقوبة الأغنياء لمصادرة أموالهم مثل النشو وعائلته، وقُتل بالإسكندرية في 742/ 1342. وعاشرهم بلروغا بن العجوز المتوفّي في 742/ 1432 وكان أمير سلاح، وأخيرًا بيغرا وهو آخر من مات من أمراء الناصر محمد المقدّمين في 754/ 1353. هذه المجموعة الأخيرة من الأمراء جميعهم يُنسبون للناصر، والمصادر لا تلقي الضوء على علاقتهم بالناصر تفصيليًا سوى أيدغمش أمير آخور، حيث ظلّ في منصبه طويلاً، وقطلوبغا الفخري لمصاهرته للسلطان.

ملحوظتان أخيرتان؛ الأولى أنَّ ستة من الأمراء الخاصكية كانوا متزوجين من بنات السلطان، كذلك فإنّ السلطان تزوج من أخت أقبغا عبد الواحد، وصاهر كلاً من الأميرين المخضرمين جنكلي بن البابا، وقطلوبغا الفخري أي أنَّ الناصر تعمّد مصاهرة هؤلاء الأمراء دعائم دولته، لضمان ولائهم له ولأولاده من بعده. وقد نجح في الأولى وفشل في الثانية إذ لعب هؤلاء دورًا كبيرًا في الصراع القادم، وكان أولاده هم الضحية الأولى. والثانية هي أنَّ جميع هؤلاء الخمسة وعشرين أميرًا مقدمًا (بما فيهم ابنه أبو بكر) مات أو قُتل في فترة السّبع سنوات التالية بعد وفاة الناصر باستثناء بيغرا الذي لحق بهم بعد ست سنواتٍ أخرى (Steenbergen, *MSR*, 9 (2) 2005,173 - 199).

2 - صراع الأمراء:

بدأ صراع الأمراء، والناصر ما زال حيًا على فراش الموت بين أقرب أمرائه قوصون، وبشتك، فلمّا بلغ السلطان ذلك حزن، وازداد مرضه، وعندئذ اجتمع كبار الأمراء البرانية وهم جنكلي بن البابا، وسنجر الجاولي وبيبرس الأحمدي، واستأذنوا من كبار الأمراء الجوانية الخاصكية قوصون، وبشتك للاجتماع مع السلطان على فراش الموت، فيذكر المقريزي:

"فلمّا أخذ الأمراء مجالسهم قال الأمير الجاولي وآل ملك للسلطان كلامًا حاصله أن يعهد إلى أحد أولاده، فأجاب إلى ذلك، وطلب ولده أبا بكر، وطلب قوصون وبشتك، وأصلح بينهما ثمّ جعل (السلطان) ابنه أبا بكر سلطانًا بعده، وأوصاه بالأمراء وأوصى الأمراء به، وعهد إليهم ألاّ يُخرجوا ابنه أحمد من الكرك، وحذّرهم من إقامته سلطانًا، وجعل قوصون، وبشتك وصييه وإليهما تدبير ابنه أبي بكر وحلّفهما". (المقريزي، السلوك، 2: 523)

وافقه الأمراء وبذلك قرر الأمراء عدم تطبيق مبدأ المُلك عقيم وإحياء قاعدة التوريث، وأعتقد أنّ السبب الأكبر هو عدم اتفاقهم على أميرٍ من بينهم وفي مقابل هذا فإنّهم احتفظوا لأنفسهم عمليًا الحق- كما سنرى لاحقًا - في عزلِ أيٍ من هؤلاء السلاطين، ومارسوا هذا الحق مرارًا وتكرارًا خلال الأربعين عامًا التالية. وادّعوا بأنّ هذه كانت وصية السلطان، وبصرف النظر عن صدق هذا الادّعاء من عدمه، فإنه كان الأمر الواقع الذي فرضه الأمراء. فبعد ست أعوام من موت الناصر، وفي خضَمّ الصراع بين الأمراء لعزل أحد أبناء الناصر (الكامل شعبان) في ربيع الآخر 747/ 1346 يرسل يلبغا اليحياوي (أحد الأمراء الجوانية للناصر) وكان نائب الشام رسالة إلى الكامل يقول فيها: "إنّي أحد الأوصياء عليك وإنّ مما قاله الشهيد (يعني هنا الناصر محمد) رحمه الله لي وللأمراء في وصيته إذا أقمتم أحدًا من أولادي، و لم ترتضوا سيرته جروه برجله، وأخرجوه، وأقيموا غيره" (المقريزي، السلوك، 2: 705).

كيف تسنّى للناصر إقرار هذا المبدأ؟، وكيف مهّد لهذا؟ في الأعوام الأخيرة من عمر الناصر كان معظم أولاده الأحياء صغارًا سوى أربعة هم أحمد (أكبرهم) وإبراهيم وأبوبكر وأنوك، فكان لابّد له أن يُعدّ أحدهم لخلافته، وفي نفس الوقت يُهيِّيء الظروف لنجاحهم في البقاء في السلطنة؛ نظرًا لأنهم لا ينتمون إلى ثُلّة الأمراء الذين مسّهم الرق، بل هم من الأسياد

(أعلى أولاد الناس رتبة) من الجيل الثانى، فليس لهم أستاذ أو خشداش والتي تشكّل رابطة الولاء الأولى في المجتمع المملوكي. فبدأ أولاً بإضعاف الرابطة بين الأمراء الكبار -كما رأينا سابقًا- وثانيًا بخلق شبكة قوية من الولاء عن طريق الزواج والمصاهرة بينه وبين الأمراء الكبار وأولاده، وأخيرًا بتدريب وإعداد أبنائه الكبار للحكم، والسلطنة عن طريق إرسالهم إلى قلعة الكرك.

استبعد السلطان ابنه الأكبر أحمد من خلافته نظرًا لانشغاله باللّهو، وتّهتكه، ومعاشرته للأوباش، وقد حاول تعليمه وتدريبه بأن أرسله صغيرًا إلى الكرك في صُحبة أحد كبار الأمراء، ثم استدعاه وزوّجه ابنه أحد كبار الأمراء الخاصكية وإعادة الكرك، ثمّ استدعاه مرة أخري في العام التالي شعبان 739/ 1338 لما بلغه من استمراره في اللّعب واللهو، وشغفه بشباب الكرك، وخصوصًا فتى جميل الصورة اسمه شهيب كان ينفق عليه ببذخ. استدعى الناصر ابنه ووبّخه، وعاقب شهيب هذا لاسترداد أموال أحمد غير أنَّ الأخير لم يرتدع، وظلّ على هواه ووسّط الأمراء الكبار لاسترضاء والده، فقبل الناصر الأمر الواقع وسمح له بمصاحبة شهيب، ومتابعة حياته الداعرة غير أنّه قرّر حرمانه من خلافته على السلطنة. وقد مارس الناصر نفس الأسلوب مع ولده إبراهيم، حيث إنّه أرسله إلى الكرك مرارًا للتدريب، وأنعم عليه بإمرة عشرة، ثم طبلخانة كما زوّجه من بنت طقزدمر، وبنت جنكلي بن البابا، وكلاهما من كبار الأمراء؛ ولكنَّه تُوفّي فجأة في نهاية عام 738/ 1338 لاصابته بالجدري، وبوفاة ابنه المفضّل أنوك في 741/ 1340 لم يبق للناصر خيار سوى أبي بكر (المقريزي، السلوك، 2: 432، 467؛ Bauden, *MSR* 13 (1) 2009, 53-81). هذه المقدّمة الطويلة كان لابّد منها لفهم التتابع السريع للأحداث في الأعوام القادمة.

3 - المنصور أبو بكر والاختيار الأخير:

استقر المنصور أبو بكر بسهولة في كرسي السلطنة، ولم يكن صغيرًا نسبيًا، فعمره حوالي عشرين عامًا، وأصبح حماه وزوج أمه طقزدمر الحموي نائبًا للسلطنة، والأمير قوصون مدبر المملكة ورأس المشورة وأقوى الأمراء، ويشاركه في هذا غريمه بشتك. أبو بكر أمه كانت جارية اسمها نرجس ولدت للناصر ولدين آخرين هما يوسف ورمضان. أرسله أبوه صغيرًا للكرك للتدريب العسكري، وممارسة أعباء الحكم قبل أخويه، ثمّ استدعاه وجعله أميرًا

وتدّرج في الإمارة إلى أن أصبح أمير مائة مُقدّم ألف (الوحيد من الأسياد) عند وفاة والده. وأبو بكر مثل صارخ لسياسة الناصر في إنشاء شبكة عنكبوتية من المصاهرة والزواج؛ لضمان ولاء الأمراء الكبار فهو متزوج من ابنة طقزدمر الحموي (أي أنّه حماه) وأخوه متزوج من أختها وطقزدمر الحموي نفسه متزوج من بنت الناصر (أي أخت غير شقيقة لأبي بكر) وتزوّج طقزدمر أيضًا من جارية السلطان نرجس بعد عتقها وهي أمّ السلطان أي أنّه زوج أمه في نفس الوقت. فلا عجب إذن أن يُصبح طقزدمر الحموي نائبًا لـ أبي بكر زوج ابنته، وابن زوجته، وأخا زوجته الأخرى في نفس الوقت. وبهذا يعود منصب نائب السلطنة بعد أن ألغاه الناصر محمد في سلطنته الثالثة.

بدأ أبو بكر ولايته بالنفقة على الأمراء والأجناد والجميع كالعادة، ثمّ أعاد تعيين الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله أحمد حيث إنّ والده الخليفة السابق أبو ربيع سليمان توفّي في قوص عام 740/ 1340 وعهد إلى ابنه أحمد في عهد صريح أمام قضاة قوص، ولكنّ الناصر– وكان يكره الخليفة الراحل منذ إصداره فتوىً المُلك عقيم، ومناصرته للسلطان بيبرس الجاشنكيز – فنفاه أعوامًا طويلة، ورفض تنفيذ وصيته، فلم يُعين الخليفة الجديد إلاّ بعد وفاة الناصر. والخلفاء العباسيون بالقاهرة كانوا كما ذكرنا بلا سلطة أو نفوذ أو مال، ولكن كان لهم حق اختيار خلفائهم بوصية.

بدأت المواجهة الأولى في محرم 742/ 1341 حين طلب بشتك من قوصون نيابة الشام، حتى يبعد عن القاهرة ودسائسها، فرفض قوصون هذا الطلب، ثم مازال يحيك المؤامرات ضدّه مع السلطان والأمراء الكبار حتّى وافقوا على القبض على بشتك، وسجنه بالإسكندرية، حيث قُتل بها بعد ذلك؛ ليكون أوّل ضحايا هذا الصراع، وتبع هذا المعتاد من القبض على مماليكه وأعوانه، ونهب بيوته وحريمه، ومصادرة أمواله وأملاكه، وتفريق إقطاعاته على باقي الأمراء –كما هو معتاد عند سقوط أحد الأمراء الكبار، وكان بشتك هو أول من قُتل من الأمراء الكبار.

ثم قبض على الأمير أقبغا عبد الواحد الأستادار، وشاد (رئيس) العمائر وذلك لأنّ أقبغا كان يستهين بأبي بكر في سلطنة والده، ولا يُظهر له الاحترام، فأقسم الأخير على إهانته إن أصبح سلطانًا، فنفّذ هذا القسم، وقبض على أقبغا وصادره وأهانه؛ ولكن لم يقتله. وسرعان ما حدث خلاف بين السلطان وقوصون مدبر دولته، ربما لأنَّ السلطان – و لم يكن طفلاً بل

في العشرين عن عمره – أراد الانفراد بالحكم، فأخذ في تقريب عددٍ من الأمراء الخاصكية الكبار مثل يلبغا اليحياوي، وملكتمر الحجازي، والطنبغا الماراداني، وطاجار الدوادار، ويبدو أيضًا أنه انهمك في الملذّات فعقد قرانه على جاريتين في يوم واحد، وكذلك شغف بالأمير يلبغا اليحياوي (كان وسيمًا جميل الشكل) وملكتمر الحجّازي، وكان محبًا للغناء واللّهو وشرب الخمر وآخرين. سواءً إن كان حقًا أم لا فقد استغلّ قوصون هذا الوضع وشكى إلى طقزدمر الحموي نائبة، وآخرين من سلوك السلطان الذي لا يليق بمركزه، فتكلّم طقزدمر الحموي مع السلطان في هذا الأمر فأنكره، ويبدو أنَّ السلطان دبّر مع زملائه القبض على قوصون الذي علم بالمؤامرة، فاحترز لنفسه وجمع الأمراء الكبار وغيرهم حوله، وأعلن العصيان وطلب تسليمه الأمراء السابق ذكرهم أخصاء السلطان، فلم يجد المنصور أبو بكر بدًا من تسليمهم، ثم انفضّت عنه مماليكه ومماليك أبيه، ولجؤوا جميعًا إلى قوصون وأتباعه، وبقي السلطان وحيدًا في القلعة.

اجتمع قوصون مع الأمراء الكبار مثل طقزدمر الحموي، وجنكلي بن البابا، وأيدغمش أمير آخور، وأعلنوا خلع السلطان لسوء سلوكه، وأخرجوه هو وجميع إخواته ما عدا كجك، ونفوا المنصور أبا بكر ومعه إخوته الستة أبناء الناصر محمد إلى قوص، وذلك في صفر 742/ 1341 ولم يمكث المنصور في السلطنة سوى حوالي شهرين، ولم يكن له من السلطنة سوى الاسم، ثم قتله قوصون بعد هذا بشهورٍ قليلة (المقريزي، السلوك، 2: 551– 570؛ ابن تغري بردي، النجوم، 10: 7 – 20).

4 – الأشرف علاء الدين كجك – السلطان الطفل:

أخرجه الأمراء من دار الحريم السلطاني، وأعلنوه سلطانًا ولقبّوه الأشرف وهو طفل صغير عمره حوالي خمس سنوات، وأمّه جارية تترية (مغولية) اسمها أردو، وأصبح قوصون نائب السلطنة بعد اعتذار أيدغمش أمير آخور لعلمه بعدم استقرار الأحوال، وذلك في صفر 742/ 1341 وأنفق قوصون على الأمراء كالعادة، وأمّر عددًا من المماليك وأفرج عن أقبغا عبد الواحد، وأرسل باقي الأمراء المحبوسين إلى الإسكندرية. سرعان مابدأت المشاكل إذ أرسل ملكتمر السرجواني نائب الكرك يشكو من إسراف سيدي أحمد بن الناصر في الملذّات واللّهو وشرب الخمر، وأنّه خائف منه على نفسه –كان ملكتمر السرجواني زوج

أم سيدي أحمد، ولكن كانوا على علاقة سيئة– ويطلب إعفاءه من منصبه. فأرسل قوصون يستدعي سيدى أحمد إلى القاهرة، فظنَّ الأخير أنّ سبب استدعائه هو توليته السلطنة، فلمّا فطن إلى حقيقة الأمر رفض الذهاب إلى القاهرة، وأعلن العصيان.

لم يكن قوصون على الرغم من كرمه وبذخه محبوبًا من الأمراء وكانت علاقته مُتوترة مع المماليك الناصرية، ثمّ حدثت الفتنة من أمرٍ غريب حقًا وذلك أنَّ قوصون أرسل يدعو إليه أحدًا من المماليك السلطانية وكان وسيمًا جميل الشكل، فامتنع أولاً، ثم اضطر للذهاب بعد إصرار قوصون فبات عنده، ثم أرسل في الغد يطلب عدة مماليك أخري بينهم شيخو وصرغتمش وأيتمش عبد الغني (سوف يلعبون دورًا كبيرًا في الأحداث المقبلة) فرفضوا الذهاب إليه، وأظهروا هم وبقية المماليك السلطانية العصيان، فأرسل قوصون إلى كبار الأمراء البرانية جنكلي بن البابا وبيبرس الأحمدي، وقطلوبغا الفخري يخوفهّم من عاقبة عصيان المماليك للأمراء، واستخفافهم بهم فتوسّطوا لدى المماليك السلطانية للصلح، وبعثوا إليه الأمراء المذكورين أعلاه، وأظهروا الأسف لقوصون، فظن الأخير أنّ الأمور قد هدأت، ولكن في الحقيقة فقد بيّت المماليك العزم على قتل قوصون.

لما علم قوصون بهذا الأمر جمع عددًا من الأمراء الكبار، وخرجوا إلى خارج القاهرة فاحتلّ المماليك السلطانية القلعة، وكسروا خزائن السلاح (الزردخانة) والعامة تحت القلعة تناصرهم، فأشاروا إليهم بنهب بيت قوصون بالقاهرة فأسرع إليه العامة. فلمّا علم قوصون بهذا عاد مُسرعًا لدفع العامة عن بيته، تم توجّه إلى القلعة فاستسلمت المماليك الناصرية لقوصون، فعاقب بعضهم بالقتل وآخرين بالنفى، كذلك عاقب بعض العامة بالسجن، ومضت الأزمة بعد أن سقط عدد من القتلي والجرحي من الطرفين، ثم أنعم قوصون على الكثير من الباقين بأمريات وإقطاعات، وأجزل لهم العطايا لكسب ولائهم. كذلك فرّق رؤوس الفتنة شيخو، وصرغتمش، وأيتمش على الأمراء الكبار لإبعادهم عن باقي المماليك.

في هذا الوقت جاءت الأنباء بأنّ سيدي أحمد يراسل أمراء الشام، ويدعوهم للتخلّص من قوصون، فقرّر الأخير إرسال حملة كبيرة إلى الكرك للقبض على سيدي أحمد بقيادة قطلوبغا الفخري على الرغم من معارضة الأمراء الكبار لهذا. وتوجّهت الحملة إلى الكرك وحاصرتها لمدة شهرين؛ ولكنّها لم تتمكّن من الاستيلاء عليها وفي ذلك الوقت جُمادى الأول 742/ 1341 قُتل الأمير بشتك في محبسه بالإسكندرية، كذلك قُتل السلطان السابق

المنصور أبو بكر بقوص في الصعيد، وتبين بعد ذلك أنَّ هذا تم بناءً على أوامر من قوصون. عندئذ انقسم الأمراء بين مؤيد لقوصون، وعلى رأسهم الطنبغا الصالحي نائب الشام، وبعض الأمراء الآخرين ومعارض له مؤيد لسيدي أحمد، وعلى رأسهم طشتمر حمص أخضر (كُنّي بهذا نظرًا لحبّه الشديد لهذا النوع من البقول) نائب حلب وقطلوبغا الفخري قائد حملة الكرك، وبعد معارك ومناوشات كثيرة لا داعي لذكرها انتصر الأمراء المعادون لقوصون – بحجة نفية لأبناء أستاذهم الناصر محمد إلى الصعيد وقتله المنصور أبا بكر وبشتك بدون مشاورتهم واختلافه مع أيدغمش أمير آخور.

استولى الأمراء الثائرون على دمشق وحلب وكثيرٍ من أجزاء الشام، وأعلنوا تنصيب أحمد سلطانًا ولُقِّب بالناصر مثل أبيه، وطلبوا من قوصون الخروج من القاهرة إلى منفى يختاره، فرفض وعزم على المقاومة بالقاهرة، وفتح الخزائن السلطانية، وأكثر من توزيع الأموال والعطايا والإكراميات على المماليك والأمراء، مما أخاف باقي الأمراء الكبار، وعلى رأسهم أيدغمتش أمير آخور – وكان على علاقة سيئة مع قوصون كما ذكرنا – واعتقدوا أنّ قوصون سوف يتسلطن فاجتمع معظم الأمراء الكبار، وقرروا الخروج إلى الكرك لمقابلة الناصر أحمد، بينما احتمى قوصون وأتباعه بالقلعة. عندئذ ولثاني مرة دعى إيدغمش العامة إلى نهب منزل واصطبل قوصون وخانقاته بالقرافة، فقامتً العامة بنهبها عن آخرها وكان بهم أموال وكنوز ضخمة حتى أنَّ سعر الذهب قد انخفض إلى النصف تقريبًا، نتيجة لزيادة المعروض، وقاموا بخلع الأخشاب والرخام من الأسقف. تعدّد لنا المصادر المملوكية أصناف وأنواع المنهوبات بتفصيلٍ شديد لا يخلو من المبالغة بعض الأحيان، ولكنّه يدل على غِنى الأمراء الفاحش، وعلى أعتياد العامة على نهب ممتلكات الأمراء عند هزيمتهم كنوع من العقوبة. زادت أعمال النهب وامتدّت إلى كلّ من يعتقد أنّه قوصوني حتى اضطرت الجنود إلى التدخّل لوقفها.

أسقط من يد قوصون بعد هروب أتباعه، وتخلّي الأمراء عنه، واضطر للاستسلام إلى أيدغمش الذي أرسله للحبس في الإسكندرية، وتصادف دخوله السجن مع إطلاق سراح الأمراء الناصرية وعلى رأسهم ملكتمر الحجازي المسجونيين من شهور بأمر قوصون فسلّموا عليه بشماتة فاعتذر لهم قوصون وبكى. ومن مفارقات القدر أنَّ ثلاثة أخوات من بنات الناصر محمد كُنَّ متزوجات من ملكتمر الحجازي، وبشتك، وقوصون فلمّا كان قوصون في

أوج قوته، وحبس ملكتمر الحجازي، وقتل بشتك كان في بيوت أختين منهما بكاء وعويل، والأفراح في بيت الأخت الثالثة زوجة قوصون، فانقلب الحال فأقامت تتر الحجازية (زوجة ملكتمر) الأفراح احتفالاً بعودة زوجها، ومعها أختها زوجة بشتك نكاية في قوصون، وتحوّلت أفراح بيت قوصون إلى بكاءٍ وعويل.

استتبّت الأمور لأيدغمش أمير آخور لحين وصول الناصر أحمد من الكرك، فجمع الأمراء، وخلع الأشرف كجك في أول شعبان 742/ 1342 فكانت مدة سلطنته خمسة شهور وعدّة أيام، وأقام السلطان المخلوع بالقلعة مع أمّه المسمّاة أردو في ذلّة وإهانة مع تعاقب إخوته على السلطنة حتى قُتل بعد هذا بأربعة أعوام وسنة دون الثانية عشر (المقريزي، السلوك، 2: 571 – 593؛ ابن تغري بردي، النجوم، 10: 21 – 49).

5 – الناصر أحمد، السلطان غريب الأطوار:

أرسل أيدغمش عددًا من الأمراء الكبار منهم جنكلي بن البابا، وبيبرس الأحمدي، وقماري إلى الكرك لإحضار الناصر أحمد كما أرسل إلى قطلوبغا الفخري يستدعيه من الشام بصحبة الناصر أحمد كما قام بالقبض على عدد كبير من الأمراء الموالين لقوصون على رأسهم ألطنبغا الصالحي نائب الشام، وبرسبغا الحاجب وقتلا بعد ذلك بقليل. منذ البداية ظهرت غرابة أطوار الناصر أحمد، فرفض لقاء جميع الأمراء الكبار الذين ذهبوا إليه في الكرك، وطلب منهم انتظاره في غزة كذلك رفض الذهاب إلى الشام للقاء قطلوبغا الفخري، ومعه طشتمر حمص أخضر وهما كبار أمراء حزبه، والذين قاموا مع أيدغمش بمحاربة قوصون وسلطنته. ثمّ عاد فجأة بمفرده إلى القاهرة ليلاً مع مجموعة من أهل الكرك، ودخل القلعة في نهاية رمضان 742/ 1342 ليلاً وقابل أيدغمش بفتور، وقال له إنّي لم أطلب السلطنة، وكنت سعيدًا بالكرك. ثمّ انعزل داخل القلعة مع رفاقه من أهل الكرك، و لم يخرج حتى لصلاة العيد وقد أثارت هذه التصرفات غضب الأمراء حتى أنّ قطلوبغا الفخري عزم على العصيان، وطلب عزل السلطان لولا أنّ طشتمر حمص أخضر، وكان صديقه منعه من ذلك. ثمّ بايعه جميع الأمراء والخليفة وأنفق على الجميع كالعادة، ولا ندري لماذا خالف جميع الأمراء نصيحة الناصر محمد في فراش موته بعدم سلطنة الناصر أحمد – أكبر أولاده – وذلك لعلمه بسوء خلقة وفساد رأيه، وكان أدرى بأولاده من غيره. ويبدو لي مرة

أخرى أنَّ الصراع الداخلي بين الأمراء الكبار، وعدم وجود رأسٍ قوي لهم هو السبّب في هذا الاختيار، ولكن كان يمكنهم سلطنة طفل صغير، وليس رجلاً مثل الناصر أحمد.

أصبح طشتمر حمص أخضر نائبًا للسلطنة، وعيّن معظم الأمراء الكبار ومنهم قطلوبغا الفخري، وأيدغمش أمير آخور في مناصب خارج القاهرة. وتدهورت سريعًا علاقة السلطان مع نائبه، لرغبة الأخير في الحجر عليه، وقيامه بتصريف الأمور وحده، وعدم قبول شفاعته ومنع طشتمر السلطان من مخالطة أهل الكرك، وكان به تكبّر وتيه وغرور. فدبّر السلطان القبض عليه، وكذلك قبض على قطلوبغا الفخري، وأرسلهم إلى الكرك محبوسين، وكالعادة قام بمصادرة أموالهم وأموال حريمهم.

ثم عنّ للسلطان مغادرة قلعة القاهرة للإقامة بالكرك، فأخذ معه الخليفة والأموال وعددًا كبيرًا من كبار رجال دولته، وعددًا من المماليك، وخرج إلى الكرك في ذي الحجة 742/ 1342 وأقام بها في زي الأعراب، واعتزل الجميع إلاّ بعض أهل الكرك من أخصائه، وكان يبعث أوامره إلى كاتب سره عن طريقهم، ولا يقابل أحدًا من أمرائه، وانعكف على اللّهو والشراب. لما طال غياب السلطان عن القاهرة اضطربت أحوالها، وظهرت بوادر عصيان من الأعراب، فأرسل الأمراء له مندوبًا يدعوه إلى العودة للقاهرة فرفض حتى مقابلته، وقال لهم إنّه يقيم أينما يشاء في مملكته، ثمّ ورد خبر بأنَّ السلطان قد قتل كلاً من طشتمر حمص أخضر، وقطلوبغا الفخري عندئذ نفد صبر الأمراء الكبار بالقاهرة، واتفقوا على خلع السلطان؛ وإقامة أخيه إسماعيل، وذلك في محرم 743/ 1342.

كان الناصر أحمد عند خروجه قد نقل معه الخزائن السلطانية، وجواهر وذهب أبيه وجميع ما في القلعة من غنم وبقر وجميع شعائر السلطنة، وأجود أنواع الخيول والجمال والهجن حتى مصاغ جواري أبيه، ونقل الجميع إلى قلعة الكرك، وأخذ في تحصينها وتزويدها بالماء والمؤن، وامتنع بها حتى بعد عزله، ورفض إعادة ما استولى عليه للسلطان الجديد الذي جرّد عليه عدة حملات فشلت جميعًا في الاستيلاء على الكرك إلى أن نفد ما مع الناصر من أموال بعد مدة سنتين وشهر حتى قبض عليه، وقتل في سلطنة أخيه في صفر 745/ 1344 (المقريزي، السلوك، 2: 593 – 619؛ ابن تغري بردي، النجوم، 10: 50 –72).

6 - الصالح إسماعيل السلطان المريض:

اختار الأمراء إسماعيل أحد أبناء الناصر، وذلك أنه بلغهم بأنّ إسماعيل عند خروجه إلى قوص منفيًا مع باقي إخوته كان مُتدينًا حسن السيرة يصوم الاثنين والخميس من كلّ أسبوع، ويداوم على الصلاة، وقراءة القرآن، والبعد عن اللّهو؛ ولذلك أقاموه سلطانًا ولقّبوه بالصالح، وحلفوا له كالعادة، وأصبح زوج أمّه الأمير أرغون العلائي هو مدبّر المملكة ورأس مجلس المشورة أي صاحب الكلمة الأولى في السلطنة بعد السلطان نظريًا (كان عمر السلطان حوالي سبعة عشر عامًا) وعيّن أميرًا يُسمَّى أقشتمر السلاري نائبًا للسلطنة، وأفرج السلطان عن الكثير من الأمراء المحبوسين، كما عاد الخليفة والأمراء الذين كانوا بالكرك، وقام بتعيين نُواب له في الشام وحلب وغيرها.

أرسل الصالح إسماعيل إلى أخيه بالكرك، وطلب منه إعادة الخزائن السلطانية والأموال وشعائر السلطنة وغيره، مما كان قد أخذه معه عند خروجه من قلعة القاهرة، وترك له حكم الكرك وتوابعها. رفض الناصر أحمد إعادة ما أخذه، بل انتشرت بعض الأخبار بأنّه يتآمر لقتل السلطان، فأرسل الصالح إسماعيل حملة بقيادة بيغرا (أحد الأمراء المقدمين للناصر محمد) في ربيع الآخر 743/ 1342 لم تنجح وكانت هي الحملة الأولى من سبع حملات أُرسلت إلى الكرك، للقبض على السلطان السابق الناصر أحمد.

كان إسماعيل عليلاً يعاوده المرض بين الحين والآخر، واتهمت أمّه أردو (أم السلطان السابق الأشرف كجك) بأنّها سحرت له، ولا نعرف طبيعة مرضه، وأعتقد أنّه ربما كان مريضًا بالصرع يُعاوده في نوباتٍ غير منتظمة، وبدأت فتنة كبيرة في رجب 743/ 1343 كان السبب فيها أخو الصالح إسماعيل سيدي رمضان (كان السلطان قد أنعم عليه برتبة أمير مائة وأخيه حاجي بإمرة أربعين) استغلّ سيدي رمضان أحد نوبات مرض السلطان، فراسل بعض الأمراء وخرج بخيلٍ وجمال مُواعدًا أصحابه لخلع السلطان. فعرف الأمراء ما يجري واستولوا على خيل سيدي رمضان، وأخطروا الصالح، وأرغون مُدبّر المملكة بما يجري، وأرادوا القبض عليه (أي سيدي رمضان) في القلعة غير أنّه تمكن من الهرب مع بعض أنصاره إلى خارج القاهرة، حيث تعقّبه السلطان وأمراؤه وتلاقى الجمعان فانهزم سيدى رمضان، وحاول الهرب إلى الصحراء؛ ولكن أمراء السلطان أدركوه وقبضوا عليه واكتفى السلطان بحبس مماليك سيدي رمضان وتوزيعهم على أمرائه بعدها بأيام، وقام أيضًا بإعدام بعض

الأمراء المناصرين لرمضان. ونجا رمضان من هذه الفتنة إلى حين إذ إنّه استمر محبوسًا إلى أن قتله السلطان بعد فترة في ذي القعدة 744/ 1344.

من الناحية الإدارية استقرّت الأمور على ما هي بقيام الوزير وناظر الخاص مجتمعين بتدبير أمور الدولة، كذلك استمرّ منصب نائب السلطنة، وكان يتولاّه الأمير أقسنقر السلاري، وكان على ما يبدوا أميرًا هينًا لا يرد لأحد طلبًا سواءًا إن كان هذا الطلب بحقٍ أو بدون، مما عقّد الأمور وأثار غضب بعض الأمراء، فاتهموه بالانحياز إلى الناصر أحمد بالكرك، فقبض عليه السلطان مع بعض أعوانه، وعين بدلاً منه أحد كبار أمراء الناصر محمد وهو الحاج آل ملك الجوكندار، وكان أميرًا شديد التدين مُحافظًا متزمتًا من الناحية الأخلاقية، فشنَّ حملة شعواء على شرب الخمر وأماكن اللهو والمجون ومنها على سبيل المثال خزانة (سجن) البنود. وهي منطقة بالقاهرة تقع بالقرب من المشهد الحسيني كانت في الأصل معملاً لصنع السلاح، ثم صارت سجنًا للأمراء والمماليك (خزانة شمائل بالقرب من باب زويلة كانت مُخصّصة لأرباب الجرائم من اللِّصوص وقطّاع الطرق). وفي دولة الناصر محمد الثالثة حين كثر قدوم الأسرى من الأرمن وغيرهم أنزلهم في القلعة وخزانة البنود هذه، ثم توقّف عن العمل بها كسجن، وجعلها مساكن لهؤلاء الأسرى (كان معظمهم حجارين وأصحاب صنائع يعملون في المنشآت السلطانية) فتكاثروا بها، وقاموا بإنتاج الخمور بها؛ نظرًا لأنّهم لم يعتنقوا الإسلام، كذلك إنتاج لحم الخنزير حتى أصبحت تلك المنطقة حانه ومكانًا لشرب الخمر، ومعاشرة العاهرات، واللهو وغيره من أعمال الفسق. كان آل ملك يقيم بالقرب من تلك المنطقة في دولة الناصر محمد فاحتجّ للسلطان أكثر من مرة، وأراد إغلاق هذا الموضع فلم يوافقة السلطان، واضطره إلى تغيير إقامته بعيدًا عن خزانة البنود تلك.

لـمّا أصبح الحاج آل ملك نائبًا للسلطنة بسلطاتٍ واسعة سارع إلى إغلاق هذا الموضع وهدمه، وأخرج جميع سكانه، وكسر أواني الخمورٍ، ثم قام بتقسيم أرضها الفضاء وبيعها للأهالي، ليعمّروها دورًا وطواحين وغيره. كما أبطل كذلك الكثير من الملاهي وألعاب القمار مثل المناطحة بالكباش، أو المناقرة بالديوك والمصارعين والملاكمين، والذين يلعبون بالقرود أو الدببة. كذلك أبطل المقايضة على تبادل الإقطاعات التي فُتحت بمراسيم سلطانية بعد وفاة الناصر محمد.

علي الرغم من عدم الاستقرار وتتابع السلاطين منذ وفاة الناصر، فقد ظلّ للسلطنة هيبتها

ومكانتها العالية بالخارج، فيذكر المقريزي في السلوك أنّه في نهاية عام 743/ 1343وفد سفير من ملك الروم (تركيا حاليًا) ومعه هدايا يطلب مرسومًا من السلطان المصري بتقليده ملكا على بلاده، كذلك يذكر في بداية العام التالي وصول سفراء من ملك الهند بهدايا للسلطان يطلبون تقليدًا من الخليفة بالقاهرة (مرسومًا) بتولّيه مُلك الهند، وكذلك طلب أن يبعث لهم بمن يقوم بتعليمهم شرائع الإسلام، وعلى الرغم من أنّ هذه أمور شكلية؛ نظرًا لتوقف النزاع مع المغول والروم، كذلك لبعد دولة الهند عن مصر غير أنّها تدلّ على الثقل السياسي والثقافي الذي امتازت به الدولة حتى في عصور تفككها. ومن سمات عصر الصالح إسماعيل أيضًا زيادة نفوذ الخدم والجواري والحاشية في دولته، حتى أنّهم كان يقضون مصالح الأفراد، ويتدخّلون في أمور الدولة.

بعد وفاة الناصر محمد، ونظرًا لانعدام الاستقرار السياسي فقد توقّفت حركة البناء والتشييد إلى حد كبير ومن المنشآت القليلة كانت قيام الصالح ببناء قاعة كبري في القلعة سُمّيت بالدهيشة، نظرًا لأنها تدهش من ينظر إليها وكانت قاعة فخمة من الحجر والرخام، وزوّدها بأنواع من البسط والمقاعد المزركشة، وانتهى السلطان من بنائها في رمضان 744/ 1344 وجلس بها مع جواريه وخواصه.

خلال العامين السابقين أرسل الصالح سبع حملات عسكرية لحصار وقتال الناصر أحمد بالكرك تبادل على قيادتها معظم كبار أمراء الدولة عجزوا جميعًا عن إخضاعه حتى نفذت أموال ومُؤن الناصر أحمد، وبدأ حلفاؤه من أهل الكرك من الانفضاض عنه لمللهم من كثرة المحاربة والحصار، فبدؤوا في مكاتبة السلطان وكبار الأمراء بالقاهرة. في بداية عام 745/ 1344 قام السلطان بإعداد حملة ثامنة كبيرة حاصرت الكرك حتى قام أمراؤها بتسليم المدينة إلى السلطان بعد أخذ الأمان والإقطاعات، وبقي الناصر أحمد مع قليل من أتباعه في قلعة الكرك مُدافعًا عنها ببسالة، رافضًا الاستسلام، وأُصيب عدة مرات واشتدّ عليه الحصار حتى اضطر في النهاية إلى الاستسلام في صفر 745/ 1344. فقُبض عليه، ووُضع في القيد، وحُبس إلى أن أرسل إليه السلطان من قتله وقطع رأسه، وأرسلها إلى السلطان بالقاهرة، فما إن رآها حتى اقشعرّ، وذُعر وعاوده المرض. فهكذا كانت نهاية الناصر أحمد على يد أخيه الصالح إسماعيل الذي سبق له وأن قتل سيدي رمضان في هذا الصّراع الرهيب على كرسي السلطنة.

مرت الدولة بأزمة اقتصادية نظرًا لزيادة النفقات عن الإيرادات، وكثرة المصروف على الحملات المتتابعة على الكرك. مع إسراف الصالح الشديد على بناء قاعة الدهشة، وقد تغيّر السلطان فبعد أن كان متدينًا عفيفًا أكثر من اقتناء الجواري وشغف شغفًا شديدًا بإحداهنَّ، وتُسمَّى أتفاق العوّاده (ضاربة العود). كذلك اشتد الخلاف بين النائب الحاج آل ملك من ناحية، وأرغون العلائي، وملكتمر الحجازي من ناحية أُخرى، وخصوصًا مع الأخير لشربه الخمر مع إصرار النائب على تحريمه.

ساءت صحة السلطان - وكان عليلاً دائمًا - وهمَّ بالسفر إلى الحجاز للحج في محرم 746/ 1345 وبدأ في الإعداد للرحلة والإنفاق عليها، غير أنّ سوء صحّته وإصرار الأمراء جعلاه يلغي تلك الاستعدادات، وسرعان ما دخل مرض الموت حتى توفّي في ربيع الآخر 746/ 1345 وقد أوصى بعرشه إلى أخيه شعبان (وكان شقيقه من نفس الوالدة) ووافقه أرغون العلاتي وكان زوج أم شعبان أيضًا وأمير آخر يُسمَّى شجاع الدين غرلو سنعود إلى ذكره لاحقًا وباقي الأمراء والمماليك أما النائب الحاج آل ملك فلم يكن راغبًا فيه لما اشتهر عنه من الظلم؛ ولكنّه نزل على رغبة أغلبية الأمراء وهكذا تسلطن شعبان ولُقّب بالملك الكامل، وكانت سلطنة الصالح لمدة ثلاثة أعوام وشهرين (المقريزي، السلوك، 2: 619 - 680؛ ابن تغري بردي، النجوم، 10: 78 - 116).

7 - الكامل شعبان: السلطان الماجن:

هو الخامس من أبناء الناصر محمد، ولا تذكر المراجع سنة، ولكن كان الأخ الأصغر الشقيق لـ الصالح إسماعيل و لم يكن صبيًا لكثرة زواجه، فربما يكون في نهاية العقد الثاني من عمره تخمينًا. وحلف للأمراء وحلفوا له كما قلدّه الخليفة السلطنة في حضور الأمراء والقضاه كالعادة، وبالطبع طلب الحاج آل ملك إعفاءه من السلطنة، وأرسل إلى نيابة صغيرة هى صفد بالشام لسابق اعتراضه على سلطنة الكامل كما أحدث عدة تغييرات في النيابات والوظائف الكبري والإقطاعات، لتقوية نفوذه.

بدأ السلطان عهده بطلب غريب هو أن يتزوّج من أرملة أخيه وأخت زوجته (بنت الأمير بكتمر الساقي الناصري محمد) فرفضت أمها بالطبع لعدم الجمع بين أختين طبقًا للشريعة،

فما كان منه إلا أن طلّق زوجته، وتزوّج بأختها (كانت زوجة أنوك بن الناصر محمد، ومات دون الدخول عليها، فتزوّجت بأخيه المنصور أبي بكر، فقُتل بعدها فتزوّجت أخاه الصالح إسماعيل؛ فمات أيضًا أي أنّها تزوجت من أربعة من أبناء الناصر محمد بالتتابع) وكان أيضًا شغوفًا بأتفاق العوادة جارية أخيه.

أحدث السلطان بعض التغييرات الإدارية، وذلك أنه قضى وأوكل لحاجب الحجاب بيغرا ومساعده أن يحكم بالناس كالقاضي الشرعي. وأصبحت عادة بعد هذا حيث إنَّ عمل الحاجب في السابق كان يقتصر على تنظيم مجلس السلطان وتحديد زوّاره، فكانت سُنّة سيئة.

أُتهم الكامل بقتل أخيه السلطان السابق الأشرف كجك، وذلك في جُمادى الأول 746/ 1345 ويبدو أنّ قتل الأخ لأخيه أصبح عادة بين أبناء الناصر محمد؛ نظرًا لضراوة المنافسة على عرش السلطنة. وفي هذه المدة القصيرة قتل جميع من تولّى السلطنة وعددهم أربعة من أبناء الناصر سوى الصالح إسماعيل الذي لم يمهله المرض. كما قتل خامسهم سيدى رمضان على يد أخيه الصالح.

بدأ السلطان في التهتك والمجون فكان يخرج إلى بلدة سرياقوس ومعه حريمه وعساكره، ويكثرون من شرب الخمور وارتكاب الفاحشة ومهاجمة الحريم، بل اغتصابهم حتى أصبحت على حد قول المقريزي سرياقوس حانة. وكان السلطان يهوى اللّعب بالحمام، و لم تكن لعبة محترمة ولا يمارسها سوى أفراد الطبقات الدنية وقد حاول أرغون العلائي زوج أمّة ومدبّر مملكته أكثر من مرة أن ينهيه عن اللعب بها فلم ينته. كذلك كان يهوى مخالطة الخدم والعوام والجواري يقضي معهم الأوقات الطويلة ويشاهدهم، وربّما يشاركهم وهم يلعبون بعض الألعاب السوقية والتي لا تليق بمقام الملوك - بمفاهيم هذا العصر - مثل لُعبة حمل الأثقال (وتطلق عليها المصادر المعاصرة المعالجة والمعالجين) ولعبة القتال بالعصي أو التحطيب، وكان يسقط فيها بعض القتلى (وتطلق عليها المصادر المعاصرة اللعب باللّبخة نسبة إلى شجرة اللّبخ مصدر العصي أو النبابيت) وكما يقول المثل إذا كان ربّ البيت بالدفّ ضاربه كانت شيمة أهل البيت الرقص، فقد انتشر المجون بين الأهالي أيضًا فأنشأ بالجزيرة الوسطى أمام بولاق (الزمالك الآن) أكشاكًا (تسمَّى أخصاص) ضخمة مُزيّنة وحولها حدائق لممارسة شرب الخمر، وسائر أعمال المجون والرذيلة بعيدًا عن مجتمع القاهرة المحافظ. كما أطلق العنان

لحريمه وخدامه في النزهة والصيد، وارتكاب المحرمات من شرب خمرٍ وخلافه، كما دأبوا على أخذ ممتلكات الآخرين، والاستيلاء عليها بدون رادعٍ من السلطان.

استشرى الفساد في الجهاز الاداري للدولة، فقد اختص السلطان الكامل بالأمير شجاع الدين غرلو وقربه وكان والي القاهرة (المسئول عن الأمن بالقاهرة مثل الحكمدار أو مدير الأمن حاليًا) ثم أصبح شاد الدواوين (أي الرئيس المسئول عن إدارة الدواوين) فاستنّ نظامًا جديدًا بموجبه يصبح على طالب أي من الوظائف الحكومية دفع مبلغ من المال (يُسمَّى برطيل) يورد لبيت المال، فكان هذا بابًا للفساد بالطبع حتى أصبحت هذه قاعدة لتوزيع الإقطاعات والمناصب وغيره.

كما هو متوقّع توترت العلاقة بين السلطان والنائب السابق للسلطنة الأمير الحاج آل ملك، وكان متشددًا محافظًا فاتهّمه السلطان - جورًا على ما يبدو- بأنّه يتآمر ضده، وبأنه ينوي الهروب خارج البلاد ونفى آل ملك التهمة، ولكن هذا لم يمنع السلطان من القبض عليه وعلى بعض كبار الأمراء مع مصادرة أموالهم وأملاكهم وذلك في محرم 747/ 1346 وفي ربيع الآخر 747/ 1346 مات فجأة سيدي يوسف أخو السلطان فاعتقد الجميع أنّ السلطان قتله ثم عزم على السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وبدأت الاستعدادات لهذا بجمع الجمال والشعير وسائر أنواع الحبوب تجهيزًا لخروج السلطان وحريمه وحاشيته والكثير من الأمراء مما أثقل عليهم نظرًا لكثرة النفقات والغلاء الناتج عن هذا مع سوء حالتهم الاقتصادية وحاولوا مرارًا إثناء عزم السلطان عن السفر - خصوصا يلبغا اليحياوي نائب الشام وارغون العلائي وملكتمر لحجازي من كبار الأمراء فلم يطاوعهم.

عندئذ حدث ما هو متوقّع فجمع يلبغا اليحياوي باقي نواب الشام من حمص وحماة وطرابلسٍ وصفد للخروج على السلطان، وكتب إليه يلبغا الكتاب المشار إليه سابقًا مُؤكدًا فيه حق الأمراء في تعيين وخلع السلطان إن لم يرضوا عنه وذلك في جمادى الأولى 747/ 1346 فلما وصل الخطاب إلى السلطان استشار زوج أمه فأشار عليه بالغاء السفر للحجاز وجميع الأمراء الموحودون بالقاهرة لإعداد حملة على الأمراء الخارجين بالشام وأنفق عليهم الأموال الطائلة وأمرهم بالخروج إلى الشام وبدؤوا فعلاً في الخروج.

تخوّف الكامل من إخوته فقبض على أخويه أمير حاج، وأمير حسين، وسجنهما على الرغم من معارضة حريم السلطان والمماليك السلطانية لهذا مما نفرّ القلوب منه، ثم أراد

القبض على ملكتمر الحجازي فهرب منه واجتمع مع أقسنقر وكثير من المماليك خارج القاهرة وأشار أرغون العلائي على السلطان بالخروج للقاء الأمراء وخرج معه وتلاقي الجمعان في جمادى الآخر 747/ 1346 فانفضّ الجميع من حوله السلطان سِوى زوج أمه أرغون العلائي الذي رفض تسليمه، فهاجمه المماليك الثائرة وأصابوه وهرب الكامل إلى القلعة ولجأ إلى أمّه، ويقال إنه أراد قتل أخويه فلم يتمكّن من ذلك وحاول الهروب فلحقه الأمراء واعتقلوه بالدهيشه حيث كان أخوه ثم قُتل بعدها بيومين في جُمادى الآخر 747/ 1346 فكانت سلطنته سنة وحوالي شهرين، ودُفن مع أخيه يوسف (المقريزي، السلوك، 2: 680 – 713؛ ابن تغري بردي، 10: 116 – 141).

8 – المظفّر حاجي: السلطان السفّاح:

أخرج الأمراء الثائرون سيدي حاجي (سمي كذلك لأنّه ولد عام 732/ 1332 عندما كان والده الناصر محمد يؤدّي فريضة الحج) من سجنه بالدهشة، وقّبلوا له الأرض وسلطنوه، ولقّبوه بالمظفّر في جمادى الآخر 747/ 1346 وكان عمره خمسة عشر عامًا، وهو الابن السادس للناصر الذي يتولّى الحكم. لم يخطر على بال أي من الأمراء المطالبة بالسلطنة لنفسه، واكتفوا فقط بعزل السلطان أو قتله، وتعيين سلطان دمية آخر لتبقى معهم السلطة الفعلية، وحلف لهم وحلفوا له بالولاء (أي الأمراء) وقلّده الخليفة السلطنة، واستقر له الأمر لكن لحين كما حلف له يلبغا اليحياوي نائب الشام وسائر النواب الآخرين وقام بتعيين أمير اسمه أرقطاي نائبًا له بعد تمنّع.

قام المظفّر بتأمير ثمانية عشر أميرًا قاموا بالحلف في قبة المنصور قلاوون (شاع المعز) كما هي العادة، ثم ساروا في موكبٍ كبير في الزي الرسمي لهم كما أنعم السلطان بعد هذا بمدة بإمرة مائة على أحد مماليك أخيه يوسف المقتول يُسمَّى طنيرق بعد أن كان جنديًا عاديًا في نقله غير معهود بها؛ وذلك نظرًا لجماله وحسنه.

من غرائب الأمور أنّ السلطان المظفّر في بداية سلطنته كان قد أخرج أم الكامل وحريمه ومحظيته أتفاق العوادة السوداء، وصادر أموالها وممتلكاتها كما أعاد جميع الأملاك التي استولت عليها جواري الكامل. ثم تزوّج في أول شوال عام 747/ 1347 من ابنه الأمير

تنكز (زوجة أخيه الراحل) بعد هذا بقليل في نهاية شوال طلب أتفاق العوادة بجواره مرة أخرى بالقلعة، بل وتزوّج منها سرًا وغنّت له، وأعاد إليها جميع أموالها المصادرة، بل زاد عليها وبذلك تكون أتفاق العوادة السوداء تزوّجت من ثلاثة سلاطين من أبناء الناصر محمد على الرغم من أنّها لم تكن جميلة، ولكن يبدو أنّ ضربها على العود وغناءها عوّضاها عن الجمال المفقود. وبعد هذا أسرف السلطان في اللهو والشراب والملذات، وانشغل بأتفاق هذه حتى تبرّم الأمراء والمماليك من هذا الوضع، و لم يثنيه هذا عن عزمه غير أنّه اضطر في النهاية بعد إلحاح الأمراء الخاصكية، وخوفًا من غضب الأمراء الكبار والمماليك السلطانية إلى إخراج أتفاق وجاريتين أخرتين من القلعة بما عليهم من ملابس وبلا مجوهرات وتسلّى عنهنَّ باللعب بالحمام بعد إنشاء حظيرة عالية لهم في الدهيشة وذلك في أوّل عام 748/ 1347 كما قام باستدعاء الأوباش لحضرته للمصارعة وغيره.

كانت هذه الحادثة على غير أهميتها كما يبدو سببًا في أحداث خطيرة أودت بحياة الكثير من الأمراء، وفي النهاية بحياة السلطان نفسه. وذلك أنّ الأمير شجاع الدين غرلو (سبق ذكره كشادٍ للدوواوين في دولة الكامل شعبان قبل أن ينقلب عليه) كان مقربًا من المظفّر حاجي فلمّا أخبره المظفّر بما جرى هوّن عليه أمر الأمراء، وأوعز عليه نفيهم أو سجنهم. وفعلا قام المظفّر في ربيع الآخر 748/ 1347 باستدراك أقسنقر الناصري، وملكتمر الحجازي، وقتلهم بالقلعة بالاتفاق مع غرلو، كما قام بالقبض على أربعة من كبار الأمراء بينهم أيتمش بن عبد الله، وسجنهم بالإسكندرية؛ وذلك بدون موافقة النائب أرقطاي، وصادر أموال الجميع ونهب بيوتهم، ثم كتب إلى الأمراء بالشام يخطرهم مما فعله ويُعدّد ذنوب الأمراء المقتولين غير أنّ يلبغا اليحياوي نائب الشام لم يرضَ في الباطن عمّا جرى، وخاف على نفسه إلا أنّه أظهر موافقته وكاتب باقي أمراء الشام للخروج عن طاعة السلطان.

في ذلك الحين أخذ السلطان يستميل باقي الأمراء، وأغدق عليهم الأموال وخصوصًا على غرلو المذكور، ثم قام بتجهيز حملة بها العديد من الأمراء للشام للقبض على يلبغا اليحياوي، وفي نفس الوقت أرسل إلى يلبغا يدعوه إلى القاهرة، ليصبح رأس مشورته وهو في الباطن ينوي قتله وخُدع يلبغا برسالة المظفّر وقبل دعوته، فقام السلطان بقتله وهو في طريق عودته. بذلك خلا الجو لغرلو، وبدأ في التخلّص من خصومه وأوقع بين السلطان ونائبه أرقطاي كما أوعز إلى السلطان بقتل الأمراء المحبوسين في الإسكندرية وعددهم أربعة، كما

قام السلطان بتعيينه أمير سلاح، وكان غرلو شركسي الجنس فاستمال المماليك الشراكسة إلى جانبه، وقوّى من شوكتهم وأوغر صدر السلطان بمماليكه الجوانية المقربين (ألجيبغا وطنيرق) حتى أصبح مدبّر المملكة وبذلك انقلب الجميع عليه من أمراء ونائب وخاصكية، وأخذوا في الوقيعة بينه وبين المظفّر حتى تمكّنوا في النهاية من اعتقاله أي غرلو، وقتله وذلك جُمادى الآخر 748/ 1347 بدون علم السلطان والذي حزن عليه حزنًا شديدًا، وتمت مصادرته ولكن لم يوجد عنده أموال تذكر فيبدوا أنّ غرلو هذا كان مغرمًا بالسلطة أكثر من الأموال.

بعد هذا بقليل تصادف أن خرج معظم الأمراء الكبار للصيد، كما أرسل السلطان أرقطاي النائب إلى الوجه القبلي وبقي السلطان وحيدًا بالقاهرة وقد خلا له الجو وعاد إلى عاداته القديمة من اللعب بالحمام، ومخالطة الأوباش واللعب معهم، وأباح لعب القمار، وارتدى زيَّ العوام للمصارعة كذلك شغف شغفًا كبيرًا بجاريه يُقال لها كيدًا فحلت محل أتفاق العوّاده، وأنفق عليها أموالاً كبيرة، واشترى لها الأملاك وفي هذا الوقت وصلت أموال يلبغا اليحياوي نائب الشام المقتول والمصادر، وكانت جمة فرقها جميعًا على كيدا الجارية، وعلى الخدام والطواشية والفراشين والعبيد فكان يُلقي عليهم الذهب وهم يتخاطفونه. لـمّا عاد الأمراء وعلموا بما حدث أنكروه على السلطان وعرفوّه بذلك فغضب غضبًا شديدًا، وعزم على الفتك بأمرائه الخاصكية الجيبغا، وطنيرق فاحترسا منه، ثم اتصلا بباقي الأمراء، واتفقوا جميعًا على الخروج على السلطان وخلعه. كما حدث مرارًا في السابق، اجتمع الأمراء الثائرون خارج القاهرة فخرج إليهم السلطان في بعض من أعوانه، وتلاقى الجمعان وفي مشهد مُكرر تفرق أتباع السلطان عنه، وانضمّوا للثائرين وتركوه لمصيره، فهاجمه أحد الأمراء الكبار ويُسمّى بيبغا أروس وجرحه وقبض عليه، ثم ذُبح بعد هذا بقليل خارج القاهرة في رمضان 748/ 1347 فكانت مدة سلطنته سنة وثلاثة شهور تقريبًا. عاد الأمراء إلى القلعة لاختيار سلطان جديد من بين أخوي المظفّر سيدي حسين وسيدى قماري (حسن) فاختارو الأخير ربّما لصغر سنِّه.

قتل المظفّر حاجي في سلطنته القصيرة هذه العديد من الأمراء المقدمين من مماليك أبيه وجده، فعند نهاية سلطنته في رمضان 748/ 1347 كان جميع أمراء الناصر محمد المقدمين الأربعة وعشرين (باستثناء بيغرا) قد اختفوا جميعًا من مسرح الأحداث سواء بالموت (اثني عشر) أو بالقتل خلال فترة حوالي ست أعوام. باختفائهم تبدّد الأمل في وصول أمير قوي

من خارج السّلالة القلاوونية إلى عرش السلطنة، وتتابع عليه حتى الآن ست سلاطين أحدهم طفل، والآخرون لم يكونوا كُفئًا للسلطنة، بل كان كلّ منهم أسوء من الآخر، وأكثر شذوذًا وضعفًا وقصورًا في الهمة ولحسن الحظ لم تتعرّض البلاد لأزماتٍ خارجية أو داخلية عنيفة وبالطبع لم تتحقّق أي انجازات أو حركة بناء وعمران تُذكر (المقريزي، السلوك، 2: 713-745؛ ابن تغري بردي، النجوم، 10: 148- 186).

9 - الناصر حسن - الفناء العظيم أو الموت الأسود:

اختار الأمراء حسن كسلطان، وتخطّوا أخاه حسين (ليصبح الوحيد من أبناء الناصر محمد الأحياء الذي لم يتولى السلطنة) ولُقّب بـالناصر أيضًا كوالده وذلك في الرابع عشر من رمضان 748/ 1347 ويقال إنّ اسمه كان قماري، وكان عمره حوالي تسع سنوات وهو السّابع من أولاد الناصر محمد الذي يتولّى السلطنة، ونظرًا لصغر سنّه تكوّن مجلس المشورة لإدارة أمور السلطنة من تسعة أمراء أهمّهم: بيبغا أروس وطاز وشيخو العمري (أصبح رأس نوبة وهو منصب كبير في هذا الحين) وظلّ أرقطاي نائبًا للسلطنة لفترة ثم تولّى بيبغا أروس هذا المنصب القوي وكان الوزير هو منجك اليوسفي (أخو بيبغا أروس) وبعد إجراءات الحلف المعتادة، تمّ التخلّص من جواري وخدم وطواشية السلطان السابق، وكذلك أُبعدت طائفة البرجية بعد اتهامهم بالتآمر لتنصيب سيدى حسين سلطانًا، لينفرد الأمراء بالسلطة كما هي العادة عند تولّي سلطان جديد. وفي إجراء لم يعهد من قبل نُقلت جثث الأمراء المقتولين في الإسكندرية في السنوات القليلة الماضية دفعة واحدة كلّ إلى مقبرته الخاصة، كذلك السلطان السابق كجك وأبناء الناصر محمد (سيدى يوسف، ورمضان، وشعبان) ودُفنوا في أماكن أخرى. وفُرِضت رقابة شديدة على السلطان، وأصبح محجورًا عليه من أمراء المشورة وكان شيخو يتولّى الشئون المالية للدولة مع ناظر الخاص وبيبغا أروس النائب إدارة شئون الحكم من تولية، وعزل للنواب، وتوزيع الإقطاعات وخلافه، وتم تخصيص مصروف يومي للسلطان قدره مائة درهم يُصرف له يتصرّف فيه كما شاء على ألاّ يتعدّاه. وحدثت خلافات كثيرة بين الأمراء خُصوصًا بيبغا أروس وشيخو العمري نحن في غنى عن ذكر تفاصيلها، ولكن أمراء المشورة لم تكن يدًا واحدة كما حلّت نوبات غلاء ووباء لم تكن ذات خطورة كبيرة؛ ولكنّها نذير بما هو قادم وهو الوباء كما تسمِّيه المصادر المعاصرة، أو الموت الأسود أو الطاعون.

الموت الأسود هو وباء عالمي (endemic) انتشر في معظم أنحاء العالم. وهذا الوباء له ثلاثة أنواع؛ الأول والأكثر انتشارًا يُسمَّى بالطاعون الدبّلي، وهو عبارة عن ورم في الغدة اللّمفاوية وأهم أعراضه هو ارتفاع الحرارة كالحميات المعتادة مع دوخة وغثيان وقيء يصاحبه ظهور ورم أو انتفاخ في بعض أجزاء من الجسم، نتيجة لتوّرم الغدة اللمفاوية، وخصوصًا تحت الإبط ويقضي هذا الطاعون على المريض في مدة من خمسة إلى سبعة أيام، ونسبة النجاة منه تصل إلى حوالي عشرون بالمائة فقط، ومعظم ضحايا الموت الأسود بنسبة تصل إلى خمس وسبعون بالمائة نتيجة لهذا النوع من الطاعون، يصيب هذا المرض الفئران أولاً، ثم ينتقل إلى الانسان عن طريق حشرة القمل.

النوع الآخر الأقل شيوعًا يُسمَّى بالطاعون الهوائى أو الرئوى (Pneumatic Plague) ويصيب الرئة، وأهم أعراضه هو حُمّى وارتفاع حرارة مع سعال، ثم ظهور دم في اللّعاب ويزداد حتى يصبح اللعاب أحمر اللون، ونسبة النجاه منه قليلة ما بين خمس إلى عشرة بالمائة، وينتقل عن طريق التنفّس والهواء. النوع الثالث والأخير هو الطاعون الدموي وهو نوع من أنواع تلوث الدم، وأهم أعراضه ظهور بقاع قرمزية وحمراء على جلد المريض وهو نادر الحدوث؛ ولكن نسبة النجاة منه ضئيلة جدًا. وبعض الدراسات الحديثة تشير إلى أن هذا المرض هو حُمَّى فيروسية.

أول ما ظهر هذا المرض كان في الصين وأواسط آسيا في ثلاثينيات أو بداية أربعينيات القرن الرابع عشر الميلادى، ثم انتقل إلى شبه جزيرة القرم في جنوب روسيا عن طريق قوافل طريق الحرير، ثم إلى أوروبا من عام 1347 وقضى على نسبة كبيرة من سكانها يقال إنّها تتراوح من الثلث إلى حوالي ستون بالمائة. ظهر هذا الوباء في مصر في نهاية عام 748/ 1348 في أيام التخضير (أي بذر الأرض الزراعية)، ثم اشتد وانتشر بشدة في محرم 749/ 1348، واستمرّ في الزيادة المطردة حتى شهور شعبان ورمضان وشوال 749/ 1348، ثمّ بدأ في التراجع في ذي القعدة من هذا العام. انتشر هذا الوباء في الإسكندرية أولاً (عن طريق السفن القادمة من أوروبا)، ثم امتدّ إلى البحيرة وبحيرة البرلس شمالاً، ثم باقي أنحاء الوجه البحري.

نقلت لنا المصادر المعاصرة كيف صارت الأموات في كل مكان لا تجد من يدفنها، ومات الناس عن أملاكهم وأموالهم وتركوها بدون من يحفظها، وهجر المزارعون حقولهم فلم يوجد من يزرعها أو يحصدها، وصارت الكلاب تنهش الموتى، ونفقت الماشية والجياد

والهجن بسبب العدوى، أو بسبب هجر أصحابها لها. كما أُغلقت الأسواق والمتاجر، وتوقّفت حركة البيع والشراء. وامتدّ الوباء أيضًا إلى القاهرة فكان الأطفال والنساء والمماليك يموتون أولاً، وترك السلطان القاهرة وذهب إلى سرياقوس، وأُغلقت المساجد، واستشرى اليأس بين الأهالي ولم توجد أدوية أو أطباء لعلاج الوباء، وخلت الشوارع من المارة إلا الأموات، وهجرها أهلها أو ماتوا وغطت الأتربة الشوارع، ويقال إنّه بلغت عدة الأموات عشرين ألف في يوم واحد بالقاهرة، وصار عمل الأهالي الوحيد هو غسل ودفن الموتى، أو قراءة القرآن في الجنائز، ومات الكثير من جنود الحلقة والمماليك، وتركوا إقطاعاتهم بلا صاحب حتى أنّها ذهبت إلى أرباب الصنائع مثل الحائكين والإسكافيين وغيرهم، بالطبع توقّفت الأفراح وجميع أنواع اللّهو والغناء وغيره من مظاهر الحياة من تجارة وصناعة وزراعة، وانتشر الوباء في الصعيد أيضًا، ولم ينج من انتشاره إلا أسوان.

صاحب هذا الوباء انخفاض في أسعار جميع السلع لعدم وجود مشترين، حتى أنّ سعر الدينار الذهب انخفض إلى خمسة عشر درهمًا بعد أن كان عشرين أي بنسبة الربع، وانخفضت أسعار القماش والكتب وغيره من الكماليات. ولم ترتفع إلّا أجور أصحاب الصنائع مثل الحمّالين والطحّانين والسقائين لندرتهم. الوصف السابق لانتشار الوباء، وما سبّبه من موتٍ وتوقّفٍ لمظاهر الحياه هو مُلخّص معتدل لما ذكره كل من المقريزي، وابن تغرى بردى وقد يكونُ به شيء من المبالغة؛ ولكنّه يدل على عمق المأساه وقسوه المحنة التي لم يُعرف لها مثيل في السابق ولا اللاحق، وكما أن ما ذكروه (يبدوا أن ابن تغرى بردي قد نقل عن المقريزي لتشابه النص وتطابقه في كثير من المواضع، أو كلاهما نقل عن مصدرٍ آخر لم يذكره أي منهما) فيه الكثير من الحقيقة مثل أعراض المرض التي تتفق إلى حدٍ كبير مع ما هو معروف عن أعراض الطاعون بأنواعه المختلفة (السلوك، المقريزي، 2: 772 – 787؛ ابن تغري بردي، النجوم، 15: 195 – 213).

كان لهذا الوباء نتائج اقتصادية وخيمة لم تتعافَ منها الدولة المملوكية لمدة طويلة أهمّها التناقص الشديد في عدد السكان، والذى عانت منه الدولة لمدة طويلة بعد انحسار الوباء. يصعب تقدير عدد الموتى من المصادر المعاصرة لعدم دقّتها، وإن كان يعتقد أن عدد الموتى كان حوالي ثلث عدد السكان أسوة بما يُقدّر بباقي بلدان العالم التي أصابها هذا الوباء. قد بدأ الوباء في الانحسار والتناقص في محرم 750/ 1349 أى بعد حوالى عام من الشدّة والمعاناة.

لابد أن تمضي الحياة، فعلى الرغم من قسوة الطاعون فلم يُصَب السلطان أو أى من كبار أمرائه ربما لشدة حذرهم وخروجهم من القاهرة وعدم مخالطتهم للعامة. ثم بدأت الخلافات بين أمراء المشورة وخصوصًا بين الأمير مغلطاى أمير أخور مع الوزير منجك اليوسفى وتصادف أن خرج بيبغا أروس النائب إلى الحج والأمير شيخو إلى الصيد كذلك الأمير طاز إلى البحيرة، فخلت القاهرة من كبار الأمراء. فانتهز الناصر حسن هذه الفرصة، وطلب القضاه والأمراء وأعلن أنّه راشد وقادر على الحكم، فوافقوه على ذلك في شوال 751/ 1350 وبذلك انتهت فترة الحجر عليه وأصبح السلطان بالاسم والفعل ثم أمر بالقبض على الوزير منجك اليوسفي وبعض الأمراء الآخرين، وعزل أخاه بيبغا أروس، وكان نائبًا للسلطنة وشيخو، وقبض عليهما وآخرين ثمّ عين في المناصب العليا الأمراء الذين يدينون له بالولاء واستمال كل من الأمير طاز، وصرغتمش، ومغلطاي إلى جانبه. ويبدوا أنّه سرعان ما انقلب عليهم وتآمر مع بعض خاصكيته على أن يدّعي المرض، ثم يقبض على الأمراء إن عادوه في مرضه فعلم الأمراء بذلك، فكاتبوا باقي الأمراء، وخرجوا عن طاعة السلطان، واضطروه إلى تسليم الأمراء خاصكيته وقاموا بحبسهم، وعندئذ أسقط من يد الناصر حسن، وتنازل عن السلطنة وذلك في جمادى الآخر 752/ 1351 وقام بتسليمهم شعار السلطنة فقبضوا عليه، ولكن أبقوا على حياته وأتفق الأمراء على سلطنة أخيه صالح ولقب بالملك الصالح فكانت سلطنة الناصر الأولى لمدة ثلاث سنوات وتسعة أشهر.

10 - الصالح صالح - محنة الأقباط الأخيرة:

هو الثامن والأخير من أولاد الناصر محمد في فترةٍ حوالي عشرة أعوام. وُلد حوالي عام 734 / 1333 - 1334 أي أنّه تولّى السلطنة وعمره حوالى ثمانية عشر عامًا. بايعه الخليفة والأمراء، وأُجريت له التقاليد المرعية عند تنصيب سلطان جديد، وتم تحليف الأمراء والأجناد، وتفريق النفقة (هبة العرش) عليهم، وأعاد أخاه حسن إلى الحياة بالحريم، واكرم أخاه الآخر حسين وأنعم عليه. سرعان ما بدأ الصراع بين الأمراء بين فرقة تضم طاز، وصرغتمش وأتباعهم يطالبون بإطلاق الأمراء المسجونون في نهاية دولة الناصر حسن وأكبرهم شيخو العمري، وبيبغا أروس وأخوه منجك اليوسفي وغيرهم، وفريق آخر مُكون من بيبغا ططر حارس الطير (نائب السلطنة) والأمير مغلطاي (بعد تردد) والأمير منكلي بغا الفخري (الرأس المدبّر

لهذا الفريق) يعارض إطلاق سراح شيخو ورفاقه. والسلطان حائر بينهم لا حول له ولا قوة، وأسفر الصراع والمواجهة المسلّحة (تبدو أنّها كانت مناوشة لم تُسفر عن خسائر تُذكر) على انتصار فريق طاز على الفريق الآخر، واستطاع طاز كسب ثقة السلطان عن طريق إقناعه بأنّ معارضيه يرغبون في عزله، وإعادة الناصر حسن.

أطلق سراح شيخو وعاد إلى القاهرة من محبسه بالإسكندرية في موكب عن طريق النيل، واستُقبل استقبالاً حافلاً من الأمراء والعامة؛ نظرًا لشعبيته لأنه كان عاقلاً حكيمًا وتقاسم الأمراء الثلاثة السلطه والمناصب فأصبح شيخو رأس نوبة والمتحدث (المسؤول) عن الشؤون المالية للدولة، وصرغتمش رأس نوبه أيضًا، والمسؤول عن الشؤون الإدارية للدولة من تولية وعزل للمناصب العسكرية والمدنية، أما طاز فكان أكثر الأمراء قربًا للسلطان، وتم تعيين قبلاي الحاجب نائبًا (بدون سلطات تذكر) كما أفرج عن بيبغا أروس من محبسه بالكرك، وعُيّن نائبًا لحلب، وعُيِّن أخوه منجك اليوسفي في نيابة صفد، فاعتذر وأقام بطالاً (متقاعدًا) في مدرسته بالقرب من القلعة بالقاهرة (أثر 138، 750/ 1349) وأعيدت إليه أمواله وأملاكه، وأفرج أيضًا عن كثير من الأمراء المسجونين أما الأمراء المنهزمون فقد صُودرت أموالهم وسُجنو بالإسكندرية كالعادة.

كانت تلك الأحداث في الشهور الأولى من سلطنة الصالح في نهاية 752/ 1352 غير أنّ صرغتمش تمادى في استخدام سلطاته، واستبدَّ بالأمر بدون مشورة السلطان أو شركائه في السلطه مما أثار الأمراء وخاصة طاز – وكان حاد الخلق. اتهم الأمراء صرغتمش بالرغبة، والعمل على إعادة الناصر حسن، وكادت تقع فتنة جديدة لولا حكمة وتدخل شيخو للصلح، وتراجع صرغتمش فهدأت الأمور قليلاً، لتبدأ فتنه جديدة هذه المرة من الشام سنعرض لها بعد حين.

حدث في هذا العام 753/ 1352 تطور قضائي خطير كان بالغ الأثر في مجرى إقامة العدالة بمصر. كانت العادة الجارية أن يتولّى القضاة من أصحاب القلم أمور الحكم بتطبيق الشريعة الإسلامية في جميع القضايا كالدعاوى الزوجية (الأحوال المدنية)، والنزاعات المالية والتجارية، والقضايا الجنائية. واستحدثت الإدارة المملوكية منصبًا يتولّاه أحد أمراء السيف وهو منصب الحاجب وهم عدة يرأسهم حاجب الحجاب، وكان منصبًا رفيعًا يلي فقط رتبة نائب السلطنة. إحدى وظائف حاجب الحجاب هو الفصل في نزاعات الأمراء والأجناد، ومخاصماتهم في أمور الإقطاعات وما شابه، ولا يطبق في هذه القوانين الشرعية وإنّما في

الغالب قانون الياسا (قانون المغول الذي استنّه جنكيزخان وسبق الحديث عنه) ويسمّى الحكم السياسي لا الشرعي، أما باقي المنازعات فكانت للقاضي الشرعي.

لكن في عهد الصالح صالح امتدت سلطة حاجب الحجاب للحكم أيضًا بين الأهالي في النزاعات المالية، والاقتصادية، وأصبح هذا سابقة (ظهرت على استحياء قبل هذا في دولة المظفّر حاجي) استمر العمل بها بعد هذا فأصبحت هناك سلطتان قضائيتان إحداهما القاضي الشرعي، والأخرى لحاجب الحجاب مما أدى إلى استشراء الفساد والفوضى القضائية؛ نظرًا لجهل الكثير من الحجاب بالأمور الشرعية (المقريزي، الخطط، 2: 219 – 221).

السبب المباشر في هذا التحوّل يرجع إلى وفود عددٍ كبير من تجار العجم (الفرس) إلى القاهرة هربًا من الفساد الإدارى بعد انهيار الدولة الإيلخانية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر. فقام بعض التجار القاهريين بالامتناع عن دفع ديونهم إلى تجار العجم في بداية 753/ 1352 بحجّة إفلاسهم ووجودهم داخل السجون، وساعدهم على هذا قاضي القضاة الحنفي، فاشتكى التجار إلى دار العدل، فنظر حاجب الحجاب في ادّعائهم، واستدعى التجار المحبوسين وفرض عليهم ردّ ديونهم، وكانت هى سابقة كبرى لتدخّل الحجاب في الدعاوى المالية والمدنية، والتي استمرت بعد ذلك.

أما الفتنة الأخرى في الشام فهي القصة التقليدية، والتي تكرّرت عدة مرات من قبل حيث شعر بيبغا أروس نائب حلب بقوته وعزم على الخروج على السلطان وعلم الأخير بهذا بعد وقوع رسالة مرسلة من منجك اليوسفي بالقاهرة إلى أخيه بيبغا أروس يطلب منه سرعة الحركة وذلك في رجب 753/ 1352 فأعلن بيبغا العصيان، ونصّب نفسه سلطانًا، وتلقب بالعادل، واستطاع أن يضمّ إليه عدة من نواب الشام الآخرين مثل حماة وطرابلس وصفد كذلك طائفة من التركمان تحت قيادة ذي الغادر وطائفة من عربان بادية الشام تحت قيادة أحد أمراء عائلة مهّنا الشهيرة ولكن أرغون نائب دمشق لم ينضم إليه، وحاول بيبغا أروس الاستيلاء على دمشق، فلم يتمكن فعاد إلى حلب، فلم تسمح له بالدخول فيها. عندئذ استقر رأي الأمراء بالقاهرة بالزحف على دمشق، فخرج السلطان وأمرائه الثلاثة صرغتمش، وطاز، وشيخو، ودخلوا دمشق في رمضان 753/ 1352 وانهزم بيبغا أروس، وقبض على أخيه منجك بالقاهرة، ونفى ما يزيد على عشرة من أمرائه، وحوالي مائة مملوك من أتباعهم وأرسلوا إلى السلطان بدمشق حيث أعدموا.

أما بيبغا أروس نفسه فقد لجأ إلى التركمان الذين سلّموه للسلطان مع عددٍ آخر من أمرائه

سجنوا وكانت نهاية العهد بهم، ثم قُتل بيبغا أروس بعد هذا في محرم 754/ 1353 ومرة أخرى – ولن تكون الأخيرة– لا ينجح تمرد نائب الشام أو حلب في الاستيلاء على السلطنة، ولا يدرج في قائمة السلاطين لعدم استيلائه على قلعة القاهرة ولو ليوم واحد. وعاد الصالح صالح إلى القاهرة في موكب النصر في شوال 754/ 1353 وهو الوحيد بين إخوته من خرج للشام، وعاد منتصرًا في مثل هذا الموكب.

مرة أخرى يعيد التاريخ نفسه – كأنّ التاريخ المملوكى يدور في حلقات مُكررة – وذلك في حادث محنة علم الدين بن الزنبور التي تُذكّرنا بمحنة النشو في دولة الناصر محمد، وابن الزنبور كان من أصل قبطي، ثم أسلم وتدرج في مناصب الدولة الإدارية والمالية منذ عهد الناصر محمد، ووصلَ إلى أعلاها في دولة الصالح صالح عندما جمع في آنٍ واحد بين أكبر ثلاثة مناصب إدارية ومالية بالدولة فأصبح الوزير وناظر الخاص وناظر الجيش ولم يسبق أحد من قبل هذا الجمع بين تلك المناصب في آن واحد.

كان ابن الزنبور مُقربًا من شيخو أحد أطراف مُثلّث القوى وكان يمدّه بالأموال، وينفق بسخاء على منشآته حيث إنّ الأول ثري له تجارة واسعة وأملاك خاصة، بالإضافة إلى دخله من مناصبه. وكان صرغتمش يكرهه وكثير الإلحاح على شيخو بضرورة عزل ومصادرة ابن الزنبور، واستخلاص أمواله لصالح السلطان ولكن شيخو يدفع عنه هذا، أو يؤكّد حاجة الدولة إلى قدراته ومهاراته. وقد جرت العادة على أن يقوم ابن الزنبور بتوزيع خلع (ثياب التشريف) على الأمراء كل قدر مكانته ورتبته فحدث أن قام ابن الزنبور –خطئًا على ما يبدو– بإرسال خلعة لصرغتمش لا تتناسب مع مكانته العالية، فغضب الأخير غضبًا شديدًا وأصرّ على البطش بابن الزنبور وذلك في شوال 753/ 1352 فأمر صرغتمش مماليكه بالقبض على ابن الزنبور وجميع أعوانه، ثم قام بمصادرة أمواله وممتلكاته في القاهرة والوجهين القبلي والبحري والشام ونزل بنفسه إلى منزله بمصر القديمة لهدمه ومصادرة منقولاته، كذلك صادر زوجته وابنه وحريمه، وبلغت تلك المصادرات أموالاً جمة ذكرها المؤرّخون المعاصرون تفصيلاً في صفحات طوال، ويذكرون أنَّ قيمتها بلغت أكثر من اثني الف ألف دينار (مليونين). ولم يكتفِ صرغتمش بهذا، بل ضربه مرارًا وعذّبه، ثم أراد قتله بأن استمال طاز ثالث أطراف مثلث القوى، وأوعز إلى من ادعى عليه بالرِدّة عن الإسلام؛ أحدهم نقيب الأشراف، واسمه أبو العباس الصفراوي، وأنه زار كنيسة القيامة عند مروره بالقدس مما يوجب قتله. غير أن شيخو تدخلّ ومنعهم من هذا، واكتفوا بنفيه إلى قوص حيث

مات هناك في بداية عام 754/ 1353 بعد أن قاسى الاهوال والمحن، وسقط من قمّة المجد إلى الهوان في أسابيع قليلة. وهو ما تكرّر كثيرًا قبل وبعد هذا يستوي فيه المماليك من أهل السيف أو القضاة، والمدنيون من أهل القلم.

على الرغم من هذه الإجراءات التعسّفية على ظاهرها نجد أنّ صرغتمش تمادى في انتقامه، حتى أراد مصادرة أوقاف ابن الزنبور بعد وفاته – تمنع الشريعة مصادرة الأوقاف – فتصدى له قضاه الشرع ومنعوه من هذا، بل خاطبه قاضي القضاة الحنبلي بكلام خشن، وقال له "أخربت البلد بشرّك يا صبي". (المقريزي، السلوك، 2: 888) فلم يتمكّن صرغتمش على الرغم من حدّة طبعه وسلطاته الواسعه من الرد على القاضي، أو حتى مصادرة الأوقاف الخاصة بـابن الزنبور. وحينئذ أحسّ طرفا مثلث القوي الأخريين بضرورة الحدّ من سلطات صرغتمش ليقل شره، فاتفق شيخو وطاز على عزل صرغتمش من منصب رأس نوبة النوب، فانتهزوا فرصة مرضه، وولّوا شيخو هذا المنصب الرفيع بعد تمنعٍ منه.

لكن الأحوال الداخلية لم تكن مستقرة نتيجة ثورة عربان الشام، وتحالفهم مع أبناء ذولغادر أمير تركمان جنوب الأناضول لقطع الطرق ونهب الأهالي، فتمّ إرسال حملة بقيادة نائب حلب أرغون الكاملي إلى الأبلستين (بجنوب الأناضول في تركيا) قاتلت تلك الحملة التركمان وهزمتهم، وقتلت وأسرت الكثير منهم حتى تمكنت من القبض على أميرهم قراجا ذولغادر، بعد أن هرب وأُرسل مُقيدًا إلى القاهرة، حيث تم إعدامه في ذي القعدة 754/ 1353 كما هادن أمراء عرب الشام من آل مهنا وأعلنوا الطاعة فهدأت الأمور شمالاً.

أما عرب الصعيد فقد زاد عصيانهم وخروجهم من الطاعة عن الحد بأن قطعوا الطرق ونهبوا الأموال، وقتلوا موظفين للدولة، فتوجه إليهم شيخو العمري في محرم 755/ 1354 في حملة عسكرية ضخمة بناء على رأي أمراء المشورة والسلطان، وبعد أحداث كثيرة استمرت لشهورٍ عديدة تمكّن شيخو من هزيمة العرب جنوب أسيوط هزيمةً نكراء قَتل منهم ما يقدر بحوالي عشرة آلاف، واستولى على أموالهم ومواشيهم، وسبى حريمهم؛ وذلك في منتصف 755/ 1354 وكانت هذه الهزيمة من أسوء ما وقع لعرب الصعيد. بعد هذا ساءت الأحوال المالية للدولة، واشتد التنافس بين الأمراء الثلاثة، واستطاع الأمير طاز وكان مقربًا من السلطان كما أنَّ الأخير كان عاشقًا لأخي الأمير طاز (مرة أخرى إشارة لنوعية خاصة من العلاقات الحميمة) فدبّر طاز أنّ السلطان يريد رفع الحجر عن نفسه والاستقلال بأمور الدولة كأبيه وأخيه من قبل، وفعلاً استعفى شيخو من مهامه كمدبرّ للدولة، واستقلّ السلطان

بالأمر ظاهرًا وطاز به باطنًا، وبدأ سلسلة من الإجراءات التقشّفية لخفض النفقات، وتعني غالبًا قطع عطايا ومستحقات الكثير من الأمراء، وهذا عادة ما يثير غضبهم ويدفعهم للتمرّد، وذلك في منتصف 755/ 1354.

بدأت هذا العام أيضًا محنة جديدة للأقباط هي آخر سلسلة من تلك المحن في العصر المملوكي، ولا ندري إن كانت أكبرها وأقساها ولكن يُجمع المؤرّخون -بما فيهم المقريزي- بأنّها كانت الضربة القاضية والتي حدّدت الملامح النهائية لوضع الأقباط كأقلية من حيث النسبة العددية ربّما ليومنا هذا. كانت هناك حوادث متفرقة من حين لآخر نتيجة احتكاك بين الأهالي فمثلاً حدث احتكاك في قرية النحريرية بمحافظة الغربية بسبب أنّ قبطيًا اتهم بأنّ جده كان مسلمًا، فوجب إقامة حد الردة عليه أو عودته للإسلام، فرفض القبطي تنفيذ هذا وتعاطف معه والي الشرطة مما أثار مشكلة أدت في النهاية إلى حرق كنيسة القرية وهدمها، وبناء جامع عليها مما أثار تلك الفتنة الطائفية والمحنة الكبرى. وسوف نصفها بشيء من التفصيل نقلاً عن المقريزي (أشار ابن تغري بردي في النجوم إليها بإشارةٍ مُقتضبة بعكس المقريزي في السلوك) نظرًا لمعاناة المجتمع المصري حتى يومنا هذا من تلك الفِتن الطائفية التي تبدأ من مستصغر الشرر ويكون لها عواقب وخيمة.

كان الأقباط بعد فترة من الاسترخاء الطائفي في السنوات الأخيرة قد أحسّوا بالأمان فبدؤوا على ما يبدو يحيون الحياة الطبيعية مثل غيرهم من المسلمين، ونظرًا لثراء الكثير منهم فإنّهم اقتنوا المنازل الفسيحة الفاخرة، وارتدوا الملابس الباهظة الثمن، واقتنوا الجواري والعبيد، وابتعدوا عن ما عُهِد منهم المداراه والتظاهر بالفقر. بالإضافة إلى إدارتهم لمعظم دواوين السلطان والدولة والأمراء؛ لمهارتهم في الشؤون المالية والإدارية مما أثار حسد الكثير من باقي المسلمين الذين لم يسعدهم الحظ، فادعوا أنَّ الأقباط يسيؤون معاملة المسلمين. حتى كانت حادثة مرور أحد أثرياء الأقباط أمام الجامع الأزهر، وذلك في جمادى الأول 755/ 1354 راكبًا فرسه في موكب بثيابٍ فاخرة وأمامه وخلفه العبيد، وكانت تبدو عليه آثار النعمه والثروة مما استفذّ الأهالي من حوله، فأنزلوه من على الفرس وهمُّوا بقتله حتى خلّصه بعض المارة. فأثارت هذه الحادثة حمية جمع من المسلمين على رأسهم نقيب الأشرف ابن العباسي الصفراوي – يبدو أنه كان حقودًا متعصبًا مثل ما رأينا في حاله ابن الزنبور – فذهب إلى صديقه طاز ليستعديه على الأقباط، وذهبوا جميعًا إلى السلطان. توافق الجميع بما فيهم شيخو، وصرغتمش على الرغم من عدائهم لطاز على ضرورة الانتقام من الأقباط.

استدعى السلطان بطرك الأقباط، ورئيس اليهود، ورجال الشريعة والدولة، والأمراء في مجلس، وطلب ضرورة تطبيق عهد عمر مثلما حدث في عام 700/ 1300 في دولة الناصر محمد الثانية (سبق لنا إيجاز بنود هذا العهد والذي يتنازل فيه أهل الذمة من الأقباط واليهود على بعض حقوقهم كمواطنين مُقابل المحافظة على حياتهم ودينهم وأموالهم ودور العبادة الخاصة بهم، مع دفع الجزية وعدم المجاهرة ببعض المظاهر التي تنمّ عن مساواتهم بالمسلمين). تداول المجلس أنّه سبق لأهل الذمة التعهّد بتنفيذ هذا العهد عدّة مرات في الماضي، ثم تراجعوا من هذا. فقرروا نتيجة لهذا عدم استخدام الأقباط واليهود في جميع دووابن الدولة والسلطان والأمراء؛ حتى ولو تحوّلوا إلى الإسلام. فإن حدث وأسلم أحد من أهل الذمة برضاه بات عليه ملازمة المسجد للعبادة، وعدم العودة إلى منزله، أو الاختلاط بأهله حتى يسلمون أيضًا. كما قرروا عدد آخر من القيود على أهل الذمة من حيث الزي، ودوابّ الركوب والوظائف، وإظهار الاحترام للمسلمين وغيره من إجراءات تعسفية تمييزية، وأصدر السلطان مرسومًا بهذا تمّ توزيعه في سائر أنحاء القطر.

أثار هذا المرسوم أعمال الشّغب والاعتداءات ضدّ أملاك الأقباط، وحرق كنائسهم، وبالغوا في ذلك حتى أنّهم أجبروا بعض أهل الذمة على النطق بالشهادتين، وباتت السلطات عاجزة عن منع ذلك على الرغم من النداءات المتكررة لوقف هذه الأعمال. ونظرًا لازدياد أعمال القمع، وقطع أرزاق الأقباط لفقدهم وظائفهم، فقد تحوّل الكثير منهم إلى الاسلام. ويبدو أنّ هذه كانت النقطة الأخيرة في مسلسل أسلمّة الأقباط، حيث إنّ مثل هذه الأحداث لن تتكرر على مثل هذا النطاق مرة أخرى في العصر المملوكي أو العصور اللاحقة. ومنذ ذلك التاريخ - طبقًا للمقريزي - اختلطت الأنساب بين المسلمين والأقباط، حيث إنّ الأقباط المتحولين إلى الإسلام تزوجوا بمسلمات وحتى يومنا هذا لا يمكن معرفة من كان مصريًا مسلمًا إن كان من أصل قبطي، أو كان مصريًا مسلمًا من أصول غير قبطية.

تحول الأقباط من أغلبية كاملة عند فتح مصر في 22/ 642 إلى أقلية في منتصف القرن الرابع عشر مرورًا بمراحل ومحطّات عديدة قبل الدولة المملوكية وأثنائها. بدأت بعدة ثورات ضدّ الدولة الأموية والعباسية تعقبها حركة قمع، ثم تحول جماعي أو فردي للاسلام، نتيجة لهذا القمع كان آخر تللك الثورات وأكبرها ثورة البشمورية في 216/ 831 في عصر الخليفة المأمون، والذى استعمل القسوة الشديدة في قمعها، فيقول المقريزي: "في أيامه انتفض القبط في سنة ست عشرة ومائتين، فأوقع بهم الأفشين (والي مصر من قبل الخليفة المأمون العباسي)

حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبدالله المأمون، فحكم فيهم بقتل الرجال، وبيع النساء والذرية فَبِيعوا أو سُبي أكثرهم من حيئنذ ذلّت القبط في جميع أرض مصر، و لم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان وغلبهم المسلمون على عامة القرى، فرجعوا من المحاربة إلى المكايدة، واستعمال المكر والحيلة، ومكايدة المسلمين، وعملوا كتّابًا للخراج فكانت لهم" (المقريزى، الخطط، 2: 494).

لا ندري ما عنى المقريزي بجملة وغلبهم المسلمون على عامة القرى هل كانت الغلبة بمعنى الأغلبية العددية أم بمعنى السيطرة والسيادة. المعنى الأول هو الأقرب في تقديري حيث إنَّ السيطرة والسيادة كانت دائمًا للمسلمين منذ الفتح مع أقليتهم الواضحة. يعني هذا تحول جماعي للاسلام، وأصبح الأقباط لأول مرة أقلية عددية مغلوبة على أمرها، وتزايدت الأغلبية الإسلامية حتى بلغت مداها في أحداث عام 755/ 1354. يبدو أنّه بعد أحداث ثورة البشموريين أقلع الأقباط عن الثورة والعصيان والمواجهة المباشرة مع السلطات، ولجؤوا إلى أساليب غير مباشرة للسيطرة ومحاربة المسلمين – طبقًا لوجهة النظر المملوكية السائدة حينئذ. وهذه النظرة المتشكّكة في نوايا الأقباط هي التي أدّت إلى سلسلةٍ من الانفجارات، واضطهاد الأقباط خلال العصر المملوكي تبدأ لأسباب ثانوية تافهة تتطوّر إلى مصادمات يتبعها إجراءات تعسفية وتمييزية ضد الأقباط، على الرغم من عدم مجاهرة الأقباط بالثورة أو العصيان. وقد ذكرنا مثلاً أوضح لهذه الأحداث في حينها في أعوام 682/ 1283 في عصر المنصور قلاوون، ثم في دولة ابنه الأشرف خليل في 692 /1293 ثم في دولة الناصر محمد في 700/ 1301 و721/ 1321 وأيضًا في دولة الصالح صالح 755/ 1354 المذكورة هنا. الأخيرة هي خاتمة أعمال الاضطهاد الكبرى حيث يبدو أنَّ الأقباط أصبحوا أقلية صغيرة جدًا و لم تعد تُثير انتباه العامة أو السلطات المملوكية. وتُشير بعض الدراسات الحديثة أنَّ نسبة الأقباط في هذا العام 755/ 1354 أصبحت حوالي عشرة في المائة والباقي مسلمين، وبالطبع لا يدعم هذا الرأى إحصاء في العصر المملوكي. غير أنّ أول إحصاء رسمي كان عام 1846 كانت فيه نسبة الأقباط حوالي ثمانية بالمائة وظلّت هذه النسبة ثابتة تقريبًا في الإحصاءات المتعاقبة في القرن التاسع عشر والعشرين، حتى توقفّت الحكومة عن إعلان هذه النسبة لأسباب سياسية (O`Sulivan, *MSR* 10 (2) 2006, 65 - 71).

تعدّدت الأسباب والوسائط التي أدّت إلى تحول الأقباط من أغلبيةٍ إلى أقلية مثل التحوّل

الجماعي والفردي لأسباب اقتصادية واجتماعية نتيجة لحركات القمع والتمييز. أو لقدوم أعداد من المسلمين من الخارج للاستيطان بها، مما أدّى إلى الزيادة العددية للمسلمين. كذلكً تزاوج مسيحيات مع رجال مسلمين وهو ما تبيحه الشريعة وتحّرم العكس، وتُنتج مثل هذه الزيجات سلالة مسلمة كان يمكن أن تكون قبطية لو حدث، وتزوجت القبطية برجلٍ من نفس دينها. ويجدر بنا الإشارة أنّه لم يحدث أبدًا تحول إجباري للأقباط (لا إكراه في الدين) أو القتل الجماعي، أو النفي خارج البلاد وهي أساليب تكررت في كثيرٍ من المجتمعات الأخرى الأوروبية، خاصة ومنها إسبانيا بعد سقوط الأندلس في 1492 على سبيل المثال لا الحصر.

نعود بعد هذه الاستطرادة لأحداث دولة الصالح صالح، فعلى الرغم من اعتزال شيخو منصب مدّبر المملكة، فإنّه ظلّ صاحب نفوذ قوى لحرمته ومهابته بين الأمراء والعلماء، نظرًا لعقله وحكمته وحسن تدبيره للأمور. استحدث السلطان عقد الاجتماعات للنظر في أمور الدولة في الميدان تحت القلعة بدلاً من الإيوان داخلها على مسمع من العامة، فيجتمع هو والأمراء الثلاثة وكبار رجال الدولة – لسابقة تحدث لأول مرة– ممّا أضاع بعضًا من هيبته، وأخذ العامة يُحذرونه من أمرائه وغيره من الكلام غير اللائق. كما أنّ السلطان أيضًا أعرض عن شيخو، وصرغتمش، ومال إلى طاز، واتجه إلى اللّهو والمجون والخلاعة، وخصوصًا مع أخي طاز – يبدو أنّه كان شاذًا جنسيًا، فلم تذكر المراجع زوجة له أو أبناءًا. وكان يُخالط العامة ويجاريهم في أنواع الحرف – كان بالفطرة يكتسب المهارات الحرفية بسرعة – فتزيّا بزى الطباخين ليقوم بأعمال الطبخ بنفسه وغيره من الاعمال التي لا تناسب هيبة السلطان بمقاييس العصر.

لم يكن شيخو راضيًا عن هذا السلوك، في نفس الوقت كان الأمير طاز يرغب في التخلّص من منافسيه شيخو وصرغتمش، فتآمر مع السلطان على أن يذهب هو – أي طاز– للصيد وذلك في شوال 755/ 1354 ويكلّف إخوته – وكان قد استدعاهم من بلاده الأصلية وجعلهم أمراء – بعمل كمين للقبض على شيخو وصرغتمش، وإعدامهم يوم العيد عند حضورهم لتهنئة السلطان كالعادة. غير أنّ شيخو وأتباعه علموا بالمؤامرة، وأحبطوها، وقبضوا على السلطان وقيدوه، وخلعوه وحبسوه بالقلعة، وظلّ بها إلى أن مات في ذي الحجة 761/ 1360 وله من العمر سبعة وعشرون عامًا. السلطان الصالح كان مغلوبًا على

أمره محجورًا عليه، فعاش ومات فقيرًا، فلم يتمكن حتى من بناء قبرٍ له كعادة السلاطين، فدُفن عند وفاته في مقبرة عمّه الملك الصالح علي بن قلاوون (تربة أم السلطان) (المقريزي، السلوك، 2: 843 – 930؛ ابن تغرى بردى، النجوم، 10: 254 – 287).

11 – الناصر حسن مرة أخرى – لعنة أولاد الناس:

أعاد الأمراء الناصر حسن إلى السلطنة نظرًا لحسن سلوكه أثناء فترة حبسه وعزله، فلم يتدخّل في السياسة ولم يحاول العودة للسلطنة، بل انكبَّ على العبادة والقراءة، ولقّب بالناصر كما كان في السابق. فقبّل الأمراء له الأرض، وأُقيمت له مراسم السلطنة على العادة في شوال 755/ 1354 ثم بدؤوا في البحث عن الأمير طاز الذي عاد من الصيد ليُفاجأ بالأحداث، وانفضّ الجنود من حوله وقابله شيخو وعانقه، ولم يعاقبه (لأريحية كانت في طبع شِيخو) بل أشار على السلطان الجديد القديم أن يرسله إلى حلب كنائبٍ لها، وأخرجه معززًا مكرمًا، وسجن الصالح صالح في موضع سجن أخيه، وقبض على بعض أعوان طاز، وأجريت تغييرات في مناصب الدولة كالعادة، وللأسف كثير من تلك المناصب كانت تُشترى بالمال، فيدفع طالب المنصب مبلغًا إلى شيخو؛ ليحصل عليه (يُسمّى هذا المبلغ برطل وجمعها براطيل).

على الرغم من إنتهاء الحروب الصليبية منذ زمنٍ بعيد فقد استمرت الغارات البحرية المتفرقة، ففي جمادى الآخر 757/ 1356 قامت جماعة من الفرنجة (لا تذكر المصادر المعاصرة جنسيتهم) بالإغارة على صيدا بالشام، واستولوا عليها وعلى بعض الأسرى والغنائم بعد المعركة، ولجؤوا إلى أحد الجزر المقابلة لصيدا إلى أن وصلت النجدة من دمشق وحلب، وتم الافراج عن الأسرى المسلمين مقابل فدية، ورحلت مراكب الفرنجة بما معها من الغنائم بعد هذا بقليل، وقيل إنّ الغارة كانت أيضًا على الإسكندرية، وسوف تستمر مثل تلك أعمال القرصنة لسنواتٍ طويلة خلال الدولة المملوكية؛ نظرًا للتفوق البحري للفرنجة (ابن كثير، البداية والنهاية، 14: 292).

كان الناصر حسن سلطانًا اسمًا فقط والسلطة الفعلية في يد شيخو العمري الذي أصبح أتابك العسكر (القائد العام للجيش) وسُمِّي بالأمير الكبير. لأول مرة تصبح الأتابكية وظيفة يُسمَّى حاملها بالأمير الكبير، وله خِلعة (أي زي) خاص بها. وفي السابق كان يُطلق لقب الأمير الكبير على كبار الأمراء المتقدمين في السّن، ومن كان لهم السّبق في التحول إلى

الإسلام. فأصبحت الآن ولنهاية الدولة المملوكية وظيفة يتولاّها شخص واحد. وبينما يبدو أنَّ الأمور كانت هادئة وثب فجأة أحد صغار الأمراء السلحدارية، ويُدعى قطلوقجا على الأمير شيخو في دار العدل وهو يسوس أمور الدولة، وضربه بالسيف ثلاث ضربات، وذلك في الثامن من شعبان 758/ 1357 فجرحه جرحًا بالغًا أدّى إلى وفاته في الخامس والعشرين من ذي القعدة 758/ 1357 عن ستين عامًا.

بالطبع ظنَّ الكثير أنَّ السلطان دبّر هذا، ولكنّ الناصر حسن أنكر معرفته مُسبقًا بهذا الحادث أو تدبيره له. وزار شيخو في بيته، وحلف له بأنّه لم يكن خلف تلك الحادثة. تم القبض على القاتل واستجوابه فأكّد القاتل أنّه الفاعل الوحيد لها، فأمر السلطان بقتله، وبالطبع ثارت مماليك شيخو وخواصه ولكنّ الأمور لم تخرج عن السيطرة.

كان السلطان هو المستفيد الأكبر من هذه الجريمة، حيث إنَّ شيخو كان مدبّر الدولة، وكان محبوبًا كفوًا وبموته خلت الساحة للسلطان، وفعلاً قام الأخير بالقبض على مماليك شيخو وأتباعه، ونفى بعضهم، وسجن بعضهم، وآلت إليه معظم ثروة وأملاك شيخو، وكانت كثيرة لا تحصر. ثم قام السلطان بتصعيد وتأمير مماليكه وخواصه، وعلى رأسهم مملوكيه الأمير يلبغا العمري، وطيبغا الطويل وغيرهم، ولم يعد يشاركه في السلطة سوى الأمير صرغتمش الناصري.

زاد نفوذ صرغتمش وأمر بصك فلوس (جمع فلس) جديدة تحل محل القديمة بنسبة فلس جديد يساوي فلسين من القديم، ربّما لمنع التضخّم. وكانت الفلوس إمّا عدًا بحيث يكون الدرهم الفضة يقابل أربعة وعشرين فلسًا جديدًا أو وزنًا، بحيث إنّ الرطل من الفلوس العتق (القديمة) يقابل درهمًا ونصف فضة (حرص المقريزي على ذكر المتغيّرات المالية والسعرية بالأسواق؛ نظرًا لخبرته في هذا المجال حيث إنّه تولّى حسبة القاهرة لسنوات عديدة كان فيها المسؤول الأول عن ضبط الأسواق والأسعار والعملة). ثمّ حث صرغتمش السلطان على القبض على الأمير طاز نائب الشام وضلع مثلث القوى الثاني في السابق، فأمر السلطان بالقبض عليه، وأرسل للسجن في الإسكندرية بدون مقاومة تُذكر في بداية عام 759/ 1357 هو وأعوانه، وأعاد السلطان منجك اليوسفي كنائب للشام.

بذلك خلت الأمور إلى صرغتمش ولكن إلى حين إذ يبدو أنّ السلطان أراد الانفراد الكامل بالسلطة فاعتقد – صدقًا كان هذا أم خيالاً – أنّ صرغتمش يتآمر لخلعه. فأكثر من إكرام صرغتمش، والإغداق عليه وتشريفه، ثم دّبر سرًا مع خواصه يلبغا العمري، وطيبغا

الطويل، ومنكلي بغا القبض على صرغتمش عند دخوله على السلطان، ثم قبض على الكثير من أعوانه، وأرسل الجميع للسجن بالإسكندرية، وذلك في رمضان 759/ 1358 واستمر صرغتمش – على الرغم من توسلاته – في الحبس بالإسكندرية إلى أن توفّي بعدها بشهور في ذي الحجة 759/ 1358 وأصبح الناصر حسن ما بين ليلةٍ وضُحاها السلطان بلا منازع ولا شريك، فقام بترقية أمرائه، ومماليكه كذلك بترقية الكثير من أبناء المماليك أى الجيل الثاني أو أبناء الناس مِمَّن لم يمسّهم الرق في خروج واضح على النظام المستقر عليه. وقد برّر الناصر حسن هذه السياسة ليس بحبه أو تفضيله لُهم، لكن لثقته فيهم واطمئنانه على عدم قدرتهم على التآمر ضده، مع سهولة عزلهم إن شاء ذلك. وأيضًا لرفقهم بالرعية حيث إنّهم نشؤوا وتربوا جميعًا في مصر لا يعرفون لهم وطنًا غيرها عكس المماليك مِمَّن مسهم الرق المشاغبين أحيانًا، والمتقلّبين دائمًا.

أكثر الناصر حسن من ترقية أولاد الناس، وقلّدهم معظم الولايات الشامية (الموطن الأكبر للتمرّد لبُعدها عن القاهرة) حتى بلغ عدد مقدمي الألوف (أعلى الرتب العسكرية) من أولاد الناس في عصره ثمانية بالإضافة إلى اثنين من أبنائه أى عشرة من مجموع أربعة وعشرين حين لم يكن يوجد أي من أولاد الناس بين الأربعة وعشرين عند وفاة والده الناصر محمد قبل أقل من عشرين عامًا ولو طالت به الأيام لزادوا عن هذا. وكانت هذه السياسة من أكبر أسباب زوال دولة الناصر قبل الأوان، نتيجة لغيرة وتقلّب مماليكه عليه في سابقةٍ جديدةٍ من نوعها. وكانت الأمور مستقرة في هذا الوقت إلا أنّه في بداية عام 762/ 1360 ظهرٍ الوباء مرةً أخرى ومات الكثير فيه، ولكن لم يصل بالطبع إلى حدّة وكثرة الموت الأسود منذ حوالي اثني عشر عامًا. يذكر ابن تغري بردي أنّ أغلب المرضى كانوا يموتون بعد أربعة أو خمسة أيام مما يعنى أنّه غالبًا من نفس الطاعون الدبْلِي السابق وصفه وقد أطلقٍ عليه الوباء الوسطى (أي ما بين وباءين) في إشارةٍ إلى الوباء والمجاعة التي ستحدث مستقبلاً (ابن تغري بردي، النجوم، 10: 311).

بعد سقوط مُثلّث القوى قام السلطان بالتخلّص من منجك اليوسفي (أخي بيبغا أروس النائب المقتول في سلطنة الناصر الأولى) وذلك بأن عزله من منصب نائب الشام، واختفى منجك اليوسفي لمدة عام حتى تم القبض عليه، فتوّسل للسلطان فاكتفى بعزله، وجعله طرخان (أي متقاعدًا) ونفاه إلى خارج مصر ليعود بعد عدّة أعوام.

إلى جانب ترقية أولاد الناس قام الناصر بترقية مماليكه، وأصبحوا يلوا السلطان في الأهمية مثل يلبغا العمري (نسبة إلى عمر تاجر المماليك الشهير) وطيبغا الطويل وتمان تمر وغيرهم، وأصبحوا خاصكيته وظن أنّه بعد أن تخلّص من مماليك أبيه الناصرية، وكانوا قد حجروا عليه مدة طويلة، واعتماده على المماليك مشترواته وأولاد الناس يكون قد آمن على سلطنته فكان المصاب من موضع مأمنه. تعاظمت سلطة يلبغا، وأخذ يعارض السلطان في بعض أمور الدولة، وينكر على السلطان حبّه وشغفه الزائد بالنساء - كان الناصر حسن مُتدينًا لا يشرب الخمر، ولا يمارس العلاقات الجنسية المثلية مع الفتيان كالكثير من إخوته؛ ولكنّه كان مُحبًا للنساء والجواري - كذلك أنكر عليه تقرّبه لأولاد الناس، فلما بلغ السلطان تلك الأنباء تخوّف من مملوكه يلبغا، وندم على ترقيته وعزم على التخلّص منه، وتربّص كل منهما للآخر. في جمادى الأولى 762/ 1361 خرج السلطان للصيد فأراد يلبغا القبض عليه آنذاك، ولـمّا علم الناصر حسن بهذا ركب بعدد قليل من مماليكه للقبض على يلبغا بدون اكتراث، أو استعداد استهانة بخصمه ومملوكه، غير أنه كان يلبغا في انتظاره بمماليكه وأسلحته - تسرّب إليه النبأ عن طريق إحدى محظيات الناصر، وكانت على علاقة بـيلبغا على ما يبدو- فهزِم السلطان من ساعته بعد أن فقد عامل المفاجأة، وفرّ إلى القلعة.

أراد الناصر بعد هذا الهرب إلى الشام ليلاً متخفيًا لجمع مماليكه، ولكنّه وقع في يد بعض المماليك الذين سلّموه إلى يلبغا الذي أمر بقتله في الحال، ولم يمهله ساعة وبدون مشاورة باقي الأمراء في حالة نادرة، وخروج عن الولاء التقليدي حين يقتل المملوك أستاذه وهي جريمة تُعادل قتل الابن لوالده في العرف المملوكي. قُتل الناصر وعمره حوالي ثلاثين عامًا تخمينًا، وكانت مدة سلطنته الثانية ست سنوات وسبعة شهور وأيام. بعد قتل الناصر حسن استسلم مماليكه للأمر الواقع، وتشاوروا فيمن يتولّى السلطنة فاتفقوا على سلطنة سيدي محمد بن المظفّر حاجي، وكان طفلاً عمُره أربعة عشر عامًا، ولم يرضوا بتوليه سيدي حسين آخر أبناء الناصر محمد الأحياء؛ خوفًا من انتقامه لأخيه السلطان الصريع لأنه لم يكن طفلاً ففاتته السلطنة للأبد (المقريزي، السلوك، 3: 1 - 63؛ ابن تغري بردي، النجوم، 10: 302 - 339).

في مدة عشرين عامًا تقريبًا من وفاة الناصر محمد حتى قتل ولده الناصر حسن تولّى السلطنة ثمانية من أبنائه آخرهم الناصر حسن الذي كان أطولهم حكمًا، وأكثرهم كفاءه وقدرة

وعزيمه، ولو قُدّرت له الحياه لربما أصبح سلطانًا عظيمًا. أما إخوته السبعة كانوا جميعًا من السلاطين الدمية لُعبة في يد الأمراء أكثرهم مُنحلاً أخلاقيًا عابثًا لاهيًا ماجنًا غريب الأطوار أو سفّاك للدماء وقتلوا جميعًا عدا الصالح إسماعيل السلطان العليل الذي قتله المرض صغيرًا.

12- الأعمال المعمارية خلال حقبة الناصر حسن وإخوته:

هذه الفترة على قصرها وتعدد سلاطينها، وعدم الاستقرار الداخلي، والفناء العظيم شهدت حركة بناء وإنشاءات عديدة لا تزال قائمة إلى الآن؛ نظرًا لتحسن الأحوال الاقتصادية، ورخص أسعار السلع حتى وصل سعر أردب القمح إلى عشرة دراهم (بعد هذا بأقل من نصف قرن يصل سعر الأردب إلى خمسمائة درهم نتيجة للتضخم والأزمات السياسية والاقتصادية)، وتوافرها ربما نتيجة للنقص السكاني بعد الموت الأسود، وقلّة الطلب نتيجة لهذا. وتنافس الأمراء أيضًا في أعمال البناء. والعشر سنوات الأخيرة من تلك الفترة تميّزت بالعديد من المنشآت المعمارية العظيمة أكثرها من الناصر حسن وأمرائه وأعظمها المنشأة السلطانية الوحيدة الباقية لنا من هذا العصر وهي جوهرة العمارة الإسلامية في مصر، وإحدى جواهرها في العالم الإسلامي ككل وهي مدرسة الناصر حسن. لحسن الحظ فإنَّ الصراعات الداخلية بين الأمراء لم تعوق حركة البناء والابتكار، فبقيت لنا مجموعة من المنشآت الأميرية المبهرة في تنوعها ورشاقتها، وتداخلها العضوي في النسيج العمراني لمدينة القاهرة حتى اليوم.

نبدأ بمسجد الناصر حسن أبدع الإنجازات المعمارية لتلك الفترة، وأعظم مساجد الإسلام في زمانه وقد استغرق بناؤه سنواتٍ عديدة وهو في شموخه يدلّ على عُلو هِمّة الناصر حسن على الرغم من صغر سنّه، وسيطرة أمرائه على معظم فترة حكمه. بدأ الناصر حسن في بناء المسجد عقب عودته للسلطنة بعد ثلاث سنوات من السجن في 757/ 1356 وقُتل قبل الانتهاء منه في 764/ 1362 وأكمله أحد مماليكه خصوصًا قبة الدفن، وقبة الميضأة في الصحن الداخلي، وبعض أعمال الرخام والزخرفة الحجرية التي لم تكتمل في المدخل التذكاري. بلغت تكلفة المسجد -كما تذكر المصادر- حوالي مليون دينار جمعها الناصر حسن على ما يبدو من الأموال التي آلت إلى الدولة بعد موجة الفناء العظيم، أو الموت الأسود الذي أدّى إلى فناء حوالي ثلث سكان مصر -كما ذكرنا في محلّه- (إن كانت بعض المصادر تذكر -كالعادة- عثوره على كنزٍ من الذهب). هو مسجد جامع ومدرسة ومدفن في نفس الوقت في سابقةٍ هي الأُولى من نوعها.

اختصارًا هو من الداخل مسجد يتكون من صحن به ميضأة ذات قبة بصلية، وإيوانات أربعة أكبرها ديوان القبلة (أعلى إيوان بمدينة القاهرة، ويقال إنّه يماثل إيوان كسرى). توجد قبة للدفن خلف إيوان القبلة مباشرة خلافًا للعادة. هناك مدارس أربع تحيط بالمسجد لدراسة المذاهب السنية الأربعة. أما من الخارج فالواجهتان الشرقية والغربية عبارة عن غرف للطلبه تتكون من دخلات بارتفاع أربعة أدوار بها ثمانية شبابيك بكلّ دخلة يعلوها شريط عريض من المقرنص في سابقةٍ لم تتكرر في العمارة المملوكية. أما الجانب الشمالى فيه ملحقات فقدت معظمها الآن. والمدخل التذكاري يميل بزاويةٍ قدرها سبع عشرة درجة عن الواجهه، ويمكن مشاهدته من القلعة.

قبة الدفن في الواجهة القبلية كانت من الخشب أصلاً على شكلٍ بصلي أيضًا؛ ولكنّها انهارت والقبة الحالية تختلف عن الأصل، وتحيط بالقبه مأذنتان وكانت يحيط بالمدخل التذكاري مأذنتان؛ ولكنّهما انهارا الآن، و لم يُعد بناؤهم وإلّا لأصبح هذا المسجد الوحيد ذي الأربع مآذن مدينة القاهرة. من الناحيه الشكلية والجمالية فإنَّ أعمال الزخرفة من رخام ونقوشٍ حجرية، ونقوشٍ كتابية في المدخل وبالإيوانات والمدفن تُمثل قمة وروعة الفن المملوكي من الناحية الإبداعية. والمؤثرات الخارجة تبدو واضحة بامتزاج الفنّ المملوكي المصري مع غيره من الفنون الإسلامية الأخرى في الأناضول وفارس، والغير إسلامية البيزنطية وحتى الصينية. لن نعرض لهذه الناحية الشكلية لكثرة مصادرها، ويمكن مشاهدتها وسنقتصر على القيمة التعبيرية لهذه المنشأة، والظروف التي أحاطت ببنائها.

تم بناء هذا المسجد الجامع الضخم خلال السنوات الأخيرة من سلطنة الناصر حسن الثانية، وهي تلك الفترة التي تمّ له التخلّص فيها من أمراء أبيه، واستقل بنفسه وبدأ سياسة ترقية أولاد الناس، حتى أصبح أكثر من ثلث الأمراء المقدمين ومعظم نواب الممالك منهم في سابقةٍ هي الأولى من نوعها، مما أثار سخط المماليك من الجيل الأول الذين مسّهم الرق. هذا يعني وجود استقطابٍ سياسي داخل الصفوة الحاكمة كما أتى هذ البناء بعد حوالي عشرة أعوام من انتهاء الفناء العظيم، وما واكبه من موت وخراب. ذهبت هويدا الحارثي إلى أنَّ موقع وضخامة وتخطيط المسجد له قيمة رمزية تُعبِّر عن هذه الظروف. فالموقع أمام القلعة يشرف على ميدان الرميلة (الميدان الرئيسي لمدينة القاهرة ومركز النشاط السياسي يماثل ميدان التحرير حاليًا).
تمّ بناء المسجد في موقع قصري يلبغا اليحياوي، والطنبغا الماردیني (كلاهما كما نذكر كانا من الأمراء المقربين للناصر محمد، ويمثلا طبقة المماليك من الجيل الأول) والسابق بناؤهما

قبل حوالي عشرين عامًا. اشتراهما السلطان وهدمهما وبنى منشآته الضخمة بدلاً منهم كأنّه يقول إنّه ينوي إنهاء النظام القديم؛ ليحلّ محلّه نظام جديد يلعب فيه هو (الجيل الثاني) وأولاد الناس دورًا جديدًا أساسيًا ومحوريًا. يظهر هذا بوضوح في الميدان تحت القلعة بؤرة النشاط العسكري والسياسى المملوكي، كذلك يظهر بوضوح لقاطني القلعة من الصفوة المملوكية (مسجد الرفاعي وغيره من المساجد العالية لم تكن موجودة في هذا الوقت) مما جعل القلعة والجامع الضخم قطبي جذب ومنافسة، وتحدي.

ضخامة المبنى وعلوه، وكثرة مآذنه ومدخله التذكاري المائل حتى يمكن مشاهدته للناظرين للقلعة كلّ هذا يجعله كنصب تذكاري لخروج مصر من كبوه الفناء العظيم، ولرفع الروح المعنوية للشّعب لتجديد ثقته في نفسه وحكامه. تذهب هويدا الحارثي أيضًا إلى أنّ التعدد الوظيفي لهذه المنشأة كمسجد جامع ومدرسة، والملحقات الخدمية به كسبيل وكتاب (انهارا مع المأذنة فور الانتهاء من البناء) ومستشفى وخلافه تشير إلى انحياز السلطان إلى الطبقات الشعبية وأولاد الناس.

وموقع قبة الدفن الضخمة (أضخم قبة في مصر) تقع خلف إيوان الصلاة مباشرة وبارزة عن المجمع على مرأى من القلعة في موقع يتوسّط بين المسجد والقلعة تمثل أنّ السلطان هو الواسطة بين شعبه مُمثلاً في المسجد والمدرسة أمام القبة وبين الطبقات الحاكمة في القلعة خلف القبة. أخيرًا تؤكّد هويدا الحارثي أنَّ التخطيط الأفقي للمجمع يمثل رحلة الحياة والموت؛ فالمدخل يؤدى إلى قاعة خافتة الإضاءة ترمز إلى رحلة الحياة من الظلمة حيث البداية وعدم المعرفة، ثم يمر الداخل في ممر يصله إلى الصحن المفتوح المضيء، والذي يعُجّ بالحياة والحركة في أركانه المختلفة، حيث المعرفه والعلم والاستنارة، ثم إيوان الصلاة حيث يتجمّع الجميع للصلاة. ومنها إلى قبة الدفن الشاهقة العلو والعمودية في إشارة واضحة إلى الموت، وارتفاع الروح للسّماء. لا شك عندي أيضًا أنَّ الناصر حسن أراد التشبّه بأبيه وجده في علو الهمّة والطموح للمجد والخلود.

اختيار الآيات الكريمة من 18 – 25 من سورة التوبة، والتي تتصدّر الدرقاعه التي تلي المدخل، وتحمل رسالة واضحة من الناصر حسين عن رؤيته لنفسه، وتحذيره لأعدائه. فالآية الكريمه 18 ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ﴾ وهي من أكثر الآيات إستعمالاً على

واجهة المساجد في مصر وسائر العالم الإسلامي، ولكنها في نفس الوقت تؤكّد المعتقدات الدينية العميقه للسلطان، والتزامه بها.

وباقي الآيات تؤكد تميز المؤمنين على المشركين لجهادهم في سبيل الله ورسوله. ثمّ الآيات الأخيره تشير إلى موقعة حنين، والتي كاد فيها جيش المسلمين أن ينهزم على الرغم من تفوقه العددي، لغرورهم ولاختيالهم بكثرتهم، واستهتارهم بقوة العدو من المشركين، ولولا نصر الله لهم لانهزموا أمام تلك القلّة المشركة. وهذه إشارة لأعداء الناصر وهم الأغلبية بأنّ كثرتهم العددية لا تعني شيئًا، وأنَّ قلته مع إيمانه وتأييد الله له سوف تحقّق له النصر على أعدائه. ومن غرائب القدر أنّ الناصر حسن قُتل بعد هذا بمدة قصيرة؛ نتيجة استخفافه بقوة أعدائه، ومحاربتهم في قِلّةٍ من أنصاره، والله ينصر من يشاءُ (المنتخب في تفسير القرآن، 261 - 262).

(Howyda al-Harithy, *Muqarnas*, 13: 68-79; Beherens–Abouseif, *Cairo of the Mamluks*, 200 - 214).

بالإضافة إلى مدرسة الناصر حسن مازال لدينا على الأقل أربعة وثلاثون أثرًا من تلك الفترة بعضها يُعتبر من عيون العمارة المملوكية لن نعرض لها هنا بالتفصيل، جميعها منشآت غير سلطانية ومعظمها داخل القاهرة، والقليل منها خارجها فيما كان يُسمَّى حينئذٍ بصحراء القاهرة، وهو ما يُعرف الآن بالجبانة الشمالية لمدينة القاهرة.

بعض هذه المساجد مثل مسجد أصلم السلحدار (أثر 112، 745 – 46/ 1344 – 45) بالقرب من الدرب الأحمر، وأقسنقر الناصري (أثر 123، 747 – 48/ 1346 – 47) في شارع التبانة نفس طراز مساجد أمراء الناصر محمد. الأول مسجد جامع، ولكنّه يتكوّن من التخطيط المتعامد (أي صحن يحيط به أربعة إيوانات)، والأخير صحن يحيط به أربعة أروقه محموله على دعائم تحمل سقفًا معقودًا. وطراز هذا المسجد الأخير مشابه للمساجد الشامية حيث عمل أقسنقر هناك لفترةٍ طويلة ومدفون فيه السلطان الأشرف كجك (ابن زوجة أقسنقر) وأقسنقر نفسه، وأهم ما يتميّز به المحراب الرخامي وهو أقدم محراب من هذا النوع في مصر.

أما أمراء الناصر حسن الكبار شيخو، وطاز وصرغتمش فأقاموا عدة منشآت نظرًا لجمعهم ثروات ضخمة. أهم هذه المنشآت وأولها هو الجامع (أثر 147، 750/ 1349) والخانقاه (أثر 152، 756/ 1355) اللذان أنشأهما الأمير شيخو العمري متقابلين في

شارع الصليبة بالقاهرة، متماثلين في وجهاتهما في سابقةٍ هي الثانية من نوعها. والمسجد الذي بني أولاً أصغر من الخانقاه، وقد انتهى من بنائه عقبَ الوباء العظيم المعروف بالموت الأسود، والمسجد يتكون من صحنٍ وأربعة أروقة متعامدة محمولة على أعمدة، ولها تخطيط غير منتظم؛ وذلك حتى يتمكن المعماري من وضع المدخل بحذاء اتجاه شارع الصليبة مع الاحتفاظ برواق الصلاة متعامدًا على اتجاه القبلة. وهي أحد الحِيل التي لجأ إليها المعماري المصرى لبناء المنشآت الدينية داخل النسيج العمراني لمدينة القاهره مُحترِمًا وضع المداخل في اتجاه شوارعها مع تعامد إيوانِ الصلاة مع اتجاه القبلة. للمسجد مئذنة مماثلة، وتقابل مئذنة الخانقاه عبر الشارع – يقابل المسجد خانقاه ضخمة على مساحة حوالي فدان انتهى من بنائه في مدة سبعة أشهر في 756/ 1355 ملحق بها حمام ومحلاّت، وجزء سكني وهي مخصّصة لإقامة الصوفية كذلك التدريس وهي بذلك الخانقاه المدرسة الأولى من نوعها في العصر المملوكي. والخانقاه تتكون من صحن يؤدّي إلى رواق القبلة، ومساكن للصوفية والطلبة. تخطيط الخانقاه أيضًا غير منتظم مثل المدرسة، وللسبب نفسه. وهذان البناءان المتشابهان والمتقابلان في شارع الصليبة يبهران المار بواجهتهما ومآذنهما االرشيقة كأن الشارع يمر داخلهما.

على بعد أمتارٍ قليلة في شارع الصليبة أيضًا تقع مدرسة صرغتمش أحد أقطاب مثلث القوى في دولة الناصر حسن (أثر 218، 757/ 1356) وهي لصق سور زيادة جامع أحمد بن طولون في سابقة قليلة الحدوث. وهي مدرسة لتدريس المذهب الحنفي لطائفة العجم المقيمين بالقاهرة، طبقًا لحجة الوقف الخاصة بها. والخصائص المعمارية لهذه المدرسة شديدة التأثر بالعمارة الفارسية، وخصوصًا في قبابها البصلية الشكل ذات العنق المرتفع، وهي مدرسة ذات صحنٍ مكشوف، وأربعة إيوانات متعامدة.

أما طاز فقد أنشأ قصرًا كبيرًا (أثر 267، 753/ 1352) بالقرب من شارع الصليبة أيضًا، حيث كانت هذه المنطقة المفضّلة للبناء في تلك الفترة. ولا يزال هذا القصر مُستعملاً حتى اليوم –بعد ترميمه– كقاعةٍ للاحتفالات والمعارض. وهو من القصور القليلة الباقية لنا من العصر المملوكي المتقدم.

الفصل الخامس عشر

السلالة القلاوونية (5)
الجيل الرابع والأخير

1 - المنصور محمد بن المظفّر حاجي - السلطان اللاّهي:

حفيد الناصر محمد أقامة يلبغا العمري في السلطنة في جمادى الأولى 762/ 1361 وبالطبع لم يكن له من السلطنة سوى الاسم، ومدبّر المملكة هو يلبغا العمري يشاركه في هذا طيبغا الطويل وهو الأول من الجيل الرابع من السلالة القلاوونية، وكالعادة أُفرج عن بعض الأمراء منهم الأمير طاز، وكان سجينًا لمدة حوالي ثلاثة أعوام، وقد أسمل الناصر حسن عينيه، وذهب إلى مدينة القدس معتزلاً حتى وفاته في ذي الحجه 763/ 1362. وكالعادة أيضًا ثار نائب الشام ومجموعة من الأمراء، فخرج إليهم يلبغا العمري مُصطحبًا معه السلطان والخليفة في رمضان 762/ 1361 وتمكنوا من القبض على الأمراء الخارجين بعد أن وعدوهم بالعفو السلطاني. استقرت الأمور للسلطان بعد هذا سوى محاولة سيدي حسين الابن الوحيد الباقي على قيد الحياة من أولاد الناصر، للاستيلاء على عرش السلطنة أثناء غياب السلطان في دمشق، ولم تنجح المحاولة فقبض على سيدي حسين (الملقّب بالأمجد على الرغم من عدم سلطنته) وأودع في القلعة حتى وفاته في 764/ 1363.

تزوج يلبغا العمري من خوند طولوبية أرملة الناصر في محرم 763/ 1361 وكانت فائقة الجمال وثرية، وهي صاحبة التربة المعروفة باسمها في الجبانة الشمالية لمدينة القاهرة (أثر 80، 765/ 1363 – 64) ويبدو أن هذا الزواج بينها وقاتل زوجها أمرًا معتادًا حيث لا تعلّق عليه المصادر المعاصرة، ومات الخليفة المعتصم بالله في جمادى الآخر 763/ 1362 وخلفه ابنه المتوكل على الله محمد بدون منازعات. غير أنَّ سلوك السلطان لم يرض يلبغا العمري وباقي الأمراء؛ نظرًا لمجونه وفسقه فكان يُكثر من ممازحة النساء، ويترك الصلاة وغيره من الصغائر، فاجتمع الأمراء، وقرروا خلعه من السلطنة، وادعوا جنونه وذلك في شعبان 764/ 1363 ثمّ حبسوه بالدور السلطانية إلى أن مات بها بعد ذلك بمدة في المحرم 781/ 1379 وكانت ابنته زوجة لوالد المؤرخ يوسف بن تغرى بردي، وكان المنصور محمد بعد عزله محبًا للهو والغناء، راضيًا بالعيشة الطيبة مبتعدًا عن أمور الدولة والسياسة، وكانت له فرقة غنائية وراقصات معروفة به واستمر محبوسًا بالدور السلطانية بالقلعة إلى أن مات بها في محرم 801/ 1398.

2 – الأشرف شعبان بن الأمجد حسين – محنة الإسكندرية:

بعد خلع المنصور محمد أخرج يلبغا والأمراء شعبان بن سيدي حسين من دور الحريم، وأعلنوه سلطانًا جديدًا ولُقّب بالأشرف وحلفو له كالعادة في نصف شعبان 764/ 1363 توفي والده الأمجد حسين قبلها بشهور، وكان آخر أولاد الناصر محمد الأحياء ليكون شعبان هو الوحيد من الجيل الثالث من العائلة القلاوونية من تولّى السلطنة و لم يكن أبوه سلطانًا، وكان الأشرف صبيًا عمره حوالي عشر سنوات إذ إنّه وُلد في 754/ 1354 – 55 ونظرًا لصغر سنّه استمر يلبغا العمري، وشريكه طيبغا الطويل في تدبير أمور الدولة والسلطان لا سلطة له ولا رأي، إنّما يتقاضى نفقة. وكانت السنوا ت الأولى لدولة الأشرف هادئة تجري التنقلات المعتادة في المناصب بين الأمراء حتى جاء عام 767/ 1365 وبدأت سلسلة من الأحداث الصاخبة، وذلك بغزو ملك قبرص للإسكندرية في محرم 767/ 1365 وسوف نتناول هذا الغزو بشيء من التفصيل لأهميته التاريخية.

منذ فتح عكا وطرد الصليبيين منها عام 1291 أصبحت جزيرة قبرص مركزًا، لفرنجة أوروبا في البحر الأبيض المتوسط، ولجأ إليها أولاً فرسان الاستبارية حتى نزوحهم إلى جزيرة

رودس سنة 1308 وكان يحكم قبرص سلالة لاتينية هي سلالة لوزجنان، وكانوا أيضًا ملوكًا لمملكة القدس اسمًا فقط منذ استيلاء الناصر صلاح الدين عليها. وعلى الرغم من خفوت الحركة الصليبية في أوروبا، وانشغال ملوكها بشئونهم الخاصة، وحروبهم الداخلية وعزوفهم عن أيّ محاولة جديدة لغزو مصر والشرق الإسلامي سوى بالكلمات والوعود الجوفاء. على الرغم من هذا فإن ملوك قبرص من اللوزجنان ظلت لديهم أحلام قيام حملة صليبية جديدة، واستعادة الأراضي المقدسة من المسلمين، كما ظل سلاطين المماليك في مصر متوجسين من هذا الخطر الصليبى الوهمي يترقبّون أخبار أيّة تحركات أوروبية إلى مصر والشام.

في هذا السياق تولّى عرش قبرص بطرس الأول لوزجنان عام 1350 وكان صليبيًا متعصبًا ومتحمسًا إلى حمل الصليب مرة أخرى، فقام بعدة غزوات لشواطىء آسيا الصغرى ضد الأتراك السلاجقة، ثم قاده حماسه ورغبته في الدفاع عن المسيحية للتفكير في حملة صليبية جديدة كبيرة على النظام الصليبي القديم، فسافر إلى أوروبا عام 1362 عن طريق رودس، وبقي هناك لمدة ثلاثة أعوام متنقلاً بين أرجائها، وقابل البابا في أفينيون بفرنسا، وقابل ملوك فرنسا وإنجلترا والإمبراطور الروماني المقدس وغيرهم من ملوك الدول الأوروبية، طالبًا المساعدة بالمال والسلاح والرجال؛ للقيام بحملة جديدة. وعده الكثير من الملوك بالمساعدة وإن لم يشترك أيّ منهم بشخصه أو بجيشه، ولم يستجب له شخصيًا سوى بعض المغامرين الأوروبين. أيًا كان الحال فقد تمكّن بطرس الأول من جمع المال والعتاد، وجهّز أسطولاً من حوالي مائة وخمس وستين سفينة توجه به إلى مدينة الإسكندرية.

بالإضافة إلى أنَّ مصر كانت الهدف الأول للحملات الصليبية من بعد حملة ريتشارد قلب الأسد، وإدراكهم أنَّ الطريق إلى القدس لا يتمّ إلا عبر مصر إلا أنّ بطرس الأول كانت له أسباب أخرى لاختيار الإسكندرية كما يذكر لنا محمد بن قاسم النويري السّكندري (هو غير شهاب الدين أحمد النويري صاحب موسوعة نهاية الأرب في فنون الأدب المتوفى عام 733/ 1333) وكان إسكندرانيًا معاصرًا لهذه الغزوة. ذكر النويري السّكندري سبعة أسباب لاختيار الإسكندرية منها: الانتقام لمحنة الأقباط في دولة الصالح صالح في 755/ 1354 وقد ذكرناها تفصيلاً في السابق، كذلك رفض سلطان مصر طلب بطرس بتنصيبه في صور لكونه ملك القدس اسمًا، ولسوء معاملة الأهالي لتجار الفرنجة غير أنَّ أهمّ هذه الأسباب كانت الأربعة الأخيرة، وملخصها أنَّ بعض القبارصة أخطر بطرس بضعف وسائل الدفاع والمقاومة بالإسكندرية، وبإمكانه الاستيلاء عليها بسهولة، فاستهان بها وعزم على غزوها.

على الرغم من التكتّم والسرية التي أُحيطت بها تلك الحمله فإن أبناءها وصلت إلى يلبغا العمري قبلها بشهورٍ، فاستهان بها معتقدًا أنّ ملك قبرص وحده غير قادر على مهاجمة الإسكندرية، وقال أنّ القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية وكان المتولى على الإسكندرية الأمير صلاح الدين خليل بن عرام؛ ولكنّه كان غائبًا في هذا الوقت لأداءه فريضة الحج، وكان نائبه أحد صغار الأمراء العشروات، ويُسمَّى جنغرا وكان يُنظم أعمال حراسة شكلية مهتمًا بالمظهر لا بالجوهر. وكانت مدينة الإسكندرية مُحاطة بسورٍ منيع، وبه عدّة أبواب غير أنَّ ميناء الإسكندرية يقع إلى شمال السور من الخارج، وبينهما أرض فضاء بها مجموعة من الأربطة وهي مبان أو حصون صغيرة لإقامة المحاربين في الثغور، كذلك عدد من المقابر وهي المنطقة التي بها قلعة قايتباي الآن وفنارة الإسكندرية الشهيرة قبل سقوطها.

فلما وصل الأسطول القبرصي إلى ميناء الإسكندرية على حين غفلة، وظهر حجمه، وتبين خطره، وذلك في الأربعاء الموافق الحادي عشر من محرم 767/ 1365 انقسمت آراء جنغرا والمدافعين؛ مجموعة ترى البقاء داخل المدينة، والاحتماء بأسوارها، وإغلاق أبوابها، وترك الغزاة في منطقة الميناء والأربطه يُحاصرون المدينة لحين وصول يلبغا وجنوده من القاهرة، ومجموعة أخرى رأت البقاء خارج الأسوار لمنع الغزاة من النزول إلى البر، ومحاربة من يتمكن من النزول بمساعدة العربان، وكان أنصار هذا الرأي هم أصحاب الأربطة خارج السور؛ خوفًا عليها من الدمار طبقًا لقول النويري السكندري. ولما كان جنغرا ضعيفًا سيء الرأي والتدبير فمال إلى الرأي الأخير، وبقوا في الأربطة خارج الأسوار فامتلأت تلك المنطقة بالجنود والعوام يصخبون حولهم ويبيعون لهم الطعام والشراب. وفى يوم الجمعة الموافق الثالث عشر من محرم (العاشر من أكتوبر) نزل الجنود القبارصة وأعوانهم إلى الشاطىء، وتمكّنوا من هزيمة جنغرا وجنوده والعربان، والاستيلاء على الأربطه بعد معركة قصيرة فرّ بعدها جنغرا ومن معه إلى داخل الإسكندرية، وتوجّه لبيت المال وأخذ مابه من ذهب وفضة، وجمع تجار الفرنجة بالإسكندرية وقناصلهم، وعددهم حوالي خمسين وتوجه بالجميع إلى دمنهور.

كما فرّ العربان أيضًا، وتفرغوا لأعمال النهب والسلب، وتركوا أهالي الإسكندرية لمصيرهم بدون حماية. فتمكّن القبارصة من تسلّق السور الذي تُرك بدون دفاع، وحرقوا بعض أبوابه، ودخلوا إلى المدينة، وفرّ الأهالي خارج أسوار المدينة من الجنوب وتتبعّهم القبارصة بالقتل، فتزاحموا على الأبواب هاربين، فسقط منهم الكثير وماتوا دهسًا بالأقدام.

أصبحت مدينة الإسكندرية مفتوحة بدون حماية، فقام الغزاة بنهبها والاستيلاء على ما بها من منقولات وبضائع وسلع في الحوانيت والمنازل والفنادق، وأحرقوا كلّ ما لا يمكن حمله من مساجد وجوامع وحتى الكنائس، وتعرّفوا على دور الأغنياء ومخازنهم بمن بقى من الفرنجة في المدينة، ونقلوا هذه الغنائم إلى مراكبهم عن طريق الإبل والبغال والخيل والحمير، ثم قتلوهم وتركوها مُلقاة في الميناء. واستمر النهب وقتل الأهالي بدون تفرقة طوال اليوم، وفي غداته اجتمع بطرس الأول مع قواده للتشاور، وكان يرغب في الاحتفاظ بالإسكندرية، متوهمًا وصول النجدة من أوروبا، وأيده في هذا وزراؤه من القبارصة في حين عارض الأوروبيون هذا الرأي، وأصروا على العودة إلى قبرص، والاكتفاء بنهب الإسكندرية، بل غادر بعضهم ليلاً عائدًا إلى بلاده، مكتفيًا بما حمله من نفائس وغنائم.

في هذا الوقت كان يلبغا في رحلة صيد بالعباسة، فلما تيقن من أمر الغزو أمر بتعبئة الجيش، والتوجّه إلى الإسكندرية، ولما كان هذا وقت فيضان النيل لم يتمكّن من الوصول إلى الإسكندرية إلا بعد عدة أيام كان القبارصة قد فرغوا فيما هم فيه من نهبٍ وسلب وقتل، وغادروا الإسكندرية بما حملوه، ومعهم خمسة آلاف أسيرٍ؛ وذلك في الخميس الثامن عشر من محرم بعد غارة لمدة عشرة أيام وألقوا في البحر ما لم يتمكّنوا من حمله وخصوصًا البهار. وصل يلبغا بعد فوات الأوان، فقام بدفن القتلى، وأمر بتعمير ما خُرّب، وقبض على الفرنجه المخليين وطلب بطرك الأقباط – على الرغم من عدم مسؤليته– وطالب الجميع من غير المسلمين بتعويضات عن هذه الغزوة. وصمم يلبغا على الانتقام، وبدأ في بناء أسطولٍ بحري لغزو قبرص، ولكن لم يُمهله القدر.

كانت هذه الغزوة وهي أقرب إلى أعمال القرصنة من كونها حملة صليبية لها أثر كبير في دمار مدينة الإسكندرية، فلم تعد كما كانت حتى العصر الحديث. أمّا بطرس الأول فعاد إلى قبرص وفرح بهذه الغزوة، واعتبرها نصرًا كبيرًا غير أنه ندم على عدم احتفاظه بالمدينة ندمًا شديدًا، ولكن على حدّ قول النويري الصغير "فإنّ بطرس دخلها لصًا وخرج منها لصًا". (عاشور، قبرس والحروب الصليبية، 44 – 72).

منذ تلك الغزوة اهتمت السلطات المملوكية بمدينة الإسكندرية، وأصبح لها نائب بعد ما كانت رتبته واليًا فقط، و لم يتسنَّ للمصريين الانتقام من تلك الغزوة إلا بعد ذلك بما يربوا على نصف قرن تمكّنت فيه مصر المملوكية من غزو قبرص، والاستيلاء عليها وجعلها ولاية

مصرية. علمًا بأنّ تلك الغزوة لم تكن على هوى جنوة والبندقية، نظرًا للعلاقات التجارية بينهم وبين مصر، وفعلاً قاموا بإعادة بعض الأسرى إلى السلطان، وقاموا بمحاولاتٍ عديدة للصلح بين مصر وقبرص حتى نجحوا في النهاية في جُمادى الآخر في عام 772/ 1371 بعد أن أعادوا باقي أسرى المسلمين.

ضاق يلبغا العمري بمشاركة طيبغا الطويل - وكان الأخير حسن الطويه - فتخلّص منه بعد مقاومة يسيرة بأن قبض عليه، وأرسله منفيًا إلى القدس أولاً، ثم أرسله نائبًا على أحد ولايات الشام في شعبان 767/ 1366 وانفرد بالحكم، وانهمك في إعداد أسطولٍ لغزو قبرص نظرًا لندرة وجود الأخشاب في مصر، وضرورة استيرادها من الشام والأناضول، كما بعث بحملة إلى بلاده النوبة لمساعدة ملكها. ورفض يلبغا عرض السلطان العثماني أورخان بن عثمان بأن يرسل له أسطولاً للأستيلاء على قبرص لسببٍ غير معروف وكانت الدولة العثمانية ناشئة في ذلك الوقت، و لم تنبت لها أنياب بعد، وعلاقتها بمصر المملوكيه هادئة وسلمية.

بينما يلبغا منهمكًا في إعداد الأسطول وكان على وشك الانتهاء منه وتعيين القواد له، واستعراضها في الجيزة بدأت فتنة مماليكة، فثاروا عليه حيث إنّه كان يسيء معاملتهم، ويقسو عليهم، ويعاقبهم بشدة على توافه الأمور. وربما أيضًا تعاطف معهم السلطان لرغبته في التخلّص من سطوه يلبغا، فلما علم الأخير بهذا وهو محاصر في جزيرة أروى (جزيرة الزمالك حاليًا) أخرج أنوك بن الأمجد حسين أخا السلطان من دار الحريم، وأرغم الخليفة على تنصيبه سلطانًا بدلاً من أخيه، ولُقّب بالمنصور - سمّي لذلك بسلطان الجزيرة - وهو غير معدود من سلاطين المماليك؛ نظرًا لعدم مقدرة يلبغا من الاستيلاء على قلعة الجبل، وتنصيبه بها بعد مغادرته الجزيرة. فلجأ يلبغا إلى منزلة في قلعة الكبش (شارع الصليبة الآن) لتخلّي الأمراء عنه، ومناصرة العامه للسلطان فقبض عليه مماليكه، وقتلوه في ربيع الآخر 768/ 1366. وهذه واقعة ثانية من انتهاك علاقة المملوك لأستاذه، وبهذا يكون يلبغا قد ذاق من نفس كأس الخيانة الذي أذاقه لأستاذه الناصر حسن، والجزاء من نفس العمل.

انتهز عوام القاهرة الفرصة لنهب بيوت بعض الأمراء على أنّهم من أنصار يلبغا حتى تدخّلت السلطات، لوقف أعمال الشغب. وأصبح اسندمر مملوك يلبغا هو النائب وأتابك العساكر. وكان يلبغا قد أكثر من شراء المماليك وخصوصًا من جنس الشركس، وكانوا

لا يزالون صغارًا أجلابًا أي حديثي العهد، فأثاروا فتنًا كثيرة بعد قتل يلبغا، وأرادوا عزل السلطان وإثاره الفتنة؛ فتمكن منهم السلطان ومماليكه، فقبض على الكثير منهم، قتل بعضهم وسجن بعضهم ونفى باقيهم إلى الشام وأسوان. وكان ينتمي إلى هذة الطائفة برقوق، وبركه، والطنبغا الجوباني وجركس الخليلي، وكلّها أسماء سوف تبرز على مسرح الأحداث قريبًا. كما بدأت في تلك الفترة ظاهرة ترقية الجنود وأمراء العشرات إلى أعلى الرتب العسكرية دفعه واحدة. وأصبح السلطان في عام 769/ 1367 مستقلاً وله الأمر والنهى، وتخلّص من سطوة الأمراء عليه.

أراد السلطان معاملة القراصنة الفرنجة بالمثل، وكانوا يقومون بغارات عديدة على الثغور الشامية والإسكندرية، فقام بتزويد أحد البحارة المغاربة واسمه محمد التازي بمركبين من الأسطول الذي كان يعده يلبغا، وزوّده بالسلاح والرجال، فأغار على بعض سفن الفرنجة في البحر الأبيض، واستولى على ما فيها من رجال وبضائع، وكرمّه السلطان على هذا.

كانت سنوات حكم الأشرف شعبان هادئة، فكان محبًا للفنون، ومشجعًا لها وبنى مدرسةً كبرى انتهى منها في نهاية 778/ 1377 في الصوة بالقرب من القلعة، وتُعدّ من أعظم المدارس المملوكية، ويقال إنّها فاقت مدرسة السلطان الناصر حسن في حسنها وضخامتها غير أنّها هدمت في أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في دولة الناصر فرج بن برقوق المضطربة، نظرًا لقربها من القلعة، وعلو مآذنها وأسطحها، واستعمالها بواسطة الأمراء الثائرين على الناصر فرج، للهجوم على القلعة وبنى على موقعها المؤيد شيخ المارستان المؤيدي (أثر 257، 821 – 22/ 1418 – 19). كان السلطان الأشرف محبًا لوالدته خوند بركة بارًا بها فذهبت إلى الحج في 770/ 1369 في موكبٍ فخم ضخم يسير في خدمتها الكثير من الأمراء، وقامت هي أيضًا بإنشاء مدرسة ضخمة دُفنتً بها، ولا تزال باقية في الدرب الأحمر (أثر125، 770/ 1368 – 1369) وكان زوجها الجاي اليوسفي صاحب المدرسة الباقية حتى الآن بالسيوفية (أثر121، 774/ 1373) أتابك العسكر منذ بداية عام 774/ 1372 وكان مدبرًا للملكة حتى توفت خوند بركة في ذي الحجة 774/ 1373 فحزن عليها السلطان حزنًا شديدًا لأنّها كانت من خير نساء جيلها متديّنة تكثر من أعمال الخير. بعد وفاتها وقع خلاف بين السلطان وزوج أمه الجاي اليوسفي الأتابك على ميراثها، وكانت ثرية أسفر هذا الصراع عن وفاة الجاي اليوسفي غرقًا عند محاولته عبور نهر النيل

بفرسه بالقرب من قليوب، وذلك في محرم 775/ 1373 ودُفن بمدرسته وخلفه في الأتابكية الأمير أيدمر الدودار، وصادر السلطان أملاك وثروة الجاي اليوسفي، بعد أن دبّر ما يكفي أولاده وهم إخوته لأمه.

لم يتميز عصر الأشرف شعبان بأعمالٍ عسكرية ضخمة، و لم يخرج السلطان على رأس جيشه لغزوة على الإطلاق غير أنّه قُرب نهاية الدولة الأشرفيه قام نائب حلب أشقتمر بإعداد وإرسال حمله عسكرية ضخمة إلى بلاد الأرمن (أرمينيا الصغرى بالأناضول) تمكنت من الاستيلاء على عاصمتها سيس، والقبض على ملكهم (تُسمِّيه المصادر المعاصرة تكفور) وخضعت هذه المنطقة للحكم المملوكي، وبذلك تمّ القضاء النهائي على دولة الأرمن في ذي القعدة 776/ 1375، بعد أن لعبت تلك الدولة دورًا كبيرًا في الصراع المملوكي المغولي في القرنين السابقين.

تزامنت تلك الأعوام بظهور مجاعةٍ ووباء شديد، واستمرت لمدة طويلة، ففي ربيع الأول 775/ 1373 (شهري أغسطس وسبتمبر وهم شهور الفيضان) بدا أنّ نهر النيل لن يوفي في هذا العام، ولن يصل إلى مستوى الستة عشر ذراعًا المطلوبة عند مقياس النيل بالمنيل، فبدأت أسعار القمح والحبوب الأخرى في الارتفاع المستمر من حوالي أربعين درهمًا إلى خمسين وهكذا. وعلى الرغم من وفاء النيل في العام التالي 776/ 1374 – 5 فإنَّ الأسعار استمرّت في الزيادة، وحاول محتسب القاهرة الجديد فرض تسعيره على سعر الخبز، فاختفى من الأسواق، و لم يظهر إلا بعد ما سمح للسعر بالارتفاع بدون تسعير. ونحن نتابع سعر الخبز لكونه سلعة ضرورية كمؤشّرٍ عام للأسعار؛ ولكن غني عن القول إنَّ ارتفاع سعر الخبز يُواكبه ارتفاع جميع السلع الغذائيةِ الأخرى كالحبوب والزيت، والفواكه واللحوم، والخضروات والطيور، وحتى وسائل النقل.

ممَّا زاد الطين بلة ظهور الوباء وانتشار الأمراض بين الأهالي، وذلك بدءًا من جمادى الآخِر 776/ 1374 ويبدو أنَّ سبب هذا الوباء سوء التغذية نظرًا لشدة غلاء الطعام لمدة طويلة مع عدم زيادة في الأجور، وضعف النشاط الاقتصادي والتجاري. و لم تتدّخلْ الدولة بجدية على الرغم من استمرار الغلاء والمجاعة، ومع دخول شهر رمضان 776/ 1375 تفاقمت الأزمة حتى وصل سعر أردب القمح مائة وخمسة وعشرين درهمًا وزاد عدد الموتى وانتقل الوباء حتى للأغنياء الميسورين. واضطرت الدولة أخيرًا للتدخّل، فقامت

بتوزيع الفقراء على الأمراء بحيث يعول كل من المقدمين أمراء الألوف مائة فقير، والأمراء الأقل في الرتبة عددًا أقل، وهكذا. كذلك فُرض على الأغنياء إعاله عدد من الفقراء كل على قدره. غير أنَّ تلك الإجراءات جاءت مُتأخرة، فلم تلجأ الدولة -كما حدث في السابق- من فتح الأهراء السلطانية والتوزيع المجاني للطعام، أو استيراد القمح؛ ولهذا استمرّت الأزمة لمدة عامين وهي فترة طويلة على غير العادة، و لم تنحط الأسعار وتعود إلى سابقها إلاّ في نهاية 776/ 1375 بعد ظهور محصول القمح الجديد، وكان المقريزي معاصرًا لهذه المجاعة فوصفها وصفًا دقيقًا (لأحداث هذه المجاعة انظر المقريزي، إغاثه الأمة، 40 - 41؛ Sabra, *Poverty*, 146 - 147).

باستثناء هذه المجاعة فإنّ الأمور كانت مستقرة ظاهرًا، والسلطان مُنشغل بأموره الخاصة بحيث انتهى من بناء مدرسته الضخمة المشار إليها سابقًا، وقام بتطليق زوجاته الثلاث (وجميعهم أولاد ناس من أبناء وأحفاد مماليك ممَّن مسّهم الرق) ولا تذكر المصادر المعاصرة السبب في هذا، ولا بدّ أنّ السلطان كان مُطمئنًا على أحوال مملكته إذ عزم على أداء فريضة الحج في هذا العام 778/ 1377 و لم يمنعه مداهمة المرض له بشدة حتى أوشك على الموت، ثم شُفي. تحرّز من إخوته وأقاربه من سلالة قلاوون بأن أرسلهم جميعًا إلى الكرك خارج القاهرة، و لم يقبل النصيحة بعدم الخروج للحج هذا العام. قام بإعداد احتياجاته بكميات كبيرة وأنواع فخمة وفاخرة له ولأمرائه وصفها المقريزي كشاهد عيان مما يجل وصفه مما يدل على حالة الرخاء التي تميز بها العصر. سار السلطان في جمع كبير من أمرائه وخاصيكته وجنوده حتى وصل إلى عقبة أيله (مدينة العقبة بالأردن)، وفجأة حدثت الفتنة في العقبة والقاهرة في نفس الوقت تقريبًا.

في نهاية شوال 778/ 1377 والسلطان بالعقبة قام بعض الأمراء من رؤوس الفتنة، ومعظمهم من الأمراء الصغار اليلبغاوية المصاحبين له في الحج بمطالبة السلطان بتوزيع عليق الخيول عليهم، فطلب منهم الانتظار، فطالبوه بدفع نفقة مالية لهم فرفض أيضًا، فما كان من هؤلاء إلا الاتفاق مع بعضهم وباقي الأمراء على قتل السلطان وخاصته. لمَّا علم السلطان بهذا حاربهم فهزموه، واضطروه للفرار إلى القاهرة والاختفاء بها. حاول الأمراء الثائرون إقناع الخليفة المتوكل بالله - وكان يصاحب السلطان - بقبول السلطنة فرفض وأصرّ على الرفض، فاضطرّ هؤلاء الأمراء إلى العودة إلى القاهرة، والتوقف في محطة عجرود في الطريق قبل القاهرة.

في هذا الوقت تقريبًا أي الثالث من ذي القعدة – على ما يبدو بدون معرفة بما جرى في العقبة – قامت فتنة بالقاهرة يتزعّمها بعض الأمراء الذين لم يصحبوا السلطان في سفره، وقاموا بإقناع معظم الأمراء الآخرين بضرورة عزل السلطان، ووعدوهم بالأموال والمناصب. وفعلاً صعد الجميع إلى القلعة، وادعوا موت السلطان، وأخرجوا ابنه سيدي علي من دار الحريم، وقلّدوه السلطنة، ولقّبوه بالمنصور، وقبلّوا له الأرض، وحلفوا له كالعادة. ظلّت القاهرة في اضطراب لمدة يومين ونصبّوا خليفة جديدًا بدلاً من الخليفة المتوكل الغائب خارج القاهرة، وهو ابن عّمه. كل هذا وهم لا يدرون مصير الأشرف شعبان، وهنا تختلف رواية المقريزي عن رواية ابن تغري بردي. فالأول يقّر بوجود اتفاق بين الأمراء المصاحبين للسلطان شعبان في سفره، والأمراء المثيرين للفتنة مِمَّن بقوا بالقاهرة، والأخير يقول إنّه لم يكن هناك اتفاق مُسبق بين الطرفين، ولا ندري أيهما أصح. علمًا بأنّ الأمراء القاهريين قاموا بمحاربة الأمراء الثائرين في العقبة عند عودتهم، وقضوا عليهم بالقتل أو الحبس والنفى، ولم يُشركوهم في السلطة.

عند عودة الأشرف شعبان إلى القاهرة اختفى في بعض دورها، وكانت أنباء فتنة العقبة قد وصلت إلى الأمراء المتمردين بالقاهرة فأخذوا في تعقّب الأشرف حتى عثروا عليه مُتخفيًا في زي النساء، فقبضوا عليه وصعدوا به إلى القلعة، حيث جرى تحقيق معه لمعرفة موضع أمواله وذخائره. ثم سلّط الأمراء الثائرون عليه من خنقه، وألقوا جثته بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، حتى عثر عليها بعض خدم السلطان، فأخرجوها وغسلوا جثته، وصلّوا عليه ودفنوه في تربة أُمّه بالدرب الأحمر.

كانت مدة سلطنة الأشرف شعبان أربعة عشر عامًا وقليل، وقتل وهو في سن الرابعة والعشرين وهو أطول من بقي على كرسي السلطنة من أولاد الملوك بعد الناصر محمد. وكانت فترة حكمه الطويلة هادئة باستثناء حادثة الإسكندرية في 767/ 1365 ومجاعة عام 776/ 1375، والظروف والأسباب التي دفعت الأمراء والأجناد بالتمرّد عليه غير واضحة ربّما لأسباب مادية، وحب السلطان لجمع المال، أو لأنَّ السلطان على غير العادة المتبعة كان دائم الإحسان على عائلته وإخوته وأبناء عمّه وأقاربه يوزع عليهم الهبات والإقطاعات ممّا أثار حسد الأمراء. وترك عند وفاته سبعة ذكور منهم، علي وحاجي، والاثنان اعتليا عرش السلطنه من بعده وسبع بنات. (المقريزى، السلوك، 2: 83 – 283؛ ابن تغرى بردى، النجوم، 11: 24 – 147).

3 - المنصور علي بن الأشرف شعبان، بداية النهاية:

أُقيم في السلطنة في ذي القعدة 778/ 1377 وكان طفلاً صغيرًا عمره سبعة أعوام. والأمراء في نزاع مستمر وانقسامات داخلية، وليس بينهم أمير كبير ذو هيبة ونفوذ يستطيع السيطرة على الأمور، وتميّزت تلك الحقبة بترقية الكثير من الأجناد إلى رتب الأمراء، وصعودهم السريع إلى القمّة لا للكفاءة كما كان في عصر الآباء المؤسسين أو لجمال الشكل كما في عصر الناصر محمد، ولكن غالبًا لقدرتهم الفائقة على التآمر. ولن نسرد تفاصيل تلك المؤامرات، نظرًا لكثرتها وعدم أهميتها، وأيضًا لتضارب الأقوال في حقيقتها. ولكن سنذكر فقط الأحداث الخاصة بمملوكين صغيرين من مماليك يلبغا العمري وهما برقوق العثماني اليلبغاوي، وبركة الجوباني اليلبغاوي وكلاهما كان من الأجناد ثم تمّ ترقيتهم إلى رتبة طبلخانه دفعة واحدة مُتعدّين أقرانهم لاشتراكهم في مؤامرة قام بها الأمير أينبك، وكان أمير آخور ضد قرطاي أتابك العسكر زوج ابنته (كلاهما من الأمراء الذين دبّروا خلع الأشرف شعبان في القاهرة) وكان أينبك قد أرسل إلى زوج ابنته وليمة بها أطعمة فاخرة، وشراب من بينها جرار خمر بها مخدر شربه، ففقد وعيه هو وبعض رفاقه. انتهز أينبك هذه الفرصة، فقبض عليهم جميعًا ونفى بعضهم إلى الإسكندرية، وأرسل زوج ابنته إلى حلب، ثم قبض عليه وخنقه في الطريق، وأصبح هو أتابك العسكر بدلاً من قرطاي، وكافأ المتآمرين معه بالوظائف والرتب. أوفى بوعده إلى برقوق، وبركة وأنعم عليهما برتبة طبلخانة بدون المرور على رتبة أمير عشرة حيث إنّهم كانوا جنودًا وذلك في صفر 779/ 1377.

من أمثلة الفساد في هذا العصر أنّ أينبك بعد أن تخلّص من زوج ابنته أراد خلع السلطان نفسه، فاستدعى الخليفة المتوكل في ربيع الأول 779/ 1377 وطلب منه سلطنة أحمد بن يلبغا العمري (من طولوبية أرملة الناصر حسن) وادّعى أنّه ابن السلطان، ولكنه ولد في فراش يلبغا، فرفض الخليفة هذه الحجة فما كان من أينبك إلاّ أن خلع الخليفة وسبّه، وأهانه ونفاه إلى قوص بالصعيد، وعين بدلا منه ابن عمّه زكريا ابن الخليفة الحاكم بأمر الله، ولقبه المستعصم بالله.

وجاءت أنباء بحدوث فتنة بين أمراء الشام وأراد أينبك الخروج إلى الشام مع السلطان لقمعها، وأرسل مقدمة عسكره، ومن بينهم برقوق، وبركة في ربيع الأول 779/ 1377 ثم تبين لأينبك أنّها خُدعة ومؤامرة دبّرها الأمراء بالقاهرة لاستدراجه إلى الشام الغرض

منها التخلّص منه. فلما فطن أينبك لهذه المؤامرة حاربهم فهزموه، وفر منهم وكان مدبّر هذه المؤامرة برقوق العثماني وإن لم يكن واجهتها نظرًا لصغر رتبته. انتهت الفتنة بالقبض على أينبك وأخيه وأعوانه وإرسالهم مُقيدين إلى الإسكندرية حيث وافته المنية بعدها بقليل. وصُودرت أموال زوجته بعد إهانتها على غير العادة القاضية بعدم التعرّض للحريم. وأصبح برقوق مدبّر المملكة، والمشار إليه ويلبغا الناصري اليلبغاوي أصبح أمير آخور، وأقام بالأسطبل السلطاني. وأنعم على برقوق العثماني، وبركة بتقدّمه ألف، وبذلك يكون برقوق قد قفز من الجندية إلى مقدّمة ألف في مدة شهرين فقط. وفي نفس الشهر قام برقوق ومعه جماعة من أصحابه بالصعود إلى الأسطبل، وعزل يلبغا الناصري اليلبغاوي خشداشه، وجعل نفسه أمير آخور، وأقام بدلاً منه في الأسطبل كما أقام خشداشه بركة الجوباني أمير مجلس، وأسكنه في بيت قوصون بالقرب من القلعة، واقتسم الأثنان السلطة فيما بينهما.

كانت تلك الفتن السابقة والمؤامرات كلّها مقدمات لبداية ظهور برقوق، واستبداده بالسلطة وقضائه على البيت القلاووني، وتغلّب الجراكسة على الحكم، واستغرق الأمر سنوات قليلة. بدأ برقوق بالتخلّص من منافسيه فبدأ بالأمير الأتابك قشتمر الدوادار، فأخذ في استفزازه بالطلبات الكثيرة منها نفي بعض أتباع قشتمر، والأخير يوافقة حتى اضطر في النهاية إلى قتال برقوق، وبركة وأتباعهم، فهزموه بعد معركة واستسلم لهم – وكان الأمير قشتمر حما برقوق – ولكن هذا لم يشفع له فعزله وسجنه. وأصبح هو أتابك العسكر بدلاً منه، والأمير أيتمش البجاسي (صاحب المدرسة بأول شارع باب الوزير أثر 250، 785/ 1383) أصبح أمير آخور بدلاً من برقوق. واستمر الأخير في الإقامة بالأسطبل بجانب باب السلسلة لموقعها الاستراتيجي. ثمّ قبض على يلبغا الناصري اليلبغاوي بغتة أيضًا، وسجنه بالإسكندرية، ثمّ أفرج عنه بعد مدة قصيرة وأرسله نائبًا على طرابلس.

استشرى الفساد فكان برقوق الأمير الكبير لا يقوم بتولية وعزل القضاة والحسبه والولايات وغيرهما إلاّ بموافقة بركة أمير مجلس، ولا يتم هذا إلا مقابل دفع مبلغ رشوه. وعلى حد قول المقريزي: "فتطاول كل نذل رذل وسفله إلى ما سنح بخاطره من الأعمال الجليلة والرتب العلية، فذهب الناس من ذلك بداهيه دهياء أوجبت خراب مصر والشام" (المقريزى، السلوك، 2: 324).

استمر برقوق في سياسة التخلّص من منافسيه من كبار المماليك المعادية له بالسجن والنفي

والقتل أحيانًا، وخصوصًا الأمراء الألجائية (مماليك ألجاي اليوسفي) لاعتقاده بأنّهم يتهكّمون عليه ويقدحون فيه، بل ويتآمرون على قتله. في نفس الوقت قام بترقية خشداشيته، اليلبغاوية وتوزيع المناصب الكبرى عليهم.

من الأحداث الهامة في تلك الفترة هو وقوع حريق كبير خارج باب زويلة دمّر العديد من الأسواق مثل تحت الربع والخيامية وغيرها في محرم 780/ 1378. وقد امتدّ الحريق حتى وصل إلى أسوار مدينة القاهرة، واستمر عدة أيام حتى تمّكن الأمراء من إطفائه وهذا يدلّ على تعدّد مهام الأمراء بما فيها أيضًا أعمال الدفاع المدني.

على الرغم من توقّف أعمال العنف الجماعي ضد أقباط مصر بصورة عامة إلا أنّها استمرت بصورة فردية، ففي رمضان 780/ 1379 ادعى أحد الأفراد أن كنيسة أبي النمرس بالجيزة تتعمد دقّ أجراسها خلال صلاة الجمعة؛ للتشويش على الخطبة فأمر برقوق بإغلاقها. فلما حاول أحد أثرياء الأقباط دفع مبالغ مالية مُقابل إعادة فتحها غضب برقوق، وأمر بهدمها فهدمت. وليس لهذا الأمر علاقة بالحريق المقدّم ذكره.

مارس برقوق سياسة التحبب للعامة من الشعب، وكسب ودّهم عن طريق حمايتهم من بطش المماليك والأمراء؛ ولذلك كان محبوبًا منهم عكس شريكه في الحكم بركة الجوباني الذي لم تكن له شعبية. وكان هذا بُعد نظر من برقوق توقعًا منه لصراع قادم مع بركة. على الرغم من هذا فإنّ برقوق أوقف عادة وتقليدًا قديمًا كان يحد من بطش حجّاب السلطنة. جرت العادة على أنه من شعر بظلم أحد الحجّاب يلجأ إلى بيت أحد قضاة الشرع، فلا يجسر الحاجب أو غيره من الأمراء على اقتحام بيت القاضي للقبض على اللاجئ. أبطل برقوق هذه القاعدة، وعزل أحد القضاة؛ لحمايته لشخص مطلوب من قبل الحاجب، ثم قبض على هذا الشخص وضربه علنًا.

نجا برقوق من مؤامرة قام بها إينال اليوسفي أمير سلاح في رجب 781/ 1379 إذ انتهز فرصة خروج برقوق للصيد، وغيبة شريكه بركة الجوباني في الصعيد، فحاول الاستيلاء على القلعة لكن برقوق عاد في الوقت المناسب، وقاتل إينال وهزمه، وقبض عليه وسجنه بالإسكندرية. ادّعى إينال أنه صنع ما صنع للقبض على بركة، وليس برقوق هو المقصود، وعين بدلاً منه يلبغا الناصرى اليلبغاوي كأمير سلاح.

حاول بركة أيضًا الإيقاع بين برقوق، وأيتمش البجاسي (ثالث مثلث القوى) فلم يفلح وأخيرًا حدثت المواجهه المحتومة بين برقوق، وبركة حيث إنّ الأخير عبَّأ أمراءه، وألبسهم السلاح للانفراد بالسلطه فمشى القضاة بين الأميرين الكبيرين حتى وقع الصلح بينهما، ولكن كان صلحًا على دخن، وأصبح كل منهما يتربّص بالآخر للقضاء عليه والانفراد بالحكم. علم برقوق بنية بركة على اغتياله فانتهز فرصة ولادة ابن له اسمه محمد، وقام بعمل سماط (وليمه) في القلعة دعا إليها الكثير من الأمراء من بينهم بركة، ولكن الأخير لم يقبل الدعوة، وأرسل بدلاً منه ثلاثه من إخوته فقبض عليهم برقوق. جهّز برقوق رجاله بالسلاح، وأمرهم بالاستيلاء على مدرسة السلطان الناصر حسن والرمي بالسهام من أعلى مآذنها على منزل بركة القريب منها. هذه هي المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة في استغلال مدرسة الناصر حسن، ومدرسة الأشرف شعبان (المندثرة الآن) في المناوشات بين السلطان والأمراء، أو الأمراء مع بعضهم البعض؛ نظرًا لضخامتهما وارتفاع مآذنهما.

وكان بركة قد تحصّن بمنزله، وأرسل حريمه وأمواله على أماكنٍ متفرقة فاستغل برقوق شعبيته بين العامة وكرههم لـبركة فنادى عليهم بنهب منزل بركة الواقع في الرميلة أسفل القلعة، فهاجموا المنزل وأحرقوا بابه ونهبوه بالكامل. لم يسع بركه تحت وطأة الرمي بالسهام وهجوم العامه سوى الهروب مع أمرائه، وذهب إلى قبة النصر خارج القاهرة عن طريق باب زويلة وباب النصر في ربيع الأول 782/ 1380. أرسل برقوق حملة من عساكره على رأسهم أيتمش البجاسي لقتال بركة وأنصاره، وأبرزهم يلبغا الناصري فتقاتلوا لعدة أيام حتى انهزم بركة وأتباعه، وتم القبض عليه، وأُرسل إلى الإسكندرية سجينًا مع يلبغا الناصري وعدد آخر من الأمراء.

بعد فترة قصيرة أفرج برقوق عن جميع السجناء ممن فيهم إينال اليوسفي السابق القبض عليه؛ لمحاولته الاستيلاء على القلعة إلاّ بركة والذي استمر في سجنه حتى مات في رجب 782/ 1380 فأظهر برقوق الحزن عليه، وأرسل من يستقصي سبب وفاته. ثم اتهم الأمير صلاح الدين بن عرام نائب الإسكندرية بقتله بدون أمر فادّعى الأخير بأنه تلقّى الأمر بذلك، فقبض عليه وأُرسل إلى القلعة بالقاهرة، حيث عُذِّب ثم سُلم إلى مماليك بركة الجوباني فقتلوه، ومثلوا بجثته انتقامًا لقتله أستاذهم.

وبذلك خلا الجو لـبرقوق، وأصبح له الأمر وحده وفى أثناء ذلك مرض السلطان الصغير،

ثم توفي في صفر 783/ 1381 وعمره اثنا عشر عامًا بعد أن قضى حوالي خمس سنوات في السلطنة، وليس له منها سوى الاسم، ودفن إلى جوار جدته خوند بركة في جامعها بالدرب الأحمر. لم يتولّ برقوق السلطنة، لأنّه لم يشعر بالقوة الكافية للإقدام على هذا العمل، بل اختار أخا السلطان الأمير حاجي بن الملك الأشرف شعبان، فبويع بالسلطنة وتلقب بـالملك الصالح.

4 - الصالح حاجي - آخر السلالة القلاوونية:

كان الصالح حاجي طفلاً عمره حوالي تسع سنوات عند تولّيه السلطنة، واستمر برقوق على حاله أميرًا كبيرًا أتابك العسكر ومدبّر المملكة وأعوانه المخلصون مثل أيتمش البجاسي رأس نوبة الأمراء، وجركس الخليلي (منشأ خان الخليلي بالقاهرة) أمير آخور وعدد من خشداشيتة في المناصب الكبرى الأخرى. والغالب على السنوات الأخيره كانت ترقية الأجناد ممّن لم يسبق لهم رياسة أو خبرة إلى الرتب العليا في فترة وجيزة، مما أدّى إلى وثوبهم إلى المناصب الكبرى وهم غير مؤهلين لها، فتقاتلوا و لم تطل مدتهم. وقد رأينا في السابق ماحدث مع طشتمر اللفّاف، حيث أصبح أتابك العسكر بعد أن كان جنديًا بسيطًا، وبعده قرطاي الطازي وصهره أينبك البري، ثم أخيرًا برقوق، وبركة.

كان مايزال هناك بعض من الأمراء الكبار قديمي الهجرة (اصطلاح مملوكي يعنى به أقدميتهم في الخدمة، نتيجة لقدم قدومهم إلى مصر، وهجرتهم إليها من أوطانهم الأصلية، وتحولهم إلى الإسلام) ومن أبرز هؤلاء أقتمر عبد الغني وكان نائب السلطنة والأمير أيدمر الشمسي، وكان برقوق يستحي من تخطّيهم والوثوب إلى السلطنة. فترة حكم الصالح حاجي القصيرة كانت هادئة بلا أحداث تُذكر سوى محاولة جركس الخليلي في شعبان 783/ 1381 ضرب فلوس جدد باسمه تحلّ محل النقد القديم، فلم يفلح في هذا. كذلك محاولته عمل جسر يمتد من الروضة إلى الجزيرة (الزمالك الآن) على نفقته الخاصة، وبدد في هذا العمل زمنًا ومالاً كثيرًا ذهب هباءً، و لم يفلح فيه نظرًا لعمق مياه النيل في تلك المنطقة. هذا العمل - وإن فشل - يدلّ على علو همّة الأمير جركس الخليلي، وحرصه على القيام بتنفيذ المشاريع العامة مثل عمل مطحنه للقمح تُدار بقوة المياه بجوار مقياس النيل بالروضة، وهي من المحاولات الأولى في مصر (وربما العالم) لإستغلال الطاقة المتجدّدة.

ولكن الأمور لا تبقى على حالها إذ بدأ بعض الأمراء في التآمر لقتل برقوق لاعتقادهم بأقدميتهم عنه، واشترك معهم مماليك الأسياد (أبناء الأشرف شعبان) واستغلوا انشغال جركس الخليلي في بناء الجسر، فحاولوا اغتيال برقوق، ولكن المؤامرة فشلت وقبض برقوق على زعمائها وعدد كبير من مماليك الأسياد سجن بعضهم، ونفي بعضهم، وأغرق عددًا منهم وقام بترقية مماليكه. غير أنّ برقوق ظل قلقًا مُتخوفًا من المؤامرة مُحترسًا على نفسه، فأشار عليه أمراؤه المخلصين مثل أيتمش البجاسي، وجركس الخليلي بإعلان نفسه سلطانًا، ليقيم بالقلعة بدلاً من الأسطبل، ويحتجب عن الناس ويوفر الشرعية والحماية لنفسه، ولكن برقوق لم يقبل خوفًا واستحياء من الأمراء الكبار في مصر والشام.

غير أنّ أنصاره تمكّنوا من الاتصال بهؤلاء الأمراء، وضمنوا لبرقوق ولاءهم له في حال سلطنته، وساعده على ذلك وفاة كل من الأميرين الكبيرين أقتمر عبد الغني، وأيدمر الشمسي في مدة متقاربة وكانا أكبر الأمراء سنًا ومقامًا، فقبل أخيرًا اعتلاء السلطة. وفي رمضان 784/ 1382 دخل بعض كبار الأمراء على السلطان الصالح حاجي في قاعة الدهيشة، وذهبوا به إلى أهله في دور الحريم، بعد أن أخذوا منه شعار السلطنة، واستدعوا الخليفة والقضاة، وأعلنوا عزل السلطان؛ لصغر سنّه وحاجه البلاد إلى ملك راشد عاقل، وبايعوا برقوق سلطانًا، ولُقب بـالملك الظاهر. سيعود الصالح حاجي للسلطنة لفترة شهور وجيزة بعدة سنوات. ولكن من الناحية العملية انتهت السلالة القلاوونية، وبدأت مرحلة التحول، وغلبه السلاطين والأمراء من الأصل الجركسي على ما عداهم من الأجناس الأخرى.

الاختصارات

(تاريخ/تاريخ) = التاريخ بالتقويم الهجري وما يقابله بالتقويم الميلادي.

(أثر رقم، تاريخ/تاريخ) = رقم الأثر المسجل في فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة وتاريخ إنشائه بالتقويم الهجري والميلادي.

EI² = Encyclopedia of Islam New Edition.

JSAI = Jerusalem Studies on Arabic and Islam.

MSR = Mamluk Studies Review.

المراجع العربية

1 – ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، مورد اللّطافة في من ولي السلطنة والخلافة، جزآن، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد (القاهرة،1997).

2 – ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، جزء 1 – 2، تحقيق محمد محمد أمين، (القاهرة، 1984) جزء 3، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، (القاهرة، 1986) جزء 4، تحقيق محمد محمد أمين، (القاهرة، 1986) جزء 5، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، (القاهرة،1987) جزء 6 – 7، تحقيق محمد محمد أمين، (القاهرة، 1990، 1993) جزء 8، تحقيق محمد محمد أمين، (القاهرة، 1999) جزء 9 – 11، تحقيق محمد محمد أمين، (القاهرة، 2002، 2003، 2005).

3 – ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 16 جزء، جزء 1 – 12 (القاهرة، 1929 – 1956)، جزئي 13 – 14 تحقيق فهيم محمد شلتوت (القاهرة، 1970)، جزء 15 تحقيق إبراهيم علي طرخان (القاهرة،1971)، جزء 16 تحقيق جمال الدين الشيال، وفهيم محمد شلتوت (القاهرة، 1972).

4 – ابن حبيب، الحسن بن عمر، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ثلاثة أجزاء، تحقيق محمد محمد أمين، وسعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة، 1976، 1982، 1986).

5 – ابن حجر، الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني، الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 4 أجزاء (بيروت، بدون تاريخ).

6 – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مُقدّمة ابن خلدون، جزآن، تحقيق على عبد الواحد وافي (القاهرة، 1979 –1981).

7 – ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى في دار الآفاق الجديدة (بيروت، بدون تاريخ).

8 – ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حُلي مصر والقاهرة – القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حُلي المغَرِب، تحقيق حسين نصار (القاهرة، 2000).

9 – ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق علي محمد عمر (القاهرة، 1995).

10 – ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد سيد (القاهرة، 1985).

11 – ابن كثير، الحافظ بن الفداء إسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، 14 جزء تحقيق مكتب تحقيق التراث بدار إحياء التراث العربي، الفهارس تحقيق علي شيري (بيروت، 1992 – 1993).

12 – أبو الفدا، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على، المختصر في أخبار البشر، سلسلة ذخائر العرب (69)، الجزء الأول تحقيق محمد زينهم محمد عزب، ويحيى سيد حسين، ومحمد فخري الوصيف، الأجزاء (2 – 4) تحقيق محمد زينهم عزب، ويحيى سيد حسين (القاهرة، 1998 – 1999).

13 – أمين، أحمد، فجر الإسلام (القاهرة، 2009).

14 – أمين، محمد محمد، وإبراهيم، ليلى علي، المصطلحات المِعمارية في الوثائق المملوكية (648 – 923) (1250 – 1517) (القاهرة، 1990).

15 – البلوي، أبى محمد عبد الله بن محمد المديني، سيرة أحمد بن طولون، سلسلة الذخائر (55)، تحقيق محمد كرد على (القاهرة، 1999).

16 – رشيد الدين، فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ تاريخ غازان خان، تحقيق وترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد (القاهرة، 2000).

17 – السخاوي، الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللّامع لأهل القرن التاسع، 12 جزء، (القاهرة،بدون تاريخ).

18 – سيد، أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديدة (القاهرة، 1992).

19 – السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزآن وضع حواشيه خليل المنصور (بيروت،1997).

20 – الطبري، أبى جعفر محمد بن جرير، تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، 10 أجزاء، سلسلة ذخائر العرب (30)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة،1977–1992).

21 – عاشور، سعيد عبد الفتاح، الظاهر بيبرس، سلسلة تاريخ المصريين (207) (القاهرة،2001).

22 – عبد الوهاب، حسن، تاريخ المساجد الأثرية (القاهرة، 1994).

23 – العيني، بدر الدين محمود ، عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان، 4 أجزاء، تحقيق محمد محمد أمين (القاهرة، 1987 – 1988 – 1989 – 1992).

24 – فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها – المدخل وجزآن (القاهرة،1961).

25 – قاسم، قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي (القاهرة، 1994).

26 – القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد، صُبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 14جزء والفهارس (بيروت، 1989).

27 – ماضي، إبراهيم، زي أمراء المماليك في مصر والشام، سلسلة تاريخ المصريين (28) (القاهرة، 2009).

28 – مصلحة المساحة، فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة (القاهرة،1951).

29 – المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، إغاثة الأمة بكشف الغمّة، تحقيق محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين محمد الشيال (القاهرة، 2002).

30 – المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جزء 1 تحقيق جمال الدين الشيال، جزء (2 – 3) تحقيق محمد حلمي محمد أحمد (القاهرة، 1996).

31 – المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، كتاب السلوك بمعرفة دول الملوك، 4 أجزاء، جزئي 1 – 2 (6 أقسام) تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة، 1958)، جزئي 3 – 4 (6 أقسام) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة، 1972).

32 – المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد (لندن، 1995).

33 – المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخُطط والآثار (الخطط المقريزية)، جزءان (بولاق، 1854).

34 – النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، 33 جزء (القاهرة،2007).

35 – وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، الطبعة الثامنة عشر (القاهرة، 1995/1416).

36 – ياقوت، شهاب الدين بن عبد الله الحموى، معجم البُلدان، 5 أجزاء (بيروت، بدون تاريخ).

37 – يوسف، سيد محمود عمر، المواطنة من منظورٍ إسلاميّ، سلسلة اقرأ (729) (القاهرة، 2009).

المراجع الأجنبية

1 - Aigle, D., "The Mongol Invasion of Bilad al-Sham by Ghazan Khan and Ibn Taymiyah's Three "Anti-Mongol" Fatwas," *Mamluk Studies Review* 11 (2) 2007, 89-120.
2 - Al-Harithy, H., "The Complex of Sultan Hasan in Cairo: Reading Between the Lines," *Muqarnas* 13 (1996), 68-79.
3 - Amiati, R., "The Conquest of Arsuf by Baybars: Political and Military Aspects," *Mamluk Studies Review* 9 (1) 2005, 61- 84.
4 - Amiati-Preiss, R., *Mongols and Mamluks: The Mamluk-Ilkhanid War, 1260-1281* (Cambridge,1995).
5 - Ayalon, D., "Mamluk," *Encyclopedia of Islam New Edition* vol. 6 (Leiden,1991), 314-321.
6 - Ayalon, D., "Mamlukiyyat," *Jerusalem Studies on Arabic and Islam* (2) 1980, 321-350.
7 - Ayalon, D., "Wafidiyya," *Encyclopedia of Islam New Edition* vol. 11 (Leiden,2000), 26-27.
8 - Barthold W.- [Boyle, A.], "Ghazan," *Encyclopedia of Islam New Edition* vol. 2 (Leiden,1965), 1043.
9 - Bauden, F., "The Sons of al-Nasir Muhammad and the Politics of Puppets: Where Did it all Start?," *Mamluk Studies Review* 13 (1) 2009, 52-81.
10 - Beaumont, D., "Political Violence and Ideology in Mamluk Society," *Mamluk Studies Review* 8 (1) 2004, 201-226.
11 - Behrens-Abouseif, D., "Wakf," *Encyclopaedia of Islam New Edition* vol. 11 (Leiden,2002), 63-69.
12 - Behrens-Abouseif, D., *Cairo of the Mamluks A History of the Architecture and its Culture* (Cairo,2007).
13 - Broadbridge, A, "Mamluk Legitimacy and Mongols: The Reign of Baybars and Qalawun," *Mamluk Studies Review* 5 (2001), 91-118.
14 - Brunschvig, R, "Abd," *Encyclopedia of Islam New Edition* vol. 1 (Leiden,1979), 24-40.
15 - Fuess, A., "Rotting Ships and Razed Harbors: The Naval Policy of the Mamluks," *Mamluk Studies Review* 5 (2001), 45-71.
16 - Gordon, Matthew, "The Commanders of the Samarran Turkish Military. The Shaping of a 3rd/9th – Century Imperial Elite", *A Medieval Islamic City Reconsidered An Interdisciplinary approach to Samara, Oxford Studies in Islamic Art XIV*, ed. Chase F. Robinson, (Oxford,2001), 119-140.
17 - Humphreys, R. S., "Ayyubids, Mamluks, and the Latin East in the Thirteenth Century," *Mamluk Studies Review* 2 (1998), 1-18.
18 - Humphreys, R.S., "The Expressive Intent of the Mamluk Architecture of Cairo: A Preliminary Essay," *Studia Islamica* 35 (1972), 69-119.

19 - Johns, Jeremy, "Feeding the Army", *A Medieval Islamic City Reconsidered An Interdisciplinary approach to Samara, Oxford Studies in Islamic Art XIV*, ed. Chase F. Robinson, (Oxford,2001), 183-190.
20 - Kramer, J.H. -[Bosworth], "Sultan," *Encyclopedia of Islam New Edition* vol. 9 (Leiden,1997), 849-851.
21 - Levanoni, A., *A Turning Ponint in Mamaluk History The Third Reign of al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun*, (Leiden, 1995) 1310-1341.
22 - Lewis, B., "Abbasids," *Encyclopedia of Islam New Edition* vol. 1 (Leiden,1979), 15-23.
23 - Machiavelli, N., *The Prince* (New York,2004).
24 - Meyerhof, M. – [SchaCHT, j.], "Ibn al-Nafis," *Encyclopedia of Islam New Edition* vol. 3 (Leiden,1979), 897-898.
25 - O'Sulivan, S., "Coptic Conversion and the Islamization of Egypt," *Mamluk Studies Review* 10 (2) 2006, 65-80.
26 - Petry, Carl, *Protectors or Praetorians? The Last Mamluk Sultans and Egypt's Waning as Great Power* (Albany,1994).
27 - Petters, R, " Wakf," *Encyclopaedia of Islam New Edition* vol. 11 (Leiden,2002), 59-63.
28 - Poliak, A. N., *Feudalism in Egypt, Syria, Palstine, and the Lebanon* (London,1939).
29 - Popper, W,. *Egypt and Syria Under the Circassian Sultans 1382-1458 A.D. - Systematic Notes to Ibn Taghri Birdi's History of Egypt*, 2 vols., University of California Publications in Semitic Philolog vol. 15 (Berkley,1955), vol. 16 (Berkeley,1957).
30 - Rabie, Hassanein, *The Training of the Mamluk Faris*, http//the_mamluk_faris. blogspot.com
31 - Raymond, A, *Cairo City of History*, translated by Willard Wood (Cairo,2000).
32 - Runciman, S., *A History of the Crusades*, 3 volumes (Cambridge, 1951-1952-1954).
33 - Sabra, Adam, "Poverty and Charity in Medieval Islam Mamluk Egypt, 1250 – 1517, "*Cambridge Studies in Islamic civilization* (Cambridge, 2000).
34 - Spuler, B., "Ilkhans," *Encyclopedia of Islam New Edition* vol. 3 (Leiden,1979), 1120-1123.
35 - Steenbergen, J.V., "Mamluk Elite on the Eve of al-Nasir Muhammad's Death (1341): A look Behind the Scenes of Mamluk Politics," *Mamluk Studies Review* 9 (2) 2005, 173-200.
36 - Storry, R., *A History of Modern Japan* (1976).
37 - *The Cambridge History of Islam*, ed. P. M. Holt, Ann K. S. Lambton and Bernard Lewis, Volume 1A (Cambridge,1970).
38 - Tsugitaka, S, "Slave Trade and Karimi Merchants during ths Mamluk Period: A Comparative study," *Mamluk Studies Review* 10 (1) 2006, 141-156.
39 - Waterson, J., *The Knights of Islam The Wars of the Mamluks* (London,2007).
40 - Wiet, G., "Baybars I," *Encyclopedia of Islam New Edition* vol. 1 (Leiden,1979), 1124-1126.
41 - Williams, C.,"The Cult of " Alid Saints in the Fatimid Monuments of Cairo, Part I: The Mosque of al-Aqmar," *Muqarnas* 1 (1983), 37: 52; "Part II: The Mausolea," *Muqarnas* 3 (1985), 39-60.

سلاطين المماليك البحرية

1	شجرة الدر	1250/648
2	المعز عز الدين أيبك	1257/655 - 1250/648
3	المنصور نور الدين على بن أيبك	1259/657 - 1257/655
4	المظفر سيف الدين قطز	1260/658 - 1259/657
5	الظاهر ركن الدين بيبرس	1277/676 - 1260/658
6	السعيد ناصر الدين بركه خان بن بيبرس	1279/678 - 1277/676
7	العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس	1279/678 - 1279/678
8	المنصور سيف الدين قلاوون	1290/689 - 1279/678
9	الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	1293/693 - 1290/689
10	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (السلطنة الأُولى)	1294/694 - 1293/693
11	العادل زين الدين كتبغا	1296/696 - 1294/694
12	المنصور حسام الدين لاجين	1299/698 - 1296/696
13	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية)	1309/708 - 1299/698
14	المظفّر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	1310/709 - 1309/708
15	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (السلطنة الثالثة)	1341/741 - 1310/709
16	المنصور سيف الدين أبو بكر بن محمد بن قلاوون	1341/742 - 1341/741
17	الأشرف علاء الدين كجك بن محمد بن قلاوون	1342/742 - 1341/742
18	الناصر شهاب الدين أحمد بن محمد بن قلاوون	1342/743 - 1342/742
19	الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون	1345/746 - 1342/743
20	الكامل سيف الدين شعبان بن محمد بن قلاوون	1346/747 - 1345/746
21	المظفّر زين الدين حاجي بن محمد بن قلاوون	1347/748 - 1346/747
22	الناصر ناصر الدين حسن بن محمد بن قلاوون (السلطنه الأُولى)	1351/752 - 1347/748
23	الصالح صلاح الدين صالح بن محمد بن قلاوون	1354/755 - 1351/752

24	الناصر ناصر الدين حسن بن محمد بن قلاوون (السلطنه الثانيه)	1361/762 – 1354/755
25	المنصور ناصر الدين محمد بن حاجى بن محمد بن قلاوون	1363/764 – 1361/762
26	الأشرف زين الدين شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون	1377/778 – 1363/764
27	المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون	1381/783 – 1377/778
28	الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (السلطنة الأولى)	1382/784 – 1381/783
29	الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس (السلطنة الأُولى)	1389/791 – 1382/784
30	المنصور صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حُسين بن محمد بن قلاوون (السلطنة الثانية)	1390/792 – 1389/791